حسن إبراهيم أحمد

العقل الإيماني

العقل الإيماني

مصداقية الوعد بالخلاص؟



Author :Hasan Ibrahim Ahmad
Title : The fiducial Mentality
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2000

اسم المـؤلـف : حسن ابراهيم احمد
عنوان الكتـاب : العقل الإيماني
النـاشـــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : سنة ٢٠٠٠

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

حسن ابراهيم أحمد

العقل الإيماني

مصداقية الوعد بالخلاص؟



إهداء

- الى زوجتي:

أرجو أن يكون صبرك مباركاً.

- الى أولادي:

انتصروا لما يجعل الحياة أبقى وأجمل في المعركة بين الخبز والثقافة.

- الى أصدقائي:

أشكركم لثقتكم.

- الى الآخر:

أرجو أن يكون عقلك منفتحاً، وألا يكون الخلاف في الرأي سبباً للنيل من كرامات الناس، وأن يكون في هذه المادة الثقافية مايقنعك بضرورة تجاوز الواقع إن أمكن.

مقدمة

لقد فتحت الأديان السماوية على آفاق رحبة، وكانت ثورات أصيلة، عبرت عن حراك اجتماعي ماكان له أن يقر، تلبية لمتطلبات الحياة. وكانت الارهاصات تعبيراً أصيلاً عن الحاجة الى التغيير، ثم إن الولادة كانت طبيعية، واستغرقت الوقت الكافي واللازم ليخرج المولود معافى وقادراً على الاستمرار.

كان انبثاقها وصعودها مبشراً بقدراتها على أن تضم الى منظومتها كل ماهو جميل وتقدمي، وتدرجه في حركتها المتجهة صعوداً والى الأمام، والقادرة على أن تتجاوز كل المعوقات، وتبطل مفعول كل العراقيل. لكن، وما إن كتبت لها الغلبه، حتى انقلب العقل الثوري التغييري، الى عقل قارّ ومحافظ ومعادٍ لكل إمكانات التغيير ودعواته، وربطها بالماضي بدل التطلع الى المستقبل.

كيف افتقدت الأديات هذه الطاقات الخلاقة، وهذا الاندفاع، وتحولت الى عامل كبح وتراجع؟ لماذا لم تعد ناظمة إبداع وخلق؟ وهل تكفي الإعلانات النظرية بأن الدين الفلاني صالح لكل زمان ومكان؟.

نعم، إنه كذلك، صالح لكل زمان ومكان، ولكن أية صلاحية؟ وأي زمان ومكان؟ هل يصح أن نفهم الزمان والمكان بالطريقة ذاتها وبالمفهوم ذاته الذي كان لهما في غابر الأزمان وقبل دخول التعقيدات والتطورات الحديثة، عندما كانت الأديان طاقة خلق وإبداع في تلك البيئات؟ والأهم، هل بقيت الأديان محافظة ومعبرة في وجودها اليومي، عن تلك الروح التقدمية التي تواكب عملية الخلق والإبداع، وعن تلك الطاقة، بمعنى هل تم تطوير أو تطويع النص لمواكبة تغير الواقع؟ هل بقيت الأديان في حقلها: ناظمة قيم، وحارسة سلوك، أم تعدته الى غيره؟.

إننا اليوم أمام جوابين:

الأول: وهو الذي يتبناه فريق العقل الإيماني، الذي لايزال يحلم بتثبيت الواقع، بل يرى أن الواقع بكل كتلته يجب أن ينتقل الى الماضي، لا أن نستعيد من الماضي تلك الطاقة الإيجابية المشحونة بروح الخلق والإبداع، وذلك بأن نحيي قيم العقلانية والتقدم والتنوير التي تجد لها متسعاً في حيّزنا، ونتوخى منها إحداث تغيير إيجابي، لندرجها في حركة الحياة المتجددة، على ضوء كل التجارب والخبرات والمكتسبات التي حصلت عليها البشرية عبر مسيرتها، لا ضداً عليها ونفياً لها. وبالتالي سيكون على هذه الفريق أن يبرر التخلف الحاصل في ظل سيطرته عبر الأزمنة الماضية، ومالذي منع من التقدم طالما أن جميع حوافزه موجودة؟ لماذا تم التفريط باللحظة؟ وإذا كان بإمكاني أن أجيب، فإنني أجيب بأن هذا الفريق بدل أن يحيي قيم العقلانية والتقدم، قام باحياء قيم التخلف والتعصب والانغلاق وأراد تعميمها وقسر الواقع للتطابق معها، أي صادر حركة الحياة. يعني أنه ضيّع طاقة التقدم التي حلمت بها البشرية وأملتْها من الأديان، وفرط بها.

الثاني: هو ذلك الذي يتبناه فريق العقل العلمي والنقدي، والذي لايزال يجاهد لإحياء طاقة الخلق المفتقدة، هو الذي يريد أن يحمل الواقع الى المستقبل، ليتقاطع مع كل قوى الخلق والإبداع في هذا العالم الذي لم يعد يصح أن ينغلق فيه أحد على ذاته، أو يغلق أبوابه دون العالم، هذا العالم يسير الى المستقبل دون أن يضع في اعتباره مواكبة النصوص لمسيرته أو عدم مواكبتها، إلا بمقدار ماتؤمّنه من حافز ورعاية للهوية، وإن السوق حافز لتقدمه أكثر من امتلاك هذه النصوص، لا بمنطق العداء للنصوص، لأنها مرتكزات قيم، لا مشاريع وخطط عمران.

وعلى ضوء ذلك، لايريد أحد أن يفرط بالنصوص، ولا بالهوية، ولكن وعلى ضوء النقطتين المشارتين: صلاحية النصوص عبر الأيام أن تكون عامل تقدمٍ وتغيير، وهي النقطة الأولى، وضرورة مواكبة البشرية في حركتها باتجاه المستقبل، وهي النقطة الثانية، لايجوز تضييع اللحظة: لحظة التقدم وصنع المستقبل المنشود.

من هنا من هذه النقطة كان البحث في العقل الإيماني.

لقد وجدنا أن الأديان بنصوصها الأساسية لم تتغير عبر الزمن، لأن الحفاظ على

النصوص كان من أبرز المهمات التي أطلع بها الفريق الأكبر، وصاحب الجهد الأهم ذو الطاقات المميزة من العلماء وأصحاب العقول، فيما سبق من تاريخنا.

هل يعني أننا نحمل النصوص مسؤولية مانحن فيه من تأخر؟.

لا. النصوص بريئة بمعنى ما، ولاذنب لها، الذنب ذنب من تعاطوا مع هذه النصوص فلم يستطيعوا استغلال مناخاتها بالشكل الأمثل. وهنا تصح استعارة كلمات قالها الإمام علي، فقد قال عن القرآن «إنه كتاب مسطور بين دفتين، لاينطق وإنما يتكلم به الرجال»، إذن، لنحمل المسؤولية لمن يتكلم (الرجال) لا لمن لاينطق (النص)، وقال أيضاً إنه: «حمال أوجه»، فلماذا تم تثبيته على وجه دون آخر؟ وكيف؟ ومن قام بذلك؟.

إذا استطعنا أن نستمد من هذه النصوص حوافز تقدم، وعوامل تساهم في صنع مستقبل كريم، فهذا أفضل، وإذا لم نجد فيها مانحتاج، فلماذا لايتم تجاوز مالا يساهم في هذه المعركة والانتصار فيها، دون أن يكون في ذلك احتقار للنصوص أو إساءة لها، بحيث يتم إيجاد الروائز البديلة في غير حقلها، كي لانحولها الى عوامل كبح وتخلف.

لقد وجدت أن المسؤول عن ذلك عقل لم يتعاط مع الأديان بأمانه فلونها بألوان قواه، هو العقل الإيماني، الذي ماكان له أن يمرر مصالحه إلا على ضوء وهدي النصوص، وبدلاً من أن يكيّف المصلحة مع منطوق النص أو مدلوله، وجد أن الربحيّة الأكثر تتحقق بلوي عنق النصوص أو بتحويرها، أو بإدخال ماليس منها إليها، أو بتفسيرها على ضوء المصالح والظروف، أي، إن إيقاع التغيير ومنطق التعبير الذي كان يجب أن يوقع على الواقع فيأتي منسجماً مع المبادىء، ليتم الانتقال به الى الأفضل، فيكون بذلك مواكباً لاتجاه التقدم في الأديان، ونزوعها الى إيجاد مجتمعات فضلى، حسب ماهو متوخى منها، جرى إيقاع التغيير على النصوص (بمعنى تفسير النصوص حسب مقتضيات المصلحة، وإذا لزم الأمر استبدالها بنصوص الطوائف والجماعات الإيمانية المتولدة ومقولاتها، مما جعل النصوص البشرية تختلط بالنصوص الإلهية، بل يمكن أن تزيحها وتحل محلها في الأهمية والمرجعية والقدسية، أو تواكبها وتلازمها، لا لكي تساير تغير الحياة فتساهم في عملية التقدم، بل لكي تواكب وتساير تطلعات ومصالح الجهات الإيمانية، أي تفصيلها على مقاسات وأحلام ضيقة، إن تغيير النصوص كان

البديل الأسهل لتغيير الواقع.

إنه المنطق الأسهل، لأن تغيير الواقع يحتاج الى جهد وإرادة، لكن تغيير النصوص بإحداث التحولات الكبرى فيها عبر التفسير والتأويل والاحتكار وانتاج النصوص البديلة عند كل طائفة، وكل مذهب وكل نحلة، واستخدام النصوص سلاحاً ماضياً في إخراج الآخر ونقضه وعزله وتجاوزه وقتله، كل ذلك باسم الله، وعلى ضوء النصوص فيما آلت اليه من تشويه، كان هو الآلية المتبعة.

لقد تخيل المؤمن أن النص أصبح ملكه، لأن إيمانه وفهمه قاصرين، أو لأنه تخيل أن تعاطيه مع النصوص يسمح له باحتكارها، وهو يتعاطى معها على ضوء مصالحه ورغباته ويستنطقها بذلك. ولما تخيل أنه امتلك النص وتوجيهه، توهم أنه يمكن أن يتحكم بالإرادة المتعالية، فلوّنها أيضاً بألوان عقله القاصر والمشوّه، ورغباته ورؤيته للحياة، وجعلها صواعق وغضباً على أعدائه ومخالفيه في الدين أو الدنيا، يصبها اتهامات وتجريحاً وتشويه سمعة وسلب كرامة، وإذا امتلك القوة صبها قتلاً ودماراً وإخراجاً من ربقة الدين ونفياً، وهو في كل ذلك يتوهم أنه يساير صحيح الدين، دون أن يتوقف فيراجع نفسه، ماذا أخذ وماذا ترك، ماذا أبقى من الدين ونصوصه عندما أحدث فيه هذا القطع، وهذا التغييب لما فيه من قيم جميلة؟! وبالتالي لمصلحة من إحداث التوتر المجتمعي، وتعميم الحقد والضغينة مما قد يعود الى أقرب الناس إليه.

لقد أدى كل ذلك الى كثرة الاتجاهات التي تعاطت مع الدين ونصوصه بهذا الشكل، والتي لونته بألوان مصالحها ورؤاها وأهدافها، وهذا ما جعل كل فئة إيمانية تنتج نصوصها البديلة عن النص الرئيسي المقدس والمشترك بينها جميعاً، كل فئة أصبح لها تاريخها وشخصياتها على ضوء نصوصها، فأصبح الدين أدياناً، والملة مللاً. وأصبح الآخر الغريب عن الدين أو عن الشعب، آخرون منهم من كان خارج الدين ومنهم من كان داخله وكل آخر مخالف لابد من نفيه، والنفي لايخرج عن آلية التكفير وبيان الخروج عن حقائق الحياة وصحيح الدين، لشرعنة النفي، ومقدمة لقتله والحرب معه. ونعود لنسأل أنفسنا الى أين وصلنا؟ ومن المسؤول عما وصلنا إليه؟.

إن أولئك الذين أوصلونا الى هنا دخلوا عالم القداسة، مع كل أفكارهم وكل نصوصهم، فالنص المستند الى المقدس والذي يحاكيه، يكتسب القداسة منه، وتصبح

في بحر من المقدسات التي يتهم الإنسان بتلويثها كيفما اتجه، من آراء الرجال الى النصوص وحتى مخلفات هؤلاء الرجال والقيم المادية التي صنعوا منها ترسيمات للتذكر وأداء الشعائر.

إذاً، إذا كان البحث في العقل الإيماني، محاولة لمعرفته، ومحاولة معرفته أكثر وأكثر ضرورة، لسيطرته على الواقع، والتعرف على الواقع أكثر يكون لتجاوزه.

إن سيطرته على الواقع لاتكمن في تعميم وجهات النظر الطائفية والمذهبية والملّية الملونة بألوان أصحابها فقط، ومحاولة الضغط على الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية للاتساق مع وجهات النظر التي تتبناها الطوائف والاتجاهات الإيمانية، واللجوء الى التخويف والاتهام، بل تكمن أيضاً في الآليات الذهنية التي أصبحت العقول الفردية تعمل بها حتى في الأمور البعيدة عن الأديان وما تفرع عنها من مذاهب واتجاهات، لقد أصبحت هذه العقول مبرمجة، برمجة إيمانية، إن عدم قبول الآخر، وعدم التنازل عن الرأي، والتشبث بوجهة النظر، وأنا الصح وغيري الخطأ، دخل الى كل مجالات حياتنا، في بيوتنا وشوارعنا ودوائرنا، في أحزابنا ونقاباتنا، في جلسات السمر والتسلية، في كل مناحي الحياة، نعلن قداسة الرأي المؤدلج أو الفردي وعدم احتماله للخطأ، ونتشبث به، إننا نستجر كل ذلك من عمق تمترسنا بالعقل الإيماني وأساليبه التي عمل على توليدها خلال قرون عديدة، ولا تتوافر الإرادة للخروج من مفاعيل هذا العقل.

إن العقل الإيماني، هو العقل السائد في كل مناخات حياتنا ومناحيها، ما كان قريباً منها الى الدين وما كان بعيد عنه!.

هل علمتم بعد هذا لماذا شغلني التفكير بهذا العقل ومعطياته؟! هل عرفتم لماذا اتجهت الى الكتابة عنه؟!

لست بريئاً من هذا العقل لأنني عشت حياتي كلها في بيئة يتحكم بها، وتعيد انتاجه على جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، فكيف استطيع أن أكون بريئاً في تفكيري وسلوكي من هذا العقل المتحكم؟! وهل أنا إلا ابن البيئة؟!.

إنني في محاولة تفكيكي لهذا العقل سواء نجحت أم لم تنجح، لم أتوخ إلا

التعرف عليه، والتعريف به من وجهة نظر، هي خاصة من حيث الجهد الذي بذل، ولكنها ليست خاصة من حيث تلاقيها مع وجهات نظر الكثير من الناس، من يحسنون التعبير عنها ومن لايحسنون، من يجرؤون على التعبير عنها ومن لايجرؤون، من يرون في ذلك فائدة ومن لايرون، لما قرّ في أذهانهم من استحالة تغيير الواقع (فالج لاتعالج) ولتمكّن قيم الهزيمة من أعماقنا.

لقد قلت وأقول دائماً لمن أتحدث إليهم، إن كتلة الواقع المتخلف وما يفرزه من مشاكل كبيرة جداً، وإن تغييره ليس بالأمر السهل، وقد تكون الهزيمة نصيب من يحاول كما كانت نسبياً فيما مضى، لكن ماأراه مصيبة المصائب، أن نعلن الهزيمة قبل خوض المعركة، بذلك نخوض المعركة بنفسية المهزوم وعقلية المهزوم وعزيمة المهزوم فلا يكون من الهزيمة مفر، وأقول: إن المعارك تخاض دائماً، فإما أن ينتصر الانسان فيها وإما أن يهزم، وعندها يقول انتصرت أو هزمت، واحتمال النصر موجود كاحتمال الهزيمة خاصة إذا تم الإعداد جيداً للمعركة، أما أن يعلن الإنسان الهزيمة قبل خوض المعركة، فياللطامة الكبرى!!!

لقد انتصرت شعوب العالم وقواه التي تقودها رياح التقدم والخلاص، وكانت معاركها والقوى المواجهة لها أشرس وأعنف، فلماذا نسوّق الهزيمة والهزيمة فقط؟!.

على العموم لابأس على من انهزم في معركة حقيقية خاضها، بعد دراسة ودراية أن يعود الى نقد نفسه ومعرفة أخطائه ومحاولة تلافيها في معركة قادمة يجب أن يخوضها متجاوزاً الخيبة التي حصل عليها من معركته الأولى. إنها معارك التقدم ضد التخلف، معارك الشعب ضد المستغلين، معارك العقل ضد قيوده، معارك الدين ضد مزوريه ومحرفيه ومستغليه ومحتكريه.

هكذا أقرأ الحياة وهكذا أدعو أن نحياها.

لا أريد مغادرة هذه المقدمة قبل الإشارة الى أنني لم أنطلق في هذا العمل الذي أقدمه للناس من أي عقدة تتحكم بي، ولا من أي حقد، ولا من أي احتقار للآخر، ولا ضد فرد أو مذهب أو فئة مقصودة بعينها. إنني أؤمن بحق الآخر وأفسح له المجال كما استطيع، بالقدر الذي أؤمن بحقي في أن يكون لي رأيي الذي أتمسك به وأدافع عنه، وأرجو أن يفسح لي المجال للتعبير عنه، وإنني أعتذر سلفاً عن أي شعور بالعداء أو

الضدية يتولد عند من يقرأ هذا الكتاب، وإذا وجد من يحس بذلك فأقول له إنه لم يصل حيث أريد، فلا أريد الاساءة لأحد.

لم أكتب انطلاقاً من عداء أحد، ولا استهتاراً أو احتقاراً لأحد، ولا نفياً أو استبعاداً لأحد. والآخرون ومبادئهم ونصوصهم وقناعاتهم سواء التقيت معها أو لا، وافقت عليها أو لا، هي محل احترام عندي، إنني أردت النيل من الوضع القارّ الذي يضعني في موقع التخلف ويمنعني من اللحاق بركب الحضارة والتقدم، أردت أن أسلط ضوءاً، وأطلق صوتاً، فالتغيير يحتاج الى ذلك، فإذا استطعت أن أحدث أثراً وتعاطفاً مع آراء هذا الكتاب، أكون بذلك قد وصلت الى غايتي، وأعتقد أن الآراء الآخرى النقيضة تملأ الأسواق، فليكن حظنا في الحضور كحظها، وليكن للناس حق الاختيار والاختلاف دون استلاب، مع التحفظ على أن قراءة هذا الكتاب، قد تكون على أرضية معدة من قبل العقل الإيماني ومعبأة باتجاهه، وهذا مايمكن أن يجعل القراءة منحازة سلفاً. أرجو أن أكون مخطئاً.

إن الدراسة هي دراسة في الواقع، وتحليل للراهن، وليست قراءة في التراث، والحاضر فيها من التراث موظف للإيضاح ولبيان الفكرة أو لوصل الواقع بجذوره التي دشنها الماضي.

إنها قراءة في عقل العامة وسلوكهم في حراكهم اليومي ومعتقداتهم التي صنعتها الأيام مثلما صنعتها النصوص الكبرى، صنعها الدراويش كما صنعها الأنبياء، وتناقلتها الألسن قبل أن تتناولها الأقلام.

نريد أن نتجاوز الإعاقة الممتدة التي سببها العقل الإيماني، فأصبحت من مكوناته، وهي التي تترجم قناعات وسلوكاً في مواجهة عصر تتطلب أحداثه وطبيعته، الانتقال الى أساليب تنتمي اليه حقيقة في مواجهة المستجدات، فليس مقبولاً في هذا العصر أن تستمر القناعة بأن جبل المقطم انتقل من وسط القاهرة الى خارجها استجابة لدعاء مجموعة من المؤمنين في عصور غابرة، وقد شكلت استمراراً لمنطق المعجزة، وليس مقبولاً أن تستمر وتتواتر وتتناسل هذه الأساليب والقناعات في مواجهة الأحداث الطاحنة، فلا أحمد عرابي قائد الثورة المشهورة ووزير الدفاع في حكومة محمود سامي البارودي استطاع أن يوقف الهجوم الانكليزي على مصر عام ١٨٨٢ بقضائه فترة

قصف الانكليز للاسكندرية بالصلاة والدعاء على الإنكليز بالاندحار والهزيمة، بدلاً من قيادة المواجهة والإشراف عليها، ولا حسن الترابي هزم الأمريكان بطلبه الى الشعب السوداني تخصيص أسبوع للدعاء المستجاب على الأمريكان لأنهم قصفوا السودان في أواخر القرن العشرين، وإن الاسكندرية والسودان وغيرهما من نواحي هذا الوطن، سيتكرر قصفها إذا بقي هذا العقل يكرر تناسله دون توقف

نيسان ٢٠٠٠

حسن ابراهيم أحمد

تمهيد

(١)

في التأسيس للبحث في الإيمان لابد من التعريج على اللغة.

– في القاموس المحيط، وتحت مادة: الأَمْنُ:

وآمن به إيماناً: صدّقه.

والإيمان: الثقة، وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة.

– وفي المعجم الوسيط، وتحت مادة: أَمِنَ:

الإيمان: التصديق. و – شرعاً التصديق بالقلب، والإقرار باللسان.

هذا يظهر أن معنى الإيمان في لغتنا العربية يحيل الى مستويين بينتهما المعاجم:

المستوى الأول: هو المستوى القلبي، اليقيني، الباطني العميق. ويظهر في «صدقه»، «الثقة»، «وثق به وصدقه»، و«التصديق» وهذه مفردات توحي بتشكيل قناعة داخلية، في عمق وجدان الإنسان وفكره، تقطع مع السطحية، كما تقطع مع المخادعة. إنه إشراق في داخل النفس ويقين.

المستوى الثاني: هو المستوى الظاهري التلفظي، مستوى الإعلان والإشهار، المستوى السطحي الذي يحتمل المخادعة والتلون، ولايشير الى أصالة الاعتقاد، وتشير الى هذا المعنى عبارات: «إظهار الخضوع»، «قبول الشريعة»، «الإقرار باللسان»، إنه إظهار قد لاينطوي على معنى حقيقي يعمر نفس صاحبه.

وسيرد الإيمان مقروناً بالعقل في بحثنا بالمعنيين كليهما، وما يشكلانه من طيف، ويحدد المعنى في كل مرة سياق الحديث. إلا أن البحث ينطلق في الأساس من المعنى القلبي اليقيني، وأبرز تحولاته وتغيراته عبر الممارسة العملية والنشاط الإنساني.

ولمزيد من التأسيس نحاول فهم الإيمان في بعض حقوله:

فمن الحقل المسيحي نورد آراء وتعريفات يقدمها «ندره البازجي»[1] يقول:

١ - الإيمان هو تلقائية الروح، أي انجذاب الروح وتوقها الى حقيقتها، أي فعل الروح في ذاتها، أي عودة الروح الى حالتها الأولى.

٢ - الإيمان هو إشراق داخلي.

٣ - الإيمان هو حالة فوق عقلية.

هذه التعريفات الثلاثة، تؤكد جميعها المعنى الباطني العميق أو المستوى القلبي واليقيني للإيمان باعتباره فعل من أفعال الروح.

والتعريفات التي يقدمها اليازجي تجد بعدها وتأسيسها في فهمه للدين الذي يقول عنه: «الدين هو تجربة روحية عميقة داخلية في الإنسان. ونستطيع أن نقول هو حضور دائم للروح الآلهية في الإنسان. فهو إذن تحقيق لهذا الحضور. والتحقيق هو تجربة روحية»[2]. ثم يسأل: «ماهي الأديان؟» ويجيب: «هي كل تجربة روحية يتحقق فيها الحضور الإلهي في الإنسان»[3].

هكذا نجد أن فهمه للدين يؤسس لتعريفات الإيمان التي يقدمها. ولكنه لايغفل عن أن هناك شكلاً آخر للإيمان يميّزه أنه ينطلق من «أن ظاهر الأديان حكم وأخلاق، وباطنها أسرار عميقة. وهكذا يقسم الإيمان الى قسمين: إيمان ظاهري وإيمان باطني»[4].

والظاهري هنا يبرز المعنى أو المستوى السلوكي الذي قد يبقى أميناً على الأصل وقد ينحرف عنه.

ولتأسيس هذا الفهم للإيمان في الحقل الإسلامي، نشير الى مابينه الإسلام من معاني هذه الكلمة حسب منطوق القرآن: «قالت الآعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الأيمان قلوبكم»[5]. وواضح تفريق الآية بين الإيمان والإسلام. فلفظ الإيمان يحيل الى المعنى القلبي العميق الذي أشارت إليه المعاني اللغوية.

ويقول تعالى: «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ....»[6]. وواضح هنا أيضاً التفريق بين الإسلام والإيمان، كما ورد في الآية السابقة.

ويقول تعالى: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم»[7] ويقول: «... فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون»[8].

والآيات السابقة تؤكد أن الإيمان معنى قلبي، وعلى أساس عمقه وصدقه وسلامته من الزيغ وبعده عن الرجس، يكون القبول الإلهي، والرضى الإلهي، فما لم يكن الإيمان متأصلاً في أعماق النفس والوجدان فلن يكون إيماناً سليماً، وبمقدار مايكون عمقه يكون تحقيقه للإرادة الإلهية. كما تشير إلى أن الإيمان درجات أو مستويات، وهذا أيضاً يؤسس لما سيرد في هذه الدراسة.

ولا ننسى أن أركان الإيمان كما تعلمناها هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. أي أن الإيمان الإسلامي هو التصديق والتيقن من هذه الآيات باعتبارها أول مقومات الإيمان السليم. وهي معان واعتقادات قلبية.

أما أركان الإسلام فهي: الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج. وهي ممارسات ليس بالضرورة أنها تنطلق عن عمق اليقين والتصديق، بل هي أفعال ظاهرية قد تكون منقطعة عن بعدها الإيماني القلبي، فتحمي صاحبها من العتب والاتهام ولكنها لاتوصله إيمانياً. ونلاحظ هنا الانسجام مع المعنى اللغوي.

وهنا يمكن الإشارة الى ما آل إليه الإسلام، كنهج إيماني. يقول الدكتور محمد شحرور[٩] وهو يخلص: «الى تلخيص مافعلته الأدبيات الإسلامية بالثقافة العربية الإسلامية وبالفكر الإسلامي اليوم: حين ربطت مفهوم الدين والتدين بشعائر الإيمان باعتبارها من أركان الإسلام بعيداً عن المعيار الإخلاقي ... فأصبح الحكم على دين الإنسان يتم بدلالة صلاته وصيامه ... فأخذ الوجه الشعائري من الدين الأولوية المطلقة على الوجه الأخلاقي، حتى انعكس ذلك في التربية المنزلية ... فأصبح إفطار يوم من رمضان، أكبر كثيراً من الكذب». وما فعلته الأدبيات الإسلامية فعلته الحياة اليومية، أي الناس في ممارساتهم الإيمانية قبل ذلك، فجاءت الثقافة محصلة لفعل الناس.

وإذا كنا نريد تسليط الأضواء وطرح الأسئلة على ما آل إليه الإيمان، والتحولات والتماهيات التي حصلت له فإن ذلك لن يتم بدون هدي العقل الذي هو نظام معرفي تقرأ الأحداث والأفكار على ضوئه، هذا العقل يظهر من خلال الثقافة فهي الإطار لمعرفة عقل ما: «فالتفكير بواسطة ثقافة ما، معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحداثياتها الأساسيةمن محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي مقدمتها الموروث الثقافي، والمحيط الاجتماعي والنظرة الى المستقبل، بل والنظرة الى العالم،

الى الكون كما تحددها مكونات تلك الثقافة»[١٠].

وانطلاقاً من هذا الفهم يمكن القول إن حديثنا عن العقل الإيماني يأتي في إطار الثقافة الشعبية كما آل اليها تدين الجماهير، فهذا العقل تشكل عبر القرون في إطار الثقافة الشفهية أو التي وجدت طريقها الى التدوين، وفي إطار الحياة اليومية والممارسات التي يقوم بها المؤمنون، والتي تحولت الى طقوسية راسخة في العمق الاجتماعي، وهذه الطقوسية تشكلت على الأغلب من خلال التحويرات والتغييرات التي أحدثها المؤمنون في إطار ثقافتهم الدينية على النصوص والطقوس والأسس التي تم اعتبارها ركائز أساسية للإيمان الأرثوذكسي، هذه التحويرات خاضعة لكل المؤثرات المجتمعية من عادات وعلاقات ومصالح، ولذا فإن هذه التحويرات اعتبرت مواضعات اجتماعية يعتبر خرقها أو التخلي عنها جريمة تفوق جريمة خرق القانون، لأن الناس وجدوها بإرادتهم في حين أن القانون فرض عليهم من قبل سلطة أعلى وهو عدو شرس لنزوات الإنسان، هذه التحويرات سلوكية إجرائية تندرج في الحراك الاجتماعي، والصيرورة الاجتماعية، وتستند الى التناقل الشفهي وشبه الشفهي للقناعات، والمواضعة الاجتماعية، في إطار السلوك والحياة اليومية. فزيارات قبور الأولياء والصالحين لاتستند الى نصوص دينية أساسية مع أنها أصبحت جزءاً من مكونات الثقافة الشعبية، والمعتقدية الإيمانية، والحراك الاجتماعي المرتبط بالإيمان والقناعات الدينية الشعبية الراسخة، خاصة في أريافنا، ولدى جميع الطوائف والأديان. كما أن الاحتفالية التي آلت إليها ممارسة بعض العبادات في الإسلام كما في غيره تقدم صورة لعادات وثقافة شعبية تلتقي مع الدين أحياناً وتقطع معه أحياناً أخرى، ومثال ذلك ما آل إليه صيام رمضان والعادات التي تكونت حول هذا الصيام في كل بيئة على حده، وهذا كله تكون شعبياً عبر الأيام وتحول الى ثقافة وعادات قارّة سواء كان لها أصلها الديني أو لم يكن.

إن تحول العادات والموروث الشعبي أياً كان أصله، الى معتقدات شعبية، قد تم من خلال مزجها وتطعيمها بقيم دينية، وربطها بنصوص مقدسة مما أحالها الى معتقدات إيمانية، مرتبطة بالمقدس والمتعالي، وأصبح الخروج عليها يقتضي التجريم أكثر من الخروج على النصوص المقدسة لأنها مرتبطة بما تواضع عليه المجتمع ورسخ في

بنيته الفكرية الثقافية والاجتماعية.

إن العقل الإيماني الذي نصفه هو (العقل المكوَّن) والذي اكتسب من الرسوخ والقوة ماحوله الى (عقل مكوِّن)[١١].

وتتبدّى صعوبة دراسة العقل الإيماني، في اختلاف المعطيات الثقافية التي يستند اليها في دراسته. هذه المعطيات متنوعة ومختلفة بتنوع المناطق الثقافية والشعوب، وما ولدته وما تراكم لديها عبر الأيام والأزمنة من عناصر ومكونات يتداخل فيها العقلاني بالخرافي، وما ينتمي الى الطبيعة بما ينتمي الى ماوراء الطبيعة، والتاريخي باللا تاريخي.

(٢)

لانستطيع الحديث عن علم أو فكر منفصل ومعزول عن غيره في هذا العصر، فالعلوم و الأفكار تتقاطع وتتلاقى، ويساند بعضها بعضها الآخر، ولابد للبحث الرصين من اعترافه بالاتكاء على ماأنجزته الثقافة عبر تاريخها، فهي فعل تراكمي، وهو في عصرنا متشعب الأبعاد كثير المسارب والمشارب، وتظهر ضرورة التعرف على أطراف الموضوع وتشعباته ومدى تماسه مع غيره، بالإطلاع على ماأنجزته بعض العلوم الإنسانية، ربما أكثر مما أنجزته العلوم الكونية والطبيعية التطبيقية.

انطلاقاً من هذا الفهم نجد أنه لابد من الاتكاء على الدراسات الاجتماعية، وفهم الحراك الاجتماعي، باعتبار أن أية عقائد إيمانية لابد لها لكي تتكون مجتمعياً، من إطار اجتماعي أو بوتقه اجتماعية تتكون داخلها، وتنمو كما الكائن الحي. ولا شك أن ما ينمو في مجتمع من المجتمعات قد لايكون عليه النمو في مجتمع آخر، فالمجتمعات تتمايز بدرجة تطورها الحضاري، ولا شك أن درجة تقدم مجتمع من المجتمعات قد تساهم في تنقية قيمة من الخراقة والسحر، كما أن قبول الحلول الخرافية والسحرية، أو الحلول التي لايمكن تأصيلها علمياً قد تكون مستبعدة في مجتمع ما ومقبولة في مجتمع آخر، وهذا كما قلنا مرتبط بمدى تقدم أو تخلف المجتمع، كما هو مرتبط بالعلاقات الاجتماعية والأسس التي تقوم عليها، فالمجتمعات ذات العلاقات القرابية، أو المجتمعات القبلية وما يشبهها من طائفية ومذهبية تكون عرضة للتأثر الإيماني أكثر

من غيرها، لما يسود في هذه المجتمعات من مسلمات ويقينيات يتقدم فيها العقل القرابي الانتمائي على العقل العلمي.

وكما أن للدراسات الاجتماعية دوراً جليلاً في دراسة ومعرفة العقائد التي تسود مجتمعاً معيناً باعتبار أن المجتمع هو المادة الأولى، فلا شك أن لعلم العقائد ونشوئها وتطورها دوراً لايقل عن دراسة أحوال المجتمع، فالعقائد التي يمكن أن تنتشر هنا غير العقائد التي يمكن أن تنتشر هناك. ولكل عقيدة مكوناتها ومضمونها وآليات انتشارها وسماتها الي تعتمدها في الانتشار والتي تجد البيئة الاجتماعية مهيأة لها، كما أن درجة تعقد العقائد وبساطتها تعتمد الى حد كبير على تعقد وتشعب وتطور العلاقات الاجتماعية. من هنا كان الأثر الكبير لعلم الاجتماع الديني والانثروبولوجيا في التعرف على نشوء وتطور العقائد.

ولايخفى ما للمعرفة التاريخية من أثر كبير في دراسة تطور العقل الإيماني وانبثاقه في التاريخ، فعلم التاريخ طور آليات التدقيق والتمحيص للنصوص ونقدها، بل قراءة ماوراء النصوص من مؤثرات، واعتماد الدراسات التاريخية المقارنة، وعلم العقائد المقارن. والتاريخية من جهة أخرى تعني الانتماء الى التاريخ والإنسان، والى العقل والمنطق لا الى الغيب وقواه، والسحر والخرافة، وتاريخية أي بحث أو عقيدة تعني تأصيله إنسانياً وربطه بمجتمعه في إطار حركة التطور الاجتماعي عبر الأزمنة. إن ظهور كافة الأفكار ماكان منها عقلانياً، وما كان منها خرافياً في التاريخ، يعطي علم التاريخ دوراً كبيراً وفاعلاً في التعرف على مادته.

ومع بعد موضوعنا (العقل الإيماني) عن العلوم الكونية والتطبيقية إلا أن محاولات تأصيل العلوم دينياً، ومحاولات تأصيل الدين علمياً، والتي نشأت بفعل حمى انتشار العلوم في العصر الحديث، جعلت من العلوم الطبيعية مجالاً يجوسه العقل الإيماني، كما جعلت التأثير القدسي للنصوص يبحث عن مرتكز له في العلوم التجريبية التي أثبتت جدارتها، ومن مبدأ لايعرف نفسه من لايعرف إلا نفسه، ولايعرف الحق من لايعرف إلا الحق، يظهر التعسف أحياناً في مقاربة العلوم الحديثة للنصوص الإيمانية المقدسة، ومن أمثلة ذلك (وهي مقاربة إيمانية للعلوم) دراسة حاولت أن تصنع جسراً بين العلوم الكونية والدين الإسلامي بعنوان «العلوم الطبيعية في القرآن» تأليف «يوسف

مروه» يستعرض بعض ماجاء فيها د. صادق جلال العظم[١٢]، يشير المؤلف الى أن في القرآن /٦١/ آية في علم الرياضيات، و /٦٤/ آية في علم الفيزياء، و /٥/ آيات في علم الذره، و /٦٢/ آية في النظرية النسبية، و /٢٠/ آية في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) ... الخ.

وقبل التوقف عن إبراز علاقة العقل الإيماني ودراسته بالعلوم المتنوعة وضرورة إفادة الدارس مما تقدمه القراءات في مجال هذه العلوم، أجد من الضروري الإشارة الى علم يحبو ويتكون ببطء من شأنه أن يكون ذا تأثير كبير في تفسير الكثير من الزوايا الغامضة وغير المؤصلة علمياً والتي كانت فيما مضى حكراً على العقل الإيماني، وكان الكثير من مؤدلجيه يعتمدون عليها في تمريرالكثير من الغيبيات الداخلة باب المعجزات. فقد استطاعت حزمة من العلوم والأبحاث تندرج تحت اسم «الباراسيكولوجيا» أن تحقق اختراقات تشبه ماينسب الى المعجزات والكرامات، في الوقت الذي لايمكن نسبتها الى ذلك، ليعد من يقومون بها عن حقل الإيمان والمقدس، بالتالي عن حقل الكرامات. من هذه العلوم التخاطر، والاستبصار، والسيكوكينيزيا وغيرها. والسيكوكينيزيا هي المقدرة التي يمتلكها الفكر على تحريك المادة بدون مساعدة قوى خارجية منظورة، فـ «نليا ميخائيلوفا حين تحتاج الى غرض ما، يكفيها أن تثبّت نظرها عليه، فيبدأ بالانزلاق باتجاهها[١٣]، وهي امرأة روسية بدينة وربة منزل كانت تحرك عيدان الثقاب وكؤوس الخمر دون أن تمسها، كما كانت تحرك أنابيب الألمنيوم والتفاح وأباريق الماء[١٤]. وقد استخدم التخاطر على الغواصات عند الأميركان والسوفييت لمعرفة كل منها أسرار الآخر[١٥]، كما استخدم التخاطر لالتقاط الأحاسيس والأفكار الخفية للناس الذين نلتقيهم[١٦]، وهناك تجربة أشرف عليها ثلاثة من علماء الفيزياء، لشخص استطاع أن يتعرف على الأغراض التي يمسك بها شخص آخر أو يتطلع اليها والمسافة بينهما ثلاثة آلاف كيلومتر، وكانت التجارب في أوقات متباعدة وفي غرف معزولة، كما أن الباراسيكولوجي (ميسنغ) استطاع الدخول على الزعيم السوفيتي (ستالين) عبر عملية اختبارٍ وتحدٍ، متجاوزاً أطواق الحراسة الخرافية والأبواب الموصدة والإجراءات الشديدة للوصول الى ستالين، وكان الزعيم ذاته قد طلب اليه أن يفعل ذلك إذا استطاع ليعرف مدى قدراته التخاطرية، حيث يبدو أنه لم يكن يصدق

ماينسب الى ميسنغ من أفعال[١٧].

هذه الأمثلة البسيطة والقليلة، لانستطيع أن نقول أنها جرت هي والكثير غيرها مما هو أشد تعقيداً، في إطار كرامات الأولياء، إنما هي في إطارتجارب علمية، على طريق وضع قواعد لعلم جديد قديم، وهذا يحدونا للقول إن مالم يوضع له أسس وقوانين علمية سابقاً من ظواهر الكون ليس غريباً أن يتم وضع القواعد والقوانين العلمية له فيما سيأتي من الزمن، فالعلم واعد ومبشر بآفاق وفتوحات جديدة، وهذا لايعني تكذيب أو نفي الكرامات عن سابق إصرار وتخطيط، إنما يعني أنها قد تجد نفسها في إطار علم له قواعده وقوانينه، وعندها لن تكون سلاحاً للدعاية ومواجهة الآخرين والتخويف والإخضاع، بل إنجازات علمية لم تكن مصنفة سابقاً. كما تعني أن هذه الأعمال والخوارق ليست حكراً على فئة أو عقيدة أو اتجاه، إنما هي قدرات مبثوثة في أشخاص موجودين في كافة المجتمعات وإن هذه القدرات تنمو بالتدريب والتوجيه.

(٣)

العقل الإيماني هو قراءة تلوينية مفرضة، للنصوص كما للواقع

من ناحية النصوص، فإن هذا العقل يخضعها لمعطياته واتجاهاته، وعملية الإخضاع هذه لاتخلو من قسر وتعسف أحياناً، لأن سلاحه الأساسي هو التأويل، والتأويل في أحد وجوهه هو إخضاع النص لآليات محددة تجعله ينطق بما تريد الجهة التي تقوم بالتأويل، فتفهم ماتريد وتنتقي مايناسبها، هكذا فعل الخوارج مثلاً، حيث اختاروا من النصوص مايؤيد شعارهم الشهير «لا حكم إلا لله»، ولاتزال آلية الانتقاء التي تنتمي الى القراءة المغرضة المنحرفة التلوينية هي السمة التي تغلب على من يريد أن يؤيد وجهة نظر خاصة بنصوص دينية أساسية، فالحركات المتطرفة الإيمانية التي تفهم الدين حسب مزاجها، تُعتبر قراءتها قراءة مغرضة فهي تتناسى الآيات والأحاديث التي تحض على التسامح والمحبة والتآخي مثل «إن الدين يسر» و «لاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام أنت كافر» و «إن الذين آمنو والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون» و «ماراه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» ... الخ ويقدمون في حجاجهم وتبريرهم نصوصاً

جاءت في ظروف مختلفة، ولغايات مختلفة عن الغايات التي يستعملونها لها مثل: «وأعدوا لهم مااستطعتم ...» و «إن الدين عند الله الإسلام ..» و «قاتلوا في سبيل الله ...» و «من ابتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» ... الخ.

بالإضافة الى الانتقائية في النصوص مما يؤدي الى عدم التكامل في النظرة بحيث يتم النظر من زاوية خطط لها وأرادها المتطرفون بالتالي عزلت النصوص عن سياقها ومناسباتها، فنصوص أي دين تشكل بمجملها منظومته الفكرية والعقيدية، وانتزاع بعضها من هذا المجموع يحدث خللاً، بالتالي فإن العقل الإيماني، عندما يقوم بالانتزاع فهو يفعل ذلك لإعطاء الأجزاء المنتزعة من النصوص معاني غير المعاني التي تحملها النصوص الحقيقية، وليجعلها مبرراً لما يريد القيام به، أي لشرعنة خطواته على مبدأ «لاتقربوا الصلاة ...».

وقد استمرت القراءة التلوينية المغرضة لنصوص الدين حتى يومنا هذا، وانتقلت من النصوص الدينية التدشينية، الى نصوص اسلامية انسانية تراثية هي بدورها كانت قراءة مغرضة. فقد كان في نتاج ابن تيمية الكثير مما يصنف في إطار القراءات التلوينية، ولقد كانت خير سند للفتاوى الإيمانية التي بدأ يطلقها المتطرفون في خروجهم على الشرعيات ومنطق التعايش في بلادهم، لقد وجدوا مبتغاهم في هذه القراءات المنحرفة، بمعايير الإسلام، وبمعايير العصر، وبمعايير العقل والتعايش. وهنا نتساءل السؤال الذي ظل يشغل بالنا منذ بدأنا نتعرف الى التراث: لماذا استطاعت قوى التطرف والشر والتعصب واللا عقلانية أن تنبش من تراثنا أقتم مافيه من دروس وأكثرها عداء لإنسانية الإنسان، وأن تعيد لها الحياة وتجعلها مقياساً لكل ماتطرحه عليها الحياة من قضايا أو لكل مايستجد، في وقت تحرر العقل من كثير من قيوده، وفي الوقت ذاته لم تستطع قوى العقلانية والتنوير أن تنعش الجانب المشرق والجميل من هذا التراث، مع ما أدعته من صولة وجولة، ومع كل ما أمكنها أن تستند اليه من عقلانيات أفسحت لنفسها مجالاً واسعاً في الواقع والفكر المعاصرين؟.

إن القراءة المتعسفة والمغرضة هي المسؤولة عن توليد واستمرار العقل الإيماني الذي يسعى للاتكاء على النصوص الدينية بما يسعفه على العمل والاستمرار، وبما يسعفه على احتلال الكثير من الساحات التي لايزال يرتع فيها حتى أنه ورّث مناهجه الى

الحقل السياسي.

هنا نشير الى أن فهم العقل الإيماني يتم بمقدار مانستطيع فهم مستويات التعاطي مع الدين باعتباره منظومة متكاملة من القيم، تعبر عنها نصوص أساسية ونصوص متفرعة، تختزن المضامين الأساسية لهذه القيم، وغالباً ماتكون هذه المستويات مرتبطة بالواقع الاجتماعي والثقافي لفرد أو جماعة، ويبقى المستوى الفاعل في الحياة والصانع لأحداثها والقابع وراء حركة الناس هو المستوى الذي يقطع مع السوية الفكرية والعلمية الرفيعة، ويتعاطى مع الجمهور الشعبي البسيط، الذي يعتبر المناخ والوسط الملائم لنمو الحركات الإيمانية.

تستند دراسة العقل الإيماني ومعرفة مدى شططه وتغرّبه عن العقل الديني الى المقارنة بينهما، فالعقل الديني أصل، وهو في كل دين من الأديان يتمثل بمنظومة القيم التي عبر عنها منطوقه الأول وتعاليمه الأولى (القراءة المستقيمة) والتي على أساس أخذها في الاعتبار أطلقنا تسميات الدين اليهودي والدين المسيحي والدين الإسلامي، وهي تعني في كل دين ماتضمنه كتابه السماوي المنزل، وما نقل عن الأنبياء من أحاديث وسلوكيات، كما تعني الشروحات الأولية والتفسيرات الأساسية، والنتاج الفكري لمفكري وفلاسفة وعلماء كل دين من الأديان وفروعها الأساسية، ومذاهبها المتشعبة، ثم ماتابعه كبار مثقفيها على امتداد تاريخها مما صنف ضمن الخطوط الصراطية (الأرثوذكسية) للأديان والمذاهب والذي كانت مهمته الشرح والإيضاح دون الخروج على الأسس الموضوعية والمقررة والمترادفة على صحيح التنزيل وتفسيراته الأساسية.

وإذا وضعنا في اعتبارنا المفهوم السابق الذي رسمنا إطاره للعقل الديني كما بدت ملامحه من خلال ماأنتج من خطاب سواء كان الخطاب إلهياً أم بشرياً، فإننا يمكن أن نحدد الإطار الذي يأتي فيه العقل الإيماني، والخطاب الذي يتضمنه. فالعقل الإيماني (القراءة المغرضة)، بشري حصراً شفهي في أغلبه، وشعبي، تحصّل من مزج الناس لمفاهيمهم وعاداتهم الاجتماعية في بيئاتهم الشعبية، مما اكتسب الاحترام عبر الزمن، وأصبح قاراً، مع ماتعلموه من تعاليم دينهم، أو مذاهبهم، إذاً هو يشكل انحرافاً عن الأديان بمعنى أو بآخر، انحرافاً نحو التساهل، باتجاه إدخال ماليس مقدساً (بشري)

ضمن إطار القداسة، وذلك مما تعارف المجتمع على احترامه وتقديره، ومما توهم الناس أنه يمت الى ماهو مقدس.

وكما يشتمل العقل الإيماني على ماأدى التساهل الى قبوله داخل منظومته، وفي هذا من التسامح ماجعل السحر والخرافة تتسلل لتصبح جزءاً من هذه المنظومة، فإن اتجاهاً آخر يميل نحو التشدد، ويضيق على الناس وعلى التعاليم، ويتعامل مع النصوص بحرفية مطلقة، أو بفهم خاص ومنحرف، ويقطع مع التساهل، ويفسر النصوص حسب مصلحته، ويقسو مع الناس، ويتعسف في الزامهم بما لايلزم لصحيح الإيمان السمح، هذا الاتجاه أيضاً هو اتجاه التزمت به جماعات خرجت به عن الخطوط الأرثوذكسية للأديان.

كلا الاتجاهين أخرج الدين عن نهجه وسماحته وتوجهه الى الناس، أو عن خطه الصحيح، كلاهما منحرف ومغلق وإن لم يكن بالدرجة ذاتها، كلاهما شكل من أشكال الإيمان المشتط، أولهما بإدخال ماليس من ساحة الأديان الى هذه الساحة، وافساحه المجال له، والثاني بتضييق هذه الساحة حتى تم اخراج ماينتمي إليها منها.

العقل الإيماني يتشكل من القناعات والتصرفات والعادات الحافة بالمقدس والتي لها علاقة بالنصوص الدينية، سواء الأساسية النقية (الإلهية) أو تلك الشروح والمفاهيم (البشرية) التي نشأت حول النصوص الأساسية، وأفادت من قدسيتها وغلبت على ساحة التدين أحياناً، مع أشكال تطبيقها (طقوسها). ابتداء من ممارسة الطقوس الأساسية وما لحقها من اضافات، وانتهاء بطلب الصدقة من قبل المتسول الذي يستعين بما يداخل الناس من مشاعر الإيمان، للحصول على نقودهم، مستخدماً شتى الحيل وأساليب النفاق، باعتباره يتمترس في عمله هذا، ويستعين بالنصوص والأدعية، ويحيل المنهوبين الى رضوان الله، والى الحسنات المكتسبة التي سيجزى بها في الآخرة.

إذاً يحتمل العقل الإيماني في طيفة الواسع أجلّ الأعمال وأرقاها وأكثرها إنسانية، كما يحتمل أيضاً أخسها وأحطها، وكلا الطريقين أو النهجين يستخدم الإيمان والمشاعر الإنسانية الإيمانية سلاحاً للوصول الى غرضه، جليلاً كان هذا الغرض أو خسيساً.

(٤)

جاءت الأديان كضرورات تاريخية اقتضاها تطور البشرية، وقد كانت تمثل ثورات كبرى بكل معنى الكلمة، وهي ثورات بلغت من العمق والاتساع ماجعل الحياة بدونها تبدو أكثر صعوبة، وهي ضرورات تاريخية بمعنى أن تطور البشرية وصل الى نقاط تأزم مصيري، فكانت الاستجابة لهذا التأزم بتقديم الحلول النظرية والعملية التي لم تكن قادرة على أن تبلغ تأثيرها الكافي بدون لبوس الدين بما يقدمه من عمق في التماهي مع الحياة الاجتماعية. وهذا لايتنافى مع كون الأديان كما جاء في أدبياتها هبة السماء والرعاية الإلهية، طالما أن الهدف منها تنظيم حياة الناس وضبط علاقاتهم ببعضهم، وعلاقاتهم بالطبيعة، وبما وراء الطبيعة. إذن الأديان جاءت من أجل الإنسان، والتركيز على ضرورة التوجه الى الآلهة وتقديم فروض الطاعة لها، كان يبغي التربية باتجاه أن تحيا البشرية حياة يسودها السلام، وإننا نسيء فهم الأديان إذا اعتبرناها في خدمة الآلهة، فالله في المحصلة غني عن العالمين، حسب منطوق الوحي وليس بحاجة لخدماتهم، وإذا كان للأديان غاية عباديه، فهي غاية تربوية، تتجلى في ربط الإنسان بالقيم الإيجابية وتنفيره من القيم السلبية.

هذه الأديان بنصوصها وأفكارها وقيمها تنتمي الى المتعالي الإلهي لا الى الأرضي البشري، حتى مع اعتبار ما أضيف اليها من نتاج البشر، مما يوضح ويحدد خصوصية فهمها.

ولكي تكون هذه النصوص موضع احترام ولكي تأخذ أبعادها في التأثير في حياة الناس وتغييرها باتجاه الأفضل، طلب الى الناس الالتزام بمبادئها وتطبيقها، فلا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا اعتقد بصحة وإطلاقية نصه الموحى، كذلك لايكون مؤمناً إلا إذا عمل على تطبيقه، وتطبيقه يأخذ منحيين، الأول: عقيدي يقضي باقتناع المؤمن بصحة الأفكار والقيم المتضمنة في دينه، سلفاً وبشكل لايقبل المراجعة، وهذا ينطوي على شيء من التسليم، ويفترض أن يكون هذا التسليم ناشئاً عن قناعة، ولايجوز أن يسقط أي جزء من هذا المعتقد. والمنحى الثاني: عملي تطبيقي وهذا بدوره يتم عبر مسارين. فهو من جهة يقتضي ممارسة طقوس خاصة تؤكد التزام المؤمن بمبادئه وتزيد من ربطه بمعتقده باستمرار، ومن جهة أخرى يفترض أن يُخضِع المؤمن حياته وسلوكياته الى

الأوامر والنواهي التي جاء بها هذا الدين، فتكون هذه الحياة ترجمة عملية للنصوص وللعقيدة، وهذا ماتسميه بالناحية الأخلاقية، وربما كانت هي الغاية الأساسية من كل المنظومة القيمية لدين ما، ولاشك أنها تستحق أن ينظر إليها بإيجابية لأنها التطبيق العملي للغاية من الأديان وهي إيجاد مجتمعات بشرية تعيش الحياة في أرقى أشكالها، وهذه غاية الإنسان العاقل، وهذا مطلبه من السماء، فالضلال يتم عبر فقدان البشرية للروائز الأخلاقية التي تجعل من الحياة شيئاً جميلاً.

إن المحاضرة في الأديان وأهميتها بتجاوز إطار البحث، ولكن أريد أن أؤسس للفكرة التالية. فالحياة مليئة بالمنازع والتيارات والأهواء بالإضافة الى الاختلافات المناخية وظروف الحياة الاقتصادية، وكلها تقضي باختلاف المفاهيم وتغييرها، وهذا أمر طبيعي، وسنة الكون والحياة، ولم تنكرها الأديان، إذ أن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولكن إرادته المتعالية اقتضت أن يكون الاختلاف في الحياة حاصل، وإن أي سعي لتغيير هذه الإرادة الإلهية يدخل فيما هو كفر وضلال، لأن هذا التنوع يغني الحياة، شرط ألا يسير في طريق التعارض الذي يولد نفي الحياة. من هنا نرى أن العداءات المعتقدية وما ولدته من صراعات مسلحة (وهي واعدة بتوليد هذه الصراعات مستقبلاً) لاتنتمي الى الإرادة الإلهية بالرغم من كل ما أراده الله من اختلاف وتنوع.

إن تأسيس الاختلاف على الإرادة الإلهية، يصح انطلاقاً من أنه لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة، بل اقتضت حكمته أن يجعل الناس شعوباً وقبائل حسب منطوق النصوص المتعالية، نصوص الوحي، فلماذا كان توجه الناس وباسم الله لاخضاع الآخرين الى اللون الواحد، بعد أن شرعن الله التلون والاختلاف؟ أليس لكل لون جعل الله شرعة ومنهاجاً؟ إذاً هذه الشرائع والمناهج هي من عند الله، فلماذا يتم نفي بعضها للبعض الآخر؟.

إذاً تم تكوين العقل الإيماني تحت ضغط الاختلاف وما ولده من خلاف من ناحية، وتحت ضغط الغاء الاختلاف، وتشكيل الحياة ذات اللون الواحد المنافية للطبيعة والإرادة، مع ما أدت اليه من خلاف أيضاً. الاختلافات الدينية وما ولدته من خلافات تشكل محوراً من المحاور التي تشكل العقل الإيماني، فلقد تعرض كل دين من الأديان السماوية الى الانقسام المتأتي من تعدد الآراء وأشكال التطبيق للمبدأ الأساسي، وهذا

التعدد يخضع لظروف الحياة والمؤثرات الخارجية والعوامل الذاتية والمصالح والعادات. ففي كل دين نجد طيفاً واسعاً من الطوائف والمذاهب والنحل والاتجاهات، ولاشك أنها تتمايز عن بعضها بما تولده من خلافات مع الاتجاهات الأخرى، هذه الاختلافات تأخذ مناحي معتقدية، يعني أنها تتأسس على مستوى الوجدان والعقل وتزداد رسوخاً بفعل التجييش وإعادة انتاجها من قبل الموكلين بالإشراف والرعاية لحسن تطبيق هذه المعتقدات، هنا يحدث التناحر الذي يولده الاختلاف ومحاولة إزالة هذا الاختلاف بالإخضاع، وهو اختلاف مشرعن كما رأينا لايجوز أن يؤسس للتناحر.

إن تعميق القيم الخلافية هو صناعة بشرية، يدان أول مايدان فيها حراس الإيمان، في كل طائفة أومله لأنهم هم العاملون على التجييش والاستنفار العقيدي. على مستوى هؤلاء يتم التلاعب بعقول البسطاء، عندما يصورون لهم أن قمة الالتزام بالعقيدة هو التشدد تجاه الآخر المختلف، فيقعون ويوقعون في الخطأ والجريمة. هذا المسار من مسارات العقل الإيماني سيكون ملحوظاً في الدراسة.

والمحور الآخر من محاور العقل الإيماني التي يتناولها البحث، والذي كان الهاجس الأول، باعتبار أن المحور الأول وموضوع الاختلاف والتفرعات في الأديان قد وجدت من تناولها بكثرة، هذا المحور هو الذي يعني بالترجمة العملية لأفكار ومعتقدات دينية بشكب سليم أو خاطىء، مما شكل التزاماً إيمانياً يمارسه الناس في حياتهم اليومية ويتوارثونه، وهو من نتاج البيئة بتماسها مع الدين. لقد تولدت الكثير من القيم والممارسات السلوكية في مجتمعاتنا واتخذت صبغة دينية معتقدية وأصبحت جزءاً قاراً من قناعات الناس الإيمانية وممارساتهم في مناسبات متكررة، ولو جئنا نبحث عن الكثير منها لما وجدنا له أصلاً في الأديان أو أن هذا الأصل قد تم الانحراف عنه أوتحويره حسب الطائفة أو البيئة أو غير ذلك.

هذا المحور نقرأه في حياة الناس في بيوتهم وحاراتهم وقراهم وليس بالضرورة في كنسهم وكنائسهم ومساجدهم، كانت جدتي تقول لنا: من لايقول بسم الله الرحمن الرحيم في بداية الطعام، والحمد لله عند الانتهاء منه، فإنه لايشبع، ومن لايصلي على النبي عند حدوث البرق تتأذى عيناه، ومن يخرج الى البرّية فعليه أن يقول: بيني وبين الأفاعي الولي الفلاني كي تبتعد عن طريقه، وهكذا. وكانت التميمة التي يكتبها

الشيخ بعد أن يتلقى هبة، وقطعة القماش أو البخور عن ضريح الولي أحد سبل مواجهة الأمراض والشرور. إن هذه الممارسات والقناعات قد لاتشكل ضرراً مباشراً، بل قد تساعد في إفشاء الطمأنينة النفسية أحياناً، إنما من شأنها تدريب العقول وتربيتها على الغيبيات، وهذا شيء له حصيلته في بنية الشخصية وتوازنها الفكري، وهذه القيم ليست مستمدة من نصوص الدين مباشرة بالضرورة، فليس هناك نص على أن من لايسم الله على الطعام لايشبع، لكنها طيف من الآداب والقيم الحياتية يتعلمها الإنسان فيما يتعلم لتجعل حياته أكثر بساطة، وربما أكثر تعقيداً.

من هذه القضايا مايدخل في إطار تغييب العقل، كإشاعة قيم السحر والشعوذة التي يمارسها العالمون بالغيب، وقراءة المستقبل، ومارسوا كتابة التمائم والحجب والأحراز، أو الذين ينظرون الى الآخر المختلف دينياً أو طائفياً، على أنه نجس ونجاسته متأتية من كفره وبعده عن الله، وهذه مقدمة لعدم الاعتراف به، ومن ثم لنفيه ومحاربته.

هذا المحور من محاور العقل الإيماني شفهي على الأغلب، تتم قراءته من خلال حركة الواقع العفوية، لكنها مع عفويتها تشير الى عمقها، الى تربصها بأبعاد شخصية الإنسان، ممن يحسب على المؤمنين، وممن لايحسب عليهم، هنا تتبدى أهمية الاعتماد على علم النفس، ومفاهيم كاللاشعور في فهم الكثير من الخلفيات التي تبرز مظاهر معينة، كيف نتوصل الى فهم الآلية التي يعمل بها عقل لاعب الكرة الذي نراه يرسم إشارة الصليب وهو يتقدم لتنفيذ ضربة جزاء، أو عندما يحرز هدفاً؟ كيف نفهم الآلية التي يعمل بها عقل المؤمن ونفسيته وهو يقبل غلاف المصحف قبل أن يخرجه من غلافه المطرز ليتعبد بتلاوة بعض آياته؟ إنها ليست جزءاً من العملية العبادية، إنها الكثير الكثير من السلوكيات التي يشكل العقل الإيماني خلفيتها، وهي مظاهر ذات تأثير واضح في حياة الناس اليومية، وفي المناسبات كلبس الأقنعة في عيد القديسة برباره عند المسيحيين، أو تناول القمح أو تلوين البيض في عيد الفصح، أو الخبز الفطير عند اليهود، أو التعوذ بالله عند المسلم من أي شيء لايريده، أو كتابة بعض التعابير الدينية والآيات القرآنية على السيارات وفي واجهات المحلات، وتعليق آية الكرسي في أماكن بارزة في البيوت والمحلات التجارية وحافلات الركوب أو أماكن أخرى.

لقد نشأت هذه السلوكيات والعادات الإيمانية تحت تأثير الإيمان الديني وتفاعله مع حياة الناس اليومية ومدى ثقافتهم، وهي تختلف باختلاف الطوائف، فهي عند البروتستانتي غيرها عند الكاثوليكي أو الأرثوذكسي، وهي عند المسلم الشيعي غيرها عند السني، وهي عند الشيعي الاسماعيلي تختلف ربما عنها عند الشيعي الإمامي.

الطوائف والمذاهب والنحل الناشئة في إطار أي دين من الأديان السماوية، والمتولدة عن ممارسة العبادة في بوتقتها، هي تعبيرات وقراءات إيمانية لهذه الأديان، هذه التعبيرات لها خصوصياتها وظروفها، بالتالي اختلافاتها مع الخط الذي مثلته الكتل الرئيسية، إذاً هي حالات إيمانية. إن الدين واحد، والتطبيقات أو الاتجاهات المتعددة هي أشكال إيمانية تطبيقية، ذات مواصفات اختلافية وخلافية. كيف يتصرف المسلم السني أثناء ادائه لصلاته كيف يتصرف الشيعي؟ ماالعبارات التقديسية التي يؤديها السني وما اختلافها عن التي يؤديها الشيعي؟ من هي الشخصيات التي تنال الاحترام عند هذا أو ذاك؟ إنها اختلافات لادينية لأن الدين واحد، إنها اختلافات إيمانية، الاختلافات الدينية تكون بين دين ودين آخر، كالاختلاف بين المسيحية والإسلام مثلاً، أما في إطار الدين الواحد أو المذهب الواحد فالاختلافات إيمانية، أي في شكل وطريقة التعاطي. وهذه ليست الدين وليست غيره.

ينم العقل الإيماني ببعديه المعتقدي والطقوسي عن بشريته، ولكنه لايكتسب القداسة إلا بإضافته الى الالهي، وهنا تبرز ضرورة ربطه بالدين، وضرورة انتمائه اليه، لكن الممارسة الإيمانية لاتتم إلا بإزاحة أصلها الديني وإحلالها محله، فالاتجاهات الباطنية في الأديان، أبعدت الطقوس والمعتقدات الظاهرية لتُحل محلها بديلها التأويلي الذي لايتأتى بالفهم المباشر، إنما يحتاج الى آليات أخرى لاستخراج مافيه من دلالات عميقة.

مرجعية البحث في العقل الإيماني هي الواقع المعاش، وشفهيته وطقوسيته لاتلغي اعتماده على التراثات المسجلة والمكتوبة، من هنا برز تحري بروز مظاهر هذا العقل بالاعتماد على التقاط الجزئيات واللقطات من ممارسة الناس اليومية، بتماسهم مع المقدس وتفاعلهم معه وانصياعهم لمفاعيله، كما تم عبر المرجعية المكتوبة والتي كان لابد منها خاصة للمقارنة والتوضيح والتحليل.

تبقى الإشارة الى أن العقل الإيماني الذي نحاول معرفته عبر تفكيكه وتسليط الضوء عليه، هو الأكثر تأثيراً، وهو محرك أساسي للمجتمع والتاريخ. إنه يواجه الإنسان منذ لحظة ولادته ويرافقه في كل مراحل حياته، إن النصوص الدينية الرئيسية، نصوص الوحي، مع ماترتب عليها وما توالد منها من نصوص أخرى، للشرح والتفسير، أو لاستنباط الأحكام، أو لأي هدف آخر، سواء كان الهدف فقهياً أم عقيدياً، لانجدها تجتذب إلا نسبة ضئيلة من الناس، هم الذين سعوا الى الثقافة المكتوبة، وارتبطوا بها من خلال أصولها، فاستهلكتهم المجلدات والآراء والمماحكات، وهم الذين يرتبطون بالأصول من خلال تشبثهم بنمط ثقافة نخبوية، وبقي التعاطي في هذا المجال حديث نخب الى نخب، شكلت جزراً منعزلة عن الجماهير، وبقيت الجماهير مؤمنة تمارس هذا الإيمان بطرائقها الشعبية المختلفة، سواء انسجم مع مافي الكتب أو لم ينسجم، وهذا الإيمان هو الذي ساهم في رسم شخصيات الناس وتحديد أبعاد هذه الشخصيات، فالطفل المسيحي الذي يعيش حلم عيد الميلاد، يهجس بـ «بابا نويل» القديس الشعبي الذي يشيع الفرحة في عالم الطفولة، ويجلب الهدية لهؤلاء الذين لم تتشكل عقولهم بعد نهائياً، من الصعب ألا يترك بصمته على شخصية هذا الطفل، فيساهم في صبغها أكثر مما تساهم كتب اللاهوت. هذا الجو المفعم بالإيمان الطقوسي هو الذي يعيشه الطفل المسلم في منزل والديه وفي حارته في رمضان من كل عام، فيمزج الإيمان بكل مايفرح عندما يأتي عيد الفطر حاملاً للأطفال بعض مايحلمون به.

إنني أزعم أن هذا المناخ الذي لاينتمي في أغلبه الى الكتب ومـاتحتويه هو الذي يساهم أكثر من أي مقوم آخر في تكوين الشخصية الإيمانية، ومؤثرات هذا المناخ وعناصره هي التي تسهم في الشكل الذي يكونه المؤمن في المستقبل سواء بانفتاحه على قيم الرحمة والتسامح والمحبة والخير، أو بانسرابه في متاهات التعصب والحقد المذهبي المفارق لحقيقة الأديان في أفقها المتسامي والمتسامح.

عن أية شخصية ستنجلي تلك الأجواء التي تسود احتفالات كربلاء السنوية التي تقام في الأوساط الشيعية والمعبرة عن عدم الغفران للآخر والذات، أو التكفير عن تلك الجريمة الشنعاء التي ارتكبت بحق الحسين، والتي لاتزال تستعاد بأجوائها التراجيدية؟ هل ستفرج عن شخصية متسامحة؟!

وعن أية شخصية ستنجلي عقيدة الغيتو والغوييم عند اليهودي؟!

إننا نتناسى أن الحياة لن تقدم لنا إلا الشخصيات التي نصنعها في بيآتنا ، وإن هذه الشخصيات لن تكون إلا من العناصر التي تدخلها في تصنيعها.

إن الشخصية المؤثرة في الواقع والقادرة على تحريكه، بالتالي على صناعة تاريخ الكتب والتاريخ الاحتفالي، بل تاريخ الناس في حراكهم اليومي وعلاقاتهم المباشرة، هي الشخصية التي تتشكل منها الكتلة الجماهيرية.

لماذا يولي الفكر اهتمامه للأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا فيما كتبوه، ولا يولي اهتمامه لذلك الشاب الذي هاجم نجيب محفوظ بالسكين، أو لتلك المرأة التي تصنع كنزة الشتاء لفقير لايجدها ، منطلقة من شعورها الإيماني؟!.

(٥)

الكثير من الأبحاث والدراسات تتصف أحكامها بالاطلاقية والشمول، ولايشذ هذا البحث عن هذه الصفة أحياناً، كما سيظهر للقارىء، فكثيراً مايأتي الحكم دون تمييز بين زمان وزمان أو مكان ومكان أو فئة اجتماعية وفئة أخرى. والإطلاقية والشمولية قد تتضمنان صوابية الرأي وقد لا ، وهو الأعم الأغلب. فالخطأ هو الوجه الآخر للصواب في أي حكم. وفي السبيل إلى فكر يحترم عقل القارىء، ويجنبنا الكثير من المزالق، وينسجم مع حقائق الحياة، دون تعسف في الأحكام، فإننا نشير الى أن أحكام بحثنا هذا نسبية، وهذا مانعتقده، ومايرد من إطلاقية فإنما يرد على سبيل التغليب. وتبدو النسبية في مجال البحث في العقل الإيماني من نواح عدّة.

فمن ناحية أولى تبدو النسبية في عامل الزمن، فالأزمان تختلف في عمق سيطرة القيم الإيمانية السليمة أو الزائفة، فالزائفة تسود أيام الضعف، واختلال القوى، أيام حلول الكوارث الطبيعية أو غير الطبيعية، وأيام غلبة الأعداء، ولاشك أنها تحتاج الى مناخ تتردى فيه الثقافة العلمية والعقلانية ويضعف شأنها ، ويتراجع دور حاملها ، عندها يصبح العقل محموماً في البحث عن مبررات وتفسيرات تعوزه في امتلاك أية معرفة أو أي شرح أو تفسير لقضية ما فلا يجدها في حقل الثقافة العلمية والعقلانية المفتقدة، فيكون التوجه التلقائي الى حقل الثقافة النقيض، حقل الخرافة والسحر

والشعوذة، أو حقل الغيبيات والتعميمات التي لاتقنع إلا العقول التي تعودت الاستسلام.

أثناء الكتابة الأخيرة لهذا البحث أوردت الأنباء في ٢٠٠٠/٣/٦ خبراً مفاده أن فتاة جزائرية تزرف من عينيها دماً دون ألم، وهذا شيءملفت، والشيء الآخر الملفت في النبأ هو مسارعة رجال الدين من مسلمين ومسيحيين الى معاينة الحالة واعتبارها حالة إيمانية، فالفتاة في رأي هؤلاء تملك خاصيّة شفاء المرضى، طبعاً على الطرق الإيمانية، وبعد أن هبط وزنها من ثمانية وخمسين كيلو غراماً الى ثلاثة وأربعين، تقرر نقلها على نفقة السفارة السعودية الى الديار المقدسة لإجراء الفحوص الطبية وأداء فريضة الحج، فهلا كانت الفحوص قبل إطلاق الأحكام للفصل فيما إذا كانت حالة إيمانية روحية أم مرضيّة مادية؟!.

عندما تحدث كوارث كالزلازل مثلاً، تستثار العقول، وتبدأ بالبحث عن الأسباب، عندها نجد أن التفسيرات العلمية العقلانية المستندة الى تحليلات نابعة من استنطاق علم الجيولوجيا وطبقات الأرض، نجد حاملها من فئة قليلة من المثقفين ثقافة علمية وعقلانية، بينما نجد أن التفسيرات التي تشير الى أن هذه الزلازل أو الكوارث الأخرى، دليل على غضب السماء، وعدم رضى الآلهة، تسود في الأوساط الشعبية البسيطة والغالبة على الساحة الاجتماعية ولا عجب أن تستقطب الكثير من المثقفين ثقافة سكونية، هذا ماجرى في تفسير الزلازل التي حدثت في تركيا صيف وخريف ١٩٩٩م. وقد يأتي تفسير الهزيمة أو النصر أمام العدو، باستعداد الجيش، وتأمين متطلبات المعركة، كما قد يشير تفسير آخر الى أن العملية مرتبطة برضى الله أو غضبه. فقد كانت هزيمة حزيران دليل غضب الله في نظر بعض مؤدلجي الإيمان كالشيخ محمد متولي الشعراوي، وكان نصر تشرين دليل رضا الله بحيث أرسل ملائكته لإنجاز النصر كما سنرى في رأي الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر. إن التفسيرات السلبية للأحداث تمنع من البحث عن كوامن الخلل ومحاولة إصلاحها أو تجاوزها إذا كان ذلك ممكناً. وهذه التفسيرات التي تسود في أزمان الضعف والتراجع الفكري، مبتعدة عن الاستهداء بمبدأ العلية والسببية في إدراك كنه الأمور، قد لاتسود في أزمنة أخرى، يكون العقل فيها مطمئناً، وغالباً ماتكون أزمنة الطمأنينة والسلم، أزمنة القوة والمنعة،

حيث يسود العقل العقلاني والنقدي بدلاً من العقل السحري والغيبي، وتاريخ الشعوب ناطق بما يفصح عن هذا الرأي. من هنا كانت الأحكام النسبية لا الإطلاقية هي التي يجب أن نقرأ البحث على ضوئها.

وكما تبدو النسبية في عامل الزمن الذي هو عامل تاريخي، فإنها تبدو من ناحية أخرى محكومة بعامل المكان، أي المجتمعات السكانية، فليست كل المجتمعات بمستوى واحدة من حيث سيطرة العقل الإيماني أو النقدي، ففي المدينة الواحدة تختلف نسبة هذه السيطرة من حي الى حي، فهي ليست في حي «باب الواد» في العاصمة الجزائرية كغيره من الأحياء، حسبما أشارت أخبار الحركات الإسلامية المتطرفة، وهي في الأرياف والمراكز البعيدة عن المجتمعات الحضارية الكبرى غيرها في المدن التي نالت نصيباً محترماً من الحضارة والتقدم، ففي الأرياف والأماكن غير المتحضرة جيداً تسود التحليلات المركزية على مستوى الجماعات القرابية كالقبيلة والعشيرة أو الجماعات العقيدية كالطائفة أكثر، وترتبط مصلحة الجماعات هذه بوحدة الرأي والتفسير، أي الشمولية، ومركزية الرأي، أي سيطرة الفرد. فلا يمكننا اعتبار منطقة الصعيد في مصر مثل غيرها في القاهرة والاسكندرية مثلاً. وهي في بعض الدول غيرها في دول أخرى، وهذا أيضاً تابع الى المستوى الحضاري، فهي في بلدان أوربا غيرها في أفغانستان بالتأكيد. كل ذلك يرتبط بمستوى التطور العلمي والثقافي الذي ينعكس في حياة الناس.

وهذه النسبية أيضاً مرتبطة من ناحية ثالثة بالمذاهب والجماعات الإيمانية كما هي مرتبطة بالشخصيات التي تتولى التوجيه والأدلجة في هذه الجماعات، فالمؤدلجون يؤدون دوراً كبيراً في التوجيه والتجييش، وبالتالي في نوعية الفكر الذي تتم زراعته واستثماره بين الناس، بالتالي في نوعية العقل المنتَج والذي يصنّع حسب رغبات ومستوى وأذواق هؤلاء في الكثير من الأحيان، ودرجة استنارة هذه الفئة متفاوتة بين واحد وآخر، فالشيخ الذي يوهم الناس أنه يقوم بحبس الجني الذي يتبع إنساناً ما فيؤدي الى إمراضه أو خبله وبلبلة حياته، هذا الجني يسمى (التابعة أو التابع)، لايمكن أن نقارن رجل الدين هذا برجل دين آخر، يصل الى درجة من التنوير تدفعه الى السخرية ممن يقوم بهذا العمل قائلاً بكثير من السخرية «مساكين أهل أوربا من يحبس

لهم توابعهم؟ ». هذه الإشارات تبين وضوح النسبية في سيطرة العقل الإيماني المتخلف أو العقل العقلاني المتنور بين إنسان وإنسان ورجل دين ورجل دين آخر، ورجل الدين المتنور هذا[١٨]، هو الذي يردد مرشداً المؤمنين من حوله: «كل فعل الواجبات من العبادة»، وهي عبارة تحمل طيفاً واسعاً من القيم الإيجابية، التي باعتمادها يمكن أن تأخذ مجتمعاتنا طريقها الى التقدم والخلاص الذي وعدت به الأديان جميعها. لكن للأسف إن الحق عقيم، وأعظم الرجال من لاذرية لهم. فأمثال هذا الشيخ المتنور قد لايجدون من يتابع خطهم التنويري، وإذا كان قد سمح لهم بالمرور وممارسة التنوير لاعتبارات ما، فقد يمنع غيرهم وتصب عليه اللعنات لاعتبارات أخرى، ولاننسى أن مثل هذا النهج التنويري يحرم المتكسبين من استغلال غفلة وجهل وتجهيل المؤمنين، والغفلة والجهل طريق الى مورد كبير وبدون جهد، ويبدو أن ذلك في كل زمان ومكان، فقد انتشرت في أوربا عبارة تقول: «ليس للمال رائحة» ويقصدون أن مصدر المال، وطريقة كسبه لاتؤثر في قيمته لأنه يظل مالاً لاينظر أحد الى أخلاق دافعه، وهذه العبارة كانت قد وضعت للتندر على رجال الدين، فالقس يقبض المال من يد الزانية ويخزنه في جيبه، والإمام يقبض المال من يد السارق ويخزنه في جيبه، ولايزهد واحد منهما فيه، ومصدره في الحالين حرام، قد نهت عنه الأديان[١٩].

هكذا تظهر النسبية ليس في المذاهب فقط والأديان فقط بل في رجال المذاهب والأديان الذي يختلفون في مستوى وعيهم وعلمهم، ولاشك أن الأصدق منهم من ينتمي الى قيم الحق والعقل والحرية والعلم.

إن العقل الإيماني يفتقر الى الاستنارة، لأنه دوغمائي، لكن هذا الافتقار ليس مطلقاً، وهذا مايجعلنا نشير الى النسبية في الأحكام، كما أن مستوى الإغراق في الغيبية والسحر والخرافة ليس واحداً، فالعقل الذي يؤمن أن كل فعل الواجبات من العبادة، ويدعو الى ذلك، يمكن أن يصنف بين العقول التي تقود مجتمعاتها الى الخلاص، كما حدث في إيران أيام المشروطة وأيام ثورة التنباك، وكما حدث في قيادة رجال الدين للثورات في أمريكا اللاتينية، فيما عرف بلاهوت التحرير، وقبلها جرى في بلادنا أثناء التصدي للاستعمار الفرنسي.

إن مستوى التطور العلمي والثقافي لشعب ما أو بيئة ما، يفترض أن يكون لها

تأثير واسع على العقول، فتتغير هذه العقول وتتطور باتجاه ماهو إيجابي، ويتناسب هذا التغيير طرداً مع نمو الثقافة العقلانية، والعلوم بكافة أشكالها وأنواعها وتياراتها.

(٦)

إن العمل على إشاعة المناخ الإيماني في كل جزئيات الحياة زمانياً ومكانياً من شأنه أن يبقي التحريض بهذا الاتجاه مستمراً، مما يعني إعادة إنتاج الشعور الإيماني والقيم الإيمانية، سواء بحضور القيم والتعاليم الدينية الأساسية التي وردت في الأدبيات والمصادر الرسمية للأديان، أو في غياب هذه القيم والتعاليم، هناك عملية ربط شعورية ولا شعورية بين الكثير من المظاهر والتصرفات، وبين الرضى الداخلي بأن كل هذه الأشياء تجعل من الإنسان مؤمناً لايخرج من حظيرة ماهوارثوذكسي مستقيم.

الكثير من المظاهر يجب أن نقرأ ماوراءها لكي نصل الى فهم صحيح لها، فماذا نقرأ وراء وجود الآيات القرآنية على شكل لوحات مزينة ومزخرفة ومتقنة الصنع، معلقة على جدران البيوت مثلاً؟ هذه اللوحات توحي بمناخين اثنين، أولهما جمالي تجليه دقة الصنعة وجمالية الفن الذي انتجت اللوحة بمعاييره، والثاني، مناخ إيماني هو الذي دفع المؤمن الى الاستعاضة عن أي منظر جمالي آخر، وقام بتعليق لوحة فيها آيات قرآنية، أو لفظ الجلالة، أو أسم النبي. إن شيوع مثل هذه الحالة أو المشهد يساهم في التشكيل النفسي والعاطفي، ويشكل عاملاً ضاغطاً على المرءباتجاه الإيمان وإعادة انتاجه، كأن نجد العبارات الإيمانية التي تدعو الى الصلاة على النبي عند مشاهدة عربة تسير على طريق كتب عليها طلب واضح أن تصلي على النبي عند مشاهدة هذه العربة. وما أكثر هذه المشاهد التي منها العبارات المضادة لحسد الحساد، أو موانع الحسد التي اخترعها هذا العقل وعلقها على مراكب النقل وسيارات الأجرة وغيرها، ومنها الآيات التي تعلق في المحلات العامة بشكل بارز من مثل «هذا من فضل ربي» و «لئن شكرتم لأزيدنكم».

إذاً في شوارعنا وطرقاتنا، في أسواقنا كما في بيوتنا، هناك مشاهد ومظاهر تشد الإنسان الى هذا المناخ الإيماني، يعضدها الكثير من التصرفات التي يقدم عليها الناس، فالمؤمن البسيط، الذي يود تلاوة القرآن تعبداً، يقدم على ذلك بطقوسية، فهو

يخرج الكتاب من المحفظة القماشية المزخرفة التي تفننت زوجته أو ابنته في تطريزها وصنعها إجلالاً لهذا الكتاب، ثم يقبله ويضعه على رأسه، ويعيد تقبيله مرة ثانية عندما ينتهي من التلاوة، ويعيده الى غلافه المطرز، ليستقر على الحائط معلقاً بمشجب ومحاطاً بما يليق به من الاحترام. ولاشك أن كلّ ذلك يرتبط بالحالة النفسية التي صنعتها الأيام عند المؤمنين.

من المظاهر الإيمانية هذه الاحتفالية الواضحة في توديع واستقبال الحجاج، هذه الاحتفالية تعبر عن شوق الناس واحترامهم لهذه المكانة التي ينالها الحاج، دون التمعن فيما إذا كان هذا الحاج قد أفاد من دروس الحج، وأن مسلكيته في الحياة تعبر عن معاني تتناسب مع هذه المكانة/الرمز، وكثيراً مايكون هذا اللقب جواز مرور الى ما لايجوز المرور إليه من الانتهاكات، لأن الحاج لم يعد يخاف من المستقبل، لقد ضمن الشفاعة وهي شفاعة لاترد، فالعبارة التي يستقبل بها الحجاج «من زار قبري وجبت له شفاعتي» لاتترك مجالاً لعدم الغفران، وهذا الغفران (الواجب) يدفع الى الشك أن يكون النبي قد أوجبه على نفسه إلا مشروطاً بالتزامات معينة (هذا إذا سلمنا بصحة الحديث؟) أما أن يكون الوجوب فرضاً على النبي حتى في حال كون من زار قبره قد خرج على القيم الإيجابية للإيمان (تحديداً بعد الزيارة) فهذه مصادره للإرادة النبوية، لانجدها تنسجم مع قيم الإيمان الإيجابية. مع ذلك نرى في الاحتفالية التي يستقبل بها الحجاج، دليلاً على سيطرة المشاعر الإيمانية الممتزجة بأجواء التفاخر والمكانة الاجتماعية، فهذه المواكب الاستقبالية والزينات المقامة، والهدايا والأطعمة والتهنئات، كلها تأتي في سياق إشاعة الجو الإيماني والإفادة من مفاعيله في الحياة. وفي كثير من الأحيان يكون هذا المناخ الاحتفالي أحد أهداف الممارسات الإيمانية سواء في الحج أو في الصيام، وأكثر ماتتمثل هذه الاحتفالية بالتنوع الطعامي، والتكاسل عن العمل دليل الضنى الذي يسببه الصيام، كما أصبح الصوم يتمثل في إرهاق الطبقات الفقيرة بمظاهر هذه الاحتفاليةحتى تبدو أنها لاتقل عن غيرها احتفاء بشهر الصيام، وقد أصبح كل ذلك مجالاً للمفاخرة تضج بها وسائل الإعلام، دون أن يدري هؤلاء المتفاخرون أية أذية يلحقونها ببسطاء المؤمنين، وهي لم تكن مستحبة يوماً في الأعراف الإيمانية لما تحدثه من ألم نفسي للفقراء.

وفي البيئة الإيمانية المسيحية تشكل هذه المظاهر بعداً أكبر وحضوراً أشد فيما يتعلق بالصور واللوحات، ومعلوم ماللأيقونات والتماثيل من دور في أداء الشعائر، فالمسيحي يجد أمامه في المنزل تمثالاً للسيد المسيح على الصليب، أو صورة للطفل يسوع الملائكي، أو صورة للأم مريم، وهو جاهز في كل لحظة ليتضرع الى هذه الرموز والصور والتماثيل، كما لصور القديسين أو مايذكر بهم، خلاصاً من هم أو دعماً في مواجهة مشكله. ومع أن الكثير من التصوير في الإسلام غيرمستحب، بل تحاربه الجهات الإيمانية المتزمتة فإن عدوى اقتناء (صور القداسة) عمت في بعض البيئات الإسلامية، ولاشك أن ذلك يتم بحسن نية، ففي المجال الإيماني لا افتراض لسوء النية، قد نفترض البساطة وضعف الفهم، إنما لاحق لنا في افتراض سوء النية. من هذه المظاهر التي انتشرت في بعض البيئات الإسلامية - ربما تقليداً لما هو شائع في البيئات المسيحية - تعليق الصور لشخصيات قداسية، كمصور (الخضر - مارجرجس) النبي الأخضر الحي في كل زمان ومكان حامي الزراعة والمزروعات، أو تعليق صور افتراضية لعلي وأولاده مثلاً أو صور لمؤمنين واتقياء سابقين ...الخ، كما صور الكعبة والمسجد الأقصى.

كل هذا يستدعي مناخاً تنتفي منه قيم الشر القادم على الإنسان وتترسخ وتتثبت قيم الخير المرجوه بإلحاح، والمتوسل إليها بكل هذه المظاهر السابقة، ولاشك أن ذلك مرتبط بالبيئات ومستوى تطورها العلمي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي، ففي الوقت الذي تجد أن هذه المظاهر تنتشر بكثرة في البيئات الشعبية ذات المستوى الاقتصادي المتدني وربما ذات المستوى الثقافي المتدني، نجد أن هذه العناصر والمظاهر تنحسر الى حد ما عن البيئات ذات المستوى الثقافي العالي وأيضاً عن البيئات ذات الحالة الاقتصادية الرفيعة لأسباب لاتخفى عن ذهن المدقق والدارس، فأصحاب المستويات الاقتصادية والثقافية الرفيعة قد يقدمون على اقتناء لوحات فنية غالية الثمن لتزيين منازلهم بها مستعيضين بذلك عن آية الكرسي أو آية النور، أو غير ذلك من مظاهر الإيمان، ولهذا الأمر دلالات لاتعني أن اللامبالاة الدينية سائدة حيث لاتوجد هذه المظاهر، ولاتعني أن الفقير أو ابن البيئة الشعبية البسيطة يحمل عقلاً أقل تحضراً وأكثر تخلفاً من الآخرين، فالكثير من المظاهر الوارد ذكرها هشة ولاتصمد للامتحان

إذا جد الجد. ولاننسى أن الإيمان يتناسب عكساً مع الثراء.

ماتتحدث عنه يحيلنا الى الحضور الدائم للرمز أو لمجموعة الرموز التي يتخذها دين أو مذهب ما، وسيلة لتكريس الحضور المؤثر على عقل الإنسان وعواطفه وبالتالي توجيهاً له بالاتجاه الذي يخدمه هذا الرمز وقوة تأثير الرمز تأتي من شعبيته وبساطته وظهوره بأنه غير مقصود، بالتالي تشكل عفويته مدخلاً الى النفوس، وقد يتخذ الرمز أشكالاً متعددة، ويعتمد طرائق متنوعة، فقد يكون كلمة، أو شكلاً أو تصرفاً أو غير ذلك، وربما وضع ليكون رمزاً عن سابق وعي، أو قد تكون الأيام جعلته رمزاً بشكل عفوي. فعندما يتدخل مسلم لحل نزاع بين مسلمين، نراه يطلب منهما ابتداء (صلّوا على النبي) وقد يكون هذا الطلب من شخص لآخر أو آخرين في باب النزاع أو غيره، وهنا نرى التأثير النفسي وإحداث جو الطمأنينة، باستحضار ذكر النبي الذي يجله كل مسلم، وهذا الأثر النفسي الحاصل من جراء طلب الصلاة على النبي وتكرار ذلك من قبل الحاضرين والسامعين قد لايفوقه تأثير آخر، وهنا يعتبر مدخلاً لخوض أي حديث أو المفاتحة بأمر بدا مستعصياً، أو التصديق على موقف أو كلام سابق، وقد تحولت هذه الكلمة الى رمز ذي تأثير قوي لأنها جزء من عقيدة المسلم، والذي لايتم إسلامه إلا بها، فتأتي لتذكره بموقفه ودوره وتعيده الى الصراط المستقيم، ونرى هذا الرمز يبرز على شكل تلفظ عفوي عقيدي بسيط يكرره المؤمن المسلم في جميع المذاهب والنحل الإسلامية مرات ومرات، وفي هذا الموقف تضعه أيام امتحان مدى التزامه الإيماني بالاستجابة الى نداء التعقل والسلم، كما تفرغ شيئاً من شحنة غضب المتخاصمين بإدخالهم في مناخ إيماني مختلف عن مناخ الحمية والانتصار بالعصبية، وتذكره بثقل مواجهته لذكر النبي دون استجابة.

في ظرف مماثل يلجأ المسيحي الى رمز من نوع آخر، يتمثل بحركة عفوية ترسم الصليب بحركة من يده لاستحضار الرعاية الالهية، وإحداث التأثير في الجو المحيط، وكثيراً مانرى هذه الحركة تتم في ساعات الضيق طلباً للرحمة والفرج، وفي ساعات الفرج تعبيراً عن الشكر، فلاعب كرة القدم الذي يرجو النصر على الفريق الخصم يرسم إشارة الصليب عندما ينزل الى الملعب كما يرسمها عندما يحرز هدفاً، وتأتي أهميتها من عفويتها وظهورها على أنها الشكل التعبيري المباشر للاوعي الإنسان في لحظة

معينة. ولاشك أن هذا الرمز وغيره لدى المؤمنين يحتاج الى دراسة من قبل علم النفس الديني، أو علم النفس الجمعي، أي من قبل المتخصصين في مثل هذا المجال لبيان القوة الإيمانية التي يملكها، وقوة وساحة التأثير التي تشبه الساحة المغناطيسية.

لاأريد مغادرة الموقع قبل أن أشير الى أن في جعبة المؤمنين رموزاً كثيرة ومتنوعة، غنية في قوتها ودورها الإيحائي، وتأثيرها النفسي، والإيمان في المحصلة هو عملية نفسية في أحد أبعاده، وهذه الرموز تحتاج فيما بعد الى استقصاء وجمع وتصنيف قبل التحليل، فماذا تعني أغطية الرأس عند اليهودي المؤمن؟ وبماذا توحي وماتأثيرها؟ مثلاً. ماذا يعني تحويل شكل القرآن (المصحف) كحلي تتحلى بها النساء المسلمات؟ وماتأثير ذلك وبماذا يوحي؟ ماذا يوحي تحويل الصليب الى حلي تبرز على أعناق الفتيات والفتيان عند المسيحيين؟ وغير ذلك الكثير من الرموز والتصرفات والأشكال التي أخذت بعداً رمزياً، كوضع الهلال مثلاً على الأبنية الدينية الإسلامية، وأغطية الرأس عند رجال الدين في كل طائفة أو مذهب أو ملة، والأدوات التي يستخدمونها، ولماذا كان شكلها هكذا؟ كالعصي والمباخر وغيرها في دور العبادة المسيحية.

كل هذا لايمكن إغفاله أو استبعاده عن ساحة الفعل الإيماني المؤثر في عواطف الناس وعقولهم وإعادة صياغة وتشكيل هذه العقول تشكيلاً يخدم اتجاهاً ما، مع ملاحظة مايرافق هذه الرموز من شحنات روحية تأليبية من شأنها المحافظة على جذوة الإيمان متقدة وحراسة هذه الجذور خوفاً من خمودها.

ولاننسى أن الرموز التي وظفتها الايديولوجيات الإيمانية الدينية التأليهية، وقد انتقل تأثيرها ومفعولها الى حقول أخرى كالحقل السياسي والاجتماعي، وقد رأينا ذلك واضحاً لدى المتأدلجين في إطار إيديرلوجيات كان لها تأثيرها الكبير في العصر الحديث كالشعارات التي ترددها قوى معينة، والإشارات والأعلام والأناشيد، وقلما ظهرت ايديولوجيا معاصرة إلا واتخذت مثل هذه الإشارات والرموز، زيادة في التجييش المخيالي ومدى تأثيره، من أمثلة ذلك مايعنيه شعار المنجل والمطرقة في الحقل الشيوعي ومدى تأثير هذا الرمز الذي تحول من حقل الواقع المعاش لدى فئات الكادحين الى رمز ذي معنى للكادحين وغير الكادحين من الشيوعيين والمتأثرين بفكرهم في كل

أطراف المعمورة، ولاتقل الدلالة التي يعنيها وضع الصليب أو المصحف كحلي في عنق الفتاة المسيحية أو المسلمة، عما أصبح أو كان يعنيه وضع المنجل والمطرقة على ياقة السترة عند الشباب والكهول، ويشكل فيه الكثير من الاعتزاز والفخر بل والتحدي أيضاً، وهذا بعدٌ لم يعرفه الرمز الديني.

وكما دعوت سابقاً الى دراسة يقوم بها المتخصصون في علم النفس لأثر هذه الرموز على الجماهير وضبط إيقاح حركتها في إطار ماهو إيماني تقوي، كذلك أدعو الى دراسة تاريخية اجتماعية لنشأة هذه الرموز وتطور دلالاتها عبر التاريخ، والقوى الاجتماعية التي أوجدتها، وما مصالحها، وبيئات انتشارها وظروف هذا الانتشار.

(٧)

في عملنا هذا، قد يتم التساؤل عن المبرر، عن غائية البحث والهدف المتوخى من دراسة العقل الإيماني، وكأن هناك نقصاً في الكتابات المتعرضة للإيمان وتعميم قيمه. وأؤكد أن هذا البحث لايأتي في الإطار المذكور. هذا البحث يهدف لأن يكون محاولة أو بداية مشروع يبغي تفكيك ودراسة هذا العقل لمعرفته أكثر، ولبيان مكانته، ومدى ضرورته أو عدم ضرورته، وتأثيره في الحياة العامة، ودعم الجانب الإيجابي فيه.

لقد تمت الإشارة في أمكنة متعددة في هذه الدراسة الى أن هذا العقل (العقل الإيماني) هو عقل عملي نقرؤه في سيطرته على سلوك الناس، ومناحي حياتهم، ومدى التأثير في واقعهم، وانتقاله الى السياسة في ظل الايديولوجيات التي اصطبغت بصبغة إيمانيه مستفادة من الإيمان الديني. إن تزايد الانتشار للفكر الطائفي والايديولوجي في وقت نتوخى التخفيف من حدة التعصب المذهبي، والتعايش السلمي للأديان والمذاهب والملل والأحزاب والفئات والجماعات وغيرها، يشير الى مفارقة، ويدفع الى الدهشة، فكلما أملنا أن تكون هذه القيم - سماوية كانت أو أرضية، دينية كانت أو سياسية - عامل وحدة وانسجام، نجد أنها تحولت بفعل العقل الإيماني العقيدي الدوغمائي الى عوامل للتفكك والتناحر، وهي في كثير من الأحيان وعبر تعبيراتها ذات التوجه الالهي أحياناً، والمصطبغة بصبغة ملّية أو طائفية مذهبية، شكل من أشكال التعبير عن الواقع المأزوم، فالفكر الديني في مستواه النصي الرفيع والذي

هو مجال النخب الفكرية والثقافية ويتعاطى مع النصوص الرفيعة، لم يتنازل الى دراسة هذا الواقع الإيماني الشعبي، ذي الحضور والفاعلية القصوى في الواقع، وهو شئنا أو لم نشأ، المحرك الأساسي أو أحد المحركات الأساسية لحياة الناس بعد أن صبغه المؤمنون بألوان مصالحهم وقناعاتهم وعاداتهم، وأدخلوه مجال تدينهم واسبغوا عليه الشرعية، حتى لو كانت عناصره في الكثير من الأحيان لاتنتمي الى الأديان التي ينتسبون اليها.

إن أحد أهداف هذه الدراسة هو تسليط الضوء على هذا الواقع، بعد دخولنا في متاهات الأصالة والمعاصرة، والقديم والجديد، والمؤثرات التي تلعب دوراً في تخلفنا أو نهضتنا، إن التأثير على الجماهير وتوجيهها، لايكون في دراسة المعتزلة والغزالي والاشعري وابن تيمية... الخ، بل يكون في معرفة حراك الناس الإيماني، في مظاهر تدينهم الشعبي، ذي المظاهر التي لاتخفى على أحد، وهي في الكثير من حالاتها نجد روابطها مع النصوص الأساسية روابط ضعيفة.

والملاحظ أن هناك الكثير من الاتفاق والتقاطع في العناصر الإيمانية، والأفكار الإيمانية، وتوجهاتها لدى جماعات مختلفة ديناً أو طائفة. لقد استبدل المؤمنون النصوص الأساسية بالرموز الإيمانية والعادات والتقاليد التي قد تلتقي كل ملة فيها مع الأخرى، سواء اعترفت بذلك أم لم تعترف، وسواء صنع هذا التلاقي أواصر محبة واتفاق أو عوامل نفور واختلاف. وأحياناً أخرى نجد أن الانحرافات التي نشكو منها تسيطر على مفاعيل وجماعات هذا العقل، فتصنع المشاحنات التي نشكو منها. إن الاعتراض على تعميق الخلافات، يفترض أن يمر عبر دراسات تبرهن أن الاختلاف عرض والاتفاق جوهر، أي أن العناصر التي تجمع، أكثر من العناصر التي تفرق، أليست الصفات الإيجابية المتعالية والرفيعة هي التي نتمسك بها جميعاً وفي أي دين كمميزات وصفات لآلهتنا التي نؤمن بها؟ إذاً الجميع متفقون على هذه ومختلفون على ماهو أقل منها.

إن الإنطلاق من هم تكوين لحمه اجتماعية تسعى الى مايوحد، دون أن تغفل الاختلاف والتنوع الذي يعتبر أحد عناصر الغنى، يجب أن تكون أحد هموم الدراسات، وذلك ما لانراه اليوم، إذ من الملاحظ في أيامنا هذه، وخلال العقود القليلة الماضية،

تزايد وانتشار الدراسات ذات الصبغة الطائفية والمذهبية، قد يكون هدف بعضها سليماً، ينحو نحواً معرفياً (ابستمولوجياً)، ويقوم على أسس ومناهج نقدية وعقلانية حديثة، إلا أن بعضها الآخر بصنف في الخانة السلبية، والشبهة واضحة فيه، ويأتي ليخدم هدفاً ايديولوجياً أو سياسياً لجهة ما، أو هدفاً فئوياً طائفياً تجييشياً مغرضاً.

أشير الى مثال واحد، يقع في الخانة السلبية، يتمثل في سلسلة عنوانها «سلسلة الحقيقة الصعبة»، كاتبها أصر على التخفي وراء اسم موهوم «أبو موسى الحريري»، وإخفاء الاسم الحقيقي للمؤلف موضع تساؤل وشبهه، إذ مامبرر هذا الاخفاء لو كان الهدف علمياً معرفياً فقط، وقد صدر في سياق هذه السلسلة أربعة كتب، بعضها يتناول طائفة معينة لاتخلو دراستها من أغراض غير علمية تنضح بها فصول هذه الدراسة، وبعضها الآخر يتناول الاسلام ونبيّه وبداياته مشككاً بكل شيء مما اعتبر قاراً وثابتاً في عقول الناس وقلوبهم، مستنداً الى وقائع وأفكار غريبة. والملاحظ أن هذه السلسة لاتشير الى الناشر أيضاً، وكل مايعرَف بهويتها أنها نشرت في بيروت بين عامي ١٩٨٤ - ١٩٨٥م. مثل هذه الدراسة كثير، والأهداف متنوعة، ولتفويت الفرصة على هذه الغايات غير المأمونة، من المستحسن العمل على تفكيك العقل المنتج لها، وفضحه وسحب البساط من تحته، لإنهاء مشروعية العبث بالناس والأوطان.

لقد كان التنوع العقيدي في إطار دين واحد أو في إطار تنوع الأديان معروفاً منذ القدم، وقد أثبت في الكثير من الأزمنة، وعلى مر التاريخ قدرة على التعايش، حتى بين الفئات المختلفة نهجاً، كالتي تعتمد الغنوصية أو السرية أسلوباً وتلك التي تعتمد العلنية أو الظاهرية. والسرية نتاج الخوف، فلا سرية بلا خوف، فهي تتلاشى بتلاشيه، وبسقوط الخوف تسقط الكثير من المشاريع التخريبية.

أن نُسقِط في أيدي المخربين يعني أن ندرس الواقع على مستوى مختلف، يفرز بين قوى لها مصلحة في استمرار الصراع الطائفي والمذهبي والديني المتخلف، وقوى تفهم الصراع فهماً حضارياً، ينطلق من الفرز بين قوى الرده والاستغلال والتسلط ومجابهة حركة الحياة باتجاه الأمام، وهي القوى المتسلحة بالخوف والسحر والخرافة، وقوى تنشد الحرية والانعتاق والخروج الى رحابة الحياة والكرامة الإنسانية.

(٨)

عندما كتبت للمرة الأولى[٢٠] عن العقل الإيماني، بدا المصطلح (مصطلح العقل الإيماني) مستنكراً عند بعض من ناقشني في الموضوع. وبعضهم رأى أن الفوضى في توليد المصطلحات، يجب أن تقف عند حد، فهم قد سمعوا بالعقل الديني أو بالعقل الإسلامي، لكن لم يسبق لهم أن وقفوا على العقل الإيماني. قلت حينذاك، إن غايتي لم تكن إيجاد مصطلح جديد، وأنا لا أدري إن كان جديداً أم سُبقت إليه، وقد أكون قرأت مثل هذا المصطلح ونسيت، أو يكون موجوداً ولم أطّلع عليه، وعندما كتبت عنه لم يكن المصطلح هو الغاية، ولم أفكر فيه كمصطلح كثيراً، لكني كنت أقصد مضموناً أوضحه، وفكرة أناقشها، وقد ألحت علي كثيراً، ووجدت أن هذا المصطلح مناسب لهذه الفكرة. الفكرة كانت، أن لكل دين ولبعض الاتجاهات الفكرية والفلسفات منظومات مفاهيمية تشكل مايدعوه المفكرون (عقلاً)، كالعقل الديني تعبيراً عن منظومة مفاهيم دين ما، أو العقل الإسلامي تعبيراً عن منظومة مفاهيم الإسلام، أو العقل الماركسي تعبيراً عن منظومة المفاهيم الماركسية ... الخ. هذه المنظومات تتضح من خلال الممارسة الاجتماعية لها. ولقد رأينا أن هناك أدياناً، وهناك تطبيقات متعددة لهذه الأديان، وكل تطبيق، لاهو الدين ذاته ولاهو غيره، إنها منظومات من المفاهيم والسلوكيات والتطبيقات والقناعات، تناسلت من الدين والعادات والمصالح وغيرها، إنها شكليات وانحرافات وتكنولوجيات دينية إذا صح التعبير. إذاً قصدت التعبير عن المعاش من القيم الدينية وطريقة إخراجه الى حيز الوجود والتطبيق.

إن الدين والعقل الديني كما وصلنا في تراثنا أو تراثاتنا الدينية المكتوبة، قد وجد من يكتب عنه ويكتب ويكتب، ولكن قلة هي الكتابات التي تناول السلوكيات المنسوبة الى حالة تدين، وهي الفاعلة والمنتشرة والفاعلة على أرض الواقع، فحاولت الكتابة عنها سواء أصبت كما أرجو، أو أخطأت. وأرجو أن أؤصّل الفكرة.

بعد مايزيد على العام من كتابتي عن العقل الإيماني قرأت كتاب المفكر العربي الفرانكوفوني الدكتور (محمد أركون)، والمعنون «الفكر الأصولي واستحالة التأصيل»[٢١]، وهو ذو سوية فكرية عالية، ويعج بالمصطلحات ككل كتابات أركون، بعضها هو الذي اخترعها وبعضها نقله عن غيره. وفي الكتاب قرأت: «هكذا نجد أن

أخذ القراءات الإيمانية بعين الاعتبار أو دمجها ضمن المنظور الموسع للمؤرخ سوف يغني المعرفة التاريخية، ويؤدي في ذات الوقت الى نقد أقل تجريداً أو تأملاً صرفاً للعقل الديني. فهذا العقل ليس إلا أحد أنماط العقل الإيماني، وليس كل أنماطه»(٢٢). وقد استخدم المفكر أركون مفهوم القراءات الإيمانية بما ينطبق الى حد كبير على المعنى الذي قصدته بالعقل الإيماني، لكنه عاد ليرى أن العقل الإيماني أصل تتفرع عنه أنماط من العقل الديني، في حين جاء في تحليلاتي للعقل الإيماني أنه أحد الأنماط للعقل الديني في كل مرة يظهر فيها، والآية هنا معكوسة.

وفي دراسة أخرى في كتاب أركون ذاته يقول: «بعد أن شرحت كل ذلك يمكن للقارىء أن يفهم سبب تمييزي بين العقل الديني/والعقل اللاهوتي، الذي سأدعوه منذ الآن فصاعداً بالعقل اللاهوتي – السياسي. فالعقل الديني نقبض عليه ونبلوره كمصطلح فعال على مستوى التعاليم الأصلية أو الأولية المنصّبة كمدونات للنصوص التأسيسية ... ثم يجيء العقل اللاهوتي – السياسي فيما بعد لكي يحيّنه أو يجسده في أنظمة معقلنة من المقولات والمعايير والعقائد/واللاعقائد»(٢٣). وفي الوقت الذي أرى التطابق تاماً بين استخدامي واستخدام محمد أركون لمصطلح العقل الديني، أجد أن أركون استخدم مصطلح العقل اللاهوتي – السياسي، حيث استخدمت العقل الإيماني تماماً، حسب مدلول هذا المقتطف الذي يحمل شيئاً من التعارض مع المقتطف السابق.

أعترف أنني لاأجد من العدل أن أقارن بمفكر كأركون، فهو أحد أعلام الدراسات الإسلامية الكبار على مستوى العالم، ومؤرخ معروف للإسلام ذو انتاج غزير ومميز، وأنا لاأجد في نفسي سوى قارىء غير ممنهج، تخطر له بعض الأفكار فيكتبها من وجهة نظر ما. وأحد الذين تعلمت من كتاباتهم واستشهدت بها هو الدكتور أركون. وأرجو أن يكون في هذا التنويه فائدة ما، وقد سررت بما قرأت لأنني وجدت بعض التطابق في الفهم للعقل الإيماني والديني، وهذا من دواعي سروري أن أتطابق في هذا المجال أو بعض جزئياته معه لأن المجال ملكه، وكما اعتز بالتطابق لأنه دليل على عدم النشاز، أعتز بالاختلاف، ومستعد للتراجع لكن ليس بسهولة، بل عند التأكد من الخطأ.

كان العقل الإيماني واضحاً في ذهني أشد الوضوح عندما قاربت الكتابة عنه، فلقد

عـايشتـه كمـا عـايشـه الآخـرون، اقتـربت منه وابتـعـدت، قرأت الكثـيـر في الدوريات والكتب مما يقع على تماس معه، وعندما أردت أن أوضح صورته كما أصبحت واضحة في ذهني، اعترضتني صعوبات منها نسبة الأمثلة والشواهد والاستدلالات الى العقل الإيماني، والناس يرون أنهـا تلتـصق بالعـقل الديني وتسـتـمـد من حـقله، ومن هذه الصعوبات، لابل أبرزها تحديد ماينتمي الى سمات العقل الإيماني، وتخليصه مما ينتمي الى آليـات عـمل هذا العـقل، أو مـاينتـمي الى تجليـاته. فكثـيـرة هي الحدود والحقـول المشتركة، وكثيرة هي التداخلات، فما نحسبه سمة يظهر لنا بعد قليل أنه آلية أيضاً أو أحد التجليـات، ولآخذ مثلاً عـلى ذلك، الموقف من العـقـلانيـة؛ هذا الموقف يبـدو سـمة عندما يبرز العـقل الإيماني نقيضاً وعدواً للعقلانيـة، واللا عقلانية إحدى الآليـات التي يواجه بها العقل الإيماني ماهو عقلاني، ثم يبدو أخيراً أنه إحدى التجليات التي ظهر من خلالها لمن يريد أن يتعرف عليه ويتلمس طريقه. وهذا مـا أضطرني للحـديث عن موقف هذا العـقل من العـقـلانيـة، والأسطرة والخرافة، مع مافي ذلك من تكرار ملحوظ كنت مضطراً إليه. وبما أن ماكتبت كان قراءة في الواقع، فلا استبعد أن يكون قد فاتني بعض الجوانب، كمـا سـأكـون مسروراً عندمـا أرى من يعـقّب ويناقش ويسـتـدرك على الموضوع فهو يستحق في رأيي الكثير من الدراسة والتمحيص. وأعتذر للتقصير.

(٩)

أما الوعد بالخلاص ...

لقد كـان هذا الـوعـد الحـافز الأسـاسي والأول لأتبـاع الأديان والرسالات، بل لأتبـاع أي واعد بالخلاص على مستوى الدين، كما على مستوى السياسة.

والوعد بالخلاص ليس نشـازاً أو خطأ فكل الرسالات السـماوية، والمناهج الوضعـية الكبرى، نشأت على أرض الواقع الملوث والمبتعد عن الانسان وقيمه الرفيعة، وتصحيح مسـار التاريخ كان مهـمة شاقة، برزت أول مابرزت على أنها مسؤوليـة القوى الدينية، لأنهـا هي التي تصـدت أول مـاتصـدت لشرح الواقع، ومـا وراء هذا الـواقع، مما حـيـر الإنسان، ولم تكن هذه القوى الدينية قادرة على اجتذاب الناس والأتباع دون أن تعدهم بالخلاص مما هم فيه من صعوبات، وبقدرتها على تغيير واقعهم، ولم يكن ماهو أقل من

ذلك مقبولاً ليصنع أفقاً للمعذبين الحالمين بالخلاص. لقد كان الخوف من المستقبل منشأ القلق، والتحكم بالمستقبل إنهاء للقلق.

إذن، بالانطلاق من أرضية العذاب والخوف، تنطلق الرسالات الكبرى شارحة ومفسرة وواعدة.

ولقد كان الوعد بالخلاص على أكثر من مستوى:

ففي المستوى الأول كان الإنسان يحلم بالخلاص من الواقع السيء الذي يعيشه في خضم بحثه عن قوته وعن حاجاته اليومية التي ماكان يحصل عليها بسهولة بسبب الصعوبات الطبيعية (عقبات المناخ والأرض وغير ذلك)، والصعوبات البشرية (الاستغلال)، وربما كانت الصرخة الأولى التي أطلقها الإنسان باتجاه السماء، كانت لإملاء معدته الفارغة لا لإنقاذ روحه الضالة. وكما أن الأديان لم تستطع أن تتخطى مشاكل الواقع وتنجز المستوى الأول من مستويات الخلاص، فكذلك حصل لورثتها على هذا المستوي، أي المبادىء الوضعية التي تم الاستهداء بها للاستيلاء على الواقع، إلا أنه تم الاكتشاف مؤخراً أن الاستيلاء على وضع ما سهل إذا ما قورن بإمكانية تغيير هذا الوضع، وكما فشلت الأديان مسبقاً في القضاء على صعوبات الحياة ومشاكلها، كذلك فشلت الإيديولوجيات الوضعية في تحقيق هذا الهدف.

وبفشل المستوى الأول تم الانتقال الى المستوى الثاني من مستويات الخلاص، وهو الوعد بخلاص أخروي، أي إنقاذ الروح، والعودة الى الحياة في مستوى آخر تنتفي فيه الصعوبات التي واجهها المؤمن في حياته الأولى، إنها الحياة في الجنة حيث تتحقق الأحلام تعويضاً عن الأحلام الخائبة في الحياة الدنيا. ولم تكن الأديان أسرع في وعدها بالخلاص الأخروي من الأيديولوجيات الوضعية التي جعلت محازبيها يعيشون على مستوى الحلم، مالم تستطع تحويله الى واقع ملموس، فوعدت بالاشتراكية ثم بالشيوعية، حيث ينتفي العذاب والحاجة وتتحقق الأحلام والأماني، وكان غيرها قد وعد بتحقيق مجتمع الرفاه وتلبية المطالب.

ويبدو أن هذا الحلم لايجف، ولايضمحل، ولايتلاشى، ومهما أثبتت الأيام وأضافت من تراكمات، تشير الى هذا الحلم باعتباره دافعاً وحافزاً كبيراً، فإن الوعد يزداد حضوراً، وتزيده المخيلة الشعبية ألقاً، فقد أصبح المؤمن يعرف عدد الحوريات

اللواتي سيكن نصيبه في الجنة ويعرف مواصفاتهن، وهي كل المواصفات التي كان محروماً منها ويتوق اليها ويعرف أن كل الملذات التي لم يستطع أن يحققها عندما كان إنساناً يسعى على الأرض سيحققها دون أي عناء. إن العقل الإيماني يزيد الحلم ألقاً وحضوراً ويزيد المساعي نحوه اشتداداً، فيحيل قلق المؤمن الى نوع من الطمأنينة، وهذا جانب إيجابي، يدفع الحياة الى شيء من الاستقرار، ويبعد عنها شبح الخوف الذي يمكن أن يدفع الانسان في حالات اليأس الى ما لاتحمد عقباه.

وعلى العموم فإن طمأنينة من نوع آخر تحصل للمؤمن في حياته الدنيا جراء الأخذ بمفاعيل العقل الإيماني، فلا ننسى هذا الشعور الذي يحصل عليه المؤمن، بأن الخرزة الزرقاء التي علقها في سيارته أو على ثياب ابنه ستبعد عنه وعن أسرته شرور الحاسدين الحاقدين، كما لاننسى الطمأنينة الحاصلة من تعليق آية قرآنية مكتوبة بخط بارز أو صورة قديس في صدر المكان الذي يمارس فيه حياته، ولاننسى ثقته بالخلاص من أدران الماضي إذا هو قام بواجباته الدينية ولو شكلاً، فصيامه يشعره بالرضى، وصلاته تشعره بالرضى، وحجه يزيل عنه الخوف مما علق به من أدران الماضي، لأنه يعود كيوم ولدته أمه، وشفاعة النبي له (واجبة) كما أوضحنا، إذاً، كل ممارسة إيمانية فيها وعد بالخلاص، وهذا الوعد له جانبه الإيجابي على مستوى الطمأنينة المتحصلة، كما أن له مفعوله السلبي، الذي يشعر صاحبه بأنه يستطيع التخلص من ذنوبه التي يرتكبها متى يشاء، وهذا يسهّل عليه ارتكاب الأخطاء طالما أن إزالة أخطارها المستقبلية تحت السيطرة.

وبالرغم من ذلك يستمر القلق ويتجدد!!.

لقد كان الوعد بالخلاص، والحياة الروحية للإنسان تحت السيطرة من قبل تلك الجهات التي نصّبت نفسها وصية على حياة الإنسان الأولى والآخرة، وهذا يشعره بأن خلاصه لم يكن ولن يكون حقيقة واقعة. لقد كانت هذه الجهات رسمية فيما يبدو في اليهودية والمسيحية، وهي جهات صنعت لنفسها عالمها المميز من اللباس الى المسكن الى أسلوب الحياة المتمايز عن أسلوب حياة بقية المؤمنين. والدين الإسلامي الذي ليس في نصوصه الأساسية مايشير الى ضرورة وجود هذه الفئة الأكليروسية المميزة عن عامة الناس، لم ينج من وجودها، ضداً على الدين، والغريب أن هذه الفئة هي التي تؤكد عدم

شرعية وجود أية جهة وصائية على حياة الناس الأولى والأخيرة، مع ذلك أوجدت نفسها كفئة لاتقل عن رجال الدين اليهودي والمسيحي تمايزاً عن الشعب، ابتداء بتحكمها بالنصوص وإدارتها، وانتهاء بأزيائها وحياتها، مروراً بسيطرتها على حياة الناس من خلال شراكتها مع رجال الحكم، واللعب على أوتار السياسة، ولقد ظهر فساد هذه الفئة (وهنا أؤكد على خطر التعمم)، وفسادها كان مثار تعليق وتعقيب من كبار المفكرين والشهود على العصور. وأعتقد أن شهادة الفيلسوف الكندي ليست شهادة غفل في هذا المجال. فأبو يوسف، يضمن دفاعه عن الفلسفة رأيه بهم لأن رجال الدين يتحاملون على الفلسفة ويقذفون أنصارها والمشتغلين بها بتهمة الكفر والزندقة، فيكشف المنطق الحقيقي الذي يكمن وراء مواقفهم، يقول: «... ذباً عن كراسيهم المزورة التي نصبوها (لأنفسهم) من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين، وهم عدماء الدين، لأن من تجر بشيء باعه، ومن باع شيئاً لم يكن له. فمن تجر بالدين لم يكن له دين ...»[٢٤].

إن محاولة الخلاص من وصاية ما واستغلال ما، لايجوز أن تكون سبيلاً للوقوع في أسر وصاية أخرى من نوع آخر، حتى ولو كانت وصاية رجال الدين حراس الإيمان الذين نصبوا أنفسهم لذلك مع اعترافهم بأن هذه الوصاية ليست من الدين في شيء، ورفض الوصاية يعني إسقاط جميع مفاعيلها مادية كانت أو معنوية، خاصة تلك التي تأخذ شكل الاتهامات بالكفر والإلحاد والبعد عن الطريق القويم ومخالفة النصوص والموروث وصحيح الدين، وفي الأعم الأغلب لايكون المتهم قد خالف إلا قناعات هؤلاء، لأنهم جعلوا من قناعاتهم مقاسات لإيمان الناس، ومخاطبتهم لاتكون إلا بـ (أبونا، سيدنا، مولانا، سماحة، غبطة، سيادة ..)، وكل هذا يدل على مدى التحكم والسيطرة باعتبار أن هذه الألقاب ألقاب متعالية، تصنف في حقل قيم السيطرة والاستغلال، وتعيد إنتاجها.

(١٠)

عقدت فصلاً في هذا الكتاب للحديث عن الزمن وكيفية تعاطي المؤمن معه، أي كيف يُقرأ الزمن إيمانياً، وقد كان هذا الفصل أول ماكتبته فيه، والحديث عن الزمن

يفتح أفق الحديث عن المكان، لما نعرفه من تلازم هذين المفهومين، وإذا كان الزمان غير متمايز بعضه عن بعضه الآخر، وليس لزمن خصوصية إلا بالأحداث التي تعبر فيه وتنسب إليه، أي أن الزمن هو مفعول إنساني بالدرجة الأولى، خاصة في طريقة فهمه والتعاطي معه، فهو كما وصفناه محايد، أما التحيز فهو إنساني، مرتبط بالتجربة البشرية، وكذا المكان، من هذه الزاوية.

وكما أن للزمن الإيماني خصوصيته، كذلك للمكان الإيماني خصوصيته ربما أكثر من الزمان، ودراسة المكان المقدس، أو المكان في العقل الإيماني، تحتاج الى دراسات مستقلة، توضح دور الجغرافيا الإيمانية في حياة الناس (المؤمنين)، وأسس تشكل هذه الجغرافيا، وسيكون مرورنا عليها هنا سريعاً من باب استيفاء عناصر الموضوع.

لكل دين أمكنته المقدسة. والأمكنة المقدسة في مفهوم كل دين هي الأمكنة التي شهدت بعض نشاطات نشوء هذا الدين أول ظهوره، وبالتالي تلك التي شهدت تطور وارتقاء هذا الدين في كل مرحلة من مراحله. والتاريخ والأحداث يثبتان بقاء المشاعر المرتبطة بأمكنة معينة، حية في نفوس وقلوب الناس المؤمنين. أليس على أساس اعتبار قداسة المكان وبحجة ذلك قامت الصهيونية بالتوجه الى فلسطين دون غيرها من الأماكن المعروضة على اليهود لإقامة كيان مستقل لهم. يحيل الى هذا المفهوم عبارات وألفاظ، مستقدمة من أيديولوجيا معتقدية، مثل (أرض الميعاد، الأراضي المقدسة) وهذه الأرض المقدسة، تتخصص بقع منها بقداسة تفوق قداسة بقع أخرى، فبعض أحياء القدس أو الخليل أو غيرهما، تفوق قداستها بقية المناطق.

وكما أن مكاناً يكتسب من كونه شاهداً على التدشين، فكذلك إن أمكنة أخرى تشهد تدشين مراحل مهمة في مسيرة دين ما أو مذهب متفرع عن هذا الدين، تكتسب أهميتها وقداستها من شهوديتها، وارتباط عواطف الناس بما انبثق عن ذلك التدشين، مما لم يعد يُعدّ جزءاً من كل بل أصبح كلاً مستقلاً.

وإذا طبقنا الكلام السابق على المسيحية، فإننا نلاحظ كثرة الأمكنة المقدسة عند طوائف المسيحيين، وذلك لانتشار نشاط المسيحية التدشيني (التبشيري) في أنحاء كثيرة من المعمورة، فالبداية في الناصرة وبيت لحم والقدس وغيرها من أراضي فلسطين كما في مصر وسوريا والأردن ولبنان، لتتوزع بعد ذلك على مساحة أوسع وشبكة أعم

من الأراضي، وتحديداً أماكن معينة أنطلق منها التبشير أو توقف فيها أو شهد فيها أحداثاً مميزة، كدمشق وانطاكية والاسكندرية ثم روما والقسطنطينية، وأماكن أخرى كثيرة مأهولة، وغير مأهولة إلا من بعض الرهبان الذي سكنوا ويسكنون أديرة بنيت في أماكن الذكريات، ولاننسى مالهذه الذكريات من دور في إلهاب المشاعر. وأمامي وأنا أكتب هذه السطور مشهد حي يثبت الفكرة التي أتحدث عنها، إنه مشهد تلفزيوني، في بث مباشر يعرض زيارة البابا (رأس الكنيسة الكاثوليكية) الى دير القديسة كاترين في سيناء، في مشهدية يشارك فيها آلاف المؤمنين، لأن الدير بني في بقعة مباركة، في المكان المقدس الذي تجلى فيه الله لموسى أثناء قيادة شعبه في رحلة الخروج من مصر الى أرض الميعاد في فلسطين، كما تخبر نصوص الوحي (الكتب المقدسة). إنها تحقيق حلم باستعادة اللحظة والوقوف على مشارفها على المستوى الإيماني.

إذن المكان المقدس، والبقعة المباركة، استتبعت تعلق أفئدة المؤمنين بها، يظهر ذلك من خلال الزيارات المتكررة لهذه الأمكنة من قبل المؤمنين، هذه الزيارات تسمى (حجاً)، وأحد أحلام المؤمن أن يقوم به كطقس مفروض حسب الطاقة.

ولم يكن ارتباط الإسلام والمسلمين بالأمكنة أقل من ارتباط الأديان التي سبقته، وكما أن المسيحية قدست الأمكنة التي شهدت أحداثاً في تاريخ اليهودية، فإن الإسلام أعاد الاعتبار لكل الأمكنة التي ارتبط ذكر الأنبياء بها، فتقديس مكة حاصل قبل الإسلام، وقد أقره، على أساس اعتبارها مكاناً لظهور فعل إيماني لإبراهيم وولده اسماعيل، إذ بنيتِ الكعبة، كذلك اعتبار حركة هاجر أم اسماعيل وهي تسعى لتحصين حياة ولدها وحمايته من الأخطار، كما أن الإسلام أعاد الاعتبار لبيت المقدس بالتوجه اليه أثناء الصلاة، قبل أن يأمر محمد بالتوجه الى الكعبة كقبلة بديلة ومستقلة توحي باستقلال إيمان المسلم عن إيمان اليهودي والمسيحي، وتمايزه عنهما، وهي نقلة لها بعدها ومعناها الاستراتيجي.

وكما كان للأماكن المقدسة عند اليهود والمسيحيين قداستها في الإسلام، كذلك أوجد المسلمون أمكنتهم المقدسة المستقلة بالإضافة الى مكة (أم القرى) كذلك المدينة المنورة (يثرب) باعتبارهما مدينتان أو مكانان شهدا المراحل التدشينية الأولى للدين الإسلامي. لقد حددت المخيلة الإيمانية كل مكان تحدثت سيرة النبي محمد أنه زاره

وأكسبته شيئاً من التقدير والقداسة، كما حدث لضاحية دمشق (القدم)، كما حدث ذلك في المسيحية، و(قانا) شاهد على ذلك.

وإذا كان للأديان أمكنتها المقدسة كذلك للمذاهب والطوائف أمكنتها المقدسة المرتبطة بالمراحل المهمة من تاريخ هذه الطوائف، وبالأحداث التي انطلقت منها، مسجلة الإشارة الى محطات إيمانية مميزة. فكربلاء والنجف وقم هي أماكن لها كل القداسة التي تحوزها أماكن أخرى، كما يتجلى ذلك في فهم وحراك الشيعة. وهم ليسوا استثناء في هذا المجال.

ومدافن الشخصيات التي تنتمي الى اتجاه إيماني معين أو كان لها دور بارز في هذا الاتجاه، اكتسبت القداسة من دور هذه الشخصيات أثناء حياتها، فمقامات السيدة زينب والحسين في دمشق والقاهرة، مراكز تقديس وموضع احترام، وكذلك مقامات خالد بن الوليد في حمص والشافعي في القاهرة، وابن عربي في دمشق والكثير الكثير غيرهم من القديسيين والأولياء أيضاً لهم أمكنتهم المقدسة، وزوارهم المتبركين.

لانترك الحديث عن الأماكن المقدسة ودورها في تشكيل العقل الإيماني، دون المرور بالحديث عن أماكن العبادة، التي يبنيها الناس لممارسة عباداتهم، وغالباً مايتم الانفاق عليها بسخاء يثير الشعور بالتباهي، كما يتم التباهي بجمالية هذه المواقع العبادية وكلفتها الضخمة. وهي تكتسب القداسة من خلال المهمة التي وجدت لها، بعيداً عن الأمانة في تأدية المهمة، أو بالرغم من الكثير من السلبيات التي تعتور بناءها، من الهدف المتوخى الى الأسلوب المتبع. لقد كان حديث الناس ووسائل الإعلام، تلك الكلف الهائلة التي اقتضاها بناء مسجد في المغرب، استخدمت فيه تقنيات مميزة، حيث بلغت كلفته المليارات والناس في المغرب وغير المغرب، من رعايا الإسلام، ومن رعايا غيره، يموتون جوعاً. هنا نتذكر الكلمة المشهورة التي قالها ابراهيم بن أدهم (السلطان ابراهيم المدفون في جبلة على الساحل السوري) وهو الصوفي المشهور: «لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة مسجد»[٢٥]. كما يحضر رد عمر ابن عبد العزيز على من طلب منه كسوة الكعبة: «البطون الجائعة أولى»[٢٦].

لقد أصبحت هذه الأماكن المقدسة تحفاً فنية، وثقت مهارة آلاف الفنانين على امتداد العالم والتاريخ، كما أكدت أن الأديان التي جاءت لتخليص الإنسان من القهر،

مستخدمة إياه في بناء هذه الصروح (أو الكثير منها) والتي لاتعني الآلهة، لأن مكان الآلهة عقول الناس وقلوبهم، وكثير منها أشبه بالعمارة الوثنية، فالآلهة تعبد في أبسط الأمكنة ولاشرط لها إلا الطهارة والنقاء والإخلاص، لكن هذه الأماكن وهذه الصروح تعني أصحاب العُقَد من حكام الدين والدنيا، الذين أرادوها شاهداً على قهرهم لبني الإنسان، الذي يدفع من حياته ودمه وماله وفكره ليشيد هذه الصروح المقدسة التي تنسب الى أرباب الزمان. ولاشك أنه سيظهر أثر العقل الإيماني في هذه التبرعات السخية لبناء أماكن العبادة، عند المقارنة بما يتبرعون به عندما يطلب اليهم أن يفعلوا ذلك في سبيل قضايا أخرى من شأنها تربية عقل الإنسان وذوقه وقيمه، كالمراكز الثقافية أو المسارح أو أماكن النشاطات العامة الأخرى، التي لاتدخل في باب الإيمان، حيث لايجد المتبرعون الثناء والإشارة الى كرمهم، الذي يقابله ثواب ربهم، عندها سنجد أن الاندفاع تحول الى احجام، والسخاء تحول الى بخل، وهذا من مظاهر العقل الإيماني، وعملانيته.

هوامش التمهيد

(١) - ندره اليازجي ، رد على اليهودية - واليهودية المسيحية ، دارطلاس - دمشق ، طبعة ثالثة ١٩٩٠ ص ٢٥٩ .

(٢) - المرجع السابق ص ٥٤٥ .

(٣) - المرجع السابق ص ٥٤٥ .

(٤) - المرجع السابق ص ٥٤٧ .

(٥) - قرآن كريم ، الحجرات /١٤/ .

(٦) - قران كريم ، الأحزاب /٣٥/ .

(٧) - قرآن كريم ، الفتح /٤/ .

(٨) - قرآن كريم ، التوبه /١٢٤ - ١٢٥/ .

(٩) - د . محمد شحرور ، الإسلام والإيمان - منظومة القيم ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة أولى ١٩٩٦/٨ ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(١٠) - د . محمد عابد الجابري ، نقد العقل العربي - تكوين العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة خامسة ١٩٩١ ص ١٣ .

(١١) - المصطلحات مستمدة من المرجع الاسبق ص ١٥ نقلاً عن الفيلسوف لالاند .

(١٢) - د . صادق جلال العظم ، نقد الفكر الديني ، دار الطليعة - بيروت ص ٢٥ .

(١٣) - شيلا أوستراند ولين شرودر ، علم نفس الحاسة السادسة ، نحو برهان وتفسير علميين للظاهرات الباراسيكولوجية وفوق الطبيعة ، دار الطليعة - بيروت ، طبعة رابعة ، أيلول ١٩٩٤ ص ٢٢ .

(١٤) - المرجع السابق ص ٢٢ .

(١٥) - المرجع السابق ص ١٦ .

(١٦) - المرجع السابق ص ٢٠ .

(١٧) - المرجع السابق ص ٧١ .

(١٨) - المقصود الشيخ العلامة سليمان الأحمد - المتوفي عام ١٩٤٢ في محافظة اللاذقية سوريا ، وقد كان على درجة واضحة من الاستنارة ، حيث كان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، في زمن سيطرة تخلف مريع في منطقته خلال فترة حياته ، وهو يقول في دحض وجود الجن التابع :

إنما الجن والتوابع والتنجيم   في مذهبي حديث خرافه

ديوانه ص ١٢٨

ويقول أيضاً :

أخفتم كيد تابعة وسحر   وجني وشيطان خبيث

متى ياأيها الحازي أتدني   أتاك الوحي بالخبر النبيث

ديوان شعره ص ١٢٤

والعبارة الواردة في البحث هي جزء من بيت شعر يقول :

أنا في اعتقادي كل فعل الواجبات من العبادة

ديوان شعره ص ٢١٤

(١٩) – يوسف ابراهيم يزبك ، النفط مستعبد الشعوب ، سلسلة قضايا وحوارات النهضة العربية /٣/ ، بإشراف محمد كامل الخطيب ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٩٩٠ طبعة ثانية ص ١٠٦ – ١٠٧ .

(٢٠) – كان ذلك في مجلة النهج عدد /١٨/ ربيع ١٩٩٩ .

(٢١) – د . محمد أركون ، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل ، ترجمة هاشم صالح ، دار الساقي ، طبعة أولى ١٩٩٩م .

(٢٢) – د . محمد أركون ، المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢٣) – المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٢٤) – د . حسين مروه ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابي ، طبعة رابعة ج٢ ص ٥٩ .

(٢٥) – هادي العلوي – مداوات صوفية – من تراث المشاعية في الشرق ، دفاتر النهج ، منشورات دار المدى للثقافة والنشر – دمشق ، طبعة أولى ص ١٨٧ .

(٢٦) – ابراهيم بشير الغويل ، نحو «أو مشروع» الطريق الثالث ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٩ ص ١٨٨ .

الفصل الأول

سمات العقل الإيماني*

---

* تم تعديل هذا الفصل بعد أن كان قد نشر في مجلة «المنهج» العدد / ٢٠ خريف ١٩٩٩ .

إذا كان العقل الديني يمثل مرحلة العقل بالقوة، فإن العقل الإيماني يمثل العقل بالفعل، فالعقلان ينتميان الى حقل واحد، إلا أن العقل الإيماني يختلف عن العقل الديني في كونه عملياً لانظرياً، أي ممارسة أكثر منه كلاماً، ويتفقان في المرجعية، إنه الممارسة الشعبية، وشكل تجلي الفكر في الواقع، واقع المؤمنين البسطاء. إذن يختلف عن العقل الديني في الدرجة واللون لا في النوع، على حد تعبير د. نصر حامد أبو زيد في مجال تفريقه بين الخطاب الديني التقليدي وخطاب الجماعات المتطرفة (الجهادية)[1].

لقد كان التواصل مع التراث ومحاولة إحيائه، باعتباره حصن الشخصية العربية والإسلامية، يتم من بوابة النخبة. عندما أردنا مواجهة الآخر لجأنا الى هذا التراث، فأفضى بنا اللجوء الى الدين، باعتبار أن التراث قد جرى تفريغه من المضامين الأخرى تقريباً ليصبح مفهوماً منه الى حد كبير أنه الدين الإسلامي، حصن الأمة وحامي كيانها. طبعاً أقول الدين الإسلامي لأن مساهمة الأديان الأخرى في تراثنا العربي لم تكن بمثل قوة الدين الإسلامي، مع عدم القدرة على تغييبها.

عندما كان العاملون على إحياء التراث والتواصل معه، منذ بداية عصر النهضة الى اليوم، يطلّون على هذا التراث، فإنهم يطلّون عليه من بوابة أبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل أو جعفر الصادق، ومن ثم الأشعري والغزالي وصولاً الى ابن تيمية وابن الصلاح وابن قيم ... الخ، ومن جانب آخر كانت الإطلالة على التراث تتم من بوابة المعتزلة والكندي والفارابي وصولاً الى ابن رشد ... الخ.

لقد جرب كتابنا وباحثونا والمعنيون بشأن النهضة، أن يذكرونا بكل ما أنتج هؤلاء من فكر، وفتشوا في كتبهم وميراثهم، وقدموا شروحاً وإيضاحات لهم، ونشروا مؤلفاتهم، واستفاضوا في شرح مبادئهم وأفكارهم، حتى أصبحنا نقول، إن لدينا عقلاً

إسلامياً، أو عقلاً دينياً، أو فكراً إسلامياً أو عربياً يتربع على عرشه هؤلاء الأساطين.

نخبة من المثقفين العصريين، منذ الأفغاني ومحمد عبده الى محمد عابد الجابري وطيب تيزيني وحسن حنفي، صبّت وتصب جهوداً جبارة وكبيرة - ولاشك في أنها مشكورة - للتواصل مع نخب الماضي.

إذن، كان إحياء التراث حتى يومنا هذا حديث نخب، وقد فهمنا أو حاولوا إفهامنا طريقة تجلي وعمل العقل الديني كما ظهر عند كبار المثقفين. وبالنظر الى واقعنا فإن المتعاملين مع النخب المعاصرة، أعداد قليلة من متتبعي الحركة الثقافية، وهذه الأعداد قليلة الى حد مرعب، بدليل عدد النسخ المطبوعة أو المباعة لأي عمل فكري جاد ومميز، مجلة كان أو كتاباً في وطننا العربي، فإذا سلمنا بهذه النقطة وأعتقد أنها حقيقة، فإن السؤال الذي يتبادر الى الذهن: هل كانت الأعداد التي تتابع الانتاج الفكري لعلمائنا ومفكرينا القدامى (نخب الماضي) أكثر من الأعداد التي تتابع نتاج مفكرينا وكتابنا المحدثين (نخب العصر)؟، وإذا كان التشابه حاصلاً، وكان عدد المتابعين لنتاج المفكرين القدامى ليس بالنسبة الكبيرة من الجماهير التي كانت تعاصرهم، وكان هؤلاء المتابعون للمفكرين لايبلغون بحال من الأحوال نسبة الملح في الطعام، فإن الملح إذا كان ضرورياً ويجعل الطعام مقبولاً فإنه لايصلح أن يكون وحده طعاماً.

كيف ننقل الحقيقة ونعرفها ونعرّف عليها إذا اقتصرنا على هذه النسبة الضئيلة من العاملين في حقل الثقافة النخبوية؟ والناس، الجمهور العريض، العامة، من يعرفنا على توجهاتهم وفكرهم وعقلهم؟ هل هم بدون عقل فردي أو جمعي؟ هذا غير علمي. وإذا كانت الأيام قد برهنت على إهمال هذه الكتلة فليس من العدل ولا في مصلحة العلم الاستمرار بإهمالها.

من هذه الزاوية أردت أن ألقي حجراً في المياه الراكدة، دون ادعاء الإحاطة أو الباع الطويل أو القدرة على تحريك المياه أو تغيير وضعها الآسن، إلا أنها المحاولة !...

لماذا هذه القطيعة بين المثقف والعامة؟ لماذا اهتممنا بفكر النخبة وتركنا الجمهور؟ ومن الذي يمثل الأزمنة والعصور: أهم الناس الذين يعيشونها أم نخبها وقياداتها؟ لقد بقي فهمنا لمجتمعنا العربي الإسلامي القديم قاصراً، كما هو فهمنا لمجتمعاتنا

المعاصرة. بقي فهمنا قاصراً لأن التاريخ الذي وصلنا هو تاريخ الشخصيات الكبيرة، التي تصنع حولها ساحة كهرطيسية، أولها كارزميتها، كما أن ماوصلنا يركز على الأحداث الكبرى ذات المستوى السياسي العالي، بينما نحتاج الى حفر تاريخي في الكتب والنصوص لنعرف أية معلومة عن حياة الناس البسطاء، الذين يصنعون التاريخ فعلاً بجهودهم وكفاحهم وعرقهم الذي يستثمره القادة، دون أن يمدحوا بالقصائد الشعرية، أو تشاد لهم القصور، أو تصنع لهم التماثيل، ومعرفتهم في كتب الأدب والنوادر والحكايات الشعبية أكثر من معرفتهم عن طريق كتب التاريخ إنهم سماد التاريخ على حد تعبير (غرامشي).

تتغير الأيام وتتبدل، وكذلك الأفكار والثقافات، وتنشأ الحضارات ثم تضمحل وتزول، لكن لم يأت يوم سجل زوال الشعور الديني (الإيمان) بعد أن نشأ في أعماق النفس البشرية. لم يكتب لشيء ما، لفكره، لثقافه، لمعنى، لحضاره، لتوجه، مثل هذه الاستمرارية، وهي لاتعد بالاضمحلال. فالإنسان منذ نشأته وجد نفسه في بحث دائب لمعرفة ذاته. وفي خضم بحثه عن هذه الذات، اهتدى الى إلهه الذي هو جوهر هذه الذات، وأجلى مظاهر وعيه لها، ولكنه لم يرض هذه الحقيقة، ولايزال مقتنعاً بأنه اهتدى الى جوهر مغاير لجوهره. وتعدد الأديان وتاريخها وما أنجزته في مجال المعرفة الدينية (علم كلام، عقائد، توحيد ...) خير شاهد، ونجد أن الصفات التي اسبغها الإنسان على إلهه، تنتمي الى الحقل ذاته الذي يستمد منه صفاته الشخصية (العلم، القدرة، الحياة، .... الخ)، ولكي يكون شيء مغايراً لشيء، يجب أن يستمد الشيئان مفهوميهما من حقلين مختلفين.

هذه الصلة الوشيجة بين الإنسان والدين، لم تكن ملك العامة التي تثبت الأيام أنها هي المعنية عند دراسة الأديان وانتشارها، وتطورها، وعمق الالتزام بها، لما نعلمه من خفّة تديّن النخب، وضعف إيمانها. إن العامة تمارس الدين، ونراه حاضراً في حياتها اليومية، لا باعتباره عقلاً فوقياً، أو مفارقاً، وليس باعتباره بنية متعالية، ولكنه يشكل جزءاً من كيانها، وهي في ممارستها له بعفوية وبدون كثير من التعب والتفكير، ودون سابق إصرار أو دون أن تدري، تظهر عقلها الإيماني الذي يدور عليه حديثنا. إذن يتحول المعتقد الديني عندها الى إيمان، الى ممارسة حاتيه، ونشاط يومي في خضم

الحياة وتختفي المباديء النظرية.

المؤمنون لم ينتظروا أرباب المذاهب لممارسة طقوسهم، فممارساتهم الدينية ونشاطاتهم في هذا المجال، موجودة بوجود هذه المذاهب ومن دونها، قبلها وبعدها، من دون الأشعري والغزالي وابن تيمية وبوجودهم، قبلهم وبعدهم، بوجود المعتزلة أو من دونهم، مع النبي وخلفائه، مع علي ومع معاوية، مع الخوارج ومع غيرهم، في ظل هؤلاء أو دون بعضهم، مع عدم إنكار قدرة القيادات السياسية والروحية على التأثير في مجرى الحياة وتدينها.

إن الحالة التي وصل اليها إيمان الناس في عصرنا، هي من التشوّه بحيث لاتعطي الصورة الحقيقية عن الأديان، وما جاءت به من عقائد، إن صورة الناس الإيمانية، وقدرة المؤمنين على مراكمة الاضافات على ما آمنوا به من عقائد، ومارسم لهم من طقوس في الأديان التي ينتمون اليها، تشير الى أن النصوص الثابتة التي لايمكن أن يلحقها التغيير باعتبارها نصوص مقدسة، لاتمنع التطورات والإضافات التي تطرأ على إيمان الناس وممارساتهم الطقسية الدائمة التوليد لما هو جديد بفعل العادات والمصالح والضعف الثقافي أحياناً وغير ذلك، إن حراسة النصوص غير كافية بدليل أن أياً منها، بالرغم من قوته ومكانته وكونه حارساً قوياً، لم يحل دون توليد نصوص أخرى يتبعها الناس، أو طقوس يمارسونها الى جانبه أو بالضد منه.

لقد كان للفقهاء والمصنفين للأدبيات الإسلامية نهجهم المغاير لاتجاه الواقع كما لاتجاه النصوص الأولى، فمحمد أحمد خلف الله يرى أن دارسي القرآن فرضوا أنفسهم وثقافتهم على القرآن ولم يدرسوه بمعطياته الخاصة، معطيات عصره ولغته وأسلوبه، وهذا ماجعلنا نعرف القرآن من خلال معطيات ثقافة الدارسين والشارحين لا من خلال مايقدمه النص البريء من المؤثرات الأخرى[٢]. إذن فهم النص كان فهماً موازياً لقناعات إنسانية خاصة وثقافات خاصة، أي لاتخلو من الذاتية والغرض والبيئة، وهذه كلها تقع في صلب العقل الإيماني.

لقد أساءت المصنفات كثيراً للغايات المتوخاة من التدين حين ابتعدت عن الفهم الحقيقي للإيمان كما تؤسسه النصوص الأساسية، يقول د. محمد شحرور وهو يخلص: «إلى تلخيص مافعلته الأدبيات الإسلامية بالثقافة العربية الإسلامية وبالفكر

الإسلامي اليوم، حين ربطت مفهوم الدين والتدين بشعائر الإيمان باعتبارها من أركان الإسلام بعيداً عن المعيار الأخلاقي .. فأصبح الحكم على دين الإنسان يتم بدلالة صلاته وصيامه.

وحين خلطت الحلال والحرام (وهو شرع إلهي) بالمسموح والممنوع (وهو قانون وضعي) بالمعروف والمنكر (وهو أعراف وتقاليد اجتماعية) بالحسن والقبيح (وهو ذوق فردي). حتى صار وجه المرأة حراماً .. وصوتها حراماً .. والموسيقى والنحت حراماً .. والتثاؤب بفم فاغر حراماً لأنه يدخل الشيطان .. وقص الأظافر في الليل حراماً ... وحين ألفت العديد من المجلدات في فقه الشعائر التي سميت العبادات ثم اختصرتها، ثم شرحت مختصرها ثم أوجزت ... فأخذ الوجه الشعائري من الدين الأولوية المطلقة على الوجه الأخلاقي، حتى انعكس ذلك في التربية المنزلية .. فأصبح إفطار يوم من رمضان، أكبر كثيراً من الكذب»[٢].

في مثل هذا الواقع لانستطيع التحدث عن إيمان نقي أو عن التزام دقيق بما بشرت به الأديان يوم جاءت خلاصاً للإنسان، إننا يمكن أن نتحدث عن الطريقة أو الطرق (والطرق متعددة بتعدد الجماعات الإيمانية في كل دين) التي يمارس بها الإنسان ما آمن به من قيم دينية، وهي طرق متغيرة ومتلونة بتغير الأيام وتلون الحياة.

ولا أشك في أن المؤمنين في إطار الديانة المسيحية، يعيشون مثل هذه القضايا، وربما أكثر، فارتباطهم بالقديسيين ورؤوس المذاهب وتأثير هؤلاء كان أكبر فيهم بسبب وجود هيكلية أو جسم لاهوتي رسمي في الكنيسة. وتراث المسيحية الفكري، ونتاج كبار رجال لاهوتها في مجال التنظير والتوجيه والشرح الديني، قد لاينطبق بالضرورة على الممارسة الحياتية اليومية المباشرة للمؤمنين في إطار هذه الديانة. ففلسفة توما الاكويني ليست الشغل الشاغل للمؤمن الذي يلون البيض في عيد القيامة، أو يرتدي القناع في عيد البرباره. ومايقحم على الإسلام والمسيحية، فهو بالتالي قد يكون من سمات اليهودية.

إذن، إن عقل المؤمن العادي وكذلك قيمه التي تبرز في ممارساته قد يكون بعيداً عن المجلدات والشروح وشروح الشروح، بعيداً عن المكتبات وعن الأزهر والزيتونه والنجف مع شدة تأثيرها، ولكن ليس بعيداً عن مقام السيدة زينب وضريح الشافعي

والادريسي وخالد بن الوليد وآلاف الأضرحة الأخرى، ولا عن محمد متولي الشعراوي وعمر عبد الرحمن أو عن مئيركاهانا، كما لايكون بعيداً عن ليالي عاشوراء والقديسه برباره وبابا نويل والقديس فالنتاين.

يجب أن نعيد النظر في طريقة تكون العقل الإيماني في أمكنة أخرى، وعبر قنوات أخرى، غير الموسوعات والمجلدات، إذا أردنا أن نتعامل بفاعلية مع هذا العقل الجماهيري المؤثر في توجهات الحياة العامة، يجب علينا أن نخرج من حالة الإهمال لهذا القطاع وعقله الجمعي، في الأغلب، الشفهي أو التلقائي المباشر، الذي يحدد موقفه مما يعترضه من قضايا بكلمة أو صرخة أو تميمة أو حرز، بتشهد أو برسم إشارة الصليب أو بأمنية مكتوبة توضع في ثقب من ثقوب حائط المبكى. لكن ليس بالضرورة ببحث أو كتاب.

من الماركسية تعلمنا أن البناء الفوقي هو انعكاس للبناء التحتي، ونحن عادة نعرف البناء الفوقي بعد معرفة البناء التحتي، ولكن في موضوعنا هذا، نحن مضطرون للقول بأن الفاصل بين البنائين كبير، فقد كان العقل الديني يمارس حضوره في المؤلفات والكتب والعقول التي تصوغ مقولاتها في البروج العاجية، وتجادل وتناقش داخل قصور الأمراء أو المواقع الدينية المميزة، فتصوغ رؤية نظرية تشكل ماأنصب عليه جهد الباحثين في عصرنا الحديث وهو البناء الفوقي على المستوى الديني. غير أن العامة من المؤمنين كانت تمارس تدينها، أي البناء التحتي في مجال الدين، في مساجدها وكنائسها، وأزقتها وحواريها، مع رجال الدين البسطاء المندمجين مع الكتلة الجماهيرية للمؤمنين بقيمها السحرية والخرافية.

إن التواصل مع الحراك الاجتماعي وفهم توجهاته التي يلعب فيها الشعور الديني دوراً كبيراً، بتحوله الى ممارسة إيمانية، يملي علينا ضرورة العمل على معرفة هذا العقل الإيماني وآلياته وسماته وكشف دوره، وتماهيه مع ماهو مقدس علماً بأنه نتاج إنساني في أغلبه، أنتجته الكتلة الشعبية المؤمنة في تفاعلها مع أحداث عصرها على مر العصور، لكنها أعطت المقدس دور القيادة ضماناً لشمولية السيطرة وقطع الطريق على الاعتراض.

إن تجليات العقل الإيماني مزيج من الدين والعادات والموروث والمصالح، كما تأخذ

هبَّاته الجمعية الجماهيرية منحى عاطفياً.

لا أحاول قراءة العقل الإيماني في التراث والنتاج الفكري للمفكرين، كما يحدث في التعرف على العقل الديني ومنتجه الثقافي، بقدر ما أعتمد في التعرف عليه على قراءة الواقع، قراءة الأحداث، واللجوء الى الكتب يكون للمقارنة أو لتعقبه تاريخياً وللربط والإيضاح، وهي محاولة محفوفة بالمخاطر، قد تصيب وقد تخطيء، ثم إنني أرجو أن تساعد مساهمتي على التعمق في معرفة هذا العقل وآليات عمله. فالعقل الإيماني لا العقل الديني هو الذي نعايشه على أرض الواقع وهو الفاعل في الحياة اليومية.

إن صفات العقل الإيماني متغيرة متلونة، لأنها متأثرة بعصرها والحراك الاجتماعي فيه، فالجماهير المؤمنة كما سنلاحظ ليست معزولة عن الأحداث، ولكن ليست بالضرورة تتعامل معها وتعكسها كما يجري لدى النخبة السياسية أو الثقافية أو الدينية، ثم أن هذه السمات متداخلة يصعب الفصل بينها، وإذا كنا نفعل ذلك فلتسهيل القراءة والتعرف على هذا العقل بشيء من الوضوح.

ثم إنه إذا كانت بعض هذه السمات تحمل شحنة سلبية فإن هناك سمات أخرى تحمل شحنة إيجابية، ولايزال الكثير من الأعمال الإيجابية المندفعة باتجاه ما هو حق وخير وجمال يستمد أندفاعه من القيم الإيمانية كما سنوضح.

وهنا أود أن أتوجه الى القراء بطلب المعذرة عما يعتور الموضوع من أخطاء أو نقص أو تقصير فأنا كما قلت لا أقرأ هذا الموضوع في الكتب على الأغلب بل أقرأه في الواقع أيضاً، في الحياة.

ومن أبرز سمات العقل الإيماني:

١ - الإتهامية

يطل هذا العقل على الناس بكونه عقلاً إتهامياً، ويبرز الإتهام في التراشق الطائفي والديني، وهو تراشق يخلو في الكثير من الأحيان من التبصر وإعمال الذهن، ولولا اتهام كل فئة دينية للأخرى بالخروج على المبادىء والقيم لما كان يجوز لها أن تتمايز عنها، ولايقتصر الاتهام على أن يكون تراشق دين ودين أو طائفة وطائفة، بل

قد يكون الاتهام في إطار الطائفة الواحدة، والاتهام ليس كلاماً يقال فقط، بل وصمة وأعلان حرب، وإخراج عن خط القيم والأخلاق والحقيقة، وإدخال في الشر واللعنة، ويهدف الى الحرص على التمايز وتأكيد الذات.

إن اتهام فرد ما حاول أن يشق طريقاً مغايراً بأنه ملحد أو غير مؤمن أو غير متمسك بأهداب دنيه أمر وارد، وقد لايكون الاتهام مبرراً، ولا صحيحاً، أو أن الخطأ المرتكب - إذا كان هناك خطأ - لايستحق هذه التهم، فصدور تصرف غير مألوف من هذا الشخص أو ذاك، لمحاولة التجديد في اللباس أو العادات أو المقتنيات العصرية، قد يدفع الجمهور البسيط من المؤمنين - وغالباً بقيادة أحد رموز الإيمان - الى اتهام هذا الشخص بالخروج على قيم دينيه متوارثه، وكثيراً ماعانى أولئك الذين غيروا في أزيائهم لينسجموا مع ماهو جديد، من التهم المؤذية سواء أكانوا ذكوراً أو إناثاً، ويبلغ الاتهام الحد الأقصى في حالات الإناث لحساسية وضع الأنثى، وكثيراً ماشاغبت العامة من المؤمنين على أديب أو مفكر واتهمته بالخروج على القيم الإيمانية، نتيجة كلمة أو موقف أو رأي، وربما كان الشغب ناتجاً عن تحريض جهات لها مصلحة في الإبقاء على الفاعلية الاتهامية لعقل العامة من المؤمنين كسلاح في المواجهة. ففي حدث غير بعيد زمانياً كاد الكاتب التركي (عزيز نيسين) أن يكون ضحية شغب المؤمنين عليه لأنه دافع عن سلمان رشدي، صاحب (الآيات الشيطانية) علناً، ولولا هرب الكاتب من باب خلفي لأحد الفنادق في بلده تركيا كان ينزل فيه، لما نجا من أيدي مشاغبين - ربما موجهين - لم يفهموا الحدث بشكل كاف، بل تأثروا بما سمعوه. وهذه السمة ليست حديثة، فقد كانت الجماهير المؤمنة جاهزة للانقضاض على كل من يشار اليه بالخروج على الدين، تاريخياً، قبل التأكد مما إذا كانت التهمة كيداً بعيداً عن الحقيقة أم لا. والملاحظ أن ردة فعل الجماهير المؤمنة على الاتهام ردة إجرائية عملية عفوية أو مدبره ينقصها التعمق في الفهم. إذن يمكننا أن نلاحظ قابلية العقل الإيماني للتجييش وهي سمة قد نراها تتكرر، ونحن نتحدث عن السمات الأخرى.

لقد اتهم كل من سامي الكيالي وعبد الرحمن الكيالي بالكفر والالحاد والزندقة عندما طالبا بسفور المرأة على صفحات مجلة «الحديث» دون أن يكون في مقدور الناس المتعاطفين معهما، والذين يقفون في صفهما الدفاع عنهما في مواجهة التهمة،

ولم تحم شعبية عبد الرحمن الشهبندر، وثقافة صاحبها من التصفية، بفتوى تتهمه بالكفر والإلحاد، كما لم تستطع قوى العقلانية والتنوير حماية الدكتور نصر حامد أبو زيد من الحكم الجائر الصادر بحقه، والقاضي بتطليق زوجته تعسفاً وظلماً، كما أن حسين مروه ومهدي عامل وفرج فوده، هم من ضحايا هذا العقل الإيماني الاتهامي، الذي لم يعمل على إثبات التهمة كما تقتضي الأصول بل لجأ الى تنفيذ حكم الإعدام بحق هذه القمم الطليعية.

قبل هذا كان اتهام الآخرين بهدف تصفيتهم وإبعادهم عن الطريق وإنهاء معارضتهم، الأسلوب الذي يعتمده كل من لاقى معارضة أو شعر بخطر على مكانته ومصالحه. لقد اتهم الأمويون غيلان الدمشقي والجعد بن درهم وعمرو والمقصوص لشعورهم بالخطر الذي يشكله هؤلاء لأيديولوجيا الأمويين الذين حولوا الخلافة الإسلامية الى ملك عضوض، ونفذوا فيهم أحكامهم، وهو الأسلوب الذي اتبع في تصفية السهروردي والنسيمي والحلاج لما شكله كل منهم من خطر على مصالح السلطان وفقهاء السلطان. كل هذه الأحداث أحداث مشهورة في التاريخ، ولايزال التاريخ يعيد نفسه في هذا الجانب، فعندما لاتوجد تهمة حقيقية، يتم اللجوء الى الاتهام بالكفر والالحاد والمروق من الدين، أو الخروج على الأعراف والقيم الاجتماعية وما أسهل تصديق ذلك على العامة، وما أبرع نواطير الإيمان في تدبيج التهم وتسويقها!!.

لقد اتهم الشيخ محمد الغزالي ميشيل عفلق بأنه تزوج ابنة غولدا مائير(٤). أما الدكتور كمال أبو المجد فيوجه اتهامه الى نصف الصحفيين، وربما الى الجميع، أي الى كل من لايرى رأيه أو لايسايره ولايعجبه، فقد قال في ندوة بعنوان «الاسلاميون والليبرالية»: «لو عندي مصحة عقلية لقبضت على نصف الصحافيين حيث اختل عقلهم، واختل ضميرهم وأسميهم باسمائهم وأقيم بالحجة عليهم أمام أي محكمة يختارونها»(٥).

ماالذي يحصل لو أن هذا العقل يقبض على زمام الأمور؟.

٢ - هو عقل تسليمي

إن اليقين الذي يجب أن يتمتع به المؤمن يجعل عقله استسلامياً، إنه يبدأ بالتسليم الموروث الذي يقدم العاطفة على العقل في التعاطي مع القيم، مما يجعل دور العقل ينحصر في تسويغ وتجميل هذه القيم لكي تحصل الطمأنينة، وكلما زاد التسليم عمقاً زاد الإيمان قوة، فالإيمان يتناقض مع التفكير كما رأى تولستوي، الذي قال: «من تعلم التفكير صعب عليه الإيمان». ويفضي التسليم الى الاستسلام له، فالتسليم بالقضاء والقدر يعني الاستسلام لهذا القضاء والقدر وإلغاء حرية العقل في مواجهة النوازل، وبالتالي اعتبار كل مايصيب المؤمن شيئاً يدخل في باب القدر، والذي يفطر على التسليم يتعلم عقله ذلك، فيصبح التسليم فالاستسلام مبدأ حتى في القضايا التي يعتبر عدم الاستسلام لها إيماناً، ويبدأ التنازل، فالتنازل للسلطة السياسية والتسليم لها فعل إيماني، وأفتى الفقهاء بضرورته، والتسليم يأتي قيداً للنقد والتمحيص، وهنا تبدو أشد حالات بؤس هذا العقل، ويظهر التناقض مع تسميته عقلاً، وتبدو صفة الاستسلام في تعميمها على مايصيب الإنسان من كوارث وأمراض، فكلها من الله وبرضاه، والمؤمن لاينى يحمد الله على السراء والضراء مستسلماً لما يحل به، وهذا يمنع من البحث عن لغة لمعرفة الأسباب والعلل لأنها فعل الله وقضاؤه وقدره ولذا لاتناقش، وهذا يعني التوقف عن التعقل والتعلم والتدبير التي أمر الله بها المؤمن، كما دل على ذلك القرآن.

لقد أصبح التسليم عالة على الأديان كما أنه عالة على المجتمع، فالدين الذي دعا أنصاره للتسليم بوجود الله وضرورة الإقرار بذلك، أوصل الى أن التسليم أصبح أيديولوجيا حياتيه، سواء كان الرأي المستسلم له إلهياً أو بشرياً، منسجماً مع صحيح الدين أو غير منسجم، كما أن الاستسلام لممثلي القداسة ولآراء رجال الدين وموجهيه، أصبح من مكونات هذا العقل، ولقد صنع التاريخ مسلمات أصبحت جزءاً من ثقافة الكتل الإيمانية. لقد كان لتطور وضع المرأة، واستسلام العامة من الجماهير رجالاً ونساءاً لما آل إليه هذا الوضع، مما يتفق مع قيم الدين ومما لايتفق، أمراً ليس خاضعاً للتفكير والنقاش عند عامة المؤمنين، حتى أن الكثير منهم ربط شرفه ودينه بسلوك نسائه، تقول د. فاطمة المرنيسي: «لقد كان ربط شرف الرجل بسلوك النساء الجنسي

مهمة ممكنة وسهلة عندما كانت النساء حبيسات الأمكنة الخاصة بهن كالبيت والحمام وأقرب قبرلولي»(٦).

وتبدو فكرة التسليم بالموروث الذي صنعته المصالح بما يحتويه من مقولات وأفكار وقناعات أشد خطراً حين ينسحب على الأزمنة التالية التي تعيش ظروفاً مختلفة عن ظروف تكون هذا الموروث. إن ذلك يعمل على شد الحياة نحو الماضي ومنعها من تحقيق التقدم الذي تنشده كل مرحلة عن المرحلة السابقة لها. إن تحقيق مثل هذا التقدم هو أسمى غايات الحياة، ومنعه هو قطع للحياة عن أجلّ معانيها وأسمى غاياتها. ويبدو التسليم في الهجوم على مبدأ الشك الذي اعتمده بعض المفكرين والباحثين في العصر الحديث لأنه يؤمّن الحافز على البحث والتقصي، بالتالي على عدم الاستسلام لأية مقولة أو موقف قبل التمحيص، ولقد كان الهجوم على طه حسين الذي وظف مبدأ الشك خير مثل على تأييد العقل الإيماني مبدأ التسليم والتضحية بالحقائق التي نتوصل إليها عن طريق تطبيق مبادىء جديدة حتى ولو كانت مستقدمة من ثقافات أخرى.

الاستسلام للسلطة الغاشمة هو عند المؤمن قضاء وقدر يحول بين المؤمن ومواجهة هذه السلطة، وهذا يوحي بسهولة انقياده للتوجيه المغرض، وإلغاء الجانب التساؤلي والنقدي في عقله يجعله جاهزاً للاقتناع بما يريده له الآخرون، من هنا برزت سهولة سيطرة بعض الفئات المتطرفة على أذهان قطاعات أو أحياء شعبية في مصر أوسورية أو الجزائر، هذه القطاعات استعصت على المستعمر وجبروته وانقادت لأفكار لاتقل بشاعة عن إرادة المستعمرين في الإضرار بالوطن، وهنا يبدو دور بعض القادة المتعاطين في الشأن الإيماني، كالشيخ محمد متولي الشعراوي الذي كانت حلقاته التثقيفية تجمع أعداداً غفيرة لتتلقى شحنة إضافية في التجييش الإيماني كما يبدو دور شيوخ الكاسيت عبر تسجيلاتهم المنتشرة والتي تحوي كل ما من شأنه إيقاظ وتهييج الشعور الديني الإيماني، دون أن تحوي قضايا تعمل على تغيير حال البؤس والفاقة بين الناس.

لايفوتني هنا أن أذكّر بأن العقل الإيماني السياسي يتشبه بالعقل الإيماني الديني في هذا المجال، وكليهما عقل أيديولوجي، ينقاد بسهولة لقياداته، زمنية حزبية كانت أو دينية إيمانية، وكاريزما القائد أو القيادة تحدد درجة الانقياد، والخميني وعبد الناصر

مثالان بارزان في القدرة على تحريك الكتلة الشعبية المؤمنة، سواء كان إيمانها حزبياً سياسياً أو إلهياً ربانياً.

إن انقياد واستسلام جماهير اليهود المؤمنين لقيادة دينية - زمنية هدفها الاستعماري الاغتصابي واضح، وتماهيها مع الحركات الاستعمارية والرأسمالية العالمية واضح أيضاً، يبرز دليلاً عملياً على قدرة القيادات على دفع وقيادة اليهود المؤمنين في الهجرة الى فلسطين، وخلط ماهو سياسي بما هو ديني، ويبرز استسلام عقل هؤلاء المؤمنين لفكرة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، أو لفكرة أرض الميعاد، ولو كان هذا القطيع يتمتع بعقل ناقد لرأى غير ذلك، أي كذب ادعاء هذه القيادات، وهذا إثبات أيضاً لتخلي الجماهير المؤمنة عن التفكير في حال وجود من يفكر عنها، أو يغتصب سلطة التفكير عنها، باسم الدين وضد الدين لأن الأديان لاتأمر بالغاء عقل المؤمن، بل إن الدعوة الى أعمال العقل، والتفكير، ودور العلم والعلماء وذوي الألباب، كما وردت في الكثير من آيات القرآن الكريم دليل عل أن المؤمن الحق هو من يتمتع بامكان الفرز العقلاني لقضايا الحياة بين سالب وموجب، حق وباطل، خير وشر...الخ. إن الاستسلام لتوجيهات رجال الدين، حراس الإيمان والقيم، كان يدفع الأم المصرية المؤمنة، التي ترعرع إيمانها داخل المؤسسات الإيمانية الشعبية، الى أن تفقأ عيني ولدها كي لايجبر على دخول المدارس التي افتتحت لتعليم الشعب المصري أيام محمد على باشا، حيث كانت الأجيال تدفع لدخول هذه المدارس من قبل السلطة ليحصلوا على التعليم الحديث، وكان فعل هذه الأم بتأثير رجال الدين الذين أقنعوا الآباء والأمهات، بأن المدارس الحديثة لن تعلم أبناءهم إلا الكفر والإلحاد(٧).

هل لاحظنا مدى الاستسلام من قبل المؤمن، والتسلط من قبل حراس الإيمان، وسوء مردودهما؟! هل نستطيع أن نتصور مدى بشاعة ذلك؟.

٣ - فقدان الشرعية

يبدو هذا العقل في بعض تجلياته فاقداً للشرعية، وفقدان الشرعية هذا سلاح بيد القيادات الزمنية والدينية، فإذا كان أداء الكتلة المؤمنة إيجابياً يتماهى مع رؤية هذه السلطات ومصالحها ولايثير لها المتاعب، فلا بأس أن تتم تغطيته رسمياً وشرعياً،

وبالتالي يتحول الفعل الإيماني الى خادم للسلطة، وينبري الفقهاء لتبريره، وإذا كان أداء المؤمنين في غير الاتجاه الذي تريده السلطة السياسية وتابعها الديني، اعتبر خارجياً. وهذا الفقدان للشرعية يبدو أكثر مايبدو في الحالات الإيجابية لفعل العقل الإيماني، منذ الثورة على عثمان بن عفان وصولاً الى القرامطة وثورة الزنج وحتى لاهوت التحرير.

فكل تحرك جماهيري أو عمل تقوم به مجموعة أو فرد، لايوافق عليه من اعتبروا أنفسهم أوصياء على الدين ونواطير لإيمان الناس خوفاً عليه من الانحراف (والإسلام لايعترف بسلطتهم حسب المعلن)، سيهاجم ويواجه باعتباره لاينسجم مع قيم الدين والإيمان، وإن المقاييس التي أخضع اليها أثبتت خروجه على صحيح الدين، والحقيقة قد تكون أنه لم يخرج إلا على قناعاتهم الشخصية، فلم يباركوه. إن تسفيه أي حركة أو عمل من قبل رجال الدين لايخضع لإثبات جدارته في تقديم الخير للناس كما لايخضع لامتحان الجدوى والمردود، بل يخضع لمقاييس، قد تكون ذاتية أو مستمدة من حقول أخرى.

والشرعية هنا شرعيتان:

الأولى: هي التي يمنحها رجال الاكليروس أو من يقوم مقامهم في كل دين أو مذهب، وكل حركة لاتنال مباركتهم حتى وإن كانت حركة إيمانية فهي غير شرعية. كما هو حاصل في حركات لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، وهي حركات دافعت عن حرية الإنسان وكرامته، أو الحركات المتطرفة التي لم تحترم، لاحرية الإنسان ولا كرامته في العالم الإسلامي. (وهي شرعية من الأعلى للأدنى).

الثانية: تمثل الوجه الآخر المعاكس والمتمثل بفقدان الجماهير ثقتها بالإيمان الرسمي وفقهاء السلطان، بالتالي حرمان هؤلاء من الشرعية المكتسبة من التفاف (المؤمنين) حول الفقهاء، وبهذا يعبر جمهور المؤمنين عن رفضه للعقل الإيماني التبريري عند فقهاء السلطان، وفيه رد على حرمان العقل الإيماني الجماهيري من الشرعية الرسمية شرعية السلطات وفقهائها. (وهي شرعية من الأدنى للأعلى).

من الطبيعي حسب منطق الأحداث، وما رتبته الأيام، ألا يكون للعقل الإيماني شرعيته التي تبرره في كل ماينتج عنه، فهذه الشرعية ستلغي في حال وجودها شرعية

السلطات الدينية الرسمية، وفي الأعم الأغلب فإن هذه السلطات متماهية مع السلطات الزمنية الساسية على مبدأ «الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى»، وهنا يبرز الكارتل التاريخي المؤلف من المؤسستين الدينية والسياسية، حيث يقدم الدين للسياسة المشروعية الناقصة، وبالتالي تحاول المؤسسة الفقهية الدينية الرسمية أن تلحق المؤمنين بها كأتباع بالضرورة، يقرّون ماتقر ويخالفون ماتخالف، يؤمنون لها المصداقية مقابل الشرعية، أما في حال التفكير بأي جهد مستقل من قبل الكتلة المؤمنة، فإن ذلك سيصطدم بجدار اللعنة من قبل القيادة الفقهية، وإظهار فعلها على أنه فعل الغوغاء، وفي الكثير من الحالات - إن لم يكن معظمها - كانت القيادات الدينية في صف السلطات المتعسفة، أو الاستعمارية، في حين أن جماهير المؤمنين تشكل تيار المعارضة أو النضال. ففي إيران وقف بعض (آيات الله العظمى) في صف السلطة ضد جماهير المؤمنين التي كانت تقاد من قبل رجال دين (آيات الله أيضاً) فيما سمي بحركة (المشروطة) ضد الشاه القاجاري، وفي ثورة التنباك ضد الشركة البريطانية، كما أوضح ذلك المفكر المرحوم هادي العلوي(٨).

والمشروعية التي نتحدث عنها مرهونة بمدى امتثال المؤمنين لإرادة الممثل التاريخي، حقيقياً كان أو مزيفاً. والتهمة متبادلة كما بينا.

من المعلوم أن الحديث باسم الله في اليهودية مرهون بالحاخامات، كما أن الحديث باسم الله في المسيحية مرتهن للكنيسة ورجالها، وقد أدى التفكير خارج إطار البابويه الى الثورة فالانشقاق والخروج على الشرعية السابقة، وظهور البروتستانتية في بداية عصر النهضة في أوربا، ومع أن الإسلام لايقر بوجود مثل هذه السلطات الدينية اللاهوتية، فإن الشرعية لأية حركة خارج إطار هذه الشرعية لاتكتسب لأنها شرعية احتكرت الحديث باسم الله، وكلفت نفسها بذلك دون تكليف من الله، وسلطتها لاتقل عن سلطة رجال الدين في الأديان الأخرى. وهذا ماجعل معظم الحركات التي تريد التعبير عن نفسها تلجأ الى العنف لاكتساب شرعية أكثر زيفاً من الشرعية التي افتقدتها.

٤ - ضيق الأفق والأحادية

العقل الايماني محكوم بضيق الأفق وأحادية الاتجاه، فقد تتالت الفتاوى بتحريم التفكير العقلاني عند المسلمين مثلاً، فابن الصلاح يقول: «من تمنطق فقد تزندق» سعياً لإلغاء التفكير المنطقي المتعدد، وفي عصرنا الراهن نجد فقيه السلطة يكرس الفتوى ذاتها، فعبد العزيز بن باز رئيس هيئة الافتاء في السعودية (سابقاً)، يقول: «الفكر والكفر واحد بدليل أن حروفهما واحدة». ويجيز قتل من يقول بدوران الأرض وكرويتها، ومصادرة أملاكه بعد استتابته[٩].

من هنا نجد أن العقل المذكور قد حاول صياغة إيمان الجماهير وعقلها بالاتجاه الذي يخدم مصلحته أي مصلحة تكريس الجهل وضيق الأفق، وكثيراً ماينطلي ذلك على الجماهير المؤمنة التي تعبر عن إيمانها بالتسلم الذي تحدثنا عنه سابقاً. وللتفريق بين الاستسلام وأحادية الاتجاه في العقل الإيماني، نشير الى انقسام الأديان الى طوائف، وكل طائفة لها مؤمنوها الذين يتبعون رؤيتها وفلسفتها وتحليلها للقضايا المطروحة، ولو أن أياً من هؤلاء المؤمنين شارك غيره من أبناء الطوائف الأخرى قناعاتهم المغايرة لبطل إيمانه على طريقة طائفته لأن إيمانه على طريقة طائفته، يقتضي الإخلاص لها، وأن يتماهى تفكيره وعقله مع عقل طائفته أو دينه الذي ينتمي اليه، وهو إيمان ناجز ونهائي. من هنا يفتقد العقل الإيماني التنوع، ويرفض منطق الاختلاف الداخلي وبدينه، ويظهر التطرف في إدانته لهذا الآخر بما أنه يمتلك الحقيقة التي تسمح لها بإدانة الآخر وحده، من هذا الجانب أيضاً تنشأ شرعة التطرف.

قبول الآخر من مقتضيات السياسة التي يستلزمها التعايش مهما اختلف الاتجاه الإيماني، إلا أن عدم إيمان ابن كل طائفة بما يؤمن به أبناء الطوائف الأخرى يجعل احتمال التوتر فالتطرف فالاقتتال ممكناً، وإيمان المنتمي الى طائفة ما، بما يؤمن به ابن الطائفة الأخرى أو الدين الآخر يعني أنه أصبح مثله في الإيمان، لأن التمايز قد فُقد، إذاً يعني أنه خرج من إيمان طائفته، إذ لو كانت الطائفتان متشابهتي الإيمان تماماً لكانتا طائفة واحدة، أو ملة واحدة، أو ديناً واحداً.

من هنا كان الحرص على أن يبقى المؤمن ذا اتجاه واحد في إيمانه، تحافظ على ذلك الأسيجة الإيمانية التي تكرست عبر الأزمنة من قبل منظري هذه الطوائف ومؤدلجيها.

يظهر ضيق الأفق في إيمان كل ملة أن وجهة نظرها تمثل غاية مايمكن أن يصل اليه الفكر البشري وفي ذلك إقفال لتطور الحياة والتاريخ، ومنع للمبادىء الأخرى من أن تجري تطويراً على حياة الناس: «وقبل أن نواصل عن أبعاد التاريخ باكتمال الوحي وتلاقيه مع ارتضاء الاسلام ديناً .. ديناً قيماً .. وشريعة نهائية - وهي الأساس والمقياس للقوانين .. والتشريعات - أو قانون القانون»[10]. أن يكون الإسلام غاية تطور الأديان السماوية وخاتمتها، فهذا شيء نفهمه، لكن أن يتوقف الإنسان (المسلم وغير المسلم) عن البحث عن قوانين وتشريعات وأنظمة لتطوير حياته، فهذا يعتبر مصادرة لحركة التاريخ وسبقاً لفوكوياما وغيره ممن نعيب عليهم أغلاق التاريخ والتبشير بنهايته، بالتالي مصادرة لعقل البشرية وحركتها الدائبة نحو الأمام، وهذا ضيق أفق كان قد سبق إليه اليهود عندما بشروا بنهاية العالم والعودة الثانية للمسيح وتغلب اليهود على كل من تعاديهم[11].

كل ذلك كان يجري دون تقدير حقيقي لما يعتمل ويتطور في رحم الحياة من قوى وعوامل وظروف، أو دون النظر بعلمية وعقل منفتح على الحياة ومجرياتها، بل بالاعتماد على ماستقر من قناعات إيمانية في عقول الناس المؤمنين، ودون اعتبار لحق الآخر في حرية اختياره لما يؤمن به. إنه إخضاع للناس والفكر والتاريخ لقناعات إيمانية لأفراد أو جماعات لايجوز تعميمها إفساحاً في المجال، وإطلاقاً لحرية الآخرين، ليشكلوا حياتهم ويعيشوها كما يشاؤون لا كما يملى عليهم، أي دون إكراه كما نصت على ذلك الأديان.

ويظهر ضيق الأفق في معاداة العلم وتعميم الجهل، كل ذلك باسم حماية الإنسان من الأخطار، ينقل ول ديورانت الحكاية التالية: (يروي قيصر يوس الهيسترباخي قصة .. عن رئيس وراهب شاب خرجا راكبين معاً. ووقعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى، فسأل رئيس الدير: «من هؤلاء» فأجابه «هؤلاء الشياطين» فرد عليه الراهب بقوله: «لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت في حياتي كلها»). ويكمل ديورانت قائلاً: «كانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفساني بين المرأة والمسيح»[12].

ضيق الأفق يظهر لدى الفئات الإيمانية المتطرفة التي ترى أنه لايوجد سوى حزب واحد يؤدي دوراً إيجابياً تاريخياً هو (حزب الله) وهو الحزب الذي يضم قادة وأتباع

هذا التيار، وحزب الشيطان الذي يؤدي دوراً سلبياً وهو من عداهم من الناس في العالم كله، وعلى حزب الله أن يعلن الجهاد والحرب المقدسة - دون ما هوادة - على حزب الشيطان[١٣].

والعقل الإيماني الذي قلنا إنه عامل في مجال السياسة كما هو عامل في مجال الدين، هو العقل الأحادي الاتجاه الذي لايقبل التشارك، بالتالي يرفض الآخر فيسعى الى إلغائه أو تهميشه، وهذه نزعة سائدة في العالم (خاصة المسمى بالثالث) كثيراً، ومنه وطننا العربي. فالتعددية تحتاج، أولاً، الى عقل منفتح على الآخر، ومؤمن بضرورة وجوده، وشرعية هذه الوجود، حتى ولو كان لتبرير وجود الأنا، فمنبع العنف الاجتماعي من هذه الزاوية، محاولة طرف إلغاء طرف آخر نتيجة ضيق الأفق، ومن الزاوية ذاتها، تبدو الديمقراطية كهدف ووسيلة أيضاً، بعيدة المنال في مجتمعاتنا بالرغم من ضرورتها الملحّة.

العقل الإيماني عقل فئوي متحيز ودوغمائي يخلق أسيجته الخاصة لحماية عقائده. وهو بالتالي عقل محافظ وتقليدي، متمسك بالعادات التي أصبحت جزءاً لاينفصل من كتلة العقائد التي يحقق هذا العقل وجوده من خلال ممارستها؛ والخروج على أي من هذه العقائد يحكمه منطق البدعة، فالضلالة.

٥ - التسلط والشمولية

لايفتقر العقل الإيماني الى التسلط والشمولية، حيث تبدو شموليته في ادعائه علم كل شيء باعتبار المصدر الالهي لعلمه، وأن كل علم أو معرفة مصدرها الوحي، وليس في الكون مايمكن أن يخرج عن السلطة الإلهية التي آمن بها المؤمن، ومن هنا تنبع تسلطية هذا العقل، وهو عقل لايفسح المجال للآخر كي يظهر أو يعبر عن وجوده، يحاول طمسه، يزاحمه على موقعه.

من جهة أخرى، سيفه مسلط على محازبيه، فكل إشارة يتم تفسيرها خروجاً على الإيمان مصيرها القمع الشديد، والحرمان من رحمة الله الواسعة، فالسيف للهراطقه. وهي عقوبات سرعان مايبررها العقل الإيماني، فالجماهير المؤمنة كثيراً ماتصادق على الأحكام الصادرة على المخالفين لمفاهيم إيمانهم ولقواعد هذا الإيمان، كما يصور ذلك

المشرفون على حماية الجماعة من الفساد. أما السكوت وعدم الاحتجاج فيفسر موافقة على الأحكام، فالجماهير المؤمنة التي كانت تصلي في المسجد صبيحة عيد الأضحي، لم تحتج عندما قال والي بني أمية على العراق، إن أضحيته في العيد ستكون هذا الكافر، يقصد الجعد بن درهم، حيث نزل واحتز رأسه في أصل المنبر، وعلى مرأى من الناس الذين سوغ لهم عقلهم الإيماني التضحية بهذا الكافر الذي صوره عدوه السياسي والطبقي، دون أن يحتج أحد، والناس يعلمون أن الجعد بن درهم أقرب الى الجماهير المتمتعة بهذا العقل. كما لم يحتج مؤمنو أوربا على ماكانت تفعله محاكم التفتيش من تصفية للمعارضين والمفكرين باسم الإيمان السليم، ومحاكم التفتيش هذه يقول عنها ول ديورانت: «ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كله، وبأنها تكشف عن وحشية لانعرف لها نظيراً عند أي وحش من الوحوش»(١٤). وربما كان الخوف في هذه الحالات هو الوالد الشرعي لهذا الإيمان.

وفي العصر الحديث اضطرت بعض الحكومات الى إضافة مواد في دساتيرها تشير الى أن دين الدولة هو الإسلام، أو أن مصدر التشريع للدولة هو الإسلام، أو أن دين رئيس البلاد هو الإسلام، وذلك استجابة للضغط الذي شكله المؤمنون.

وفي فلسطين المحتلة، تقف الحكومات الإسرائيلية عاجزة أحياناً عن الإقدام على بعض الإجراءات نظراً لتصلب وتسلط العقل الإيماني عند اليهود المؤمنين، الذين يشكلون مصدر خوف للحكومات في الكثير من القضايا التي يعتبرون أن للدين اليهودي علاقة بها، وهي كثيرة، ومن أمثلة ذلك، العجز عن القيام ببعض الأعمال خرقاً لنظام السبت الإيماني عند اليهود المؤمنين.

ولعل من أبرز مظاهر تسلط العقل الإيماني عند المسلمين، والذي يعد من العادات التي قُسرت بعض آيات القرآن على استيعابها، والتماهي معها لتغطيتها واكسابها الشرعية، هو الحجاب، الذي ذكر أنه كان مفروضاً على المرأة في فترة حيضها، في الحضارات القديمة، ثم فرضه بولس الرسول عليها خلال وجودها في الكنائس، وجاءت آية الحجاب في القرآن لتشمل نساء النبي ونساء المؤمنين، في وضع اجتماعي معين، مستبعدة فئة الإماء، ومضحية بهذه الفئة، إلا أن هذا العقل الإيماني عبر العصور ظل يطور الحجاب وينتقل به من البساطة الى التعقيد، ويزيد في إحكام سيطرته، بعقل

ذكوري امتلاكي متصلب، حتى تحول عند المرأة في الكثير من البيئات الإسلامية الى سجن محمول، لاتنجو من تحاول الخروج منه من التفسيق والتكفير، أخذاً بمبدأ المرأة كلها عورة.

وغير بعيد عن هذا العقل وكمثال على التسلط على عقل الإنسان، ماورد في كتاب بعنوان «الحداثة» من سلسلة «قضايا وشهادات» أن طالباً جامعياً في سنته الأخيرة في الجامعة بدولة الإمارات العربية المتحدة، كتب في مجلة تصدرها الجامعة، أن على المرأة إذا رفعت سماعة الهاتف، وكان على الطرف الآخر رجل غير محرم، تطهير أذنها ببعض الأدعية والآيات القرآنية، في حال لم تلفظ أية كلمة، وإذا حدث وتلفظت مع الرجل بأية كلمة فالإجراءات أشد. أليس في هذا تسلطاً على عقل الإنسان وفكره وإرادته؟.

إن هذا التسلط على الإنسان المؤمن وعلى المجتمع، لايشمل التسلط عل العقل والروح وعلى علاقة الإنسان بربه وكيفية تعبده إياه لينجو من عذاب الآخرة فقط، بل أصبح التسلط والسيطرة يشمل جميع جوانب حياته من اللباس والهيئة الى أدق التفاصيل الأخرى، فلا يستطيع الإنسان في إطار العقل الإيماني إنجاز معاملة الزواج، خارج إطار الملة والجماعة الإيمانية وإلا عد ذلك كفراً، والزواج باطل. ولايغيب عن البال الردود العنيفة التي حصلت في لبنان لمجرد أن رئيس جمهوريته اقترح وضع قانون للزواج المدني، أي خارج إطار المؤسسات الإيمانية تسهيلاً للناس ورحمة بهم. ومن هذا الباب ماذكره بعص من عملوا في بعض مناطق المملكة العربية السعودية، فقد روى مدرس أنه وصل الى المدرسة التي عين فيها أثناء انعقاد مجلس للمدرسين، وعندما مدّ يده ليسلم على زملائه المجتمعين، رفضت أيديهم أن تمتد إليه، وعندما استوضح السبب، قيل له لأنك تلبس البنطلون (زي الكفار)، وعندما دخل مدرس آخر على مدرسته لاحظ المدير أن أحد أظافر المدرس بطول عدة مليمترات فأمره بقصه لأن الشيطان يسكن تحته.

ومن هذا القبيل ما أوردته، د. نوال السعداوي من أنها حاولت أن تسلم على رجل إيراني كان يرأس وفد بلاده الى أحد المؤتمرات النسوية، وعندما مدت يدها لتصافحه غطى يده بطرف عباءته، ولما سألته عن سبب فعله، قال لها: أخاف الشيطان، عندها

ردت ساخرة: أما أنا فقد هزمت الشيطان منذ زمن بعيد[١٥].

هكذا يكون التسلط على عقل الإنسان، وهو تسلط يشله ويعميه ويجعله أسيراً وتابعاً لتفسيرات الجهل والغيبيه.

٦ - لايعرف العالم معرفة علمية

العقل الإيماني لايعرف العالم معرفة علمية، أي عن طريق التجربة، إنه لاعلمي أي غيبي، وهذا يفضي الى الحلول السحرية، ليس بمعنى ممارسة السحر، بل بمعنى الابتعاد عن السببية والعلية كمناهج معرفية، وقد مررنا بفتوى (ابن باز) التي تقضي بتكفير من يقول بكروية الأرض ودورانها. إن طريقه لمعرفة العالم هو الوحي، الهادف الى تشكيل منظومة قيم لامنظومة معارف، إن قوى ماوراء الطبيعة هي التي تلقن العقل الإيماني مايجب أن يعرفه، حيث يرى حلول المشكلات التي تعترضه بالنصوص (كما يفهمها) والأدعية والكرامات والرقى والحجب وغيرها من أساليب، فالحلول الإنسانية لاغية، والإنسان لاحول له ولا طول.

العلم ينتمي الى عالم القوانين الدقيقة، والدين ينتمي الى عالم القيم المتعالية، وطريقهما ليس واحداً، وأسلوب عملهما للسيطرة على العالم ليس واحداً. فالتجربة لادور لها في المعرفة الدينية الإيمانية، والمعرفة عن غير طريق التجربة لامكان لها في العلوم.

لقد نسي المؤمنون أو تناسوا أن عصا موسى التي شقت البحر لبني اسرائيل، وأن الملائكة الذين أيدوا المؤمنين في معركة بدر، قد جاءت في الكتب المقدسة للإخبار عن المعجزات التي ساقها الله لتأييد أنبيائه، مع ملاحظة دور المعجزة في تثبيت صدق النبوة ودحر معسكر خصومها، كما تناسوا أن زمن المعجزات ليس بالضرورة أن يعود، لأن زمن النبوة انقطع، كما أن البيت الحرام لم يعد مهدداً كي يرسل الله الطير الأبابيل، أو مرض الجدري ليهزم جيش أبرهة. والمعجزة اصطلاحاً: «هي ظهور أمر خلاف العادة في دار التكليف لإظهار صدق ذي نبوة من الأنبياء أو ذي كرامة من الأولياء مع نكول من يُتحدى به عن معارضة مثله»[١٦]. وعرفها الاسفراييني بأنها «فعل يظهر على يد مدعي النبوة ..»[١٧] والملاحظ اقتصار المعجزة على الأنبياء وبتعبيره (مدعي النبوة)

دون الأولياء، وكلمة (ولي) من المصطلحات الإيمانية الغائمة الأبعاد، والمستغلة جيداً، والمحتكرة. ومن شأن المعجزة التي يقبض عليها المؤمنون أن تكرس العجز البشري وتحسم الصراع. فمع انقطاع زمن النبوة، وعدم تحديد مفهوم الولاية تحديداً علمياً دقيقاً وثابتاً وواضح الأبعاد والمعالم، يستمر النهج الإيماني، فأضرحة الأولياء التي يقصدها المؤمنون للنزهات والسياحة والتبرك، تملك حلولاً صحية واجتماعية، كشفاء الأمراض المستعصية، وانجاب الأولاد وحماية الغياب ومعرفة الغيب، كما أن حسد الحساد تبطله الخرزة الزرقاء، كل ذلك باستحضار مظاهر التقى والإيمان. وعظام القديسيين في المسيحية - حتى لو اكتشف بعد ذلك أنها عظام غير بشرية - تجلب البركة وتحقق الأمنيات، ومعرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل والإيمان بما يراه الناس في أحلامهم كل ذلك بعض من ايديولوجيا الإيمان. ولا بأس أن نرى صورة مريم يتكرر ظهورها على شكل طيف في بعض أحياء القاهرة عدة مرات، وقد أكد ذلك بيان للبابا كيرلس السادس في أيار ١٩٦٨، وقد كان الظهور كما قيل في كنيسة الزيتون بضاحية من ضواحي القاهرة. ويقال أن بعض الناس قد تمكنوا من التقاط صور لطيفها[١٨]. والزيت المقدس الناضح من أيدي أحد المباركين يستشفى به من كل داء، ولا بأس أن يتجمع المرضى وذوو العاهات لنيل بركة أحد الأولياء أو الآباء فينصرفون وقد ذهب ماكان لهم من أدواء وعاهات، وليس غريباً أن يشفى مريض من مرضه الذي استمر عقوداً وأدى الى عاهة عجز عنها أهل الأرض، بزيارة في الحلم من قبل أحد الأولياء أو الرموز الإيمانية.

إذن نحن أمام سيل من الحلول المتواصلة لمشكلات المؤمنين، وكلها حلول مرتبطة بالسماء، ومن له علاقة مباشرة بها، على أن هذه الحلول نهائية، لاتبقي آثاراً، وهي حاسمة وآنية، بمعنى غير متدرجة، ولاتؤمن بالمراحل، مما لم يستطع العلم انجازه. وهذا العقل الغيبي يستقطب قطاعات جماهيرية واسعة جداً، والمستوى العقلي للكثير من هذه الجماهير يسمح بالأسطرة.

يسعى المتأسلمون كما يسميهم د. رفعت السعيد الى تربية الناس تربية لاعلمية، قوامها السحر والغيبيات والخوارق، وكلها تنفي العقل وتبعده عن ساحة التبرير والتعليل، والملاحظ أن الكتب التي ينشرها الإيمانيون، تسعى لتعميم الحلول البعيدة عن منطق العلوم الكونية لأية مشكلة مطروحة، كما ينقلون التاريخ والأحداث الماضية

على هذا المستوى فيسبغون عليها مسحة من الخرافة: «إن نوحاً عليه السلام بنى سفينته من عظام حيوان يبلغ طوله مسافة مابين السماء والأرض، ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل»[١٩]. وينقل السعيد أيضاً عن الكتب التي تقدم لتشقيف الأتباع من المؤمنين: «إن ياجوج وماجوج أمة، وكل أمة أربعمائة أمة. لايموت الرجل منهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح، وهم من ولد آدم يسيرون في خراب الأرض، وهم ثلاثة أصناف .... وصنف آخر يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى، لايمرون بفيل، ولاوحش لا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه...»[٢٠]، كما ينقل: «إن نعلي الشيخ تطيران في الهواء وتضربان رأس الفاسق حتى يموت، وإن تابع الشيخ (تأملوا إنه تابع الشيخ وليس الشيخ نفسه) يمشي في الهواء والشمس تسلم عليه، وإن الشيخ وهو في المهد رضيع كان يمنع نفسه عن ثدي أمه في رمضان .. وأن أهل بغداد رأوه رأي العين يقف على ماء دجلة والأسماك تجيء اليه فوجاً بعد فوج فتسلم عليه وتقبل يديه ورجليه»[٢١].

هكذا يتم تصنيع العقول في المعاهد المعدة لتخريج المؤمنين جداً.العقل الإيماني لايهتم بنشر المعرفة وتعميمها، ومن هنا تسهل السيطرة عليه لأنه عقل غير نقدي، أي عقل لا عقلاني، والعقل قد يوجد بصفة لا عقلانية كثيراً (حسب تعبير ماركس) وهذا العقل يخاف العقل العلمي الناقد فيهاجمه، ويقف الى جانب الدراسات الوصفية الاستاتيكية، ويعلن عداءه للدراسات الفكرية النقدية، التي تتعاطى مع العقل باعتباره قوة تطلع الى الحقيقة، أي قوة حرة وسيّدة لايرضيها إلا بلوغ الحقائق.

العلمية والسببية ليستا من آليات عمل العقل الإيماني، والمعروف أن لاعلمية بدون سببية، سببية تعمل في أفق قوانين العلم التجريبي الذي لايتعاطى معه هذا العقل، ولايجد من مصلحته الاعتراف بالعلم الحديث ومنطقه التطوري المحكوم بالتوجه الى الأمام، والبقاء للأفضل

٧ - التلون والتقلب

العقل الإيماني متلون، متقلب، غير ثابت. إنه بسيط التكوين تارة، معقد تارة أخرى، تؤدي دراسته الى الحيرة في مايحركه، تمر الأحداث الكبرى فلا يهتز لها أحياناً،

لنراه يتجاوب مع أحداث بسيطة وفردية في أحيان أخرى، وتؤثر فيه الشائعة، وهو متسامح تارة، متشدد أخرى، يتلون مع تقلبات الحياة السياسية والاجتماعية.

يؤيد جمهور المؤمنين حكومة ترفع شعارات الإيمان، وإعلاء كلمة الدين، ثم نرى الجمهور ذاته يؤيد حكومة أقل تمسكاً بالمبادىء السماوية الدينية، يؤيد الحكم الاشتراكي النزعه، وهو ذاته يؤيد الحكم الرأسمالي النزعة، يضفي غطاءه على الليبرالية، ولابأس أن يضفيه على الشيوعية، كما لم يكن الغطاء الإيماني ضافياً أكثر في فترة حكم أنور السادات، رافع شعار دولة العلم والإيمان، عما كان عليه في عهد عبد الناصر. هذا العقل ذاته نراه في انقسام الشارع العربي والإسلامي الى مؤيد للعراق، ومؤيد للتحالف ضد العراق أثناء حرب الخليج الثانية، وكل فريق له فقهاؤه وفتاواه المبررة لسلوكه وإيمانه، وكلهم يرى أنه على حق، والدين واحد، والإيمان واحد.

الإيمان متغير مع الأيام أيضاً، مع أن العقائد ليست محكومة بمنطق التغيير، العقائد ثابتة، والزمن متحرك، والحس الإيماني لاصق بالزمن، ويترجم ذلك الى واقع علمي، فالزي المحكوم بمنطق الإيمان في يوم ما، والذي يملي على المرأة ارتداء الحجاب، لابأس أن نجده يميل الى التحرر من القيود والتخلي عن الحجاب كلياً أو جزئياً.

إن تلون هذا العقل تحت تأثير الزمن تارة، وتحت تأثير السياسة والأحداث تارة أخرى دليل على أنه محكوم بمنطق المصلحة، وهذا مايفرض التلون والتكيف، وهو في كل ذلك لايحتاج الى مبررات، ولو احتاج اليها لاستمدها من فتاوى فقهاء لهم سمعتهم تاريخياً، مثل هؤلاء الفقهاء أعلنوا ضرورة الرضوخ لأية حكومة سواء جاءت بالرضى أو بالغلبة، والخروج على الحاكم الظالم لايجوز اتقاءً للفتنة «أدوا الحاكم حقه وأسالوا الله حقكم»، «يجب أن تصلّوا ولو وراء مخالف». مثل هذه الفتاوى لاتبرر التلون فقط، وإنما تبرر الإستسلام للظلم والتسلط الذين أشرنا اليها.

لايغيبن عن بالنا أن تلون هذا العقل وتأييده لكل حكومة متغلبة أخضعته، جعله أداة طيعة لهذه الحكومات، وعصا بيدها، تستعملها للخارجين على سياساتها أو المشككين بمشروعيتها. وهذا العقل تسهل عليه الوصمة بالكفر والإلحاد وتوزيعها بعد تلقي الإشارة بها على أي فرد يكون هدف هذه الجهات الموجهة لهذا العقل أو المسيطرة عليه، فهذا الجمهور الذي روّج التهمة على ابن سينا بأنه أنكر البعث، وشاغب على ابن

رشد، وترك ابن باجه يموت مسموماً، كرر المواقف ذاتها في عصرنا الحديث فلم يهب لحماية الكواكبي، وترك المتلاعبين بالمشاعر الدينية الإيمانية يعبثون بحياة نصر حامد أبو زيد، ويهاجمون نجيب محفوظ لقتله، كما كادوا يودون بحياة عزيز نيسين كما مر معنا.

والمرير في ذلك أن العقل الإيماني لم يتوقف كثيراً لنقد الفتاوى التي يصدرها أو تصله ضد فلان أو فلان، فلم يميز بين ثائر في سبيل كرامة أمته ومصلحة شعبه، مستنير جعل الدفاع عن كرامة الناس وقيمهم هدفه، وبين من أهدروا هذه الكرامة وسعوا لمصالحهم المشبوهة، فبرز هذا العقل غوغائياً غير منضبط، لم يكن حسين مروه ومهدي عامل اللذين اغتيلا، ومارسيل خليفه الذي قدم للمحاكمة، إلا مفكرين وفنانين اختاروا عن قناعة وطواعية أن ينحازوا الى جانب الإنسان في أسمى قيمه الإنسانية، وأن يعملوا ليرتقوا بمستواه بواسطة فكرهم أو فنهم الى قيم الحرية والانعتاق.

أليس من العيب أن تسوّق العامة إشاعة خلال الحرب العالمية الثانية تقول إن هتلر قد أسلم، فترتفع الأدعية والصلوات طالبة من الله نصره، غافلة عما عدا ذلك، من أن هتلر ليس مفخرة لأحد مسلماً كان أو مسيحياً، وإذا كان شر البلية مايضحك كما يقولون، فإن من هذا الشر المضحك أن يستطيع نابليون بونابرت عرض نفسه على الأزهر وجمهور المصريين المؤمنين بأنه مسلم غيور على الإسلام أكثر من أبنائه السابقين ويجد هذا العرض القبول. ولاننسى أنه وقومه معتبرين من الكفار في نظر المسلمين في ذلك الوقت على الأقل.

واستكمالاً للصورة فإننا نجد لهذا العقل مواقف مشهودة في الدفاع عن قيم مجتمعاته وحقوقها، ففي الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وقف الناس جميعاً في مواجهة المستعمر، وانطلق الأب سرجيوس، وهو القس المسيحي، من الأزهر بخطبة بدأها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم سار في مظاهرة ضد الإنكليز. ولاننسى دور لاهوت التحرير في تحرير أمريكا اللاتينية. كما لاننسى دور الإيمان في الثورة الجزائرية، أو في ثورة عام ١٩٣٦ في فلسطين، كما لاننسى دور بعض الفئات والجماعات الإيمانية في مواجهة الصهيونية في فلسطين وجنوب لبنان، وفي وقت عزت فيه الغيرة على الأوطان.

ويمكن لهذا العقل أن يغير مساره وينحرف عن اتجاهه السابق بسبب مؤثرات جديدة تطرأ على ساحته، فحركة الإصلاح الديني اليهودية المتأثرة بحركات الإصلاح الديني المسيحية، دعت الى اندماج اليهود بمجتمعاتهم الغربية، وهجر عقيدة الغيتو التي تدعو الى الانغلاق، وشجعت الزواج المختلط واعتماد اللغات الوطنية في العبادة[٢٢].

هنا تمكن الإشارة الى أن الدين في تحوله الى أيديولوجيا عند المؤمنين، يمكن أن يكون أفيوناً بالمعنى السلبي للعبارة – عبارة ماركس – ويمكن أن يكون زفرة للمضطهدين كما تشير العبارة ذاتها في قسمها الثاني الذي تناساه الناس تناسياً مغرضاً، وعندها يكون بلسماً. ألا نرى التلون صارخاً؟!.

٨ - الجماعية

هو عقل جماعي (قطيعي)، وهو خط دفاعي جاهز دائماً، لكن إمكان تفعيله غير محكوم بآلية واحدة واضحة، أو بشخص لمدة طويلة، إنها آلية غائمة، تصعب السيطرة عليها، لكن إذا تم ضبط إيقاعها، واستغلت الإمكانات العقيدية المتوفرة لهذا العقل فإنه يفعل العجائب.

إيران هنا مثل حي، ففي أحداث جرت في إيران في العصر الحديث، أثبت العقل الإيماني الإيراني أنه فاعل في ساحة التغيير، منقاد بقوة باتجاه ماخطط له، فمن ثورة التنباك ضد الشركة البريطانية، الى أحداث المشروطة والمستبدة ضد الشاه القاجاري، الى ثورة مصدق في منتصف القرن العشرين، الى الثورة الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩ بقيادة الخميني، والى الحقل ذاته تنتمي ثورة عام ١٩٢٠ في العراق. في كل هذه الأحداث الكبرى نقرأ جماعية الحركة، التي تعني جماعية الفعل الإيماني، والشعور المحرك لهذا الفعل، أي العقل المتحكم بتحريك هذه الكتلة الجماهيرية الهائلة، والتي أثبتت عبر الحركات المذكورة أن لاشيء يقف في وجهها، وهذا دليل (قطيعية) هذا العقل وفئويته أيضاً (طائفية)، كما أثبت فاعليته وتحسسه لمشكلات البلاد والعباد، وإيجابيته في التعاطي مع إمكانات التغيير، بغض النظر عن وجهة هذا التغيير ولونه، بالرغم من أنه معروف بالسلبية.

يبدو تحرك هذا العقل الجمعي سهلاً في بعض الأحيان، أيجابياً فاعلاً تجاه أحداث ما، خاملاً بارداً فاقداً للحس تجاه أحداث أخرى، في بلاد أخرى، في زمن آخر، وحتى في البلاد ذاتها أو في الزمن ذاته، من يتحكم بتوجيه هذا العقل ويسيطر عليه؟ هل المشكلات المطروحة هي التي تحركه؟ هل الأشخاص وقدراتهم؟ وهؤلاء الأشخاص هل هم الساسة أم رجال الدين؟.

إن تحركه يمكن أن يكون إيجابياً تقدمياً فاعلاً، ويمكن أن يكون رجعياً سلبياً يصنف في خانة تغييب العقل وتخدير الناس.

في أية خانة نصنّف تحرك الحشود الكبيرة للقاء بابا الفاتيكان؟ فهو أينما تحرك والى أي بلد توجه نجد أن مئات الآلاف أو الملايين تندفع لحضور قداساته التي لاتتسع لها الأمكنة فتجري في الساحات العامة، يندفع اليها الشباب قبل الشيوخ، ولاننسى لقاءاته مع الشباب كلقاء باريس الذي توجه اليه الشباب من كل أطراف المعمورة.

كيف نفهم اجتماع عشرات الآلاف في كل ليلة من ليالي عاشوراء؟ معظمهم من الشباب، يندبون ويعولون ويدمون رؤوسهم وصدورهم العارية من شدة اللطم، يردد المكان صدى نحيبهم وعويلهم وصراخهم وتفجعهم، في ليالٍ ممتدة، حزناً على الحسين الشهيد، ومعاقبة لأنفسهم عندما تتلى عذاباته وسيرته، ومأساة استشهاده. وفي الباب ذاته نذكر باستعارة عذابات المسيح من قبل جماهير المؤمنين الذين يصل الأمر ببعضهم، الى حد تثبيت أجسادهم على الصلبان بمسامير ضخمة تخترق أطرافهم، استعارة للحظه، واستحضاراً للألم الذي عاناه المسيح.

وهذه العذابات يشار الى أنها متوارثة، ومتناسلة من تجارب أقدم في تاريخ المنطقة، فقد أشار الكثير من المؤرخين لتاريخ المنطقة القديم، الى مثل هذه العذابات التي كانت تجري في احتفالات جماهيرية سنوية، في ذكرى غياب أدونيس الإله الكنعاني أو في ذكرى عودته الى الحياة، بحسب ماترويه الأسطورة، كما كانت تجري في مصر في الذكرى المشابهة للاله المصري أوزيريس. وقراءة كتاب «لغز عشتار» للكاتب فراس السواح تقدم فكرة عن ذلك.

إن المفارقة تبدو حادة إذا رأينا أن الأحزاب بكامل جهودها وتجييشها، التقدمي وغير التقدمي عاجزة عن استقطاب الجماهير، والشباب خاصة الى تجمعاتها، بالرغم

من أنها ترفع شعارات العمل في سبيل المصلحة العامة، مصلحة الجماهير، وترهن جهودها وحياتها لذلك دون جدوى، في حين لايطلب من البابا رفع شعار سوى شعار الإيمان، ولا من قارىء السيرة الحسينية إلا قدرته على إثارة الحزن واستحضار اللحظةو لحظة الألم الحسيني، بشكل عاطفي مثير، تكفيراً عن تقصير لم تستطع أربعة عشر قرناً من الندب ومعاقبة الذات إزالة أثره من نفوس الشيعة.

إن ازدياد إشعاع الشعور الديني في النفوس والتوجه باتجاه التدين عند قطاعات واسعة من الجماهير، خاصة منهم الشباب، وانتشار هذه العدوى، بشكل واسع، وظهور الحركة الجماعية لهذه الجماهير عندما يتم تجييشها، يبرز القطيعية (الجماهيرية، الجماعية) في وعي المنتمين الى هذا العقل.

إن العقل الإيماني قد يصاب بانحرافات خطيرة وحادة يعبر عنها تعبيراً شذوذياً في غاية البشاعة. ينقل أديب ديمتري[٢٣]، أخبار بعض الجرائم الطقوسية الجماعية والمرتبطة بممارسات شعائرية شيطانية، وتزايدها المفزع، وهي جرائم وشعائر تنتمي الى العقل الإيماني، وتوحي بالقطيعية، فقد تم اكتشاف مقبرة على الحدود بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك، فيها /١٣/ جثة مشوهة ومقطعة الأوصال قرب كوخ، وفي داخل الكوخ قدر معدنية شيطانية فيها خليط من مخ بشري ودم مع رأس ماعز ومخدرات.

والحديث عند تزايد الاتجاهات الطقوسية والانتماءات الجماعية التي تتناقلها الأنباء، وكل هذا مرتبط بالشذوذ والمخدرات وأكل لحوم البشر والعبادات الشاذة، وممارسات السحر الأسود، والتضحية بالأطفال، وتعذيب الضحايا والتمثيل بهم، هو نتيجة قناعات إيمانية شيطانية شاذة، فقد تم اعتراف أحدهم بقتل /٣٦٠/ شاباً لحساب شيعة شيطانية من عبدة الشيطان[٢٤]. ولاتني وسائل الإعلام أن تنقل مثل هذه الأخبار كما أخبار الانتحارات الجماعية الإيمانية.

٩ - اللاتاريخيّة

يفتقر العقل الإيماني الى منطق التطور وآلياته. إن اضطراب حركة الإيمان، الظهور القوي تارة، والاختفاء أخرى، اشتداده أحياناً، وضعفه أخرى من غير أن تكون هناك

متغيرات مهمة في الحياة، تبرز هذه الحركة اللامتواترة، المضطربة، مما يوحي بأن هذا العقل يفتقر الى النسق التطوري المنسجم مع الحياة في صيرورتها.

في أشد حالات الحاجة الى العقل والتعقل العلمي الناقد والفاعل في حياة أمة ما، يبرز حدث ما، ينتمي الى تأثير العقل الإيماني، يوحي بتخلفه عن الحدث قروناً. إن إعلان محمد متولي الشعراوي أنه صلى ركعتين شكراً لله عقب هزيمة حزيران المريرة، لأن الهزيمة برأيه أوقفت المد الشيوعي في المنطقة[٢٥]، يشير الى فقدان الحس التاريخي والوطني أيضاً في سلوك ممثل بارز من ممثلي العقل الإيماني ومجيشي شعوره، وهذا الرجل نفسه يعبر عن لا تاريخية عقله بإصرار عندما يعلن في أواخر القرن العشرين أنه مع استرقاق الأسرى من الكفار لأن معاملتهم كعبيد شيء إنساني في رأيه وهو أفضل من قتلهم، كما دعا الى سبي نساء العدو الكافر ومضاجعتهن وذلك تكريماً لهن لأن الرجل المسلم يعاملهن كزوجات، وقد جاء ذلك في حديث تلفزيوني[٢٦]. ألا نحس بأن هذا العقل ألغى القرون التي قطعتها البشرية في نضالها من أجل الحرية والتقدم والبناء الحضاري؟ ألا نحس بفقدان الشعور بتطور الحياة عند ممثلي هذا العقل؟ ألا ينتمي هذا التفكير الى لحظة عفى عليها الزمن منذ قرون؟.

تظهر لا تاريخية العقل الإيماني في طريقة تعاطيه مع الثقافة والمثقفين ورفضه بعض جوانبها بل محاربته لهذه الجوانب، كالموسيقا والسينما والرقص والنحت والتصوير حرباً لا هوادة فيها وبكثير من التخلف، ويبدو أن الثقافة والمثقفين لايروقون لهذا العقل، فراشد الغنوشي زعيم حركة النهضة الإسلامية في تونس (وهو موصوف بأنه من الإسلاميين المعتدلين، ويطالب بالديمقراطية وحرية الرأي) يقول: «المثقفون هم صوت الشيطان»[٢٧] دون أن يحدد أي نوع أو أي فئة منهم يريد أو يقصد، إلا أنه من الواضح أنه لايقصد المثقف الديني المؤمن باعتبار أن الشيطان ينفر من هؤلاء.

إنه المعنى ذاته، الذي يعلنه زعيم سياسي هذه المرة، من حقول الإيمان السياسي، بل من فعاليات النازية، يقول غورتنج: «عندما أسمع كلمة ثقافة، أتحسس موضع مسدسي»[٢٨].

إن هذه النظرة الى الثقافة والمثقفين تعبر عن لا تاريخية فاضحة، فالعداء للثقافة لايساير منطق التاريخ في حركته دائماً الى الأمام.

إن افتقاد العقل الإيماني للنسق التاريخي التطوري، بحيث لايؤمن بأن الزمن تحكمه النظرة التطورية من الأدنى الى الأعلى، أو من الأسوأ الى الأحسن، من مميزات هذا العقل ومناقض لمنطق العلم، لقد قبض هذا العقل على ذروة تطور الحياة وقمة أداء السماء والأرض في لحظة التدشين، تدشين دينه أو مذهبه، فهل بعد القمة من تطور؟! إن تأكيد الأديان على هذه الفكرة هي القبض على العقل الإيماني متلبساً بجريمة تجميد الحياة في نقطة معينة من نقاط مسيرتها وتطورها.

من مظاهر لا تاريخية هذا العقل الإيمان الذي لايزال مستقداً في أذهان اليهود بظهور المسيح المخلص، وبقيامة المسيح عند المسيحيين، كحل للمشكلات التي تزداد تراكماً، والتي لاتقدر إرادة الإنسان وعقله وعلومه على أن تؤثر فيها، ولايمكن أن تغير الواقع هذا التغيير الجذري الرباني الذي يمكن أن يحدثه الإعلان عن بدء الحركة الإلهية الغيبية التي ينتظرها المؤمنون: إنها توقف الزمن وحركة التاريخ، وتشل العقول وتمنعها من التفكير في إيجاد الحلول الممكنة لمشكلات الواقع والقضايا المعترضة، التي يتوهم العقل الإيماني أن استعصاءها لابد له كي ينتهي من ظهور المهدي المنتظر. والعقل الإيماني لايسعى لجمع الأدلة والبراهين والانطلاق منها، فعمله غير محكوم بمنطق ما، إنه محكوم بالمعجزة التي انقطعت، إنه لا سببي كما بينا، لايبحث عن العلل الكامنة والآراء والأحداث، كما تفعل العلوم.

١٠ - الرحمة

إن السمة الأساس التي يفترض أن تكون للعقل الإيماني، وقد كانت أحياناً، هي الرحمة، التي تم الانزياح عنها، هذا الانزياح تؤكده القراءات التي قدمناها فيما تقدم، وأدت الى إبراز السمات التي ذكرناها، إذ أن هذه السمات لم تتأكد في مجرى السلوك الإيماني، إلا على حساب غيرها وبالتغلب عليه.

من أين ينبع العنف؟ وكيف يبدو كأحد تجليات العقل الإيماني، وقد جاءت الأديان لتؤكد التآخي والتراحم والتوادد والتعاطف وغيرها من المعاني الإنسانية العامة.

من أين ينبع الجهل والخرافة في هذا العقل، والأديان تدعو الى التبصر والتعقل والتفكير والعلم؟ وهذه المعاني كانت من أبرز المحاور التي أكد عليها القرآن الكريم،

باعتباره أبرز مرتكزات الإيمان وأساسه في البيئة العربية الإسلامية، وكما يؤكد المؤمنون. لقد خانهم فهمهم.

إن العقل الإيماني بالرغم من الإنحرافات الخطيرة التي عاناها ويعانيها يومياً، لم يفقد قدرته على التأثير الإيجابي، في أحد حقوله وعلى ساحة الأحداث المعاصرة، يظهر ذلك من خلال النضال في مجالات غير المجالات التي ذكرنا نضاله فيها من قبل، حيث يبدو أنه يتصدى لمهمات اعتبرتها بعض السلطات ليست من شأنها، إنها مهمات تحقيق الوجه الإنساني للدين، بفعل إيماني تطوعي يبرز الوجه السمح، ويتجلى ذلك في الكثير من الجمعيات الخيرية، والمؤسسات التي ترعاها جهات مرتبطة بهذا العقل الإيماني الذي يتم استقطابه لصالح الاتجاه الحقيقي لمعاني التوادد والتراحم التي بشرت بها الأديان.

إن الإيمان بمفعوله الإيجابي، الإيمان بمعناه المستوحى من الكتب المقدسة، والتعاليم التي علمها الرسل، لا من الانحرافات البشرية ذات الأغراض غير المشروعة، يكمن وراء التقديم السخي، بعيداً عن الأهداف المشبوهة التي انحرف هذا الإيمان باتجاهها. هذا التقديم يتجلى في دعم الجمعيات العاملة في مجال رعاية الطفولة والمياتم وأبناء الشهداء، أو الصم والبكم، أو جمعيات رعاية الشيخوخة، ودور العجزة والمسنين، وفي مجال دفن الموتى وغير ذلك،إن الإيمان ذاته الذي لم تفسده الأيام ولايزال على نقائه هو المندفع للمساهمة في إزالة أخطار الكوارث الطبيعية التي تتعرض لها بعض المناطق في العالم، بعيداً عن انتماء هذه المناطق الديني والطائفي، من خلال الجمعيات الخيرية والإنسانية لتخفيف آلام الناس ومواساتهم وانقاذهم، وهي ماتزال تجد لها ضرورة ومكاناً في ظل غياب من يقوم بمثل هذه المهمات. وبعض هذه الجمعيات والمؤسسات ذو صفة محلية وبعضها ذو صفة إنسانية عالمية، كالصليب الأحمر والهلال الأحمر، عرف كيف يتخطى إيمانه الحدود، فهو لايخضع لجغرافية أو قومية أو دين، بل معياره الأساس الإنسان وما تتطلبه الحياة لتحقيق إنسانيته.

هذا المعنى وهذه السمة سواء أكان تجليها فردياً أو جماعياً هو صورة من صور النقاء الإيماني الذي تنكر له الكثير من المؤمنين المتقوقعين، أو الذين يعملون في مجال قتل الإنسان وتخريب قيمه، وهم يتوهمون أنهم يحققون إرادة السماء.

لقد كانت الرحمة هي السمة التي بقي المؤمنون على امتداد التاريخ يعتزون بأن أديانهم تنتمي اليها، وتحض عليها، والرحمة بانفساحها على كل المعاني الإنسانية التي تحقق إنسانية الإنسان وانعتاقه، وتقطع مع كل ماهو شر وخبث ونفاق. ولسنا بحاجة الى استنطاق النصوص الدينية الأساسية. وقد جاءت سير الكثير من العظماء وفي الكثير من الأحيان تؤكد منطوق الأديان واتجاهاتها: «فقد روينا عن محمد بن عبد الله بن عبد القاريء أنه قال: قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل من قبل أبي موسى، فسأله عن الناس فأخبره ثم قال: هل فيكم من مغربة (أي خبر غريب)؟ فقال: نعم رجل كفر بعد اسلامه، قال فما فعلتم به؟ قال: قربناه فضربنا عنقه، قال عمر: هلا حبستموه ثلاثاً وأطعمتموه كل يوم رغيفاً واستتبتموه لعله أن يتوب أو يراجع أمر الله، اللهم إني لم أحضر ولم آمر ولم أرض إذ بلغني»(٢٩).

إن الخبر السابق مثال واضح للدروس التي أرادت الأديان تعليمها للناس بلسان كبار رجالها، فكيف تم تجاهل هذه الدروس وتحويل الأديان الى معتقلات للفكر، ومقاتل للرحمة والتراحم، واستولى الحقد والتعصب على عقول المؤمنين بحيث أصبح الناس يموتون جوعاً كما يموتون في السجون وعلى أيدي الجلادين وقادة الدين والدنيا، حتى ارتفعت صيحات الرحمة، من خلال هذا الأتون مطالبة بالعودة الى ماهو حق وخير وجمال في هذه الأديان. فابراهيم بن أدهم الصوفي الشهير المدفون في مدينة جبلة على الساحل السوري يقول فيما ينقل عنه العلامة المرحوم «هادي العلوي» «لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة مسجد»(٣٠).

وفي هذا الخضم من الحقد والضغينة والشر، أظهر العقل الإيماني السمعي لاستحضار كل ما من شأنه إشاعة الرحمة والشفقة، طبعاً المقصود هنا تلك البقايا من العقل المتسامح والمنفتح على القيم الإيجابية، وعلى هذا الطريق نرى نهج «بابا نويل» الذي كان شخصاً فأصبح رمزاً للمحبة والتوادد والتراحم والعطف على الصغار وتخفيف معاناتهم وإشاعة الفرح والأمل في نفوسهم. إن استحضار صورته المستمرة عبر التاريخ من سيرة أحد القديسيين الذين جسدوا المعاني التي يرمز اليها في حياتهم، هو دليل على أن جانب الرحمة في الحياة كما في الأديان لم يصبح عقيماً بعد، بل لايزال هذا العقل قادراً على إشاعة الفرح والمحبة والطمأنينة، وعلى هذه الأسس يرتكز رمز آخر

من الرموز التي يستخدمها هذا العقل، إنه رمز الحب، القديس فالنتاين» حامي العشاق ورمزهم ومخفف معاناتهم، إنه إكمال للمعاني التي تنبعث من رمز «بابا نويل»، كلاهما من شانئة إشاعة الفرح، والتخفيف من آلام الناس وعذاباتهم، ونقلهم من أجواء الشر والسوداوية والظلم الى أجواء الخير والمحبة والأمل.

عقل الرحمة الإيماني هو الذي يقدم للحياة مؤمنين يجعلون الحياة أكثر بهجة وفرحاً، بنبذ التعصب وبالتنوع، واختيار الجميل مما عند الآخر، ومشاركته في قيمه ورموزه التي تقدم صورة التعايش الجميل بين حقول إيمانية مختلفة، تقدم الأديبة رضوى عاشور في شهادة لها، صورة جدتها المؤمنة التي تألف التقويم القبطي أكثر من سواه، وتنتظر هلال رمضان على مدار العام «لم يكن شهراً رمضانُ جدتي، كان حبيباً تتحمم له قبل اللقاء، تتطيب، ترتدي الجديد من ثيابها وفي الفراق تودعه بالبكاء». «تتكحل في سبت النور، تبتهج لسقوط المطر في الغطاس، وفي يوم عيد الفصح، في الليل تضع تحت وسادتها بصلاً أخضر وتنام. وتبكر صباحاً لدفع أياً منا لحمل البصل ليلقي به في النيل. ابنة أصيلة لثقافة تدخل عناصر جديدها على قديمها ولاتسقط سوى أقل القليل»[٢١].

هوامش الفصل الأول

(١) - د . نصر حامد أبو زيد . نقد الخطاب الديني . سينا للنشر . طبعة أولى ١٩٩٢ ص ١٣ .

(٢) - محمد أحمد خلف الله . الفن القصصي في القرآن الكريم . يليه عرض وتحليل بقلم : خليل عبد الكريم سينا للنشر + الانتشار العربي طبعة رابعة ١٩٩٩ ص ٣٢ .

(٣) - د . محمد شحرور . الإسلام والإيمان - منظومة القيم . الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع . طبعة أولى ١٩٩٦ ص ٦٧ - ٦٨ .

(٤) - د . رفعت السعيد . المتأسلمون - الإرهاب والفتنة الطائفية . دار الأهالي - دمشق طبعة أولى ١٩٩٤ ص ٩٧ .

(٥) - المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٦) - فاطمة المرنيسي . الجنس كهندسة اجتماعية - بين النص والواقع . ترجمة : فاطمة الزهراء زريول . المركز الثقافي العربي . نشر الفنك طبعة ثانية ١٩٩٦ ص ١٤٨ .

(٧) - د . عز الدين الأمين . نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر . دار المعارف . طبعة ثانية ص ٤٨ .

(٨) - هادي العلوي . في الإسلام المعاصر . المنشور ضمن كتاب : فصول من تاريخ الإسلام السياسي . مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي . شركة F.K.A. المحدودة للنشر - نيقوسيا - قبرص . طبعة أولى ١٩٩٦ ص ٦٢ .

(٩) - د . رفعت السعيد . مرجع سابق ص ١٠ . أيضاً كتابه ضد التأسلم . كتاب الأهالي /٥٦/ يونيو ١٩٩٦ ص ٦٢ .

(١٠) - ابراهيم بشير الغويل . نحو « أو مشروع » الطريق الثالث . دار الآفاق الجديدة - بيروت . طبعة أولى ١٩٩٩ ص ٢٤ .

(١١) - أديب ديمتري . نفي العقل . دار كنعان للدراسات والنشر - دمشق طبعة أولى ١٩٩٢ ص ٢٦٢ .

(١٢) - ول ديورانت - قصة الحضارة مجلد /٤/ جزء /٥/ /١٦/ - عصر الإيمان . الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية . ترجمة محمد بدران ١٩٦٥ ص ١١١ .

(١٣) - المستشار محمد سعيد العشماوي . الإسلام السياسي . سينا للنشر طبعة ثالثة ١٩٩٢ ص ٣٦ .

(١٤) - ول ديورانت . مرجع سابق ص ١٠٦ .

(١٥) - د . نوال السعداوي - مجلة الناقد . مقال بعنوان : ذراع الأخطبوط - من الكوكا كولا حتى حبوب منع الحمل . العدد /٧٧/ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٤ .

(١٦) - علي مبروك . النبوة - من علم العقائد الى فلسفة التاريخ - محاولة في إعادة بناء العقائد . دار التنوير للطباعة والنشر . طبعة أولى . بيروت ١٩٩٣ ص ٢١٢ . نقلاً عن : أصول الدين للبغدادي ص ١٧٠ .

(١٧) - المرجع السابق . حاشية ص ٢١٢ . نقلاً عن : الاسفراييني . التبصر في الدين ص ١٠٤ .

(١٨) - د . صادق جلال العظم . نقد الفكر الديني . دار الطليعة - بيروت ص ٩٧ .

(١٩) - د . رفعت السعيد . مصدر سابق ص ٨ .

(٢٠) - المرجع السابق ص ٨ .

(٢١) - المرجع السابق ص ٨ .

(٢٢) - أديب ديمتري . مرجع سابق ص ٤٣ .

(٢٣) - المرجع السابق ص ١٤ .

(٢٤) - المرجع السابق ص ١٤ - ١٥ .

(٢٥) – د . نصر حامد أبو زيد – نقد الخطاب الديني – سينا للنشر طبعة أولى ١٩٩٢ ص ١٩ .

(٢٦) – د . رفعت السعيد . ضد المتأسلم – كتاب الأهالي رقم /٥٦/ يونيو ١٩٩٦ ص ٧٤ .

(٢٧) – د . رفعت السعيد – المتأسلمون – مرجع سابق ص ٢١ . نقلاً عن الأخبار القاهرية التي نقلت بدورها عن النيويورك تايمز التي نشرت حديثاً للغنوشي .

(٢٨) – أديب ديمتري ، مرجع سابق ص ٤٤٦ .

(٢٩) – خليل عبد الكريم – الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية ، سينا للنشر ، طبعة أولى ١٩٩٥ ص ١٦٠ . نقلاً عن البيهقي أبو بكر أحمد بن علي في كتاب « السنن الصغير » حققه وأخرج حديثه : عبد السلام عبد الشافي وأحمد قباني . المجلد الثاني ص ٢٣٢ – الحديث ٣٤١٧/١٦٦٧ طبعة أولى ١٤١٢هـ/ ١٩٨٢م دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(٣٠) – هادي العلوي – مدارات صوفية . العبارة وردت سابقاً .

(٣١) – رضوى عاشور – مجلة الطريق ، شهادة « جدتي وأمي والكتابة » عدد /١/ كانون الثاني + شباط ٢٠٠٠ ص ١٩٢ .

الفصل الثاني

آليّات العقل الإيماني*

* تم تعديل هذا الفصل بعد أن كان قد نشر في مجلة «النهج» العدد / ٢١/ شتاء ٢٠٠٠ .

سبق أن أوضحنا أن العقل الإيماني الذي نتحدث عنه، ليس العقل الأبستمولوجي (المعرفي)، أي الكتابي المستنبط من النصوص، بل هو العقل الأيديولوجي الشفهي لكيان انطولوجي (وجودي)، وجوده اعتباري مشخص يتبدى في تحويل الناس ماهو فكري الى عمل، أي إنه عقل سلوكي، إنه الفكر عندما يكون له وجود في الواقع المشخص، وهنا تبدو التحولات والانحرافات التي تطرأ على الفكر عند مواجهته للواقع، واقع الناس، إذ قد لايبقى أميناً لتوجهه، بل قد لايحافظ الفكر دينياً كان أو سياسياً إلا على خطوط واهية تربطه بمصدره المتعالي، فتحدث القطيعة بين الفكر وحياة الناس، وقد تتغير الحياة فيحدث التغير الفكري الموازي لتغيرها واللاحق له (ارتباط البنية الفوقية بالبنية التحتية)، وهنا تطرح الأسئلة نفسها، ماذا تبقى من النظرية أو المبدأ؟، الى أي مدى تم الانحراف عنهما؟، وهنا أيضاً يبدو السؤال الذي طرحه المفكر الإيراني الذي أصبح رئيساً لبلده، (محمد خاتمي)، وجيهاً عندما قال: هل بالضرورة أن مافهمناه من الدين هو عين الدين حقاً؟، وأظن أنه قصد بالفهم هنا الترجمة العملية السلوكية لمنظومة القيم الدينية. أي بالصيغة التي نفهمها من السؤال: هل كانت حياتنا وفكرنا منسجمين مع الغاية التي أرادت الأديان تحقيقها عندما أرسل الله الرسل، ومع ماجاؤوا به من قيم، لإيجاد مجتمعات بشرية مثلى؟ هل كان الإخراج أميناً على النص وموازياً له؟.

لايقلل ماتقدم من احترامنا للنصوص الدينية، هذه النصوص التي اختلف الناس على فهمها، فكيف على تطبيقها؟! إذ المعروف أن التطبيق يقدم فرصاً أكبر للاختلاف، فكيف إذا كان النص بحد ذاته حمال أوجه على حد تعبير الإمام علي؟. لنأخذ قضية الحجاب في الإسلام مثلاً، فهي من أبرز القضايا التي كان لها وجود في النصوص وفي الواقع، وقد اختلف وجودها فيهما بين النظرية والتطبيق، كما اختلف

ذلك وتبدل في تطور التطبيق عبر العصور كما عبر البلدان أو الاتجاهات العقيدية. فالحجاب قضية اجتماعية نفسية بيئية، كانت قبل الإسلام مرتبطة بواقع معين، فلما جاء الإسلام أبقى على الحجاب كإشارة ودليل لاعلاقة له بمدى الالتزام بالقيم، ولم يحول الإسلام الحجاب من دليل شكلي ظاهري، الى دليل قيمي مرتبط بعمق الإيمان ومؤثر عليه سلباً وإيجاباً، وأدت التحولات التي خضع لها الى اعتبار الخارج عليه خارجاً على منظومة القيم الإسلامية، وعلى صحيح الدين، وهو كافر، فكل ما في المرأة عورة ويجب حجبه عن أي مخلوق وخاصة من الذكور، حتى لو كان من ذكور الحيوانات، فهناك من أفتى بأن على المرأة التي تربي كلباً ألا تخلع حجابها في الغرفة التي يوجد فيها الكلب إذا كان ذكراً، وإذا كنا نستطيع أن نستر المرأة في تلك الخيمة التي هي الحجاب، ونجعلها أسيرة سجنها المتنقل فكيف يمكن ستر صوتها، وبأي حجاب بعد أن أفتي باعتبار صوت المرأة عورة.

ذكرت ذلك إشارة الى التحولات التي طرأت على فهم النص الديني عبر علاقته بالواقع، وكيف يكون الفهم انحرافاً عن صحيح الدين في الكثير من الحالات التطبيقية الخاطئة التي تزيح ماهو صحيح من الوجود، وللتدليل على أن التطبيق الإيماني للدين ليس بالضرورة عين الدين.

لم تعد اليهودية يهودية واحدة، بل يهوديات متناحرة، فاليهود الاشكناز الغربيون تنشأ بينهم وبين اليهود الشرقيين حرب شرائعية، فلا يأكلون من الطعام نفسه، ولايصلون الطقوس نفسها ولايزوجون أبناء طائفة من أخرى، وحين دعي حاخام شرقي الى عرس يهودي اشكنازي لم يأكل من الطعام الذي قدم له، والعريس الاشكنازي لم يتعجب لأنه هو لايأكل أصلاً من طعام اليهودي الشرقي ولا يأمن أحد الطرفين لطريقة ذبح ذبائح الطرف الآخر، وقد وزع الاشكناز كراساً صغيراً في القدس اعتبر فيه أبناء كل اشكنازي يتزوج من يهودية شرقية «أبناء طمث نجسين» وأن جميع أبناء اليهود الشرقيين نجسون طوال عمرهم، والاشكناز لايتزوجون من الشرقيين إلا إذا تم «تزويج ابن معاق من فتاة شرقية»، وقد أفتى الحاخام عوفا ديا يوسف بمنع شرب النبيذ الذي يصنعه الاشكناز لأغراض استخدامه دينياً، واعتبر بعض الحاخامين تسجيل زواج الشرقي من الاشكنازية في سجلات الاشكناز كارثة[1]. هذا غيض من فيض يوحي

بمدى وعمق الانقسام في مجتمع متجانس دينياً، واعتبر التدين الأساس الذي يقوم عليه هذا المجتمع وهو المجتمع الاسرائيلي، كل منهم يمارس إيمانه بطريقة مختلفة وصلت حد التناحر الذي يأخذ أشكالاً من تعصب كل منهما ضد الآخر.

وكما حصل لليهودية فقد حصل للمسيحية التي أصبحت مسيحيات تخوض الحروب ضد بعضها على جميع المستويات العقيدية والفكرية والاجتماعية وأيضاً القتالية. والإسلام أصبح إسلامات وما أكثرها، وليس منها مايعترف للآخر أنه على حق أو أنه الصواب. كل هذا انتاج العقل الإيماني وأشكال تجليه. عندما نزلت الأديان الى الناس، من الخالق عن طريق الرسل، كانت موحدة، وليس منهم من جاء بأكثر من دين واحد، والآن نرى الدين الواحد أصبح ديانات متحاربة لاتعترف إحداها بالأخرى. إنها طوائف أوجدتها السياسة والمصالح والأهواء، ولم يوجدها الرسل والأنبياء. إذاً العقل الطائفي عقل إيماني، متمترس برؤياه ورؤيته، وبفهمه المفرض للنص. وإذا كانت الطوائف متعددة وتدين كل منها الأخرى، فكذلك عقلها متعدد ويدين كل منها الآخر. إذن نحن أمام اللا وحدة، أمام التفرقة الطائفية التي تصنعها عقول تناحرية متزمتة، هناك دين واحد وطوائف عدة، في كل منها مؤمنيها، بالتالي نحن أمام عقل ديني واحد، وعقول إيمانية متعددة بتعدد الطوائف والمذاهب والحالات والفروع وحتى الأشخاص في كثير من الأحيان.

وبالتأسيس على السؤال المهم السابق للرئيس الإيراني (خاتمي) والذي ينطوي على الشك في فهمنا الصحيح للدين، يمكن أن نجد أنه من المشروع السؤال عن مدى مشروعية المشاريع الطائفية الإيمانية، أي فهم كل طائفة للدين، باعتبار أن إيمانها يمثل الدين الصحيح، وإيمان غيرها لا، وبالتالي فهو مرفوض، والمؤمن به كان كافراً، بل نجد من الضروري طرح سؤال أشد عمقاً يتعلق بالأديان السماوية على الأقل وماتفرع عنها من طوائف وملل، حيث ترى هذه الأديان وهذه الطوائف وهذه الملل، أنها تعبد إلهاً تنسب اليه كل صفات التعالي، فهو إله واحد، باقنوم واحد أو أكثر، وصفاته تؤكد قدرته المطلقة والكلية من العلم والإرادة والحياة والقدرة ... الخ. فإذا كانت كل طائفة تؤمن بأن هذه الصفات هي الصفات التي يتمتع بها الاله الذي تعبده، وهي صفات مشتركة بين كل آلهة الأديان والطوائف، إذن هي اتفقت على ماهو جوهري في نظرتها

للاله، فعلام اختلفت؟! اتفقت على الجوهري واختلفت على ماهو أقل منه، أي على العرضي إذا صح التعبير، أي ما لايجوز أن يؤسس لحروب وتناحر بدأ دون أن نتوقع له نهاية، وغير الجوهري يفترض ألا يؤدي الى خلافات جوهرية، بين مذاهب تنتمي الى دين واحد، أو أديان تنتمي الى جذر واحد (الأديان الابراهيمية). ولكنه العقل الإيماني؟!.

كان سقراط يقول: «لست ضد آلهة الجمهور، بل ضد فكرة الجمهور عن الآلهة» ومع ذلك حكم عليه بالاعدام، وهذه حال من يعترض على فهم الجمهور للدين، الذي هو البعد الإيماني، حتى لو ثبت أن هذا الفهم خاطىء، أو بعيد عن صحيح الدين، ومنحرف عن منظومة القيم التي جاء بها هذا الدين أو بشر بها، بل إن كل طائفة لها موقفها من المعترضين على الفهم الارثوذكسي، أو التطبيق الذي أرادته الهيئة الاكليروسية لهذا المذهب أو الطائفة، في الوقت الذي نجد أن أغلب الاعتراضات على التطبيق جاءت من منطلق الغيرة على الدين أو المذهب، وأملاً في تصحيح الأخطاء المتراكمة التي يقرّ بها الجميع أحياناً.

هنا يكتسب التفريق بين ماهو إلهي وما هو بشري أهمية كبيرة. إن القدسية التي اكتسبها النص الالهي لألوهيته، يجب أن تسقط عما هو بشري إنساني لبشريته. إن الإيمان أي الأيديولوجيا الدينية، حوّل كل الجهود التي قدمتها البشرية في سبيل فهم أوضح للدين ومعطياته، الى نصوص اكتسبت قداستها من دورها في التجييش الإيماني، والثبات العقيدي للمؤمنين، ولتأكيد إلحاقهم كأتباع مخلصين للمؤسسة الاكليروسية. ما نسبة المؤمنين المسلمين الذين يتوقفون لمعرفة الظروف التي جاءت بها فتاوى ابن تيمية مثلاً، وفيما إذا كانت تلك الفتاوى التي كانت وليدة ظرف وواقع خاصين، يجب أن تستمر على درجة فاعليتها، بل أن تكسب القداسة باعتبارها صادرة عن «شيخ الإسلام»، وبالتالي يجب الإيمان بها دون التفكير في ظروف انتاجها، حتى لو أدت الى فتن طائفية ومذهبية، تبدأ ولا تنتهي، في وقت نحن أحوج فيه الى اللحمة والوحدة الوطنية. إن فعل هذه الفتاوى التي أتمثل بها تماهت مع ماهو مقدس، مروراً بكل ماقدمه أعلام المذاهب، وصولاً الى الحديث النبوي، فالنص الأساسي (الإلهي)، طبعاً هذا التماهي يتم على مستوى الفرد المؤمن غير المعني بالدراسات الفكرية أو

الفقهية أو التراثية أو غير ذلك، وهؤلاء هم عموم الأمة. وما يقال بصدد الإسلام واكتساب الأشخاص والنصوص اللاحقة للقداسة فيه، ينسحب على المسيحية واليهودية أكثر وأكثر، فلا تعاليم السيد المسيح تشكل في أيامنا هذه محور اهتمام وإيمان المسيحي، ولاشريعة موسى تشكل جل محور المقدس اليهودي. إن فيما أضافه رجال الدين المسيحيون، ما أنسى المؤمن المسيحي التعاليم الأصل للسيد المسيح ونحّاها جانباً ليحل محلها فهم رجال الاكليروس المسيحي لهذه الديانة، وكذلك في اليهودية. من هنا تأتي أهمية الفرز بين ماهو بشري من مكونات النسق الإيماني، وما هو إلهي من مكونات النسق ذاته. ومن بين أبرز من يعملون على الفرز بين هذه المكونات، المفكر «محمد أركون» الذي يرى: «أن العقائد والقوانين المشتقة من الوحي تشكل حتماً سياجاً دوغمائياً أو عقائدياً مغلقاً يقبل العقل البشري في أن ينحصر داخله. وهذا ماكنت قد دعوته (بالعقل الإسلامي) تحديداً، تماماً كما يوجد هناك عقل مسيحي أو يهودي أو ماركسي، ووحدهم فئة رجال الدين أو الفقهاء هم المؤهلون لاستخدام هذا العقل الذي تمارسه عندئذ السلطة العقائدية»[٢]. والسياج الدوغمائي العقائدي المغلق الذي يتحدث عنه هو أساس ومنطلق العقل الإيماني.

قانون جريشام يقول: «العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق»، وفي مجال السياسة يوجد قانون مماثل مؤداه أن القيم الرديئة تطرد القيم الرفيعة من الواقع[٣]. ينطبق هذا القانون على المجال الإيماني وذلك باعتراف المؤمنين ذاتهم، الذين يرون أن القيم الإيجابية الجيدة تتبدل بتطور الزمن بقيم أقل منها جودة، وكلما تأخر الزمن، وزاد البعد عن عصور التدشين، كانت القيم الدينية أقل حضوراً، واستبدلت بطقوس إيمانية أقل صدقاً وعمقاً، أي أن القيم الإيمانية الأقل التزاماً والأكثر تهاوناً وبعداً عن القيم الجيدة هي التي تسيطر، يأتي ذلك في تعبيرهم عن الثناء على كل ماهو قديم في هذا المجال، وعن عدم قدرة الأيام على أن تخلف أولئك الذين نعتبرهم القدوة والمثال. وهم مع الإقرار بأن الأيام تستبدل ماهو جيد بما هو رديء باطراد، فإنهم لايفعلون شيئاً لترك ماثبت لهم أنه ينتمي الى ماهو رديء، فيضاف كل هذا الركام الى الأسيجة الدوغمائية التي تحدث عنها أركون، وتزداد الرتاجات رتاجاً جديداً على العقل الإيماني، ويزداد تحجره وانغلاقه دون أن يبدو أن هناك فسحة لتخليص هذا العقل من

تزمته وانغلاقه، بل من تضييعه للقيم الجيدة، وتمسكه بالرديئة.

إننا إذ نطلق هذه الصرخة ونحن نشير الى أبرز الآليات التي يعتمدها العقل الإيماني، فإننا نضيفها الى كل الصرخات التي انطلقت قبلها، للحفاظ على ماتبقى من قيم الحق والخير والجمال في مظاهر وحقول عمل هذا العقل، داعين له أن يعمل في إطار حركة الواقع، مبدلاً نهجة الانغلاقي الاتهامي، ومستلهماً قيم حرية العقل، وانعتاق الإنسان. إن إشارتنا الى علاقة العقل الإيماني بالزمن، وإبراز أهم سماته، تندرج في سياق دراسة هذا العقل المنغلق، علّ الأيام تعمل على أن تتخلق ظروف تنحو بهذا العقل نحو الانعتاق رحمة بالبشرية، دون أن يعني ذلك التفريط واللا مبالاة التي قد تدفع من لايفهمون القصد الى مزيد من الاتهامات.

لقد تجلى العقل الإيماني بأشكال مختلفة، وظهر بمظاهر ولبوس متعددة، وعبر عن نفسه في كل مرة احتاج ذلك بأشكال منها ماينسجم مع حقائق الأديان ومنها ما لاينسجم، في ضوء فهمنا للدين أنه جاء لإنقاذ البشرية وانعتاقها، وتفجير كل طاقات الخير والجمال والحرية فيها، لا الى تكبيلها وكتم أنفاس الحرية المتصاعدة، وتقييدها الى ماهو رديء وباطل في ماضٍ احتوى الجيد والرديء.

ومن أبرز آليات هذا العقل الإيماني:

١ - استغلال المقدس والاحتماء به

نعود لنؤكد أن العقل الإيماني هو مزيج من الدين والموروث والعادات والمصالح والأهواء، هذا المزيج يحتاج الى الملاط اللازم ليبدو متماسكاً وواحداً، هذا الملاط هو إلحاق كل ذلك بالمقدس، عندما يتم ذلك يحصل هذا الملحق على كل الضمانات اللازمة للحماية والاستمرار، وهذا ما أدى الى اتساع دائرة المقدسات لتكون قادرة على احتواء كل هذا الخليط المتنافر، المتجمع والمنضوي في هذا السياق الحمائي، وخدمته.

لقد جاءت الرسالات السماوية مبشرة بقيم لم يختلف الناس على قيمتها ومكانتها، ولم يختلفوا على وجوب الحفاظ عليها من الانتهاك بعد أن أدت الى استقرار الجماعة أو الجماعات. إلا أن إلحاق ما لايجوز أن تلحقه القدسية، بل من

المعيب أن تلحقه، بغيره من المقدسات، جعل الأمر مختلطاً. وليس هناك مصلحة لا للدين ولا للدنيا في توسيع هذه الدائرة (دائرة المقدس)، إنما المصلحة هي مصلحة أشخاص، يبدأ المقدس عندهم بالجلباب واللحية وغطاء الرأس، وحتى حجارة الأضرحة، وكل التراتيل والأدعية والترسيمات والنصوص التي قصد منها القهر والتغلب، مروراً بالقرون المعبرة عن احتواء هذا المقدس وصولاً الى استعادة اللحظات القدسية الحقيقية التي جاء بها الأنبياء والمتمثلة بالنصوص الدينية التدشينية.

لقد خرج المقدس في الديانات السماوية من عباءة التوراة، وقد شكلت مع غيرها من النصوص الدينية اليهودية، أي أسفار الوحي التي جاء بها موسى أو ما وضعه أحبار اليهود، ملاذاً لمن يريد الاحتماء أو التحايل، فقد نقل عن (مناحيم بيغن) رئيس وزراء اسرائيل اليهودي المؤمن المتشدد، أنه كان يبكي حين يطالب بإزالة المستوطنات من سيناء خلال المباحثات التي أفضت الى اتفاقات كامب ديفيد، وكان يقول: لتقطع يدي اليمنى ولتفقأ عيني اليمنى إن كنت سأوافق على إزالة حجر واحد من حق أعطتنا إياه التوراة، ولكنه وحين رأى أن بين يديه اتفاقية تحقق مصالحه ومصالح كيانه، نسي التوراة وقدسيتها، ووقع على المعاهدة التي نصت على إزالة المستوطنات، وظهر أن احتماءه بالمقدس حيلة، وقد كانت هذه الحيلة ولازالت صالحة للاستخدام، فكل مايخالف مصالح اليهودي يحيله الى النصوص، وطلاب المعاهد الدينية، أي ممثلو المقدس وحماته لايخضعون لقوانين التجنيد كما يخضع الآخرون في الدولة التي قامت على أسس توراتية إيمانية، كي لايدنس إيمانهم.

والمسيحي الذي يسارع الى رسم إشارة الصليب احتماء من أي خطر، أو جلباً لأية مصلحة، لايزال يرى في الأيقونة التي صنعها البشر وتنتمي الى عالمهم رمزاً مقدساً يحتمي به ويلجأ إليه، والكنيسة التي تعلم أن يسوع كان ضد التملك، بل كان مشاعياً على رأي المفكر «هادي العلوي» في كتابه «مدارات صوفية» حيث تخلى عن أملاكه المتمثلة بالمشط والكوز عندما علم أنه يمكن أن يمشط لحيته بأصابعه، وعندما رأى انساناً يغرف الماء بيديه ليشرب، هذه الكنيسة سعت للسيطرة على ماتستطيع من أملاك، وحازت ثروات خرافية، والناس يموتون جوعاً، ناسية المسيح وتعاليمه، ومحتمية بقدسيتها، ومستغلة خوف المؤمنين من الإشارة الى أطماعها، وتنافي أفعالها مع القيم

الفاضلة التي بشر بها المسيح.

وقد وسعت الكنيسة من دائرة مقدسها فأصبحت مبانيها مقدسة، وأملاكها مقدسة، ورجالها مقدسون، وأزياؤهم مقدسة، بل محتويات الأديرة والكنائس والأدوات المساعدة على أداء الطقوس مقدسة، وأصبح العقل الإيماني المدرسي مشغولاً بهواجس من صنع القداسة من مثل كيفية التصرف إذا أكل فأر العشاء الرباني. وما إضفاء القداسة على كل ذلك مما ينتمي الى عالم البشر والطبيعة إلا للتوسع في السيطرة واحكامها، وكبت الحريات ومنع الناس من التفكير خارج إطار الخط الأرثوذكسي الذي رسمه كل مذهب إيماني على حده.

وكما صنع العقل الإيماني اليهودي والمسيحي سياجه المقدس أو أسيجته القدسية، باعتبار تعدد المذاهب، وحبس الأنصار والأتباع داخل هذه الأسيجة، فكذلك العقل الإيماني الإسلامي لم يكن أقل نشاطاً في هذا الاتجاه، فقد احتمت المصالح بالنص مبكراً، فبعد احتماء الخوارج بـ «لا حكم إلا لله» جاء دور الحكام منذ معاوية، وعندما فشل في صنع سياج حمائي من القرآن، لأن القرآن لن يسعفه على أعماله لجأ الى السنة، ولا يخفى أنها كانت مفتوحة في تلك الأيام[٤]، وأن فقهاء السلطان كان يمكنهم إيجاد المبررات وإلصاقها بالسنّة متى شاؤوا، أو شاءت مصلحة الحاكم، هذا الحاكم الذي تجرأ أن يقول: «الأرض لله ... وأنا خليفة الله»[٥]. وقد اجتهد هذا العقل لإضفاء القداسة على الأماكن والأزياء والأشخاص والممتلكات، فحجاب المرأة الذي كان في يوم من الأيام عادة وتقليداً اجتماعياً وحاجة بيئية أصبح أحد مفردات منظومة القداسة، لما يحققه للمؤمن الذكر من مصالح السيطرة والامتلاك. وها نحن اليوم أمام واقع يكفي إلقاء نظرة لتبيان حجم المقدسات وانتشارها ابتداء من النصوص الى بيوت العبادة والأضرحة والممتلكات والرموز، سواء كانت هذه الرموز أشياء أو أشخاص (ميتين أو أحياء) اكتسبوا قداستهم من انتمائهم الى ماهو ديني، بالرغم من نفي المسلمين أن يكون للإسلام هيئة اكليروسية. لكن الواقع يشير الى غير ذلك.

إن مدى انتشار المقدس وقوة تأثيره قد أغرى الكثير من أصحاب البدع والأهداف المشبوهة التي تولد الجرائم، لاستغلال هذا المقدس والاحتماء به، والصاق الأهداف والمبررات القذرة به للاحتماء. فالقائد المتطرف في (الجماعة الإسلامية) في الجزائر

(حسن حطاب)، لكي يبرهن على انتمائه الى القداسة يدّعي أن الرسول يزوره في المنام كل ليلة جمعه ليحضّه على مقاتلة الكفار، وهو يقوم ببعض الأعمال البهلوانية، وله تأثير كبير على أتباعه خاصة من العاطلين عن العمل منهم، وهو يشرب من دم ضحاياه[٦].

أن نجد عند المؤمن طعاماً مقدساً، ولباساً مقدساً، وأزمنة مقدسة، وأمكنة مقدسة، وأناساً مقدسين، ولغة مقدسة، وأفكاراً مقدسة، وعناصر مقدسة من الطبيعة في عالم الحيوان وفي عالم النبات، يعني كل ذلك اكتمال المملكة المقدسة، أو العالم المقدس، فمن دخله كان منه، ومن كان خارجه الحق بعالم النقص والخطأ، علماً أن من هذه المقدسات أو معظمها، عناصر مادية لاتحمل أي معنى قيمي، والتقديس إنما يكون للقيم. وهنا نرى لا علمية ولا عقلانية العقل الإيماني واضحة في توسيع دائرة تأثيره وسيطرته. إنه عالم من الوهم وسجن أيديولوجي دوغمائي، ارتضى هذا العقل أن يحبس نفسه فيه مسروراً بعالم من الطمأنينة المتخيلة، متخيلة لأنها مأزومه، تنطوي على الكثير من القلق الذي يظهر في علاقة المؤمن بما حوله ومن حوله.

٢ - الأدلجة

عندما يتحول إيمان الإنسان الى نمط حياة، الى قناعة وسلوك، الى سجن عقيدي طوعي تغمر من فيه قناعة بأنه على الطريق الصحيح، وغيره على الطريق الخطأ، ومنافذ الخروج من هذا السجن تبدو مغلقة، يغلقها الداخل إليه على نفسه، ولا يغلقها عليه الآخرون، عندما تصبح قناعاته مقاساً يقاس عليه ماعند الآخرين من قناعات وقيم، فيصم كل ما لاينسجم مع هذه المقاسات بأنه مرزول وفاسد، عندها نتيقن أننا أمام أيديولوجيا لاتفسح المجال للآخر، في حرمها. والأيديولوجيا مصطلح ترعرع في حقل السياسة، لكنه يفعل فعله في حقول أخرى كالدين.

تبدو الطوائف مثالاً واضحاً على العقل المؤدلج، فكل طائفة ترسم توليفتها العقيدية، فتصبح هذه الترسيمة أو التوليفة مقياساً لكل جوانب الحياة، من علوم أو فنون أو غيرها، فما انسجم معها، دخل عالمها القدسي، وما لم ينسجم، سقط في عالم المرزول، وهي تحاول أن تشتمل ترسيمتها على كل شيء، ابتداء بالإمارة وانتهاء بدخول

المرحاض، فالمؤمن لايجوز له عند التغوط أن يستقبل القبلة، كما لايجوز له أن ينفرد بأنثى ما لم تكن زوجته أو من محارمه لأنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، هكذا يتم تصنيع العقول وأدلجتها، وعلى هذه القيم تربى، مما يحيلها الى عقول أسيرة للخرافة والخزعبلات، وأسيرة تلاعب المتلاعبين. وبهذا تصبح القيم الرديئة طريقة حياة، يحياها المؤمن على كل المستويات عقيدة وتطبيقاً، وتستمر بالتوالد.

لقد أعطت الصهيونية في العصر الحديث، عصر الأيديولوجيات، أوضح صورة عن تحول العقيدة الدينية الإيمانية الى أيديولوجيا، لقد حاولت الصهيونية أن توحي للعالم أجمع أنها التطبيق الحي والطريق الذي لايوجد غيره لتنفيذ تعاليم اليهودية كدين، لقد كان الدين حاضراً في الصهيونية في كل ما من شأنه اقناع اليهودي بأنه متمسك بصحيح دينه، وملتزم بتعاليم ربه، من هنا نشأ إيمانه، ومن هنا توجه هذا الإيمان لخدمة أغراض أخرى هي أغراض الجماعة، على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ... الخ، وهذا الإيمان الذي تمت مخاطبته وتجييشه لصالح قوى مهمومة بالسيطرة والاستغلال، لا بتنفيذ تعاليم الرب وتحقيق إرادته ووعوده، ثم أحالت هذه العقود المؤمنة المتغلبة على مشاعر المؤمنين من اليهود كل عنفوانها العقيدي الى عمل تجلى في خلع شعب من أرضه للسيطرة عليها تنفيذاً لإرادة ربانية من تخلى عنها أصبح آثماً، من يهود العالم طبعاً.

والواضح أن الصهيونية باعتبارها عقلاً إيمانياً، تحرص كل الحرص على إعادة إنتاج هذا العقل لإبقاء سيطرته المطلقة على المجتمع تحقيقاً لمصالح الجماعة. وهذه السيطرة تظهر من خلال التمسك بالكثير من الشكليات، واستحضار النص التوراتي في مواجهة المستجدات، فقانون السبت لايجوز خرقه، وزي رجال الدين لايجوز خرقه، والمعاهد الدينية يجب أن تحظى بالامتيازات، كعدم خدمة خريجيها في الجيش، أو تأمين الإنفاق عليها دون تقتير، لأنها تعنى بإيجاد من يرث السلف الصالح ويعبّر عن استمرارية الأيديولوجيا في الإمساك بناصية المجتمع.

وليست الجماعة الإيمانية اليهودية (الصهيونية)، هي المعنية فقط بإعادة انتاج أيديولوجيتها، بل كل الجماعات الأيديولوجية، سياسية كانت أو دينية، ويعتبر التعليم أهم الآليات التي تتبع لزيادة التحريض وضمان الاستمرارية، والتعليم له أشكال

متعددة، من هنا نجد أن الحركات الإيمانية، تسعى دائماً الى السيطرة على قطاع التعليم والثقافة متوخية الإمساك به، أي الإمساك بدفة توجيه المجتمع والأجيال. وإشراف الجماعات الدينية في كل الأديان والطوائف وسيطرتها على قطاع التعليم وخاصة الديني، ونضالها في سبيل ذلك دليل على حرصها على إعادة إنتاج نفسها. كما أن من آليات الأيديولوجيا استعادة المناخات الإيمانية وما قاساه المؤمنون الأوائل في سبيل نشر مذاهبهم، بغية التجييش العاطفي. فعلى شاشة التلفزيون، تشرح رئيسة دير القديسة «تقلا» في معلولا، بتاريخ ٢٠٠٠/١/١ تاريخ نضال هذه القديسة، والمعاني المستفادة، والمعجزات التي تحققت لها، فقد كانت تقلا فتاة هربت بإيمانها من ظلم وتعسف الحاكم، حيث كانت تعيش في جنوب تركيا، وكان الحاكم قد عذبها ووضعها بين الوحوش الضارية، ولكن الله نجاها، فضربت في الأرض ضناً بإيمانها، وعندما وصلت الى جرف معلولا منهكة خائرة القوى وجدت أن الطريق مسدود أمامها بجبال لاتستطيع تسلقها فركعت وطلبت من الله النجدة، فأنفلق الجبل منشقاً الى نصفين لتحصل تقلا على الممر الذي يتيح لها تجاوز هذه العقبة. وفي مكان ركوعها بني الدير.

العبرة تكمن في تسويق هذه الأحاديث في هذا العصر، فقصة موسى حين انشق له ولبني اسرائيل البحر، تستعاد، وهنا تظهر القدرة الالهية المطواعة، وتدخلها في اللحظة الحاسمة، إنها قدرة موظفة وجاهزة تحت الطلب. والمهم في كل ذلك، المحافظة على الجو الإيماني والحرص على عدم تزعزعه، لإبقاء الأيديولوجية تفعل فعلها. حتى لو تدخل في ذلك التفكير السحري والأسطوري، بل ربما كان المفضل، لأن تغلبه يأتي بالضربة القاضية.

لاشك أن الأديان غير بعيدة عن الأيديولوجيا بشكل عام، لكن هناك محطات في التاريخ وفي هذا العصر شاهدة على الاستغلال الأمثل للإيمان في تحويله الى رؤية أيديولجية، فالحركة القرمطية التي أقامت دولتها، ونظمت مجتمعها في مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، هي لوحة مشهدية لأدلجة الإيمان، وفي العصر الحديث أو القريب من الحديث، برزت الحركة الوهابية، التي صنعت ترسيمتها العقيدية والدينية وحولتها الى قيم إيمانية تشمل جميع الجوانب الحياتية، وأغلقت نفسها على هذه القيم

محولة إيمانها الى أيديولوجيا. وليس بعيداً عن ذلك ما حاولت وتحاول الفئات التي دعيت بالأصولية أو (المتأسلمة عند د. رفعت السعيد) أن تفعله متوسلة الى ذلك كل ماتستطيع لتصنع المجتمع والتاريخ والدين والقيم والثقافة ....الخ، على مقاسها الشاذ. والمتهم فيما يجري في الكثير من الأحيان هو الدين، والدين مفتوح على أشكال لاحصر لها من الترسيمات والتأويلات بعدد الجماعات أو المريدين، وهو لذلك حاصل على البراءة، والمتهم هو هذا الشكل الإيماني أو ذاك، هذا العقل الإيماني أو ذاك، حيث مصلحة هذه الجهة أو تلك

إذاً كل حركة تتوسل الدين وتحاول إخضاعه لترى الحياة بلون العدسات التي وضعتها على أعينها، هي حركة مؤدلجة. ليس من المعقول أن تتحمل الأديان - كل الأديان - هذه الألوان جميعها، فالألوان للحياة ومعطياتها، فلماذا تحاول أن تخضع الدين لألوانها؟! لاشك أن التلوين هو القناعات الإيمانية التي تتبناها الجماعات المؤمنة.

٣ - توظيف الخوارق والخرافة

بما أن قوة البشر محدودة، فإن في عالم الإيمان ماينفذ بقدرات تفوق قدرة البشر، وبالتالي هناك قوى فوق بشرية تقوم بذلك، والقوى فوق البشرية، تنتمي الى عالم الألوهة وما يزخر به من عجائبية لاتخضع لقوانين حياتنا البشرية، أو لقوانين العلم والطبيعة، وهذه القوى القادمة من عالم الغيب لاتزال تفعل فعلها في عالم الشهادة، حسب قناعات المؤمنين، فقد ذكر الدكتور (عزيز العظمة)(٧) أن الرئيس السوداني عمر حسن البشير طلب من الجهات المعنية دراسة عن مساهمة الجن السوداني المؤمن في عملية التنمية في السودان، متجاوزاً بذلك منطق العلم وقيم العقلانية السائدة في العصر الحديث، بل والتي دعا إليها القرآن في الكثير من آياته.

لانستطيع أن نلوم بسطاء الناس المؤمنين في ظل هذه الأيديولوجيا، حين نجد أنه تشكلت لديهم قناعات لا علمية ولا عقلانية، بأن لاشيء تعجز عنه القوى الغيبية ذات المواصفات الالهية، ناسين أن هذه القدرات الإلهية ليست جاهزة تحت الطلب لكل من أراد تسخيرها فيما يريد من أغراض، وناسين أيضاً أن القدرات الإلهية وظفت المعجزات فيما وظفتها تأييداً للرسالات السماوية التي كانت تهدف الى إنقاذ البشرية،

وأنها ليست ذلك المشجب الذي يعلق عليه المؤمن أو أي مدع كل ما أحوجه من براهين، ودعاوي تعطيل قوانين الحياة والطبيعة، فالزمن ليس زمن نبوات ولا رسالات.

إن العقل الذي تربى على هذا النمط من التفكير يوظف الخوارق والخرافات لتجاوز أبسط العقبات التي تعترضه، ليريح نفسه من عناء التفكير والعمل لتجاوزها، ولترسيخ الحلول الغيبية اللا علمية، في عملية معقدة تستهدف توجيه العقل للاقتناع بأن صاحب هذه الحلول لاينتمي الى العالم الأرضي المحدود القدرات. فقد أورد الدكتور (عزيز العظمة) أيضاً[٨]، أن (محمد رشيد رضا) مارس الرقى والتعاويذ وآمن بها واعتقد أن له كرامات ولاننسى أن (محمد رشيد رضا) تلميذ الشيخ المتنور وداعية الإصلاح الإسلامي (محمد عبده) قد حاول الظهور بمظهر المستنير والمهتدي بقيم العقلانية حتى أعيته المظاهر، وهنا تبدو المفارقة.

في هذا الوسط اللا علمي الذي أسقط السببية والعقلانية من اعتباره اعتماداً على القوى الغيبية، ترتع الخرافة، فلا عجب أن نعلم أن عدم القدرة على التلقي الجيد للعلم سببه أكل الكزبرة الخضراء، أو النظر الى رجل مصلوب، أو رمي القمل على الأرض وهو حي (حسبما أورد د. العظمة)[٩].

عندما لانتعلم ربط الأمور بأسبابها الحقيقية وعللها من منطلق علمي، نصل الى مثل هذه النتائج والأسباب المستمدة من حقول الخرافة والسحر. من هنا نقول إن اللا علمية إحدى صفات العقل الإيماني وآلياته، وهذا مايدفعه بالضرورة الى إيجاد التبريرات والتفسيرات التي تتطلبها مستجدات الحياة، في حقل آخر غير حقل العلم والعقلانية بما ترتكزان عليه من تجريبية ومناهج أخرى، وذلك لأن العلوم التجريبية المعاصرة خادعة وضالة ومضلة في رأيه، وذلك لجعل الابتعاد عنها يصبح واجباً دينياً. وللقيام بواجبه ودوره في إيجاد البديل لما يدينه يلجأ الى إيجاد التبريرات والأسباب في إطار العقل الغيبي الخرافي، الذي يقحمه فيما يجوز وفيما لا يجوز، ويصنع منه آلياته.

إن في أساليب معالجة الأمراض بإخراج الشياطين من أجساد المرضى بالرقى والتعاويذ، وسط جو إيماني يلعب الدور الرئيسي فيه شيخ مؤمن، على صوت النداءات الإيمانية المبهمة التي تفهمها شياطينهم، ومن خلال عبق البخور والظلمة وجو الرهبة

المفروض على الطارئين على مثل هذه الأجواء، ما يشير الى استمرار هذا العقل في اللجوء الى آليات سحرية غيبية بعيدة عن الحقيقة العلمية، بمقدار بعدها عن الإيمان بمعناه الإيجابي، وهي لاتزال مستمرة في أداء دورها في إخراج الشياطين من أجساد المرضى كما في حبسهم (حبس التابع كما مر معنا)، وفيما يسمى بالموالد التي تحفل بضرب الشيش، كما تحفل ببعض أساليب الصوفية والدراويش كما يقولون، وهي من الصوفية والدروشة براء، لأنها لاتنتمي الى عالم الحيلة والخديعة والدجل، كما أنها مصائد لأموال البسطاء من المؤمنين.

وكما أن توظيف الخوارق مستمر عند المؤمنين المسلمين كذلك هو مستمر عند المؤمنين من المسيحيين واليهود، فلجوء المسيحي الى الأيقونات والنذور وعظام القديسيين وبقاياهم للمساعدة في تجاوز الكثير من المشاكل، هو من قبيل تدخل العقل السحري والحلول الخرافية في مواجهة مشاكله مع واقعه. كما أن اليهودي الذي لايزال رأسه مخموراً بالرابطة بين إله خاص متى دعاه استجاب، وبالذكريات التي تسعى مؤسساته الدينية الإيمانية على إبقاء إيمانه بها حاضراً، تعيده الى الحقل الإيماني الذي يعتمد على السحر والخرافة، ولا شك أن كتابة طلب، أو أمنية، يرجو صاحبها أن تتحقق، وتحتاج الى المعونة الالهية، أي إن تحقيقها فوق قدرة البشر المنظورة، لإيداعها ثقباً من ثقوب حائط المبكى في القدس، بعد أداء الصلوات، وإظهار الخشوع، هو نوع من أسطرة الحياة والحلول التي تتطلبها مشاكلها، في وقت تراجعت فيه الاسطورة لتسلم مواقعها الى العلم والعقل، وهذه ولاشك تنتمي الى العقل الديماغوجي الإيماني الخادع الذي أراد توظيف الدين بشكل سافر ومباشر لأداء دور سياسي عندما نراها تصدر عن رئيس وزراء اسرائيل (نتنياهو) أملاً في أن تساعده قوى الغيب على أن يفوز برئاسة وزراء اسرائيل للمرة الثانية، بل مصيدة لأصوات المؤمنين، وصدور مثل هذا الفعل عن مثل هذا الرجل، في مثل هذا التوقيت (فترة الدعاية الانتخابية)، بالغ الدلالة على توظيف السحر والخرافة والدجل في التأثير على عقول المؤمنين (الناخبين)، مع اليقين أن إيمانه بمصلحته لا بربه هو الدافع الى فعله هذا.

إن هذا العقل متوالد ومتوارث فـ: «لم يكن الشيطان في خيال العامة من أهل العصور الوسطى، وفي خيال رجال الدين من أمثال البابا جريجوري الأكبر، رمزاً أو

كناية أو تشبيهاً بل كان جسماً حقيقياً من لحم ودم، يغشى كل مكان في العالم، يغوي الناس بضروب من المغريات ويخلق كل أنواع الشر»[١٠] وقد اعترفت امرأة من طلوسة (طولوز) بأنها ضاجعت الشيطان، وأنها في الثالثة والخمسين من عمرها ولدت منه هولة لها رأس ذئب وذنب أفعى[١١].

ويقول ديورانت: «كان الإيمان بما لبعض المخلفات، والطلاسم، والتمائم، والرقى، من قدرة على الاتيان بالمعجزات عزيزاً على المسيحيين والمسلمين على السواء، وقد ورثوا هذه العقائد من الأديان الوثنية القديمة»[١٢]. وكتابه (قصة الحضارة/عصر الإيمان) يعج بمئات القصص والحكايات التي تشير الى نمو العقل الإيماني البعيد عن كل دين أو فكر ديني أصيل.

وهكذا وعلى امتداد التاريخ أفسح هذا العقل المجال واسعاً للخرافة والسحر وللخوارق، ووظفها ظناً منه أنها تخدم استمراريته، وإذا كانت قد أدت دورها سابقاً فهي الآن تجد نفسها في مأزق يتمثل في مواجهتها للعقل العلمي النقدي الذي لايقتنع بسهولة، وله مذاهبه في الكشف عن حقائق الأمور، حيث يوظف الشك بشكل واسع للوصول الى الحقيقة.

انطلاقاً من هذا المنظور نشير الى اجتهاد المؤرخين الإسلاميين لتأسيس نبوة محمد تأسيساً ميثولوجياً، من خلال حديثهم عن بعض الارهاصات، كتأويل رؤيا ربيعة بن مضر، حيث يرى أنه عندما ملك قبائل ربيعة رأى رؤية هالته في نومه، فلجأ الى الكهان والسحرة والعياف فاحتاروا في تفسيرها حتى فسرها «شق بن أنمار بن نزار» و «سطيح بن مازن بن غسان» وأخبروا ربيعة عن غزو الحبش للكعبة ومن ثم مجيء نبي يأتيه الوحي من العلي، وهو رجل من ولد غالب بن فهر بن عبد بن مالك بن النضر[١٣].

وفي عصرنا هذا لاتزال قيم اللا عقلانية والسحر تمارس يومياً وباطراد وبتأييد رجال الإيمان تكريساً لقيم الموروث في جانبه الخرافي، والناس يلتمسون الحلول حيث لاتوجد. فضريح الشافعي مثلاً يتلقى الرسائل من مرسليها، وبمجرد أن تلقى الرسالة المكتوبة في حرم الضريح، تحصل المعجزة ويتم حل المشاكل المطلوب حلها والتي يطلب الناس عبر رسائلهم معونة الضريح لحلها، وهكذا تنجز الحلول عن طريق الأضرحة الممتدة على مساحة الأيمان وعالمه.

إن الوفاء لمن أثبتوا خلال حياتهم حضوراً مميزاً وفاعلاً، وقدموا خدمات جليلة لمجتمعاتهم، وكانوا موضع ثقة الآخرين بهم لما أبدوه من أخلاق كريمة، وتمسك بالفضائل، لايتم بتقديس، الحجارة، إن في ذلك عودة الى الوثنية، بل يكون التقديس باستلهام القيم والمعاني التي جسدها هؤلاء في حياتهم، وبأن تتحول أفعالهم الكريمة الى قدوة، فتصبح فاعلة باعتبارها تجربة إنسانية مميزة في تقدم المجتمع وإبعاد القيم الرديئة عنه، إن ذلك يكون بتحول هؤلاء الى رموز للخير والتقدم لا للتخلف والجمود. بذلك يكون الوفاء للشخصيات التي أثبتت كبير نفع مادي أو معنوي لمجتمعاتها. ومركز التقديس في هذه الحالة هو العقل والوجدان وليس المواقع المادية.

إن في توظيف الخوارق والخرافة والسحر وتحكيم الغيبيات، وتغييب دور الإنسان بنسبة الأفعال المعجزة الى تلك القوى، آلية مهمة في التأثير على العقول المؤمنة التي لم تتكون تكوناً علمياً ونقدياً.

٤ - توظيف السلطة ومهاجمة الخصوم واستبعادهم

لا أشعر بالحاجة الى الخوض كثيراً في حقل إثبات مابين السلطة السياسية والسلطة الدينية الإيمانية من تنسيق ووحدة في حال لم تكونا سلطة واحدة، حيث تتمكن السلطة السياسية من استغلال المقدس، وتجييش شعور المؤمنين في القضايا التي تحتاجها، وتمكن المؤمنين وسلطاتهم من التحرك بحرية للإمساك بالمشاعر وتوجيهها، وتوظيف الامكانات الكبيرة في سبيل ابقاء هذه المشاعرْ جاهزة لتلقي الشحنة الإيمانية، فتاريخ العلاقة بين الطرفين لايعود الى اليوم أو الغد القريب، لقد نشآ معاً وترعرعا معاً، وبالتالي تشعر كل سلطة منهما باليتم إذا غابت عنها ربيبتها، وافتقدت وجودها، ولقد أثبتت الأيام أنهما كانتا قادرتين على صناعة المعجزات عبر العصور، ولاتزال قدراتهما واعدة، وأحلامهما طموحة، خاصة حيث يسود التخلف، وحيث تكون شرعية أي من السلطتين موضع شك.

عبر التاريخ كان الرابح الأكبر من هذه العلاقة هوالسلطة السياسية المفتقرة الى الشرعية، وبافتقارها الى الشرعية تفتقر الى الشعبية، وليس هناك ماهو أهم وأضمن من استخدام الشعارات الإيمانية في التعويض عن المفتقد. فالأعلام الأمريكي مثلاً

يسجل حضوراً كثيفاً للمسيح، وللقيم المسيحية المتألقة، مرة كل أربع سنوات، وذلك لأن المرشحين لمنصب الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية يتسابقون لخطب ود الناخبين، أياً كانت ميولهم، وباللغة التي يفهمونها وترضيهم، لاقناعهم بأنهم كمرشحين يمثلون قمة الالتزام بما تريده كل شريحة، حتى في حال تناقض الشرائح، لذا يعتبر التمسك بالقيم المسيحية والإعلان عن ذلك مدخلاً لاجتذاب المؤمنين، وهم حريصون على إشاعة الإيمان باستحضار كل ما من شأنه دغدغة مشاعر المؤمنين ومحاكاة توجهاتهم، مما يرونه مناسباً للحصول على أصواتهم، إن هذا يسمى اللعب بورقة المسيح، حسب التقارير التي تتناول النشاط الانتخابي للمرشحين الى الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية[١٤].

إننا نطلق على هذه العملية اسم (قوة التعويض، أو القوة التعويضية) انطلاقاً من قدرة مستخدميها على سد الثغرات، وتذليل العقبات التي تعترضهم عن طريق حسن استخدامها وادارتها، لما لها من ميزة للتفوق على كل عقبة موصوفة أو غير موصوفة، فالسياسة أحلّت عن رضا أو عن كره أن ينتمي الى عالمها معارضة ومعارضون ولو شكلاً لاستكمال اللعبة، أما الدين فلا يحل ذلك، ولايجوز أن يكون في عالمه معارضة لأن المعارضة في مجال الدين تجلب لصاحبها الويل والثبور وعظائم الأمور، باعتبارها معارضة للمتعالي المقدس، من لاتجوز معارضته حتى قلبياً، وأقل مايقع على المعارض في هذا المجال (مجال الدين) هو الموت باسم الله في الدنيا وفي الاخرة، لأن الخروج على الإرادة الالهية شيء خارج عن إمكانية الغفران أو التجاوز، ويجلب لصاحبه عقوبة الموت في الدنيا والخلود في العذاب في الاخرة.

من هنا كان الساسة عبر التاريخ يقتربون من المؤمنين بإظهار أنفسهم حريصين على حدود الله، وانهم مؤيَّدون من السماء، ولاتعجزهم الوسائل والحجج التي تربطهم بالمقدس، كادعاء الانتماء الى سلالات مقدسة، أو سلالات باركتها السماء، بالتالي يضعون أنفسهم مكان من لاتجوز معارضته، أو إن معارضته محكومة بعقوبة الموت كما بينا. والثمن الذي يدفعه المعارض في هذا المجال هو الثمن الذي دفعه كثيرون من قبل، واللافت للنظر أن أبرز هؤلاء من المثقفين المطالبين والحالمين بالحرية من أمثال عمرو المقصوص أستاذ معاوية الثاني وغيلان الدمشقي والجعد ابن درهم والحلاج والطبري

والسهروردي والنسيمي وغيرهم. وفي هذا إشارة كافية الى استعداء رجال المؤسسة الدينية للسلطة السياسية على كل من يخالف توجهاتهم وإيمانهم دون تدقيق بمستوى الإيمان ونوعيته، هل هو زائف أم صحيح، كما أن فيه إشارة كافية على الوقوع على المبررات التي تفنن المؤمنون في تقديمها لتبرير جرائم السلطات السياسية بحق معارضيها، فالخصوم لاهوادة في ملاحقتهم ومهاجمتهم. وفي كل مجتمع صغر أو كبر نجد من يشار الى خروجهم على قيم الدين والإيمان، فالعدو إذا لم يوجد يخترع، لا لأن هؤلاء خرجوا فعلاً على قيم الإيمان الصحيح، بل لأنهم ربما طرحوا أفكاراً لاتنسجم مع توجهات ومصالح حراس الإيمان، ومن شأنها أن تفضح الأيديولوجيا التي يعتمدونها.

لقد كان تاريخ أوربا في العصور الوسطى مثالاً حياً لاتحاد السلطتين للاطباق على حياة الناس ومشاعرهم الإيمانية من خلال محاكم التفتيش سيئة السمعة، ولم تتخلص أوربا من هذه السيطرة تماماً إلا بعد انتهاء القرون الوسطى بزمن طويل، فبعد عودة الملكية الى فرنسا في أعقاب الحقبة البونابرتية وبمنطلق رد الفعل على ماجرى إبان الثورة، صدر قانون انتهاك الحرمات أو التدنيس يقضي بالموت مع قطع اليد اليمنى مسبقاً فيما يتعلق بالجرائم ضد الكنيسة. وفي اسبانيا عادت محاكم التفتيش في زمن الملك فرديناند السابع ١٨١٤ - ١٨٢٣ وعظم نفوذ الجزويت(١٥).

ومن الملاحظ بوضوح شديد استخدام الصهيونية لكل سلطة سياسية أمكنها استخدامها في تنفيذ مشروعها الذي تنسبه الى الإيمان مع أنه سياسي يقوم على الاغتصاب.

وفي العالم الإسلامي، يبدو التوظيف المتبادل بين الدين والسلطة جلياً وواضحاً في وصول كل منهما لما يريد، يبدو ذلك واضحاً في افغانستان حيث التماهي بين سلطة الدين وسلطة الدولة، يأخذ بعداً شمولياً، كما يبدو في مناطق ودول أخرى تريد أن تؤسس سلطة الدين على سلطة الدولة وقوة بطشها، ويصح العكس. وهنا يتم التناقض بين الهدف والوسيلة فالدين قناعة وتسليم والسلطة خضوع واستسلام. لكن تخليص أحداهما من الأخرى تاريخياً أمر عسير، للتداخل الشديد بل التماهي أحياناً.

ولاشك أن هذا العقل يرغب بانشاء محاكم التفتيش التي تلائم مزاجه عندما يشاء، بل إن محاكمهم لها سلطة الاتهام والمحاكمة وإصدار الحكم والتنفيذ في وقت

واحد، فأحد قادة الجهاز الخاص الذي شكلة الاخوان المسلمون في مصر يقول: «إن أعضاء الجهاز يمتلكون الحق - دون إذن من أحد - في اغتيال من يشاؤون من خصومهم السياسيين. فكلهم قاريء لسنة رسول الله في إباحة اغتيال أعداء الله»(١٦).

إن استعداء حراس الإيمان للسلطات السياسية على أعدائها تحت عنوان محاربة الإلحاد وحماية الدين، شيء من مسلمات التاريخ، كما أن إضفاء الحماية السياسية على بعض الحركات الدينية حتى الخارجة على الشرعية أمر نجده في تأييد ملوك ألمانيا للحركة اللوثرية التي أدت الى انشقاق الكنيسة الكاثوليكية في بدايات عصر النهضة في أوربا، وهذا توظيف للسلطة السياسية بشكل بارز.

وكما استطاع العقل الإيماني الاسلامي والمسيحي توظيف السلطة، فكذلك استطاع العقل الايماني اليهودي، بل لقد تفوق هذا على مثيليه الاسلامي والمسيحي في تجيير سلطة الدولة لصالحه، ولايزال الأقدر على ذلك في الديانات السماوية، فالدولة مثلاً في اسرائيل مضطرة لاعفاء أعداد كبيرة من الشبان من الخدمة العسكرية قد تصل نسبتهم الى ٢٠٪، فقط لأنهم من طلاب المعاهد الدينية، أليس هذا دليلاً على سيطرة العقل الايماني في كيان قام على عسكرة الدولة والمجتمع؟ لكنه قام أيضاً على الوحدة بين الايمان والسياسة ولو ظاهرياً.

ومن مظاهر مهاجمة الخصوم، خصوم الايمان تحول العقل الايماني الى الحركية التي بدت واضحة في عصرنا الراهن على امتداد العالم الاسلامي من افغانستان الى الجزائر، هذه الحركية التي طورت أشكالاً إيمانية غريبة وشاذة، وربطتها بالدين، وهذه الأشكال الإيمانية لاتنتمي الى ماعرفه المسلمون في سابق عصورهم، ولا كان في أحلامهم وتصوراتهم، كما لم يكن من أساليبهم وطرقهم فيما مضى، إنما قد تكون هذه الآلية قد تطورت عن آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المعروف أن النبي طالب بتغيير المنكر على أي مستوى يستطيعه المؤمن من المستويات الثلاث، اليد أو اللسان أو القلب، ومنذ أن استقر نظام الحكم في الاسلام وانتظم جهاز الشرطة قال الفقهاء: إن تغيير المنكر بالقلب من حق الأفراد، وتغييره باللسان من عمل الدعاة، وتغييره بالقوة من سلطة الحكومة(١٧). وهنا نجد الباب مفتوحاً لافتراض الخصوم، وايجاد مبررات مهاجمتهم وتنفيذ الهجوم بأية وسيلة أو طريقة كانت وغالباً ما كانت الوسائل العنيفة

هي المتبعة.

كل هذا أدى الى ظهور آلية أخرى من آليات عمل العقل الإيماني في استبعاد الخصوم من ساحة العمل السياسي والايماني، والتمييز ضدهم، تمييزهم بسلبية ظاهرة، لافتقار هذا الاتجاه الى الديمقراطية كآلية تحكم تحركه ورؤيته.

٥ -المواجهة مع العلم

لا أريد أن أشرح إحدى مسلمات الدين الاسلامي وتوجهاته الواضحة، حيث لاتنتظر جهود إضافية لابراز دور العلم في العمارة الدينية الايمانية الاسلامية، وحقيقة ربط الدعوة الى عبادة الله عبادة صحيحة بالعلم وتحصيله لاينكرها إلا جاحد أو جاهل، ولا أظن أن منطوق الوحي في الديانات السماوية الأخرى قد وقف من العلم موقف الضد أو النقيض، كما أظن أن جو المقاربة لا المفارقة هو الذي يفترض أن يسود بين ديانات تصر على مصدرها السماوي، وبين مؤمنيها من جهة، وبين العلم من جهة أخرى.

بعد التسليم بالحقائق الماضية، وهي حقائق على صلة بالايمان الحقيقي، كان لابد لمن يرون في أنفسهم أنهم حراس الإيمان من التحايل لاقناع الناس أن العلم علمان: علم يؤدي الى الله وعلم يؤدي لغير الله، الى الشيطان، وبالتالي فما قاد الى الله فهو علم، وما قاد الى غير الله فهو جهل. ومن هنا سهل عليهم تصنيف العلوم، فما أعجبهم ووافق أهواءهم وانسجم مع أيديولوجياتهم، فهو علم، وهو مع الله ومع الدين، وهذا أقل القليل، وهو العلوم الدينية النقلية التي تتوجه باتجاه استلامي لاتحرك عقلاً، ولاتثير نقداً، بالإضافة الى الدراسات التاريخية واللغوية التي تتبع هذا النهج الستاتيكي، ومالم يعجبهم لأنه يحرك العقول ويثير الأسئلة والنقد ويسعى الى تفسير العالم تفسيراً سببياً عليّاً، ويعتمد التجربة والمناهج الحديثة، فهو من وحي الشيطان، أي ليس مع الله، وبالتالي فهو جهل وضلال، والجهل مربوط بالكفر والالحاد والذم، وبالتالي يحمل مبرر اقتلاعه وتصفيته. هكذا أراد العقل الإيماني أن يطل على الحياة وعلى الناس.

لم تستطع أوربا أن تخرج من عصور الظلام، وتصنع نهضتها التي نراها اليوم

ونتوق الى تقليدها، والوصول الى ماوصلت إليه من تطور، إلا حين تمردت على الطريقة الايمانية في التعاطي مع العلم والتي مر ذكرها، وهي رؤية وقفت في وجه كل تطور، فأودت بحياة الكثير ممن تجرؤوا على إشاعة التفكير العقلاني. والضحايا في هذا المجال كثر، ليس أولهم ولا آخرهم جيوردانو برونو، كما أن غاليلو كاديكون ضحية هذا العقل الايماني العقيم عندما قال إن الأرض تدور، وقامت الدنيا ولم تقعد على داروين ونظريته في التطور العضوي(١٨). ولم تنتصر أوربا إلا بعد أن اخترقت هذه الجدران السميكة من التجهيل على يد أمثال ديدرو وفولتير وروسو وبيكون وديكارث وأمثالهم، وهؤلاء أو أغلبهم اعتبرتهم مراجعهم الايمانية أو كنائسهم متمردين وآبقين، وفولتير في هذا المجال مثال للملاحقة والكيد.

وبتأثير العقل الايماني وسيطرته على قطاعات جماهيرية واسعة، خاصة تلك التي كان حظها من التعليم قليلاً، كان العمال في بداية القرن التاسع عشر يحطمون الآلات متوهمين أن فيها الشيطان الذي يسبب لهم البطالة، ولكن سرعان ماأدركوا أن الآلات بريئة من ذلك(١٩).

وفي هذه الإشارة دليل على المواجهة بين العقل الايماني والعقل العلمي الى أن تحصل الاستنارة، والاستنارة تقطع مع الكثير من القناعات والأساليب التي تمترس بها العقل الايماني.

في العالم الاسلامي بدأت المواجهة قديماً واستمرت، وكان من ضحاياها الكثير من الفكر المستنير، كالذي انتجه ابن رشد، وكان هو قاب قوسين أو أدنى من أن يكون ضحية، وبالتأكيد لن يكون آخر الضحايا نصر حامد أبو زيد.

البحث عما يؤيد هذه الفكرة يتأسس على النهج الذي نهجه الفكر الايماني عند المسلمين في مواجهته لكل جديد، ولاتزال هذه المواجهة مستمرة، لكنها كانت أكثر حدة في بدايات تسرب العلوم الكونية الطبيعية الى البيئة الاسلامية، كما برزت قديماً في العداء للفلسفة والمنطق، وقد مر بنا سابقاً الهجوم الذي شنه الفيلسوف الكندي على رجال الدين، وهذا الهجوم إنما كان دفاعاً عن الفلسفة التي كان يهاجمها ويهاجم العاملين فيها، أصحاب العقل الايماني، يتابع الكندي قائلاً: «ويحق أن يتعرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها (يقصد علم الفلسفة)، وجملة كل علم نافع،

والسبيل إليه، والبعد عن كل شيء ضار، والاحتراس منه»[٢٠]. ومن المرويات عن ابن الصلاح قوله «من تمنطق فقد تزندق» دون أن يفرق في أي مجال يستخدم معطيات علم المنطق. و «الفكر والكفر واحد بدليل أن حروفهما واحدة» عند وريث علمه، عبد العزيز بن باز. وإذا كانت محكمة غاليلو قد جرت منذ عدة قرون، واعتذرت عنها الكنيسة بعد ذلك، فإن القائل بما قاله غاليلو بعد هذه القرون العدة، أي القائل بأن الأرض تدور، يجب أن يستتاب فإن لم يتب ويتراجع عن رأيه، يقتل وتصادر أملاكه، حسب فتوى لابن باز[٢١]، في زمن يكاد الاعتقاد بمثل هذه الفتاوى يكون كفراً لما تحمله من اساءة للدين، وتعتبر تهريجاً عقلياً وإيمانياً، لأنها تضع الدين موضع الضد والنقيض للعلم، وتصر أن تكون العلاقة بينهما علاقة مواجهة واتهام وتناحر، لاعلاقة تكامل وتعاون للوصول الى الاستنارة والحرية.

لقد كانت المواجهة مع العلم مناسبة أخرى تثبت قصور العقل الايماني الذي يحاول ربط ذلك بالدين في كثير من الأحيان، والدين في هذه الأحيان براء من التهمة كما هو براء من أكذوبة أن هناك علماً يؤدي الى غير الله، أي الشيطان. فالعلم هو العلم، والانسان بسلوكه وباستخدامه للعلم هو الذي يصل، إما الى الشيطان أي الشر وأذى البشرية، أو الى الرحمن، أي الانعتاق والحرية. وفي هذه الحالة وبهذا المعنى، فليعلن المؤمنون عدائهم وبراءتهم لمن يصلون بعملهم لغير الله، بدل أن يعلنوا عداءهم للعلم وحربهم عليه، فيتضرر، من موقفهم المجتمع والأفراد، مؤمنون كانوا أم كافرين، ولنتذكر أن الله تعالى عندما يذكر العلم في القرآن لم يكن يذكر علماً مؤمناً وآخر كافراً، ولا علماء مؤمنين وعلماء كافرين.

على هذا العقل أخيراً أن يقلع عن مواقفه هذه، وإذا لم يقلع عن مثل هذه المواقف المتزمتة التهريجية، فيجب أن ينتزع عن منصة الوعظ بمعاداة العلم انتزاعاً، وليقتنع أنصار عداء العلم أنهم لن يصلوا إلا الى الشيطان الذي ينفّرون منه، فهم أنسال تلك المرأة المصرية التي أوصلها تحريض الشيخ، الى أن تفقأ عيني ولدها كي لاترسله الى المدارس التي افتتحتها الدولة أيام محمد علي باشا في مصر لتعليم الأجيال، كي لايتعلم الكفر الذي تعلمه هذه المدارس، كما أنهم أنسال ذلك الشيخ الذي كان يوجه المرأة.

كم سأكون مسروراً وسيكون العلم في عافية إذا سمعت أن فئة أو جماعة أو هيئة من علماء الدين الاسلامي ومشايخه (باعتبار عدم وجود من يتولى الموقف باسم الجميع كالبابا في الكنيسة الكاثوليكية) أو اذا أفاقت هذه الهيئة وتجرأت أن تعلن إعلاناً شبيهاً بالإعلان الذي نقلته وسائل الاعلام عن بابا الفاتيكان في يوم ٢٠٠٠/٣/١٣م، والخبر يقول إن البابا يوحنا بولس الثاني الذي أعلن أسفه للاخطاء التي ارتكبتها الكنيسة خلال ألفي عام، ويعتذر عن هذه الأخطاء أمام الله.

وكما أن هذا الإعلان ينطوي على اقرار بالخروج عن مبادئ الديانة في سلوك الكنيسة، فإن فيه شجاعة، وفيه شعوراً بضرورة تصحيح المسار الذي لم يكن ينتمي الى الدين، الى الله!!

٦ - الانتقائية والانتقال من الخاص الى العام وبالعكس

لاشك أن منطق الحياة غير المصادر يعطي الحق لكل إنسان أن يعجب بما يريد أو يقتنع، من أشياء أو أحداث أو اشخاص أو أفكار، ومن حقه أيضاً ألا يعجب أو يقتنع بما يريد ألا يقتنع ويعجب به، وهذا أمر طبيعي يتعلق بحرية الانسان وخياراته في الحياة، وقد جاءت مبادئ الديمقراطية في العصر الحديث لتعزز هذا الرأي، ولو نظرياً. أما في الأنساق الفكرية ذات الشكل الجماعي فهي تُخضع ماتواجهه الى عملية انتقائية، وإذا كان ذلك من حقها، فمن واجبها أن تُخضع العملية الى منطق تبريري مقنع أكثر مما تتطلب الآراء الفردية التي يتحكم بها مزاج وعقل فردي. إن الإشارة بالرضى والقبول، أو بالإدانة والرفض، لقضايا وأشياء تنتمي الى قطاع واحد، يبرر هذه الإشارة، ويثير التساؤل حول القواعد والضوابط التي اتبعت في التقييم. فالعقل الايماني يفصل بين العقل وتطبيقاته، بين النظري والعملي، بين العلم والتكنولوجيا، فالمنتجات الصناعية للغرب يمكن التمتع بها، ناسين أنها تطبيقات تكنولوجية لعقل الغرب العلمي، هذا العقل الذي يقبله المؤمن المسلم كتكنولوجيا وتطبيقات صنعية، ويرفضه كأساس نظري، مستحلاً لنفسه هذا الفصل غير الممكن، فالتكنولوجيا الغربية قائمة على أساس فكري وفلسفي وحضاري ونظري، قائم في أعماق العقل الذي أنتجها، بالتالي فهي الترجمة العملية لهذا العقل، فكيف يمكن قبول الثمرة المادية

مجردة من عمقها العقلي،؟ كيف يمكن التعاطي مع هذه المنتجات دون استحضار العقل المنتج؟ وهل تعمل السيارة مثلاً على المبدأ ذاته الذي كان يعمل عليه الجمل، سفينة الصحراء؟ هل يمكن الفصل بين خطة المعركة ومجريات القتال؟.

إن العقل الايماني يبرز تناقضه بانتقائيته أحياناً، فالمؤمنون يستخدمون آخر ماتوصلت إليه الصناعة الغربية، وأكثره دلالة على تطور الحياة، كأجهزة الصوت والإضاءة والتكييف وحتى منجزات الثورة المعلوماتية، وقد يكون هذا الاستخدام في قطاعات على تماس مباشر مع ممارسة القناعات والواجبات الايمانية، كاستخدام هذه الأجهزة في المساجد، واستخدام الحاسوب في الدراسات القرآنية وفي المعاهد الدينية ودور العبادة، وهذه تجهيزات لم تكن على زمن الأنبياء والسلف الصالح، فكيف يتم ذلك مع رفض استخدام أية أداة توقع (قتلاً أقل همجية) من السيف وفاء لعصر النبي...؟! ولماذا يكون الاستبدال والأدوات مزاجياً انتقائياً، يركز على الخصوصية في جانب لينساها في جوانب أخرى ربما تكون أكثر إلحاحاً...؟!.

تذكر الانتقائية والانتقال عبر المبرر، بالعبارة التي أوردناها سابقاً والتي شاعت في أوربا القرون الوسطى «ليس للمال رائحة» تندراً على رجال الدين وإشارة الى الأموال التي يحصلون عليها من أي مصدر، مهما كان فاسداً ولا أخلاقياً، دون أن تنتقل أخلاق وقيم واهبيها معها، وبالتالي جاءت هذه العبارة في مجال التعويض والتندر على جشع رجال الدين ومباركة الواهبين، دون الأخذ بعين الاعتبار المعايير الأخلاقية التي يفترض أن تحكم عملهم وحياتهم، ولايزالون حتى يومنا هذا وربما في أكثر المواقع الايمانية، لايترددون في قبول الأموال كهبات لهم، أو مساهمة في مشاريعهم الايمانية، وهم يعلمون أن مصدرها قذر، أو أنهم لايتعبون أنفسهم في البحث عن مصدرها. يلحق بهذا مايسمى في أيامنا «تبييض الأموال» بمباركة مؤسسات إيمانية، والاشارة هنا الى ماينشر عن دور رجال دين يهود في هذه العمليات، حيث يشرفون على مؤسسات مالية مهمتها شرعنة المال الحرام. وعلى كل حال فكل مال يأتي من فساد أو حرام ويبارك رجال الدين لواهبيه، على أثر المنح التي يحصلون عليها منه فهو مشاركة في عمليه التبييض التي تنفّر منها الشرائع الدينية وحتى الوضعية.

لقد أدان الشيعة عمر بن الخطاب، الخليفة الراشدي الثاني لتعطيله النص القرآني

في زواج المتعة لكنهم لم يدينوه في تعطيله للنص القرآني، في أمر توزيع أراضي البلاد المفتوحة على المقاتلين، ولم يدينوه أيضاً في تعطيله للنص ذاته في إقامة حد السرقة في عام مجدب، والنص هو النص، فكيف ندين تعطيله هنا لنسكت عن تعطيله هناك؟ التعطيل هو التعطيل، فلم هذه الانتقائية؟.

السينما فن حديث، وهو كفن محايد لاينتمي الى عالم السوء ولا الى عالم الحسن، كالكثير من الفنون غيره، والسينما وغيرها من الفنون يمكن أن نحمّلها بالقيم الإيجابية التي تساهم في بناء الإنسان بناء اجتماعياً فعالاً، ويمكن أن تكون حاملاً لقيم رديئة، فلماذا الانتقائية والانتقال مما هو شاذ وخبيث لتعميمه وتحميل المسؤولية لفن بريء، ولادانة فنون كثيرة واعتبارها فاسدة، وبالتالي تصنّف مع ماهو حرام؟.

لقد كان تعاطي الجماعات المتطرفة في مصر والجزائر وأكثر منهما في افغانستان، مع هذه الفنون التي ساهمت في الارتقاء بذوق الانسان ووعيه في كافة أنحاء المعمورة، تعاملاً همجياً يدل على نسق فكري قاصر عن التمييز بين ماهو سلبي وماهو إيجابي. إن إدانة فلم سينمائي لايجوز أن يتحول الى إدانة للسينما بشكل عام، وإدانة أغنية لايجوز أن تصبح سبباً لتحريم الغناء واعتباره كفراً وخروجاً على الأخلاق، هذه هي الانتقائية والتخصيص والتعميم غير المسؤولين.

لقد بلغ التطرف حد ادانة (أي مجتمع) بالكفر والالحاد والجاهلية، بالتالي تحليل قتل أبنائه للتخلص من الكفر والالحاد. وفي هذا قيام بمهمات الشرطي والفقيه والقاضي بل وفعاليات أخرى نيابة عن المجتمع. هكذا. المجتمع دفعة واحدة مجتمع جاهلي، كافر، بالتالي تجب تصفيته، لأن تصرف فرد أو مجموعة، لم يوافق مزاج هذه الجهة الفلانية أو تلك، أو أتى بما لا يعجبها، هذه الفتاوى تكررت في غير مكان من مجتمعاتنا الاسلامية المؤمنة (جداً) والتي حاولت هدم قيم المجتمع وطمأنينته، إرضاء لنزعتها في التخريب والتدمير.

٧ - الانخراط في الموروث

ينظر المؤمن الى كل جديد بمنظار الريبة والشك، فكل المطلوب منه الحفاظ عليه، قد أملي فيما أملي منذ زمن قديم، وهذا القديم ينطوي على جميع القيم التي يفوز

المؤمن إذا هو حافظ عليها، لذلك لم يكن يشعر بالطمأنينة للأشياء الطارئة، خوفاً من أن تكون مخالفة لنصوصه وقناعاته التي شكلتها الأيام، حتى أصبحت قيمتها كالآثار، كلما كانت أقدم كانت أغلى ثمناً وأكثر قيمة.

لم يستطع المؤمن أن ينسجم مع عصره لأن ولاءه لعصر مضى، وما ورثه من هذا العصر الماضي يحمل كل المصداقية، وإحدى آليات المواجهة التي يستخدمها هذا العقل الايماني في وجه خصومه أو متهميه بأية قضية مثارة، هي سندها النصي أو التاريخي لا العقلي، فكل قضية لها سند من نص أو أثر أو ورد مثيلها في عصور التدشين التي لاتشوب إيمانها شائبه، تعتبر مقبولة وصحيحة، أما إذا كانت هذه القضية أو الفكرة ليس لها سند من التاريخ أو النص، أوليست من عادات الأسلاف، فهي بحاجة الى فتاوى تدخلها عالم الشرعية والمقبول، بالتالي المقدس، أو تتم مصالحتها مع الموروث، وإعلان تشبهها به، وإلا فيجب أن تبعد لانتمائها الى عالم المرذول والدنس.

جاء في المرجع الفلاني كذا، وورد في كتاب فلان كذا، وحدثنا فلان عن فلان بكذا، أو حدثنا من نثق بعقله ودينه، ونقل عن المغفور له كذا، وغير ذلك من الأساليب والإحالات التي باتت معروفة، هي الأساليب التي يحيل إليها ويعتمدها العقل الإيماني في إثبات مايريد أو نفي مايريد، والملاحظ أنها كلها توصل الحاضر بالماضي، وتؤسسه عليه، أو تحاول أن تجد له السند والنصوص التي يفتقر إليها لكي يكتسب مشروعيته ووجوده الحق.

طلق أحدهم زوجته لأنها شؤم، والحديث الشريف يقول: الشؤم في ثلاث المرأة والفرس والدار، وقد وجد من أفتى له بالطلاق استناداً الى هذا الحديث الموروث الذي لم يقم أحد بتقييم أثره على ضوء مستجدات الحياة، ولا التفكير بمصداقية العمل بمثل هذه الأحاديث، ومدى مطابقتها لما عرف من دعوة الاسلام الى التعقل ونبذ الخرافة والدجل، والى تمحيص القضايا التي تمس حياة الناس.

ينتمي الى هذا الاتجاه، أمثال الفتوى بتحريم تشريح طالبة الطب لجثة رجل إلا في الظلام، ناسين أنهم بهذا الشرط يمنعون أية امرأة من تعلم الطب. كل ذلك حفاظاً على القيم والأخلاق ومنع النظر الى العوارت، دون تقدير الضرر الذي سيحيق بالمجتمع الذي يضحى به وبمصالحه إرضاء لقناعات موروثة صنعتها عقول بشرية مريضة، ونسبتها الى

المقدس والالهي. وهي موروثة عن زمن لارابط بين ظروفه والظروف التي نعيشها، مع ذلك يتم تحكيم الموروث بزمن لاينتمي إليه.

من هذا الموروث الذي لاينتمي الى العصر، النظرة الى الآخر، فالشيخ محمد متولي الشعراوي يبيح الاسترقاق ويقول: «أما معاشرة النساء الأسيرات معاشرة الأزواج ففي هذا تكريم لهن، إذ يفعل بهن السيد مايفعله مع زوجته»(٢٢).

إن هذه النظرة تنسى أو تتناسى أن الزمن تغير، بل لاتعير أي انتباه لما يستجد على مستوى العالم من معطيات وقوانين لاتستطيع الموروثات أن تستمر في ظلها، وما ألقته من أضواء على الكثير من أمور الحياة. لقد ورث المسلمون تشريعاً يقضي بأن المسلم أو المسلمة يمكن أن يطلب الطلاق من شريكه ويحصل عليه، إذا كان ينبعث من فمه رائحة كريهة (بخر) وقد عمل الفقهاء والقضاة على تفريق الزوجين لهذا السبب إذا طلب أحدهما، ومع أن الزمن تغير وأصبحت رائحة الفم من الماضي إذ يستطيع طبيب الأسنان القضاء عليها لأنها قد تكون ناتجة عن تسوس أحد الأسنان، مع ذلك يرفض العقل الايماني التخلي عن هذا الحكم الفقهي لأنه من الموروث الذي اكتسب صفة القداسة، وهنا يظهر الجمود والتحجر الذي يؤدي إليه الانخراط في الموروث انخراطاً غير نقدي لايحكّم العقل العلمي المتجدد.

لاشك في أن القيم الموروثة عن أي دين من الأديان، قضايا قيميه ستكون المجتمعات التي تحرص على سلامة نموها وتطورها بحاجة إليها دائماً، فمنظومة القيم الدينية فيها ماهو منسجم مع كل إيجابي من قيم الشعوب وأخلاقها، وهي هنا جاءت مدعمة بانتمائها الى المتعالي، إلا أنه من أجل استعادة ماهو إيجابي في هذا الموروث، لابد من إخضاعه الى عملية تفصل عنه ما لحق به من معاناة الأيام وتراكم الآراء والتجارب البشرية التي اختلطت به حتى لم يعد بمقدور أحد إلا الجهابذة تنقيته، كما أنه بحاجة الى اكسابه تلك اللمسة التي تجعله ينسجم مع واقع العصر المتجدد، فإذا ما أبقى المتزمتون من المؤمنين على تزمتهم في الحفاظ على المظاهر والشكليات فربما خسروا النصوص بخسرانهم لمجتمع أدار لها ظهره.

٨ - المحافظة على الشكليات

لانقصد بالشكليات هنا تلك التي لاغنى للمضمون عنها، والتي لايكتمل بدونها، حيث يشكل المضمون مع الشكل تلك الوحدة الجدلية، يغني كل منهما الآخر ويغتني به، فمن الجنون والحمق التفكير بفصل مضامين العبادات عن طرائق وأشكال ممارستها وشعائر أدائها مثلاً. المقصود بالشكليات هنا تلك الإضافات والتصرفات التي ينخرط بها المؤمن وهي في حقيقتها لاتحيل الى مضمون له علاقة بجوهر مايؤمن به، فجوهر الايمان لايغنيه تقصير الجلباب ولايسيء إليه تطويله، أو ربما الاستغناء عنه نهائياً واستبداله بزي آخر، والنبي محمد - وهو ليس وحيداً في هذا المجال بين الأنبياء - لم يلزم نفسه وأتباعه بزي محدد، فقد ارتدى أزياء كان يلبسها اليهود والمسيحيون كما تذكر الأخبار، وليس هناك زي لايكتمل إيمان المرء إلا به، فهذه أمور مرتبطة بحياة الناس وبيآتهم الاجتماعية. وإطالة اللحية لاتحيل الكافر مؤمناً كما أن حلاقتها لاتحيل المؤمن كافراً، إذ الايمان فعل قلبي، واعتقاد معاني وقيم، مع تمثل هذه المعاني والقيم في الحياة التي يحياها الإنسان، فمهما بلغت العمائم فإنها لاتصنع إيماناً غير موجود أصلاً، كما أن افتقادها لا يقلل من إيمان يعمر قلب صاحبه.

إن الكثير من المظاهر التي توحي بالتقى، وإسراف أصحابها بالإيحاء بغيرتهم على إيمان المؤمنين وعلى انتشار مظاهر التدين، لاترتبط بمضمون حقيقي، كما لاتعني كثرة المساجد في بلد ما، أو جمال عمارتها وكثرة ما أنفق عليها، أن هذا البلد الذي يحتويها أكثر إيماناً من غيره من البلدان، وهي التي يتسابق بعض الأغنياء في الاعلان عن المساهمة بعمارتها وكسوتها بمبالغ لايقدر عليها فقراء المؤمنين، بفعل ينطوي على كثير من مظاهر الدعاية وقليل من الإيمان ربما.

إن الأفعال بمعانيها ومقاصدها، قال ابراهيم بن أدهم، الصوفي العابد المعروف: «لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة مسجد»[٢٣]. كما لاتعني كثرة الصلوات والأدعية وقيام الليل وصيام النهار، تقوى صاحبها إذا لم يصاحب ذلك نية صادقة وراسخة في أعماق الوجدان، تقضي بتقديم كل ماهو مفيد للمجتمع والناس وتجنب إضرار الآخرين، وهذا هو المقياس الفذ لقياس إيمان المؤمن. إن غطاء الرأس الذي يُلحِق اليهودي بجماعة المؤمنين المتمسكين بدينهم، لاينجي من العقوبة الأخروية، إذ

استحقوها بأفعالهم وكانت حقاً موجودة، إذ أن الإيمان، شكلياً كان أو حقيقياً ليس جواز مرور الى قتل الناس واغتصاب حقوقهم وإلحاق الأذى بهم

والذي لاشك فيه أن الكثير من المؤمنين يرون في هذه الشكليات، حبل النجاة، والبديل الذي زودهم به إيمانهم، ومن كان بهذا المستوى من التفكير، سواء كان قائداً أو مقوداً، يثير الأسى لبؤس تفكيره، في حين أن البعض الآخر، وهو الأهم والأفعل، فهو يعرف أن الشكل الذي ينطوي على مضمون زائف وغير حقيقي، لانفع يرتجى منه، ومع ذلك لايجرؤ أو لايريد هدم حائط الشكليات الذي يفصله عن المعاني العميقة والحقيقية لإيمانه.

الكثير من الشكليات يتلقاها الطفل في البيئة الايمانية مع أسس تربيته الأولى، فتنزرع في سلوكه وتظهر في طريقة عيشه، فالكثير من المفاهيم يحرص الأهل على تلقينها لأولادهم، والأهل عندما يكونون على درجة جيدة من الوعي لايلقنون أولادهم إلا المفاهيم المنسجمة مع العقل، لكن الأسوأ، عندما يكون الأهل جاهلين، فلن يكون تلقينهم إلا على شاكلتهم. ليس خطأً أن يبسمل الإنسان في بداية تناوله للطعام، إنما الخطأ أن تخيف الطفل بأنه إن لم يبسمل فلن يشبع، وأن عليه ألا يأكل بيساره لأن الشيطان يأكل بيساره، وإن فتح فمه عند التثاؤب يعرض المتثائب الى دخول الشيطان من فمه، وإن لبس الكبار لخواتم العقيق شيء حسن لأن العقيق يسبّح الله، وينتمي الى هذه المصفوفة الكثير من الخرافات التي تتعلق بالشكليات كالاعتقاد أن حلاقة الرأس تزيد القدرة على الجماع، وغير ذلك من الشكليات التي تدخل في معتقدات الناس وتصبح إحدى مكوناتها، لكنها لاتتأسس على أية قاعدة علمية موضوعية أو على أية قاعدة دينية سليمة وإنما دخلت الى قناعات الناس من العادات والممارسات اليومية، وضعف الامكانات الفكرية التي تعمل على تحصين الشخصية، وقد حازت هذه الشكليات على درجة القداسة التي تحوزها القواعد الدينية السليمة عادة.

أن الشكلية إحدى ميزات الطقوسية، والكثير من الطقوس أخذ الطابع الآلي وطابع العادة، وغاب عنه العمق الفكري، فعند ممارسة الانسان لطقوسه العبادية، يفترض أن يكون ذهنه وقاداً وتفكيره في كيفية الأداء الذي يحقق التواصل مع ربه لاتشوبه شائبة. فلننظر الى كيفية تنفيذ المؤمنين لطقوسهم من وضوء وصلاة وصيام

وحج، نجد سيطرة الطقوسية الشكلية الآلية عند الجماهير الواسعة هي المسيطرة، لاتوازيها المشاعر الايمانية الحقيقية واللازمة لصدق الأداء والانتماء، وكأن المؤمن في عجلة من أمره وعليه أن ينجز هذا الواجب المكروه!.

وهذا كان مصدر قلق وإدانة من قبل المتنورين من رجال الدين الذين هالهم ماوصل إليه الناس من جهل واستهتار في التعاطي مع أمور دينهم، ومتى ضعف الالتزام الصحيح والوعي ضعف الوازع الأخلاقي الذي من شأن الدين أن يربيه. يقول الشيخ محمد عبده، فالمسلمون: «ضيعوا دينهم واشتغلوا بالألفاظ وحرفيتها وتركوا كل مافيه من المحاسن والفضائل، ولم يبق عندهم شيء. هذه الصلاة التي يصلونها لاينظر إليها الله ولايقبل منها ركعة واحدة، حركات كحركات القرود وألفاظ لايعقلون لها معنى....»[٢٤].

ومن الشكليات التي برزت في برامج وأدبيات الفئات المتطرفة الايمانية، والتي نهجت نهجاً جهادياً ضد السلطة والمجتمع، ووقفت هذه الفئات منها موقفاً يوحي بالتمسك بها مهما كان ضررها الاجتماعي، خروج المرأة الى العمل، وخروجها الى الطريق مع غير محرم، وعدم حجابها، وارتداء الرجال للبنطلونات (لأنها تبين مفاتن أجسادهم) ومشاهدة برامج التلفزيون غير الدينية، وسماع الموسيقى والأغاني، ومباريات كرة القدم، ودخول المسارح والملاهي ودور السينما، وزيارة المعارض والمتاحف، ومشاهدة الآثار، واقتناء الصور والتماثيل، وارتياد الشواطئ، والتحدث بلغة أجنبية أو تعلمها، وقراءة كتب أجنبية أو غير كتب التراث الإسلامي، وقراءة أي كتاب من الشرائع الأخرى، والسياحة لغير زيارة القبور[٢٥].

وكما أن وجود شكليات لاتنطوي على مضمون حقيقي إيماني، يجد بعده في صدق النية والنقاء الداخلي والتوجه الصادق نحو تحقيق القيم الأصيلة التي بشرت بها الأديان وجاءت من أجلها كما في الاسلام، كذلك فإن هذه الشكليات تبقى معزولة ومنقطعة عن بعدها الايماني الأصيل في المسيحية واليهودية إذا لم يرافقها العمل الجاد لاحالتها الى ممارسة حياة يومية، وفعل اجتماعي ينحو نحو حرية الجماعة وانعتاقها والحفاظ على كرامة الانسان في جماعيته، فأزياء الكهنة وكثرة الاكسسوارات التي يستخدمونها، من مباخر وعصي وشموع وأزياء، بالإضافة الى جوقات الإنشاد

والترتيل والموسيقا وغير ذلك، لاتكفي بأن تكون دليلاً على أن الايمان الصادق بخير ولاتشويه شائبة، إذا بقيت معزولة عن إمكانية تجسد هذا الايمان في حياة الناس اليومية وتحويلها الى رحمة وتسامح وأمل.

٩ - الرحمة والتسامح والأمل

تحدثنا فيما سبق عن آليات تنطوي على ماهو سلبي أكثر مما تنطوي على ماهو إيجابي. فالعمل إذا كانت أحوال المؤمنين قد أفضت الى هذه المواقع والآليات التي تحدثنا عنها؟ المهم أننا تحدثنا عن هذه الآليات حديث العقل لاحديث العاطفة، الحديث المدعم بالأدلة المستمدة من الواقع والممارسة العملية التي نطقت وتنطق بها الممارسات اليومية والتاريخية التي نقلتها الكتب والأخبار، وربما كان هناك آليات أخرى غفلنا عنها ولم تخطر ببالنا، أو أننا عددناها في مجال تجليات العقل الايماني القادمة، ونريد أن ننوه الى أن فصل سمات العقل الإيماني عن آليات عمل هذا العقل، وفصل سماته وآليات عمله عن تجلياته أمر غير ممكن في الواقع الحياتي، إنما يتم الفصل هنا من أجل الدراسة وإجلاء الواقع وبيان جوانب الموضوع، الذي أرى أنه كان ولا يزال ذا تأثير كبير، سواء برز هذا في مجال الايمان الديني، أو في مجال الايمان السياسي والاجتماعي وميادين تجليه، حيث سيطر العقل الايماني على المجال السياسي بشكل واضح، والايمان هو الايمان، أكان المبدأ موضوع الايمان سياسياً أم دينياً.

في كل مامضى لم نكن نعثر على الايمان والتقوى الحقيقيين المنبثقين عن المعاني والقيم الدينية التي بشرت بها الأديان السماوية، فشكلت اللحمة والسدى لنسيج الحياة المتواصل، إلا مشوبة بالكثير مما نفّرت منه هذه الأديان، وناضلت ضده، فرجال الدين الذين كانوا يبيعون صكوك الغفران للناس في القرون الوسطى المسيحية يمثلون وجهاً من وجوه الصورة التي يمثل وجهها الآخر اولئك الذين قال عنهم ول ديورانت: «إن طوائف الرهبان اشتهروا بمستوى حياتهم الخلقي الرفيع» و «لعل نصف الكرادلة كانوا يسلكون مسلك اتقياء المسيحيين المتدينين»[٢٦].

صحيح أنه لايكفي أن يكون نصف مجمع الكرادلة من الاتقياء وهذه صورة سلبية، لكن هذا يوحي بأن الحياة لم تكن مليئة بالسواد والشر فقط، بل بالرحمة والخير أيضاً.

وإذا كانت معاني الحق والخير والجمال التي تنشد الرحمة والتسامح والأمل غير متضمنة في سابق حديثنا فليس معنى هذا أننا نفتقدها في الحياة التي يحياها المؤمنون. فلا يزال الكثير منهم يستجيب لنداء الرحمة التي أرادت الأديان أن تعلّمها. وفي هذا الموقع، موقع الرحمة يمكننا أن نضع اعتذار البابا مؤخراً عما اقترفته الكنيسة من أخطاء خلال ألفي عام انصرمت.

لقد شكلت مشاركة المؤمنين في رعاية بعض معاهد العلم والتربية، وتأهيل ورعاية المعوقين، ومساعدة الفئات الاجتماعية التي تحتاج الى المساعدة، والإسراع في تقديم مايخفف من وقع الصدمات والكوارث التي تتعرض لها الشعوب، والانفاق على المشافي والمراكز الصحية، وفي إشادة المرافق العامة والعناية بها، وفي غير ذلك مما يحتاج المساهمة المادية والمعنوية، كل هذا شكل جسراً للتواصل مع المعاني الحقيقية للايمان الذي نشرت به الرسالات السماوية. ولعل الجوانب الأبرز من هذه الجوانب التي ذكرناها، والذي ساهم كثيراً في تقدم البشرية وانعتاقها، هو رعاية معاهد العلم والتربية، حتى لو لم يكن لهذه الرعاية من هدف سوى نشر المذاهب الايمانية وتعميق تأثيرها في حياة الناس، وقد كانت هذه الغاية سبيلاً الى تطور التعليم، بحيث لم تستطع المدارس والمعاهد المذهبية أن تبقى بمعزل عن العلوم التي تتطور تطوراً مطرداً، إذ لو بقيت في معزل عن مثل هذا التطور لحكمت على نفسها بالاعدام، علماً أن بعضها كان من أنصار العلوم الحديثة وكان حريصاً على تتبع الجديد.

من جانب آخر نجد أن معظم المذاهب الدينية تشكل عقبة ضد انتشار الكثير من المفاسد. فهذه المذاهب الدينية، سواء في المسيحية أو الاسلام تبذل جهودها ضد الانتهاكات الاعلامية للقيم الأخلاقية كالذي تقوم به بعض المحطات التلفزيونية. ووقوفها في وجه انتشار المخدرات التي تعتبر من أشد مايفتك بابناء الجيل، ومعالجة تأهيل المدمنين، ويشبه الوقوف ضد المخدرات ومحاربتها ومعالجة مدمنيها، مواجهة انتشار مرض الأيدز هذا الوباء الفاتك.

ماذا تعني الرحمة أكثر من الالتزام بما يساعد على تحقيق انسانية الانسان وتكريس حريته، والدفاع عن قيمه الايجابية في مجال بناء شخصيته، بالإضافة الى مواجهة مايتعرض له من أخطار خاصة تلك الأخطار الأكثر فتكاً والتي تأخذ الطابع

المعنوي الذي يسلب الشخصية قيمها.

إن هذا الجانب يأخذ شكل الدفاع عن الأخلاق وحمايتها، حيث تعتبر الأخلاق حقلاً من الحقول التي يتجوهر فيها الايمان (الصادق).

إن معاني التوادد والتراحم، وصلة الرحم، وإشاعة معاني وقيم الحياة الإيجابية، ومكافحة الفساد والقيم الأخلاقية المتردية، والدعوة الى التمسك بالفضيلة والى إشاعة السلام والرعاية الاجتماعية، وغير ذلك من قضايا يعد اشارات واضحة الى استمرار زخم العمل الايماني في إطار القيم الإيجابية للأديان، حتى لو لم تنفذ الى لب المشاكل كالاستغلال والطغيان ونهب خيرات الشعوب وتجاوز القوانين والاحتماء بالمقدس و و....الخ، وبتكريس القيم الإيجابية والنضال من أجلها، وربطها بقضايا المجتمع الحياتية من أجل اغناء الحياة وإثرائها من أجل غد إنساني أفضل.

١٠ - الجهاد

الجهاد فريضة اسلامية دينية، وهو وسيلة لاحقاق الحق، ولتحصين المجتمع ضد الظلم، والابقاء على الفضائل، ورد الأطماع، وصيانة المقدسات...الخ. وقد ارتبط الجهاد بحامله الاجتماعي، فهناك حامل اجتماعي أحال الجهاد الى عنف ضد المجتمع لتحقيق مآرب في غاية البعد عن الدين والايمان الحق.

ينطلق مفهوم الجهاد عند هذا الحامل من أرضية تكفير الآخر، وهذا مايدعو (د. رفعت السعيد) الى القول إن عنف هذه الحركات متأصل فكرياً، فالفكر الذي تتربى عليه ينضح بالعنف تجاه الآخر، في حين يرى (د. فيصل دراج) أن هذا العنف رد على عنف الدولة ضد المواطنين[٢٧].

يحتكم هذا الاتجاه في تكفيره للناس الى فكر المودودي الموروث عن ابن تيمية وأقرانه، كما يرثه (سيد قطب) الذي يحكم على المجتمع بأنه جاهلي (في كتابه معالم في الطريق) وتجهيل المجتمع (أي نسبته الى الجاهلية، الى الكفر والضلال) خطوة أولى في طريق نفيه وقتله. فالشيخ الغزالي في شهادته أمام المحكمة في قضية اغتيال فرج فوده، يحدد الكفار بقوله: «كل من قال بالقانون الوضعي»[٢٨]، علماً أن النبي يقول: «من كفّر مؤمناً فهو كافر»، ولقد ذكر مدرس عمل في إحدى مدارس اليمن، أن اليوم

الدراسي يبدأ في هذه المدارس أو بعضها بخطبة دينية صباحية، يلعن فيها الخطيب الشيوعيين والاشتراكيين والعلمانيين والديمقراطيين وأضرابهم من الكفار.

ويعتبر هذا الاتجاه ضد كل هذه الفئات من الكفار واجباً دينياً مقدساً، والتجهيز والاعداد لهذا الجهاد واجب أيضاً. فزعيم الاخوان المسلمين الشيخ (حسن البنا) يقول: «في الوقت الذي يكون فيه لكم معشر الاخوان المسلمين ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها... في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار»[٢٩].

إن توجه الجهاد (العنف) باتجاه الداخل، باتجاه المخالفين بالرأي، جعله يصطبغ بالصبغة السلبية، في حين أن كلمة الجهاد تحيل في عمق معناها القار الى معنى إيجابي في أذهان المسلمين، ولانستطيع أن نقول إن الآخرين هم المسؤولون عن ذلك، لقد سعت الحركات المتطرفة الى هذا الفهم بنفسها، فحركة النهضة الاسلامية المعتدلة في تونس والتي تعتبر من الحركات الساعية الى التغيير السلمي والديمقراطي كما يصرّح زعيمها «راشد الغنوشي»، هذه الحركة صبت ماء النار في حلق داعية اسلامي مسن لأنه خالفهم الرأي، وحرقوا بعض خصومهم أحياء[٣٠].

حامل اجتماعي آخر يطالعنا ببقائه أميناً على الجهاد كوسيلة لتحقيق قيم الحق والخير والحرية، علماً أننا هنا نتحدث عن الجهاد الأصغر حسب المفهوم الديني الإسلامي.

لقد كانت مواجهة الشر والعدوان عبر التاريخ منوطة بالقوى المؤمنة بانسانية الإنسان وقدره في التوجه الى الأمام، من هنا وجدت هذه القوى نفسها تنخرط في مواجهة المعتدي لأن هذه المواجهة جزء من ايمانها. فإذا تجاوزنا جهاد الانسان في القديم، حيث كان يرى ويؤمن أن جهاده في سبيل إعلاء كلمة الله، وفي العصر الحديث فإن هذا المؤمن لم يستطع أن يفصل بين إعلاء كلمة الله وبين حرية وطنه وانسانه، والفصل بين التوجهين غير ممكن لأنهما ينتميان الى حقل قيمي واحد سواء في الماضي أو في الحاضر.

في الجزائر، وجد الانسان الجزائري نفسه مفعماً بإيمان لايفصل بين الله والوطن، وقضيته الوطنية هي قضيته الايمانية، وقد تماهت المعاني والقيم الوطنية مع الايمان بالله، فكان ذلك حافزاً لايجاد آلية استطاعت تخليص الجزائر من الاستعمار الفرنسي

عبر ثورة المليون شهيد، وقد أعطى هذا البلد المعنى النقيض لتوظيف الايمان في السنوات الأخيرة من خلال الترويع الذي قامت به عصابات اجرام مطلقة عليه اسم الجهاد، وقد برز هذا التناقض في جنوب لبنان من خلال توظيف الجهاد تارة ضد قيم وطنية من أمثال: حسين مروه ومهدي عامل، وهنا يظهر الوجه السلبي للجهاد حيث تم اغتيال المذكورين، وتارة ضد العدو الصهيوني مغتصب الأرض والحقوق، حيث الوجه الايجابي أو الأكثر إيجابية في تاريخ الاجتماع البشري، أعني مواجهة الشر والعدوان. وهذا يذكرنا بسمة التناقض في العقل الإيماني.

هذه الجدلية الرائعة بين الايمان الديني والايمان بالوطن ذي البعد الاجتماعي السياسي، عبر عن آلية يلجأ إليها العقل الايماني في بعض فصول تجليه تجلياً إيجابياً، في خضم الكثير من الآليات التي لجأ إليها ليثبت وجوده، وليعبر عن نفسه تعبيراً حمل الكثير من السلبية.

لانستطيع أن نتجاوز هذه الآلية (الجهاد) دون الإشارة الى الدور الذي لعبه الايمان في ماعرف بلاهوت التحرير في دول أمريكا اللاتينية، حيث برز رجال اللاهوت قادة ثوريين مؤمنين بقيم الحرية والانعتاق ليشكل عملهم هذا ظاهرة يذكرها التاريخ بكل التقدير والاحترام.

هوامش الفصل الثاني

(١) – تحسين حلبي ، صحيفة المحرر نيوز – الاسبوعية ، العدد
/٢٣٢/ ٢٥ شباط ٢ آذار / ٢٠٠٠ نقلاً عن الصحافة الاسرائيلية ، خاصة هآرتيس عدد ١١ شباط / ٢٠٠٠

(٢) – محمد أركون ، العلمنة والدين ، دار الساقي طبعة ثانية ١٩٩٢ ص٧١

(٣) – المستشار محمد سعيد العشماوي ، الاسلام السياسي ، سينا للنشر ، طبعة ثالثة ١٩٩٢ ص١٧

(٤) – ابراهيم بشير الغويل ، نحو « أو مشروع » الطريق الثالث ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٩ ص٢٦٢ وغيرها

(٥) – المستشار محمد سعيد العشماوي ، مرجع سابق ص٤١

(٦) – صحيفة المحرر نيوز عدد /٢١٨/ ٣ – ١٩ ت٢ ١٩٩٩

(٧) – د . عزيز العظمة ، مجلة النهج /٦/ شتاء ١٩٩٩

(٨) – د . عزيز العظمة ، العلمانية من منظور مختلف ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة أولى ١٩٩٢ بيروت ٩٩

(٩) – المرجع السابق ٥٤

(١٠) – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، مجلد /٥/ جزء /٤/ عصر الايمان /١٦/ ترجمة محمد بدران ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ١٩٦٥ ص٤

(١١) – المرجع السابق ص٤

(١٢) – المرجع السابق ص٢٧

(١٣) – علي مبروك ، النبوة ، من علم العقائد الى فلسفة التاريخ ، محاولة في إعادة بناء العقائد ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة أولى ١/ ١٩٩٣ بيروت ، حاشية ص٨٠ نقلاً عن « الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج١ القاهرة ١٣٤٨هـ ص٢٤٥ وكذلك تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، جزء /٢/ القاهرة ص ٩١٠ – ٩١١

(١٤) – صحيفة الكفاح العربي – لبنان – السبت ٤ آذار ، مارس ٢٠٠٠ .

(١٥) – أديب ديمتري ، نفي العقل – دار كنعان للدراسات والنشر ، دمشق ، طبعة أولى ١٩٩٣ ص٩١

(١٦) – د . رفعت السعيد ، المتأسلمون – الارهاب والفتنة الطائفية ، دار الأهالي ، طبعة أولى ٦/ ١٩٩٤ ، دمشق ص١٠

(١٧) – المستشار محمد سعيد العشماوي – المرجع السابق ص٣٠

(١٨) – د . صادق جلال العظم – نقد الفكر الديني – دار الطليعة ، بيروت ص٣٠

(١٩) – أديب ديمتري – المرجع السابق ص٩٥

(٢٠) – نقلاً عن : د . حسين مروه ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابي – طبعة رابعة ١٩٨١ ج٢ ص٥٩

(٢١) – د . رفعت السعيد ، المرجع السابق ص١٠ ، أيضاً كتابه ، ضد التأسلم ، كتاب الأهالي رقم/ ٥٦/ يونيو ١٩٩٦ ص٦٢

(٢٢) – المرجع السابق ص١١

(٢٣) – هادي العلوي ، مدارات صوفية ، من تراث المشاعية في الشرق ، دفاتر النهج ، دار المدى للثقافة والنشر ، طبعة أولى ص١٨٧

(٢٤) – كتاب المعرفة والسلطة ، مساهمات نظرية وتطبيقية ، سلسلة دراسات الفكر العربي ، من دراسة منشورة في الكتاب للدكتور : حليم يازجي ، والكتاب لمجموعة من المؤلفين بإشراف د . فهمية شرف الدين ، معهد الانماء العربي ، بيروت ط١ أولى ١٩٨٩ ص١٥٥

(٢٥) - المستشار محمد سعيد العشماوي ، مرجع سابق ص١٢٠
(٢٦) - ول ديورانت ، قصة الحضارة ، مجلد / ٥/ جزء / ٤/ ٢١/ عصر النهضة - ترجمة محمد بدران الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، طبعة ثانية ١٩٦٧ ص٨٣
(٢٧) - مجلة النهج عدد / ٢٠/ شتاء ١٩٩٩
(٢٨) - د . رفعت السعيد ، مرجع سابق ص١٥
(٢٩) - المرجع السابق ص٧٤
(٣٠) - المرجع السابق ص١٠٦ .

الفصل الثالث

تجليات العقل الايماني

لقد وجدت فيما سميته العقل الإيماني (وهنا أذكر أنني لم أعتمد على مصطلح قد وضعه غيري سابقاً، ولا أدري إن كان موجوداً بهذا المعنى قبل الآن) الفاعل والمحرك الأساسي للكثير من جوانب الحياة في مجتمعاتنا، بل إن تأثيره يفوق مايمكن أن نتوقعه في كثير من الأحيان، لقد أصبح ومنذ وقت بعيد بنية قارّة في أعماق النفوس كما في أعماق المجتمعات وقواها الفاعلة، وانتقل من مجال الدين الى الحياة الاجتماعية والسياسية بالتالي الثقافية أيضاً.

لنتذكر أن الدين (أي دين) كما الثورات العظمى في التاريخ، قد جاء استجابة لتطور الحياة بما يحمله من طاقة تفسيرية، بالتالي طاقة تغييرية، إذ هو حركة تقدمية بهذا المعنى لارتباطه بسيرورة الحياة الاجتماعية وصيرورتها، وانتشار الأديان كان تعبيراً عن تلاقي حاجة ماسة مع طاقة خلاقة. الحاجة الماسة، لاتزال موجودة بقوة (باعتبار الحاجة المستمرة للتطور والتغيير) لأن البؤس الإنساني بكافة معانيه وأشكاله يزداد ويتسع، في حين أن الطاقة الخلاقة الموجهة باتجاه انسانية الانسان لم تعد موجودة بمعناها الروحي (الديني)، باعتبار انقطاع النبوات التي كانت الأساس لهذه الطاقة الخلاقة وأحد تجلياتها الأساسية، ولكن ليست الوحيدة، وربما لم تعد تلبي حاجة التطور، بعد أن تحولت الى حالة سلبية عاجزة عن الخلق، بل أصبحت تمثل حالة كبح (حالة إيمانية)، مما دفع الى إيجاد بدائل ترعى التطور المنشود الذي تفرزه الحياة وتتطلبه ،تبدت في القوانين والفلسفات الوضعية، وهنا لامجال للقسر، فما لبى حاجة الحياة للتطور سيتمسك به الناس مقدساً كان أو غير مقدس، مع ذلك فإن هذا لايعني انحسار التأثير الديني والمشاعر الإيمانية وإنما يعني فقدانها لطاقة الخلق وتلبية الحاجات الاجتماعية، لعدم قدرتها على مسايرة التطور التاريخي للمجتمعات بسبب نصّيتها المغلقة، ولهذا السبب ظهرت فئويتها (مذهبيتها)، وهذه في إحدى قراءاتها تعني

فقدانها للتوجه التقدمي الذي كانت تحمله، والتعبير عن العجز والتقوقع لعدم القدرة على التجدد، كما تعني في كثير من الأحوال ظلاميتها ورجعيتها، وبروز طاقة الكبح فيها، أي تحولها الى حالات إيمانية دوغمائية افتقدت مبدأ التسامح بالقدر الذي افتقدت فيه مواكبة التطور العلمي وحالة الانفتاح والتقدم والاعتراف بالآخر.

وكما كانت فكرة الأديان وظهورها تنطوي على معاني التقدم والإنسانية، فإنها تنطوي أيضاً على فكرة عظمة الألوهة، لأن كل تقدم أو تطور أو تغيير باتجاه الأفضل مرتبط بالإرادة الالهية القاضية بتنظيم شؤون الناس الدينية والدنيوية، وفكرة الألوهة تقطع مع الأشياء الصغيرة التي لاتنتمي الى منظومة القيم الرائدة، فلماذا سعت البشرية لاظهار الآلهة وكأنها بحاجة الى من يستحثها على رعاية الكون بالقرابين وغيرها ؟!.

لرعاية هذه الكون ذي النظام البديع، بل لرعاية مصالح الناس المنتمين الى اليهودية، دشنت هذه الديانة السماوية الأولى هذا المبدأ (مبدأ القرابين الذي ربما ورثته عن الديانات التي وجدت قبلها على أرض المنطقة التي نشأت فيها، وهي ديانات غير توحيدية، غير سماوية كما تم التصنيف) ثم وجد اسمتراريته في الأديان الابراهيمية اللاحقة. ثم من قال إن الاخلاص لفكرة الألوهة يكون بكثرة النصوص، وتعقيدات الطقوس، ومتاهات اللاهوت، مايؤدي بالضرورة الى سيادة الأوصياء، حراس المقدس على النصوص، لأن من لاحارس له فمفقود في عرفهم؟! لماذا لاتكون بساطة التوجه الى الاله باسقاط كل الحواجز والوساطات بين الانسان ومايعبد؟! إنه العقل الايماني، فلنبحث عن السبب فيه. إنه العقل الذي لايترك الإنسان حراً، يصل الى ربه بالطريقة التي يفهمها من تعاليم دينه دون وصاية الشراح والموجهين.

لقد لعب العقل الايماني دور بروكرست وسريره، بل كان لكل نمط إيماني مذهبي أو طائفي سريره الذي يقيس عليه، فيبتر أو يشد للتوفيق مع متطلباته أي إنه كان ينفي الآخر الذي لاينسجم معه، أو يحصل بينهما شيء من الاختلاف. ولقد غذّت المصالح السياسية كل ذلك، وكثيرة هي الحكومات التي استجابت لمعطيات عقل إيماني لتلاقي مصالحهما، بل كثيرة هي السياسات التي طورت عقلاً ايمانياً مناسباً لها. إن الحكم الذي تحميه حراب الجنود، لايركن الى حماية الآلهة ولاينتظرها، ولكنه لايتخلى عن

حماية رجال الدين، أرباب العقل الايماني وحراس المقدس، حيث يستخدمهم كما يستخدم السيرك مروضي الوحوش.

بالإضافة الى ذلك نجد أن امتداد العقل الايماني وسيطرته كان مرتبطاً بأبعاد تاريخية وجغرافية بالإضافة الى الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، حيث أن سيطرته في منطقة ما وزمن ما وشكل ما لايعني بالضرورة سيطرته في منطقة أخرى وزمن آخر بالشكل ذاته، فتركيا وافغانستان مثلاً، ، دولتان ومجتمعان أسلاميان، وفي الوقت الذي يبدو – على السطح – أن تركيا قد انتصرت للعلمانية بما تعنيه من علم وعقلانية وديمقراطية وغيرها نجد أن افغانستان في ظل الطالبان تبدو معتزة بالحالة القروسطية التي تعيشها، دون النظر الى حالة انسجام خصوصيتها الايمانية مع صحيح الدين، أو دون التفريق بينهما، بما يعنيه الدين من تاريخيه وتطور ومايعنيه الايمان كما آل إليه من تسمير للواقع وتثبيت لقواعد الحياة على منطق الرجوع والتخلف.

كثيرة هي المظاهر التي اعتمدها العقل الايماني، وكثيرة هي التوجهات التي توجهها، ونحن لاندين التنوع والاختلاف، لأننا نرى فيهما حافزاً على الخلق، لكن هذا التنوع والاختلاف في أشكال بروز وتجلي العقل الايماني، لم يكن مشغولاً بتوليد ماهو جديد والسباق إليه واحتواؤه، بقدر ماكان مشغولاً بتثبيت الواقع، والتحكم به كي لايفلت زمام التوجيه ودفة القيادة من يده، إن الإمساك بعقل الناس وضبط عواطفهم وسلوكهم وتصنيف غرائزهم، وحماية حقوق ملكيته لكل ذلك هو الهاجس المحرك لهذا العقل.

إن أشكال تجلي العقل الايماني في الحياة مرتبطة بالمهمات التي كان على هذا العقل أن ينجزها، إنها جدلية الشكل والمضمون، إذ ليس من المعقول أن يسعى الى التسيد والسيطرة دون شريك، وأن يطبق مبادئ الديمقراطية في الوصول الى أهدافه، وأن يراعى حق الاختلاف والتنوع، وهو لايخاف التناقض بمقدار ما يخاف أن يؤدي سلوك طريق الديمقراطية الى انحساره ونهايته.

لقد كانت تجليات العقل الايماني مقروءة لمن أراد في الواقع المعاش، ولاتزال مقروءة لمن أراد تتبعها. ومن أبرزها :

١ - التعالي

والتعالي هنا يرتبط بالأسطرة والاصطفائية. فمجتمع المؤمنين لايجد سنده ومبرراته في الواقع المعاش من قبل جمهور الناس الآخرين، بل يجده في القوى المتعالية، قوى الغيب، قوى الفوق، المتحكمة بقوى التحت، والمؤمن لايرضيه قال فلان الكاتب أو الأديب أو المفكر أو العالم، بل يرضيه قال الله أو أحد أنبيائه أو أحد الأولياء أو أحد أفراد السلالات المقدسة المتناسلة عبر الأيام. إذن المشروعية الفكرية والثقافية للعقل الايماني ليست أرضية بل مرتبطة بقوى السماء الموجهة لقوى الأرض، بالتالي هي أعلى منها رتبة، وكلما علت رتبة المرجع الذي يتم الرجوع إليه كلما علا مكان وموقع المرتبطين به. التعالي يأتي من الارتباط بقوى فوق طبيعية، وتمثيل هذه القوى في أرض الواقع، والمشكلة تكمن في عدم قدرة العقل الايماني على الربط بين الواقع والماوراء ربطاً علمياً فأهمل الواقع لصالح ماورائه.

نجد التعالي في الحديث عن القوى الخفية التي تؤسس للأحداث الكبرى، وتعمل على إبرازها وإخراجها المخرج المناسب، فنبوة محمد التي هي واقع معاش أخذ أبعاده، وجدت بعد حين، مؤرخين يؤسسون لها اسطورياً، وقد تم ذلك مثلاً من خلال الكثير من الحكايات، منها حكاية النذر الذي نذره عبد المطلب جد الرسول، بأن ينحر أحد بنيه إذا ولد له عشرة أولاد ذكور، وذلك لما لقي من قريش عندما حفر بئر زمزم، وبقية القصة معروفة، كيف أن القداح عندما أراد الوفاء بالنذر خرجت تشير الى التضحية بعبد الله والد محمد، وهذا ماكرهه عبد المطلب (مع الأخذ بعين الاعتبار أن القداح هي قداح هبل، فكيف ركن مؤرخو الاسلام الى هذه الحكاية؟!) وتتابع الحكاية بأن عرافة الحجاز رأت أن يضربوا القداح على عبد الله أو الديّة (والرأي ثانية هو رأي العرافة)، والدية هي عشرة من الإبل، وأن يزيدوا عشرة عشرة حتى ترضى الآلهة (آلهة الجاهلية - الأوثان)، وكان ذلك عندما بلغت الابل المئة عدداً[١].

أليس من المضحك المبكي أن يكون على المسلم المؤمن أن يعتقد أن لهبل وللعرافة فضل في نبوة محمد وإخراجها الى حيز الواقع؟! إذ لولا ارشاد العرافة وقبول هبل لتمت التضحية بوالد محمد. أليس من الضلال أن تؤسس نبوة محمد على رضى آلهة الضلال والوثنية، وهذا الرضى هو الذي أجاز لهذه النبوة أن تظهر؟! أم أن العقل

الايماني لايتعب على تمحيص مايرويه من أخبار ليرى مدى تعارضها مع منطلقاته؟ المهم أن يبرز أن جذور النبوة تنتمي الى هذا المتعالي ولو كان الفاعل في إبراز هذا المتعالي هو هيل وعرافة الحجاز!!

من هنا كان الايمان بالخوارق والكرامات والمعجزات أحد أساليب العقل الايماني لتبرير ما لايجد له مبرراً، ضداً على العقل العلمي النقدي العقلاني، أو للتعامل مع ما لايستطيع التعامل مع مبرراته الواقعية وحتى مع قناعة المؤمن أن زمن المعجزات قد ولى، لأن الله ساقها تأييداً لرسله، ولغايات تختلف عن غايات مؤمني هذه الأيام، الذين لايجدون مانعاً من توظيفها في أي وقت أو أية مناسبة. فكم من مرة تردد أن الجرافات الضخمة مثلاً، قد عجزت عن إزالة حجارة من موقع ما وهي حجارة صغيرة بالنسبة لقدرة الجرافة، يتبين بعد ذلك أنها حجارة لقبر، ولدى التدقيق يتبين أن هذا القبر سواء تم التأكد أم لا، هو قبر لولي من أولياء الله، اصطفاه وكرمه بهذه المعجزة، وعندها يفعل العقل الايماني فعله الاسطوري.

التعالي مبرر لابد منه للعقل الايماني، حتى الفكر السياسي قد حول الارتباط ببعض الرموز السياسية الى ارتباط فوق واقعي، ايماني، فلينين هو مثل للشخصية التي يجعل منها المعجبون والأيام شخصية تتعالى على الواقع، ويصبح كل فعل من أفعالها مؤسطراً، ويصبح الارتباط بها ارتباطاً بالمتعالي، وفي التاريخ والواقع السياسيين أمثلة كثيرة لهذا التعالي في العقل الايماني السياسي. وعندما نقول انه لاغنى لهذا العقل عن التعالي فإن هذا يعني شكلاً من أشكال الفقر عند هذا العقل، فثقته بنفسه تجعله لايرى فيما هو طبيعي وواقعي سبيلاً لمحاكاة الناس واقناعهم وجذبهم، فكأنه لايثق بنفسه أو بإمكاناته أو بمستنداته ومنطلقه فليجأ الى التعالي، وإلا فما مبرر ذلك؟ لماذا لايلجأ لحسم المعركة على أرض الواقع إذا كانت هناك معركة للسيطرة على حقول التعليل والتبرير؟ إن توظيف ماهو متعال يحقق أغراضه بسرعة في كثير من الأوساط التي يعمل فيها هذا العقل.

لقد ارتبط تاريخ اليهود الذي نقلته التوراة، ارتباطاً وثيقاً بالاصطفاء الالهي وبالتالي بالتعالي عن الآخرين الذين أصبح وسيلة اليهودي للتميز عن الآخر، واحتقاره وابتزازه في كثير من الأحيان، فقد تحولت الكثير من أحداث هذا التاريخ الى أساطير،

وأصبحت الشخصيات المتعالية فيه شخصيات اسطورية، ابتداء من انطلاقهم في رحلة الهجرة الى أرض الميعاد، وحتى دخولهم الى مصر وخروجهم منها الى أرض ميعادهم ثانية، ويلحق بذلك عودتهم الثانية الى هذه البقعة المقدسة في العصر الحديث، ولو بجيش تقوده الرأسمالية الصهيونية بدل جيش يقوده يوشع.

كذلك تحولت الكثير من أحداث التاريخ المسيحي، من قيامة المسيح، وأعمال القديسين على امتداد التاريخ وصولاً الى حفلات الشفاء الجماعي التي تنظم من قبل المؤمنين المسيحيين، وما رافق وما يرافق ذلك من تحول الشخصيات من شخصيات جد طبيعية وواقعية الى شخصيات اسطورية متعالية.

وفي الإسلام، فقد بدأت اسطرة أحداثه على يد مؤرخيه الأوائل كما رأينا في اسطرة نبوة محمد، ولاتزال حتى يومنا هذا بما يرافق الحديث عن كل مايخص الشخصيات الدينية والايمانية من التبجيل والادهاش. فالكثير من الروايات تريد إخراج النبي محمد من مستواه البشري لالصاقه بالمستوى الالهي منذ طفولته، وربما منذ كان نطفة في صلب والده، أو في أصلاب أجداده، فالنبي عند هؤلاء ولد مختوناً، بينما النبي يؤكد مستواه البشري وصفته الانسانية (إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة)، ثم إن الروايات تؤكد قيامه بالأعمال التي كان يقوم بها الناس، ويسلك سلوك الآخرين، إنما تميز عنهم بالنبوة والرسالة، والقرآن الذي جاء مؤكداً لنبوة محمد جاء مؤكداً لإنسانيته، فقد اعتبره مرشداً ونذيراً ولم يضف إليه سلوكاً إلهياً، ولا صفات فوق بشرية، إلا بما يتلاءم مع وضعه في ضرورة تبليغ الرسالة، وفي كل هذا حكمة كما يرى البعض، فعندما يتم تبليغ الناس الرسالة من إنسان مثلهم يحوز فضائل البشر لافضائل الآلهة يأخذ التبليغ معناه الجاذب ومصداقيته، إذ لو كان التبليغ إلهياً لما كان ينتمي الى عالم الناس، ولبقي الفاصل كبيراً بين الرسول والمرسل إليهم. ومع ذلك تأبى الأسطرة إلا أن يكون أطول من كل طويل مشى معه، وإنه لم يظهر له ظل على أرض، وأثر رجله لايظهر على أرض رخوة، في حين يظهر على الأرض الصلبة، ولم تُرَ له قذارة، وكانت غيمة تظله أينما ذهب...الخ.

نجد ترجمة صريحة وواضحة لمفاهيم التعالي والأسطرة في أقوال ومفاهيم وقناعات شائعة في هذا الوسط الايماني من مثل قولهم (المؤمن لايحرق ولايغرق)، وفي التبرير

والتفسير للكثير من الأعمال الكبيرة التي تجري، فالملائكة هي التي اخترقت خط بارليف شرقي قناة السويس، وقد كان هؤلاء الملائكة كالعادة يلبسون الثياب البيض، ووجوههم بيضاء، فيما نقل عن شيخ الأزهر حينذاك، الشيخ عبد الحليم محمود[٢]. هذا التعليل لاقتحام التحصينات الاسرائيلية يهدف الى سلب الجندي المصري شرف النصر، بحرمانه من الفاعلية في تحرير الأرض، دون الالتفات الى تضحياته.

لماذا الاستغراب فتاريخ هذا العقل ناطق بهذا المستوى من التعليل، فالدكتور صادق جلال العظيم يروي نقلاً عن خطاب القاه الأنبا صموئيل بحضور مندوب الاتحاد الاشتراكي والباباكيرلس السادس، كيف أن جبل المقطم الذي كان في يوم ما داخل مدينة القاهرة، قد انتقل الى خارجها لأن رجال الدين المسيحي من الأقباط في مصر اجتمعوا ودعوا الله أن ينقله، لأن حاكم القاهرة المسلم في العصور الوسطى طلب دليلاً على أن المسيحيين يعبدون الهاً حقاً يعترف به هذا الحاكم، وان دينهم صحيح وعليهم أن يبرهنوا على ذلك بنقل الجبل خارج القاهرة، كل ذلك بمكيدة الوزير اليهودي، ففعلوا بادعيتهم وتوسلاتهم كي لايبعدوا عن بلادهم[٢].

هكذا نرى أن العقل الايماني قد استغل منطقي التعالي والاصطفاء، معبراً عنهما بالخوارق والاسطرة في طريقة إفصاحه عن نفسه، وجاء إفصاحه هذا مع عصور التدشين ولايزال ممتداً الى يومنا هذا.

٢ - العنف

إن أول مايسجل لهذا العقل هو عدم قبول الآخر، نفيه واستبعاده، وفي حال تم قبوله سياسياً أو اجتماعياً فإن نفيه أيديولوجياً وعقيدياً باق، وإلا تم الوقوع بالتناقض، إذ كيف يتم قبول عقيدتين متناقضتين؟!.

هكذا نجد استمرار وجود مرتكزات النفي والاستبعاد مهما قيل، فالخلاف العقيدي ليس خلافاً ثانوياً، وهذا مايتم بيسر وسهولة يدعوان الى الدهشة، فليس أسهل عند المؤمن من وصم مخالفه في الرأي بالكفر والزندقة، ولأسباب لاتتطلب حتى ماهو أدنى من ذلك، وأحكامهم هذه تتسم بالتأبيد وتبتعد عن المرحلية، وتكون معبراً ومبرراً لكل الشناعات والبشاعات التي ارتكبت وترتكب بحق الآخر المخالف بالرأي. والمؤمن

مضطر، لا بل من صلب عقيدته أن يتهم مخالفيه بأنهم ليسوا على الطريق الصواب، ومنطقه، كل من ليس من طائفتي أو رأيي فهو ضال أو كافر، أي خارج عن الصراط الارثوذكسي، ولو آمن أي مؤمن من أية طائفة أن مؤمناً آخر من طائفة أخرى على حق لوجب أن يكون وإياه من طائفة واحدة، بالتالي يكون هذا كارثة على أرباب الطوائف ومؤدلجيها، ومن هنا تبدو حراستهم شديدة للأسيجة الدوغمائية المغلقة لطوائفهم حسب المصطلح الأركوني[٤]، وتكون بذلك مبررات العنف ودواعيه حاضرة وكلها ترتبط في رأيهم بمصلحة إلهية، وهم يخونون الالوهة عندما ينسبون إليها المصالح، إذ لامصلحة للسماء إلا أن يعيش أبناء الأرض بمودة وسلام وطمأنينة، ولهذا أرسل الله هذا العدد الكبير من الرسائل، التي جاء بها رسله وأنبياؤه.

إذن كل دين، كل مذهب، كل مله، يحمل في أحشائه نقض الآخر ونفيه، والعنف هو القابلة المولّده (وهنا نستعير تعبيراً لماركس). نفي الآخر لايتم بالوسائل السلمية فقط، لأن أحداً من المتنازعين لايتزحزح عن موقفه، بسبب ارتباط التمترس بالعقيدة، وما كان عقيدياً لايصح التنازل عنه، ويجب أن يبذل في سبيله الغالي والرخيص. وإن مايحكى عن حوار بين المؤمنين من أديان مختلفة، كان فيما مضى - مع أنه قليلاً ماحصل - وسيكون في المستقبل حوار طرشان إذا ارتبط هذا الحوار باخلاص المتحاورين لعقائدهم، والخطورة في العملية ستكون في التنازل عن المبادئ، فمن سيقدم على ذلك، ولمصلحة من؟ هذه الأسئلة والاحتمالات تبقي العنف أحد أشكال الحوار المحتملة في أية لحظة. فالاختلاف يولد الخلاف، والخلاف يولد العنف، هذا مثلاً ماينذر به خلاف أبناء الموقف الحياتي الواحد، فالمؤمنون من مسيحيين ومسلمين في الناصرة بفلسطين، اختلفوا حول بناء مسجد بجانب كنيسة البشارة في الناصرة، وخلافهم هذا ينذر بشر مستطير تغذيه وتدفع إليه السلطات الاسرائيلية، وهؤلاء المؤمنون هم الذين بقوا حتى يومنا هذا وحدة متماسكة في وجه عدوهم الواحد، الصهيونية المغتصبة التي وجدت كيف تفرقهم، بإثارة العقل الإيماني ونوازعه المحركة.

في كثير من الأحيان تتم الخلافات بين الاتجاهات السياسية ويلجأ المختلفون لاستعارة الحلول من حقل العقائد الإيمانية الدينية، وإن كان العنف هنا مؤقتاً وتمكن المساومة لانهائه، باعتبار أنه لايرتبط بالمقدس، وإن كان هناك مقدس فمقدس السياسة

مقدور عليه، ويمكن تجاوزه بسهولة كما تقتضي المصلحة لأنه بالأصل جاء لخدمة المصلحة الآنية ذات المستوى الدنيوي الأرضي.

المصالح موجودة في الدين وفي السياسة إلا أنها في الدين أخفى مما هي في السياسة، ولقد تم المزج بينهما، لفائدة كل منهما للآخر (الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى). والملاحظ تاريخياً أن النزعات التي آلت الى العنف كان مبررها المصلحة، لكن الغطاء يختلف، فغطاء كل من الأمويين والعباسيين لاغتصاب السلطة هو غطاء ايماني، فكان ذلك – حسب المبررات المقدمة، يتم خدمة للدين وفي سبيل الله، وتصحيحاً للاعوجاج، أو إقامة للعدل الضائع، ولايتم ذلك إلا بالاستيلاء على السلطة، إذ استعمل الدين غطاء لمصلحة سياسية، وهذا الغطاء هو الذي استخدمته الصهيونية في اغتصابها لفلسطين، كما أنه الغطاء الذي استخدم لتغطية وتبرير الحرب بين العراق وايران ذات الهدف السياسي، إلا أنه تم استخدام ايحاءات ايمانية، كتسمية الحرب بالقادسية لتغطية المشروع السياسي. وهكذا غيرها من الحروب قديماً وحديثاً، مروراً بالحروب الصليبية، الى إبادة الهنود الحمر، وحتى الثورة البروتستانتية وما استتبعته من حروب بين المؤمنين، أبناء الدين الواحد.

نعود للتذكير بالشخصيات الفكرية التي كانت ضحية العنف الايماني، والمصالح السياسية من أمثال: الجهم بن صفوان وغيلان الدمشقي وعمرو المقصوص والحلاج والسهروردي والنسيمي وغيرهم، وللغرب المسيحي أيضاً سلسلة ضحاياه التي تذكر بها محاكم التفتيش سيئة الذكر.

لقد برز العنف الشعبي، عنف العامة، الموجة إيمانياً، مثالاً صارخاً عبر التاريخ لأثر العقل الإيماني في محاولته للقبض على الحياة وتحريكها حسب مؤشراته. فالطبري صاحب التاريخ والتفسير الشهيرين ألف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء، ولم يذكر ابن حنبل فقيل له في ذلك فقال: لم يكن فقيهاً بل كان محدثاً، فاشتدد ذلك على الحنابلة، فشغبوا عليه وأهلكوه ومنعوا دفنه نهاراً، وادعوا عليه الرفض والالحاد. وعندما أبدى الامام القشيري شعار الأشعرية في بغداد ثارت عليه فتنة العامة سنة ٤٦٩هـ فقتلوا واظهروا شناعة. وتوفي الصولي بالبصرة مستتراً لأنه روى حديثاً لايؤيد أحقية علي بالخلافة فطلبته العامة لتقتله فلم تقدر[٥]. وهذه أمثلة من التاريخ على الهيجان

الايماني للعامة، ولايزال هذا الهيجان يتكرر، يذكرنا بذلك الموقف من سلمان رشدي إثر نشر روايته (الآيات الشيطانية) وما فعلته بين المسلمين ونذكر بموقف العامة من عزيز نيسين الكاتب التركي اللامع الذي كاد يكون ضحية غضب جماهير بلده العلماني لأنه دافع عن سلمان رشدي وحقه في التعبير، إنها أمثلة على تجليات العقل الايماني اجتماعياً واتخاذها العنف أسلوباً. وفي أوربا كانت الشناعات أكثر، سواء في شغب مسيحيين على مسيحيين، أو شغب المسيحيين على يهود.

فقد استمرت مذابح اليهود على يد المسيحيين في أوربا منذ أواخر القرن الحادي عشر، وعلى امتداد تاريخ اليهود في أوربا حتى العصر الحديث حيث توقفت(٦).

وإذا كانت المذابح هي أحد أشكال العنف الموجه من اتجاه ايماني الى اتجاه آخر، أي من المسيحيين الى اليهود، فإن وجهاً آخر من وجوه العنف قد مورس ضدهم بلا رحمة وهو الطرد من الدول الأوربية أو المدن التي كانوا يقطنونها، فقبل يوم من رحيل كولومبس لاكتشاف امريكا ٣ أغسطس ١٤٩٢ طرد من اسبانيا ٣٠٠٠٠٠ يهودي، وخلال الأعوام ١٤٢٤ - ١٤٢٥م طرد اليهود من المدن التجارية الأكثر أهمية في المانيا، وواجه اليهود نفس المصير في ايطاليا في القرن السادس عشر(٧). ومن المؤسف أن الجريمة ذاتها قد ارتكبها ضحاياها بعد قرون، إذ طرد اليهود الصهاينة سكان فلسطين من أرضهم في منتصف القرن العشرين.

وفي العصر الحديث تبدو الصورة لاتزال قائمة، ففي الوقت الذي ظن الناس أن الوضعية تزيح الدين عن مسرح الأحداث لتأخذ مكانه ينجلي الموقف عن استفاقة عقل ظنه الناس أسلم مواقعه، ليتبين أنه كان قد غفا قليلاً ليستفيق وكأن الحضارة والتقدم وكل ماانتجه العقل الانساني لم يؤثر فيه إلا سلباً، فالعقل الايماني المستفيق بشهية مطلقة على القتل والتدمير في مناطق كثيرة من العالم كمصر والجزائر وأندونيسيا والباكستان والهند وأفغانستان وغيرها، يبرز نفسه أنه عقل خارج التاريخ والعصر، ليس معنى هذا أن عصرنا بعيد عن العنف لكن عنف هذا العصر لبس ثوب المصالح، والعنف الذي نتحدث عنه لبس ثوب الدين وهو يسعى لتحقيق المصالح، وأصبح القتل باسم الله، أو باسم الطائفة، أو باسم الشيخ. إن الطريقة التي يعبر فيها الايمان عن نفسه تبرزه في الكثير من الأحيان عدواً للحوار وللعقل، ويرى أن تجليه عن طريق

العنف أحد مقومات وجوده واستمراريته. ولا أدري هل الايمان يسرق ثوب السياسة أو السياسة تسرق ثوب الايمان، الذي وجد من يعقلن له اتجاهه العنفي وينظّر له باتهام المجتمعات الحديثة بالكفر والجاهلية واغتصاب حق الله، الذي هو الحاكمية، ولا أدري ماهو حق الله إن لم يكن حق عباد الله؟! ففي كتابات سيد قطب وقبله استاذه المودوي كما في كتابات وبيانات أمراء الفصائل الايمانية المسلحة، كل مايستمد منه المؤمن قناعاته في القتل والتخريب والطائفية والنفي. وهكذا تتم في رأيهم عقلنة العنف وشرعنته، واقناع المؤمنين به، إنه العقل الايماني في إحدى تجلياته، وإيقاع هذا التجلي تم تدشينه مبكراً في التاريخ اليهودي والاسلامي، فكل عنف ديني إيماني في الاسلام هو سليل مقتل عثمان والفتنة الكبرى التي أوصلت بني أمية الى اغتصاب الحكم. وهنا لايفوتنا أن نشير الى أن بعض المفكرين يرى أن العنف المتأسلم المعاصر، ينطلق عن تأصيل فكري، فالعنف متأصل فكراً في عقائد المتأسلمين كما يرى ذلك د. رفعت السعيد، وأن كل ممارسة للعنف تعود الى عقيدة اعتقدها هؤلاء، في حين يرى د. فيصل دراج، أن عنف الأصوليين الاسلاميين هو رد على عنف السلطات[٨].

ومما لاشك فيه أن أكثر أحداث العنف دلت على انتماء العقل الايماني وتجلياته الى المصلحة أكثر من انتمائه للدين، واغتصاب العقل الايماني اليهودي ممثلاً بالصهيونية العالمية لأرض فلسطين دليل واضح على ذلك.

وكما يتوجه العنف الايماني باتجاه الآخر فقد يتوجه باتجاه الذات، كما في استحضار عذابات المسيح والحسين من قبل انصارهما في مناسبات معينة. ومن العنف اللامبرر والشنيع الى حد بعيد، والمرتبط بهذا الموضوع، الانتحارات الجماعية التي تقوم بها نحل لها توجهات إيمانية شاذة، فقد ذكرت الانباء يوم ٢٠٠٠/٣/١٩ إن احدى الطوائف الايمانية في أوغندة قد نفذت عملية انتحار جماعية، عن طريق اضرام المنتحرين النار بأنفسهم، حيث وجدوا كتلة واحدة متراصة لم يستطع رجال الأمن فصل الجثث عن بعضها كما لم يتمكنوا من التعرف عليها، وقد تحدثت الانباء عن /٢٠٠/ ضحية ثم عادت وتحدثت عن /٤٠٠/ ضحية في هذه المجزرة الذاتية.

٣ - الدروشة والتراحم

لقد ظهرت الرحمة كما الدروشة وغيرهما من مظاهر العفة واللين والسماحة أشكالاً من الاستجابة لأوامر ونواهي دين ما، حيث الدين ينفرج عن مجموعات من الأوامر والنواهي، واستجابات ناتجة عن تفسيرات هذه الأوامر والنواهي. والدروشة التي يمكن أن نرى بعض أشكالها في عصرنا، هي وريثة تيار الزهد والتصوف في بعض المناحي. ولقد كان الزهد امتثالاً لرغبات وأمنيات وأوامر ونواهٍ عبر عنها الرسل، فالسيد المسيح عبر عن عجز الاغنياء عن الوصول الى ملكوت الله، ووجد النبي محمد في الفقر رائزاً من روائز الايمان، ودعا الى عدم الغرق في الملذات. والعبادات في الأديان السماوية من شأنها أن توصل الانسان الى سلوك هذه الطرق التي تبعد الانسان عن الغرق في الحياة المادية ومتطلباتها.

إن هذا وغيره قد دفع الى نوازع باتجاه الزهد، والتقشف بما يعنيه أيضاً من انعزال وابتعاد عن الملذات الدنيوية، بعضها أخذ صفة فردية، نحت نحو تقليد سلوك الأنبياء كالمسيح الذي كان لايملك أي شيء، حتى أنه تخلى عن كوزه الذي كان يشرب منه عندما رأى من يستخدم يديه في غرف الماء للشرب، كما تخلى عن المشط الذي كان يمشط به لحيته عندما رأى من يمشط لحيته بأصابعه، وكانت هذه كل ممتلكاته كما يذكر (هادي العلوي) في كتابه «مدارات صوفية»، كما نحا بضعهم نحو تقليد بعض الشخصيات ذات السير المتألقة في أذهان العامة كأبي ذر الغفاري الشخصية الاسلامية الفذة.

بالإضافة الى أولئك الأفراد الذين كانت دروشتهم وزهدهم تقليداً واستجابة لأوامر ونواهي معينة، ظهرت جماعات دينية تكرس في سلوكها الجماعي قيم ايمانية لاتزال سارية، ولها مؤيدوها والمعجبون بها والمتبعون لها، يتجلى ذلك في بعض الجماعات الرهبانية في المسيحية، وبعض جماعات الدراويش والطرق الصوفية في الاسلام، وهذه الجماعات تصنع لنفسها أنظمة سُلوكية عبادية وحياتية مستمدة من القيم الدينية ومن منطق الرد على فساد المجتمعات والأخلاق، ونوع من أنواع المواجهة لما تؤمن هذه الجماعات بأنه رديء وغير منسجم مع قيم الايمان الأصلية.

إن الزهد بالملذات الدنيوية من مأكل وملبس وملكيات، كان ولايزال تعبيراً

سلوكياً إيمانياً عن واقع مدان، بقيمه وسلوكياته، ورد فعل يبرز النقيض، ويحتوي على قيم تعليميه كأنها تشير الى طريق النجاة الذي يجب أن يتبعه المجتمع، لكن هذا الشكل من أشكال الرد قد يبلغ من السلبية مبلغاً يصبح ضرره الاجتماعي أكثر من فائدته كمثال وموجه.

وقد خرّج هذه الاتجاه التدروشي التصوفي - على مابين المعنيين من اختلاف - مجموعة كبيرة من القادة الروحيين والزمنيين بمعنى من المعاني، فاق تأثيرهم عبر التاريخ تأثير الساسة ورجال الدين، والمفكر المرحوم (هادي العلوي) يتوقف عند نماذج منهم في كتابه السابق الذكر، ويسميهم الأبدال أو أوتاد الأرض. وهم لاينتمون جميعاً الى قطاع الفكر الديني.

تظهر بعض تجليات العقل الايماني عند قطاع من بسطاء المؤمنين، الذين يتلخص الدين والايمان عندهم بالمردود النهائي والغائي له، ومن هؤلاء الكثير ممن اقتنعوا بأن التعويض آتٍ، حيث أخذوا المعاني القرآنية بشكلها المباشر، وهم ينتظرون حصتهم من الحوريات اللواتي سيشكلن جزءاً من مكافأة المؤمن على ايمانه، مما يبرز سذاجة هذا التفكير الايماني الذي يربط الأجر بقيم مادية ذات مردود لذائذي فقط، هذه اللذائذية الحسية تبدو في الصور الخيالية لتلك الحوريات اللواتي يصورن بتمام الجاهزية للاستجابة لرغبات المؤمنين متى أرادوا، دون أن يكون لديهن عيوب النساء العاديات وقذارتهن، فالحوريات في الصورة الايمانية ذوات أجسام طاهرة، شفافة، بلورية.

إن الراسخ في قناعتي عن الالوهة انها جماع القيم الإيجابية في الكون، طبعاً ليس بالمعنى البراغماتي (النفعي)، بل إن الإيجابية هنا تتحدد بالفاعلية، ومن هنا كان سؤالي الملح دائماً على نفسي، والمعذب أحياناً، لماذا انحرف الايمان بالقيم الايجابية عن أهدافه، وعن تجسيده للقيم الالهية (دينية كانت أو دنيوية) انحرافات لاحصر لأشكالها عبر التاريخ؟! ولماذا أصبح هذا الايمان حالة تعبر عنها سيادة القيم السلبية في مجتمعاتنا فيسود العنف والشر والفقر والخنوع والتواكل وو.....الخ.

يبدو أن هذه القناعة تقود سلوك الكثير من البشر، وتحدوهم لتجاوز أشكال الفهم الرديئة للايمان، مع تحولاتها باتجاه الجشع والشر وجعل الايمان المزيف غطاء لما تحته من رزائل. والسلوك والترجمة العملية للقناعة ذات المعنى الايجابي للايمان، تبدوان في

محاولات جادة للتخفيف من عذابات البشرية المعذبة حتى لو لم تكن ترقى الى مستوى الإنقاذ، لكنها تبدو رداً صارخاً في وجه كل من عمل على حرف الايمان عن أهدافه الانسانية.

لقد اخترع العقل الايماني وكرس مفاهيم ورؤى وعمل على تطويرها فكرياً واجتماعياً، لتساهم في التخفيف عن المؤمنين من معاناة حياتهم وصعوباتها، ولكي تبقي الأمل والرجاء يعملان على دفع الانسان للاستمرار بهذه الحياة برضى، وهذه الأفكار والمفاهيم على بساطتها أحياناً تنحو منحى التخفيف من عذابات الانسان وإشاعة الأمل، من هذه المفاهيم المتولدة عند الطوائف المسيحية مفهوم «بابا نويل»، الشخصية التي تحولت الى رمز يعتبر محطة من محطات تخفيف المعاناة وترسيخ قيم الصبر على الشدائد، وإشاعة الأمل، بما تحمله هذه الفكرة أو الشخصية المتأسطرة من أمل ورجاء ومحبة، خاصة للصغار في عيد الميلاد. ومثل فكرة «بابا نويل» أيضاً فكرة القديس «فالنتاين» بما تحمله هذه الفكرة وهذه الشخصية المتأسطرة من قيم المحبة وإشاعة الأمل في الحياة لدى قطاع الشباب تحديداً، واللافت انتشار هذه الفكرة بشكل كبير في أيامنا حتى في المجتمعات غير المسيحية، وهذا يحمل دليلاً على استعداد الناس للتعاطي مع كل مايزيح الهموم عن كاهلهم بتكريس رموز وأفكار بديلة لتلك التي تسبب المعاناة والقلق.

إن فكرة الرحمة وعقل الرحمة يتجليان إيمانياً في العلاقات التي نشأت في ظروف تاريخية حادة بين طوائف مختلفة من أديان مختلفة، فالقس سرجيوس يخطب على منبر الأزهر أبان ثورة ١٩١٩ في مصر، مبتدأ خطبته بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وفي هذا مافيه من معاني التلاحم الوطني ونبذ الخلافات حتى العقيدية منها، عندما تتعرض القيم الرفيعة للإنسان الى الخطر، وهذا يشيع جو التراحم والتوادد[٩].

ومثل الواقعة الماضية مايروية «سمير عبده»[١٠] من أنه في عام ١٩٣٧م حين جاء أحد أعضاء لجنة المراقبة الدولية الى انطاكية للتحقيق بمزاعم الاتراك سلخ لواء اسكندرون، أغلقت تركيا المساجد، لتوحي للجنة بأنها علمانية وكان اليوم يوم جمعة، فما كان من النصارى العرب الارثوذكس إلا أن فتحوا كنائسهم للمسلمين، حيث أدوا فيها صلاة الجمعة في مهرجان وطني رائع، ووقف الخطباء في هيكل المسيح يتلون

القرآن، وصعد المؤذن الى قبة الناقوس ليرفع الأذان، هذه الحادثة تذكر بما فعله النبي محمد عندما سمح لوفد نصارى نجران أن يؤدوا شعائر صلاتهم في مسجده، وهم من المسيحيين. وهنا تبرز سماحة الدين وأنه في الأصل دعوة لأن ينتمي الناس الى التسامح والرحمة لا الى التعصب والكراهية.

ومن مظاهر التراحم الايماني الذي من شأنه أن يصنع المودة بين المؤمنين على اختلاف أديانهم، الاشتراك في الاحتفالات التي تقام في الكثير من المناسبات، مما يعمم التآخي والمحبة والوحدة، في المناطق المختلطة دينياً، ولاشك في انتماء هذه القيم الى الرحمة. يعزز هذا التوجه اقتناع أرباب المذاهب بالحوار الفكري بدل الحوار المسلح، حتى لو كانت جدواه ضئيلة والباب أمامه مسدود بسبب حاجز العقائد.

إن دعم المشاريع الخيرية والانسانية وإن كان تعبيراً ضعيفاً عن الايمان، ولايرقى الى مستوى الخلاص، إلا أنها إحدى التجليات التي تكرس الرد العملي على جانب من جوانب الشرور سواء التي تصنعها الطبيعة أو التي يصنعها الانسان. إن هذا التجلي يمثل جانب الرحمة الذي تفتقده الحياة الايمانية في كثير من مظاهرها، ولايفوتنا هنا أن نذكّر بما في بعض هذه الأعمال الخيرية من أثر الدعاية والادعاء، ومحاولة الظهور بمظهر الرحمة في الوقت الذي تمثل حياة أصحابها الاندفاع الأهوج باتجاه ماهو شر.

ولايفوتنا أن نلفت الانتباه هنا الى ما تعانيه (بيوت الله) من تخمة في التجهيزات من مفروشات وأجهزة وتحف، والى الانفاق السخي بكل أشكاله عليها، وسواء كانت هذه البيوت لله أو لغيره (والحقيقة إنها للبشر) فهي تستقطب التبرعات والتقدمات لتبدو ثرية مترفة في شكلها ومحتوياتها سواء كانت هذه المحتويات - الجمالي منها وغير الجمالي - تقدم دعماً حقيقياً للايمان الذي اتفقنا أنه قيم جوانيه تعيش داخل أصحابها، أولاً. إن استجابة الناس للتبرع لبناء وتجهيز المساجد بما تحتاجه لأداء المهمة المرجوة، وبما لاتحتاجه، تعكس قناعات المتبرعين وعلاقاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، فسواء كان المتبرعون موقنين بأهمية وجدوى تبرعاتهم أو غير موقنين، فالملاحظ السخاء في التقدمات، بعضهم إيماناً واحتساباً ولاشك، وبعضهم انسجاماً مع وضعه الاجتماعي والاقتصادي، ووفاء لاعتبارات وحسابات دنيوية، وإسكاتاً للألسنة.

وإذا كانت التقدمات للمساجد والكنائس سخية، فإن ما هو أسخى منها، تلك

التقدمات للأضرحة والمقامات، فمقامات الأولياء، وأضرحة الشخصيات ذات الصفة الايمانية المعتبرة، تتخم بكل ثمين، حتى ليذهل الانسان ويتساءل ما الحاجة الى كل هذه المعادن الثمينة في هذه الأضرحة، وما الذي تؤديه هذه الطنافس والتحف الفنية لقيم الانسان الايمانية، وأية أثقال يشعر بها مقدموا هذه الأشياء الثمينة جداً والتي يحاولون إزاحتها عن كواهلهم بهذه التقدمات، والسؤال الأكثر أهمية: ما الدور الذي تؤديه هذه النفقات في تنقية ايمان المتبرع؟ وما الذي تصنعه في نفس الزائر غير الابهار؟ وما مساهمتها في تخليص الانسان من مآسيه التي جاءت الأديان لانهائها؟ وبالتالي مادورها في صنع ايمان نقي خالٍ من الكدر؟ وهلا كان هذا السخاء في التقدمات لانقاذ البشرية من الجوع والمرض والجهل وإبعاد شبح الموت؟!

فيما يبدو أن الثمن الذي دفعه الانسان ولايزال يدفعه تكفيراً لخطيئته الأولى التي آمن أنه ارتكبها، لايزال مقصراً عن الوفاء بالمطلوب، وما لم يبشر أنه وفى بالمطلوب، إذن عليه أن يستمر بالدفع ثمناً للخلاص.

٤ - الموقف من الفنون

كان الفن عبر التاريخ تعبيراً عما في داخل الانسان من جمال، ومحاولة لعدم احتكار هذا الجمال، حيث باخراجه يصبح ملكية عامة. وبما أن الخلق جمال فإن الفن هو استعادة لقدرة الخلق على مستوى آخر، يحاكي الخلق الأول (الالهي) ويهتدي به، ولكن لايمكن أن يضاده أو يناقضه، إنه تجلٍ من تجليات كمال الخلق الأول بالمحاكاة.

من جهة أخرى كان الفن عبر التاريخ تلك الفسحة التي تخلص إليها الروح البشرية من ضيق الحياة التي تحصر الانسان وتعصره جسماً وروحاً، كان مستراحاً من القهر والحرمان، ووعداً بالخلاص. لكن عقولاً أسيرة لهذا القهر والعذاب الأبدي، خلقت جهنمها على مقاسها، وأرادت تعميم هذا الجحيم، وتلخيص الكون بأنه عذاب بعذاب، من هنا كانت محاولتها تأبيد هذا العذاب، بنفي كل ماهو جميل، ناسية أن الجمال نفي للقبح، كما أن الخير نفي للشر، والحق نفي للباطل، والله نفي للشيطان، إذن إن الجمال والخير والحق تلتقي مع الله، في الوقت الذي يتنافى ويتنافر معها القبح والشر والباطل والشيطان. الجمال ومنه جمال الفن تجلٍ إلهي، في حين أن القبح تجلٍ شيطاني.

العجب كل العجب أن نجد عقلاً مسكوناً بالقبح في مواجهة الجمال، في الوقت الذي نجده يدعي الدفاع عن هذا الجمال. الجمال في الكون بكل مظاهره وتجلياته متصل بالالوهة، والواقف ضد الجمال وتعبيراته هو من حيث يدري أو لايدري ضد الالوهة.

الفن كما نوهت حالة انعتاق، حاول الانسان أن يعبر من خلالها عن برَمه وضيقه وتمرده بكل وعلى كل مايحول بينه وبين الحرية، والله حق وعدل وحرية. وفي التاريخ تعبيرات جمالية كثيرة عبر بها الانسان عن وجوده، تجلت فيما تركه لنا الانسان القديم من آثار رائعة. إلا أن مراحل معينة اقتضت لظرف أوآخر التعامل مع بعض الفنون تعاملاً مغايراً لمصلحة ما، جعلت المتمسكين بتلك اللحظة يسعون لتأبيدها، فبما أن أهل شبه الجزيرة العربية كانوا يعبدون قوى مختلفة يرمزون لها بأصنام وأشكال وتماثيل، كانت خشية النبي أن تبقى الرسوم والتماثيل تذكرهم بمعبوداتهم السابقة إن هو أبقى ما كان موجوداً منها أو سمح بانتاجها مجدداً، وكان الاسلام لايزال غضاً طرياً، ومدعاة للخوف عليه، أما الآن، فما الذي يخاف على الاسلام، وهو ملء كيان الانسان والمجتمع؟. إن تاريخية الكثير من الأحكام والأوامر في الاسلام ليست موضع شك، فلم صنعنا من هذه الأوامر أصناماً جديدة بدل التي حطمت غير مأسوف عليها، إن الأصنام الجديدة هي تحجر العقول وجمودها، إنها تلك القيم الرديئة والضارة التي لم نستطع تجاوزها.

لماذا خرجت هذه العقول، وأخرجت ناسها من فضاء الحرية والجمال الى متاهات العبودية والانغلاق والقبح؟. إن عشرات التنظيمات وتحت اسماء مختلفة: وهابية، جهادية، أصولية، أخوانية... الخ، تسابقت في إبراز قدرتها على الهيمنة، وفرضت نفسها في شوارع الفن وفضاءاته متوسلة كل مابين أيديها من فكر انغلاقي، وأسلحة قتل لمحاربة الجمال المتجلي في الفنون وتهديد العاملين في مجالها، ومالجوء العديد من الفنانات في مصر وغيرها الى الاعتزال أو ارتداء الحجاب في فترة معينة، إلا تعبيراً عن الخوف، واستجابة للابتزاز والتهديد، والدليل أن الكثير منهن عاد الى مزاولة الفن بعد أن ارتفع عنهن التهديد والوعيد، مما يدل على أن محاولة خنق روح الإبداع عن طريق توبة مزيفة غير ذات جدوى، وأن نزوع النفس للتعبير عن الجمال الذي تحسه متأصل في أعماق النفس البشرية.

إن الهجوم على دور السينما لمنع عرض بعض الأفلام، ومنع عرض بعض المسرحيات، في بعض البلدان الاسلامية كمصر، والغاء الاحتفالات الفنية، واستعداء الجهات الدينية كالأزهر، في مواجهة كتاب أو لوحة أو أغنية أو مسرحية، هو تعبير فاضح عن ضيق الأفق، والخوف الذي لامبرر له، كما أنه تعبير عن الوصاية على المجتمع، تلك الوصاية المرفوضة وغير المستندة على أية شرعية دينية أو دنيوية.

إن في إعلان الجماعات الإسلامية في مصر أن الموسيقا صوت الشيطان، وأن المسرح رجس، وأن الغناء مثير للشهوانية، وأن الفنون التشكيلية وثنية والأدب غواية، هو إلغاء لوجه الحياة السمح والجميل، بالتالي إلغاء لوجهها الجليل (الالهي) لأن الجمال من شروط الجلال.

لقد امتد هذا الوعي الزائف بعقله الايماني الى البيوت، حيث أثر على الكثير من الأهل الذين لايتمتعون بثقافة تعصمهم من تأثيرات هذه العقول المتحجرة، فكثيراً مايجد الأولاد من يزجرهم إذا انطلق أحدهم يدندن باغنية ما، أو يعزف على آلة موسيقية، مما جعل هذه الفنون الجميلة تتأخر في مجتمعاتنا، وبالتالي لاتسهم في بناء شخصية الأجيال، حيث تبدو حاجة لابد منها، وحيث التربية الصحيحة عليها تكسب الشخصية مناعة من مساويء هذه الفنون وانحرافاتها.

إن اقتناع الناس أن الكثير من الفنون تنتمي الى الشيطان وتأثيراته، تحت ضغط العقل الايماني، وبالتالي حرمان أولادهم من ممارسة هذه الفنون والاستمتاع بها، قد أصاب مجتمعاتنا بعرج خفي، وإعاقة دائمة، لايقدر أصحاب هذا العقل المغلق على التبصر بها، ومعرفة ضررها. تبدو لي هذه الاعاقة مثلاً في الاتهام الأخير الذي وجه الى الفنان «مارسيل خليفة» الذي غنى قصيدة فيها بعض كلمات من آية تتحدث عن النبي يوسف، كان قد نظمها الشاعر «محمود درويش»، والاعاقة تكمن في عدم قدرة هذا العقل على التمييز بين فن هابط يعمل عن قصد أو عن غير قصد على تخريب قيم الانسان وتربية المنحرف من الأخلاق، وبين فن رفيع من شأنه السمو بالانسان واحترام قيمه ومقدساته، والدفاع عن هذه القيم والمقدسات ضد كل ماهو سلبي ورجعي وهابط، واداء مارسيل خليفة ينتمي الى هذه الحالة الكفاحية ضد كل ماهو شر وقذارة وانحطاط، الحالة التي ترتفع بالفن الى المستويات التي جاءت القيم السماوية للدفاع

عنها وتمجيدها وتربيتها، إنها عالم الجمال في مواجهة عالم القبح.

لا أريد أن أفوت الفرصة، للاشارة الى أن الموقف من الفن يختلف من بيئة الى أخرى، ومن دين الى آخر، ومن ثقافة الى ثقافة. هذا جلي إذا وضعنا التراث الاسلامي والثقافة الاسلامية في المواجهة والمقارنة مع الثقافة المسيحية، فقد شجعت الكنيسة الفنون بجميع أنماطها وأنواعها، فالانشاد والغناء والموسيقى تم توظيفها في، الطقوس والشعائر الكنسية عن المسيحيين، والفرق الموسيقية، وكبار العازفين، والمغنون، وجدوا لهم دوراً في طقوس الصلاة، ولاقى فنهم الترحيب في هذا المجال، وبدت الكنائس عامرة بالفنانين الذين يسخرون فنهم في تمجيد الخالق، وتربية المخلوق، كما لاقت الفنون التشكيلية كل احترام وتقدير، وأبدع الفنانون التشكيليون أروع إبداعاتهم في عمارة الكنائس، واضفاء الجمال على كل أجزائها، وخير مثال على ذلك ما أبدعه أحد رموز عصر النهضة الفنان (مايكل أنجلو) الفنان الشهير، وكثير غيره، في الرسم والنحت الذي تم توظيفه في مجال العمارة الدينية أولاً، إن تنافس الفنانين في إبراز مقدرتهم الفنية وتفوقهم من خلال تقديم الموضوعات ذات الدلالة الدينية، برهان على مانقول. وهنا يبرز دور الدين في مجال أعطى البشرية إرثاً فنياً رائعاً، لم يتردد في إبراز الشخصيات ذات القدسية كالسيد المسيح والسيدة مريم بأشكال جمالية متعددة ورائعة. وهنا أيضاً تبدو الفوارق كما يبدو التناقض بين دين وآخر. أو بين حقل إيماني تترعرع فيه الأجيال مشحونة بقيم الإبداع والجمال، وحقل إيماني آخر يجد أضر الضرورات عليه قطع الطريق على هذه الفنون، ويعاقب الفنانين، مبدعي الجمال، تقرباً الى الله.

٥ - التناقض

التناقض نقيصة، ما لم يكن بين أمرين يحتملان التناقض أو أن يكون هذا التناقض يولّد جديداً، لأن التناقض دليل الاضطراب وعدم الثبات، وهذا عندما يقع في الفكر يدفع الى عدم الثقة، الى الحيرة والتردد، لقد كان النص الديني عبر تاريخه يحتمل الخلاف «إنه حمال أوجه» كما عبر عنه الامام علي، وهذا كان جلياً في التاريخ الاسلامي، أما أن يحتمل التناقض، فهذا لايصح، لأنه لايصح أن يكون نص ما إسلامياً

ولا اسلاماً، حقاً ولا حقاً. إن النقض في أحد معانيه يعني الهدم والازالة والنفي، وليس من مصلحة نص أو فكر أو عقل ما أن يبني (يثبت) شيئاً ليعود فيهدمه (ينفيه)، ولايصح أن يكون النقيضان على الدرجة ذاتها من الحقيقة والصواب، فلا يكون شيء نقضاً لشيء، إلا إذا حمل الأول بذور نفيه، أي كان في الجهة السلبية الباطلة، ليأتي نقيضه ويعبر عن الجهة الايجابية الحق. إنها تجاوز له.

أن يتناقض الفكر الديني مع غيره، فهذا ممكن، وجيد، يدفع لأن يبقى الأجدر بالبقاء، أما أن يتناقض مع نفسه فما الذي يتولد من المعركة؟

إن وقوع العقل الايماني في حقل التناقض، كفعل وموقف، أو فقده مصداقيته، والمؤمنون لايتوقفون كثيراً لتحليل مايمليه عليهم إيمانهم أو من يوجهون هذا الايمان، فهم يقومون بالفعل وغيره، أو بالفعل ونقيضه، وكلا الفعلين عندهم مبرر ويخدم مصالحهم وايمانهم. وأبرز مايبدو التناقض بين النص وطرق إخراجه.

لقد سجل لنا التاريخ أحداثاً مبكرة تعطي الانطباع بتناقض هذا العقل الايماني؛ تذكر الأحداث أن الكثير من المحاربين مع علي في صفين، كانوا إذا حان وقت تناول الطعام يذهبون الى صفوف جيش معاوية لتناول الطعام مع جنوده، بينما هم يقاتلون مع علي ويصلون وراءه، وإذا سئلوا قالوا: الطعام عند معاوية أطيب والصلاة وراء علي أطهر؛ فكيف يكون طعام معاوية حلالاً وطيباً، طالما أنه في الموقف الباطل مما استوجب قتاله. وفي الحرب ذاتها تذكر الأخبار إصرار طائفة القراء (المثقفين) على التحكيم بالرغم من تحذير علي من اللعبة الخدعة باعتبارها حق أريد به باطل، وهددوه بالانقلاب عليه إذا لم يحكّم، وعندما قبل وجاءت النتيجة كما لايرغبون خرجوا على علي وحاربوه لأنه قبل التحكيم.

لقد توالد هذا العقل الايماني المتناقض وشاع، وقدم بركاته لكل من طلبها، حتى لو كان لطالبين متناقضين، فما من حكومة في التاريخ، إلا ووجدت من يستنطق لها النصوص والمواقف لإيجاد المبررات الكافية لشرعنة وجودها، سواء جاءت مغتصبة أو شرعية، اشتراكية أو رأسمالية، مستبدة أو ليبرالية، قومية أو قطرية، ديمقراطية أو مطلقة، علمانية أو دينية. فالعروض جاهزة للتخلص من العتب، وللتعبير عن الشراكة.

والعقل الايماني اليهودي الصهيوني، متشدد جداً في فرض قيوده الصارمة على

المجتمع الاسرائيلي ومتمسك بالشكليات، وبما يسميه الحق التوراتي، لكنه لايتردد في التنازل وقبول مايحقق له مصلحة مباشرة، فمستوطنات سيناء كانت تمثل جزءاً من الحق التوراتي الموروث، والتخلي عنها يعني وقوع في الخطيئة وغضب الرب، لكن عندما وجد الصهاينة أنهم يحققون مصالحهم باتفاقات كامب ديفيد، تخلوا عن الحق التوراتي. وهم يسيرون على هذا المنوال، فالدين عندهم موظف تماماً بتحقيق الاطماع والمكاسب المادية، وعلى امتداد المصالح.

لقد جاء التعبير عن التناقض في العقل الايماني اليهودي، قبل ذلك بكثير واستمر، فقد اعترف حاخام متعصب عام ١٨٤٨ أن تسعة من كل عشرة من الشباب اليهود في عصره كان يخجل من عقيدته، وقد تحول جميع أبناء الفيلسوف والمصلح اليهودي مندلسون عدا واحد عن دينهم(١١). كما جرى تقليد المسيحيين في كل مايفعلوه وانشاد تراتيلهم الدينية من قبل تلاميذ المدارس اليهود، وترك الحرية بالختان، وإشعال الشموع في الأعياد المسيحية، وترك طقوس الحمام والنظافة والاغتسال ومراسيم المآتم والأحزان(١٢). كل هذا تناقض مع النص أو مع الموروث المتراكم تاريخياً.

وبابا الكنيسة الكاثوليكية اسقط عن اليهود مسؤولية قتل المسيح، وأعفاهم من دمه، بعد عشرين قرناً من تحميلهم هذه المسؤولية، والكنيسة الكاثوليكية، تصدر براءة لغاليلو من تهمة الهرطقة بعد قرون من إلصاقها به لأنه قال إن الأرض تدور.

ولقد كان الكهنة الانجيليون والبندكوت والاصوليون يكدسون امبراطوريات مالية بفضل مواعظهم وبرامجهم التلفزيونية(١٣). وهكذا يظهر التناقض بين عقيدة رجل الايمان وممارسته. ومن باب التناقض الذي وصل حد التشكيك بالعقيدة، قول المشككين إن إخفاق الحروب الصليبية، يدحض ادعاء البابا أنه نائب عن الله أو ممثله في الأرض(١٤). ومن باب التناقض مع المعتقدات التي لاتحبذ التملك، امتلاك الكنيسة في وقت من الأوقات ربع أراضي فرنسا(١٥). كما كانت هذه الكنيسة أعظم قوة مالية في العالم المسيحي ورعاياها يموتون جوعاً(١٦).

لقد لقي الحنابلة أيام المأمون والمعتصم من العنت والشدة الشيء الكثير، ولاتزال مواقف ابن حنبل مثار للدهشة والاعجاب عند المؤمنين، لصلابة موقفه في وجه المعتزلة القائلين بخلق القرآن، ولايزال مثالاً للوقوف في وجه التعسف والظلم، وفرض الرأي

بالقوة، ولكن ابن حنبل وجماعته بعده استبدوا استبداداً بشعاً عندما قويت شوكتهم وأصبح رأيهم هو المسموع والسائد، ولم يتوانوا عن ملاحقة خصومهم والتنكيل بهم، وقد قتل في هذه الفتن خلق كثير.

وكان ابن تيمية من أشهر فقهاء الحنابلة، وهو منارة المتشددين في عصرنا، باعتباره صاحب أشهر الفتاوى في التعصب وإثارة البغضاء، وقد لقي مع تلميذه ابن القيم الجوزية معاملة جائرة من فقهاء عصره، وقد حبس في القاهرة والاسكندرية ودمشق ولم يخرجوه من حبسه إلا الى القبر[١٧].

وفي حرب الخليج الأخيرة التي لم يلفّها النسيان بعد لشدة حضورها، كانت خارطة التحرك الايماني على امتداد الشارع الاسلامي، من المضحك المبكي، وليس جديداً أن يتلون الايمان بألوان السياسة، ولكن أن يصل الى هذا المستوى من التناقض في الوقت الواحد، والانتماء الواحد، وفي ظل القدرات الاعلامية التي تتناقل أبسط الأحداث وأدقها، وفي ظل قدرة المواصلات الحديثة. فقد كان مؤيدو العراق ومعارضوه من دين واحد ومذهب واحد، وباسم الدين والمذهب خرجت التظاهرات تحيي العراق، وباسمه خرجت تظاهرات أخرى تعارض العراق، دعك من فتاوى رجال الافتاء.

وهذا شيخ الأزهر يفتي بتكفير من يتصل باسرائيل، وشيخ الأزهر الذي يليه يفتي بصوابية اتفاقات كامب ديفيد وعدم تناقضها مع صحيح الدين، وكل بسنده ومبرراته.

ومن هذا الباب ماذكرته إحدى الصحف[١٨]، تحت عنوان «افغانستان تحتل المرتبة الأولى في العالم في زراعة وتصنيع وتهريب الهيرويين الى الغرب» يذكر الخبر بسيطرة حركة الطالبان (وهي حركة ايمانية جداً) على أكثر من ٩٠٪ من أراضي افغانستان، وهي ترعى أنتاج وتصنيع وتصدير أو تهريب المخدرات، فقد انتجت في عام /١٩٩٩/ حوالي /٤٦٠٠/ طن من مادة الخشخاش التي يستخرج منها الهيرويين، وأن حكومة كابول الطالبانية المؤمنة مسؤولة عن ٩٥٪ من كل كميات الهيرويين التي توزع في بريطانيا وحدها وعن ٨٥٪ من الكميات التي توزع في دول الاتحاد الأوربي، والتقرير الذي أصدرته هيئة الأمم المتحدة، والذي تضمن المعلومات السابقة يشير الى أن حكومة الطالبان تتقاضى من المنتجين والمصنعين والمهربين لهذه السموم حصة، تموّل بها حربها وعملياتها الايمانية، والحصة على شكل ضرائب تصل الى أكثر من ٢٠٪ تجبى من

العصابات. علماً أن مهربي المخدرات يقدمون القروض للمزارعين بضمان محصول الخشخاش تحت رعاية الدولة المؤمنة.

لايخفى ما في الخبر السابق من إشارة الى تناقض إيمان هؤلاء الذين يزعمون الايمان، متشددين بتطبيق مبادئه على طريقتهم، ويظهرون أنهم المتمسكون بمبادئ الاسلام ونهجه، والتناقض واضح بين مبادئ الدين، وهذه الأعمال التي تتنافى مع أي مبدأ كريم، ويستحضر هذا الخبر في الذهن قول الشاعر: «لك الويل لاتزني ولاتتصدقي». وينطبق هذا على أولئك المسؤولين الذين ينهبون مقدرات بلدانهم وقوت شعوبهم، ثم يندفعون للتبرع لأعمال البر والإحسان وبناء المساجد وغير ذلك مما يسمى «أعمال الخير».

٦ - المحافظة على الموروث

لقد بلغ الموروث من التراكم واشتد تأثيره الى الحد الذي يؤهله ليشكل بثقله وتنوعه وانتمائه عامل إعاقة وشد الى الوراء، عامل ضغط على الحاضر والمستقبل، إذ ليس من السهل لهذا الحاضر ولا للمستقبل أن يتخلص من موروث يعتبر أي مساس به، أو خروج عليه، أو تجاوز له، من أبواب الكفر، لانتمائه الى المقدس، وهو بكتلته التاريخية التراكمية حاضر فينا.

هذا الموروث لم يبق واحداً، لقد تحول ضمن كل دين من الأديان الى موروثات مفارقة لبعضها نتيجة الانقسامات الطائفية والمذهبية، وحاجة كل طائفة الى سند تبرر به وجودها، مما يجعلها مضطرة الى انتاج النصوص، الشفهية والكتابية التي تساهم في الحث على الثبات العقيدي، وتصويب الاتجاه، حيث تدعي كل طائفة، ضمن كل دين إنها مالكة الحقيقة المطلقة وغيرها لا. وببقاء الحضور الطائفي على هذا المستوى من التوقد، يبقى الموروث حاضراً يفعل فعله، وبما أن الموروث المذكور يفتقد الوحدة، فهو لن يساعد إلا في زيادة فقدانها، وفي رعاية الانقسام في أرض الواقع، فنحن نسير باتجاه اللا وحده على كل مستوى، لأن التعدد هنا إلغاء ومصادرة للتنوع، إن التنوع إغناء، لكن في حالة الموروث الطائفي والمذهبي، فإن موروث كل طائفة ومذهب، مغلق مغتنٍ بنفسه، لايقبل الآخر، وهو محتكر للحقيقة وقارّ مصمت، فكيف يساعد إلا

على التفرقة وإلغاء التوحد.

يبرز الفعل العجيب للموروث عندما يبرز أثره لدى شخصيات حملت عبر تاريخها لواء الفكر والعقل النقيض للعقل الايماني، وكأن حالة انفصامية تستبد بالجميع، حتى ليشعر الفرد أن لافكاك له من التناقض مع تاريخه والعودة الى الموروث ولو في آخر العمر، وإلا كيف نفهم عودة الكثير من المفكرين في حقول الفكر العقلاني والعلمي والعلماني الى حقل الموروث وممارسة شعائره.

لاتزال ثقافتنا هي ثقافة الموروث، وبما أنها ثقافة الموروث إذاً هي ثقافة المذاهب، أردنا ذلك أو لم نرد لأن الموروث في معظمه موروث مذهبي، وإن سياستنا هي سياسة الموروث وبالتالي هي سياسة المذاهب القارة بفعلها وقناعاتها في أعماقنا، وبالتالي فإنها جميعاً لاتساعد على الخروج من حالتها. ولاتزال المذهبية الطائفية وفتنها تطل برأسها كلما سمحت الظروف وساعدتها على الحضور، وقد يكون غافلاً من يعتقد أن تغطية الخلافات بالشعارات، أو بالأشكال السياسية والأمنية، هي ماسيساعد على إلغاء العقل الايماني الطائفي، لصالح العقل الوطني أو القومي أو الانساني الواحد، إن معالجة ذلك يكون على مستوى الفكر والثقافة، إن تطوير ثقافة نقيضة للثقافة الطائفية الايمانية هي وحدها الكفيلة بالحلول محل الثقافة الطائفية القارة، ونقضها، وبالتالي إلغاء آثارها التخريبية، إن الثقافة الجديدة تحتاج الى التنوع والتعدد وعدم الاقصاء، لكنها في وحدتها وفي تنوعها ليست بحاجة الى الاطلاقية والواحدية، بالتالي أن تكون قادرة على إلغاء التناحر.

إن بعض القضايا التي يفرزها العصر وتحتاج الى حل ينهض بالمصلحة الاجتماعية، يظهر كم أن العقل الايماني المستند الى ميراثه الطائفي حاضر، ولقد برز ذلك عندما تم طرح الزواج المدني في لبنان، الذي من شأنه أن يلبي حاجة اجتماعية توحيدية، ويزيل عقبة ولو صغيرة، ففي الوقت الذي تدعو فيه كل الطوائف الى الوحدة المجتمعية، وتجاوز الخلافات، وارساء السلم الأهلي، فإن تمترسها بمواقعها الطائفية، وموروثها الايماني العقيدي، يمنعها، أو يمنع زعمائها المستفيدين من هذا الواقع، أن ينحازوا الى المصلحة الاجتماعية، حفاظاً على الموروث واحتماء به، فلقد أطل العقل الايماني الطائفي برأسه جلياً في مواجهة طرح الزواج المدني كمشروع للنقاش، الى الحد

الذي دعا فيه بعض الزعماء الطائفيين الى الاستشهاد لمنع انتهاك الموروث.

وقد يبلغ ضغط الموروث الطائفي الذي لايحقق المصلحة الاجتماعية، حداً يدفع الى التمرد على القيادات الدينية المتمترسة بموروثها حفاظاً على إيمانها، فلقد ذكر أن هناك دعوة وعملاً حثيثاً وجدياً بين المسيحيين الأقباط في مصر لانشاء كنيسة للمطلقين، لأن كنيستهم تتعامل معهم بالاقصاء والرفض، مما يدفع الى توالد طوائف جديدة، لمصالح يمكن أن تحققها فئات اجتماعية، حال بينها وبين هذه المصالح الموروث الجامد، وهذا الذي يتوهمه رعاة الموروث، أنه يحافظ على كيان المِلّة لن يؤدي إلا الى تمزيقها وتشرزمها، أو تخلفها وابتعادها عن العصر.

وإذا خطر بالبال معرفة مدى سيطرة الموروث على حياة اليهود، فإننا نصل الى ذروة الحضور لهذا الموروث في حياة الجماعة، فقد كان وراء انشاء الكيان الاسرائيلي الصهيوني بشكل أو بآخر، أو بالأصح فإن استغلال قوى البرجوازية اليهودية، المتلاحمة مع البرجوازية الغربية، لسيطرة الموروث كان أحد أبرز العوامل في إيجاد هذا الكيان، وقد تمثل حضور الموروث باسم «الصهيونية».

إن ظهور الصهيونية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أعاد الفكر اليهودي التعصبي والمنغلق، فقد اعتبر الصهاينة أن حركة التنوير اليهودية «الهسكالا» وتيار الاندماج والتحرر بين اليهود خطراً عليهم، ولذلك أعادوا الدور الى اليهودية بصورتها المنغلقة والقديمة، ومثلها مثل الحركات السلفية الاسلامية والمسيحية، تعتبر أنه ليس تحت الشمس من جديد، كل شيء مقرر مسبقاً، ووارد في الكتب المقدسة، وفي أقوال وأفعال السلف الصالح، وكل ماعداه انحراف وخطيئة.

ليس الموروث كله بمستوى واحد من حيث ضرورة الحفاظ عليه، كما أنه ليس بمستوى واحد من حيث ضرورة الخروج منه وتجاوزه، إلا أن العقل الايماني القار الذي تعود أن يقف ضد الجديد حفاظاً على القديم أوجد حالة تمكن للقديم في قناعات الناس وعقولهم، لما هم عليه من بساطة، وإلا ما الذي يدفع العامة من المؤمنين الى رشق الحجارة على رجال الشرطة الذين أرادوا دخول الأزهر للتأكد من تطبيق اجراءات النظافة التي اقتضاها تفشي مرض الطاعون عام ١٨٩٦م[١٩]. كل جديد يستحق العداء، هكذا تجلى العقل الايماني فيما مضى، لأن الجديد محكوم بمنطق البدعة.

والحقيقة أن حركة تنقي الموروث فتهمل مايربي قيم السحر والخرافة والتعصب واللاعقلانية، وتبعث مافيه من قيم الجمال والحق والتقدم والعقلانية، يجب أن تكون إحدى الضرورات لإعادة الاعتبار الحقيقي لهذا الموروث.

٧ - التخلف ومواجهة العقلانية

باستيضاحنا للنصوص نجد العقل الديني يحاول أن يبرز صورة تقدمية إيجابية للانسان، فقد خلقه الله على صورته، وكرمه وفضله عل كل مخلوقاته، وأورثه الكون، فأصبح خليفة الله على الأرض، وسخر له كل الموجودات في الطبيعة، وأرسل عدداً كبيراً من الأنبياء لتوجيهه وإرشاده والحفاظ عليه من الضلال والضياع، وسلّحه بأعز مخلوقاته عليه وهو العقل. كل هذا جميل، ويقع في اللحظة الايجابية للانسان، نستنبطه من النصوص (الوحي) وهي اسمى النصوص الدينية التي نقرأ العقل الديني فيها، فلماذا يحاول العقل الايماني، أن يطعن العقل الديني بتقديم الصورة النقيضة لهذه الصورة، فيحيل الانسان الى مخلوق عاجز عن فهم مايجري حوله إلا بتدخل حراس المقدس، وعن طريقهم، ويتم وضع الانسان في اللحظة السلبية، باخراجه من شروط العقل الذي قيده الله إليه، ليشل قدراته، فيصبح الفكر كفراً، واستخدام العقل مجلبة للانتقام، وتصبح محاولة الانسان، لارتياد الكون الذي سخره الله له، والتعرف على أجرامه وأسراره كفراً، واعتداء على القدرة الالهية ولو رأى الله في هذا اعتداء على ملكوته، لما أعطى الانسان القدرة على منافسته على هذا الملكوت، بالتالي اعتبر العقل الايماني الجرأة على ارتياد المجهول كفراً تجب معاقبة من يقارفه. ببساطة يظهر الانسان في تصوير العقل الايماني له قزماً وعاجزاً عن ادارة أبسط شؤونه، سلبياً، مقلداً، مشلول الارادة، ملاحقاً بجرائم لم يرتكبها، منذ خطيئة آدم الأولى الى اليوم، وهكذا. وأعتقد أن هذه المواصفات ليست مواصفات خليفة الله على عمارة هذا الكون!!.

تتم السيادة للعقل الايماني عندما يقف الدين (أو يجعلونه يقف) من العلم والثقافة موقف العداء، فيحدث التباعد، فإذا ابتعد الدين عن العلم، ووقف منه موقف العداء، سادت اللاعقلانية، والغيبية، والطقوسية والسحر كنوع من التبرير في غياب

إمكانية التبرير العقلي الحقيقي.

لايعني ذلك توقف حركة الثقافة، فهذا غير ممكن، لكنها تصبح ثقافة عرجاء راكدة وجامدة، بالتالي آسنة وفاقدة لروح التقدم، تعيد ذات المواضيع والمقولات، وتنشغل بقضايا بعيدة عن العصر والانسان، وبالتالي بعيدة عن الله، كتلك التي انشغلت بها الفلسفة المدرسية في القرون الوسطى، من مثل: كم ملاكاً يمكن أن يقف على رأس دبوس؟ وماذا يحدث لو أن فأراً أكل العشاء الرباني؟ وهل يستطيع الله خلق جبلين ليس بينهما واد؟. إنها تثير السخرية كتلك السفسطات التي سخر منها «اريستوفانز» في مسرحية «الضفادع»، والتي تشغل نفسها بمعرفة كم ضعفاً تبلغ المسافة التي يقطعها البرغوث في القفزة الواحدة بالنسبة لاحدى قوائمه؟ ومن أين ينبعث الطنين في جسم البعوضة؟.

حين يبتعد الدين عن الثقافة ولقاء الآخر تسود الواحدية، والاستبداد، وتصبح الأديان ديماغوجيات إيمانية، وايديولوجيات مسوّرة، فيفقد الدين مضمونه التقدمي الذي حمله عند نشأته، وعبر عنه وقت ظهوره وتسيده، وتفقد الحياة إحدى المقومات التي ساعدت الانسان عبر تاريخه على العبور الى الضفة الأخرى الأكثر ايجابية. إن العلم والثقافة ضمانة لعقلانية العقل، وعند انحسارهما، فالذي يملأ الفراغ هو الايمان الشكلاني والطقوسي، بما ينوء به من ثقل الماضي وتراكمات الأيام التي صنعتها مصالح الناس وعاداتهم وظروف حياتهم في جدل هذه الحياة مع الواقع.

إن الدعوة لإلغاء الموروث دعوة لاعقلانية، وغير متيسرة، ولما كان الأمر كذلك، فلقد كانت دعوتنا باستمرار لمحاولة إحياء ماهو عقلاني من التراث، وإهمال ماهو غيبي وتبجيلي واقصائي ولاعقلاني، ففي التراث قيم رفيعة تحتاج الى جهود كبيرة، لنبشها واحيائها ونفخ الروح فيها، نقيضاً لقيم الشعوذة والسحر والتفرقة والتخلف التي تجد في كل لحظة من يستنهضها ويستحضرها، وهذا يظهر حتى على المستوى الأكاديمي، فكليات الشريعة، تعلن العداء على امتداد جامعاتنا لجهود المعتزلة، ولعلم الكلام الذي وجد له مكاناً في أقسام الفلسفة، وتاريخ الفكر، باعتباره تراثاً عقلانياً، والحاجة ماسة لدفع التراث العقلاني الى الواجهة الثقافية اليومية لعموم الناس لا لجماعات معزولة في زوايا الجامعات والمعاهد، لعلها تساعد في تحسين المناخ الفكري

العقيدي، فلا نجد أمثال (ضياء الحق) حاكم باكستان السابق يلغي الانتخابات المقررة في بلاده لأنه رأى في المنام أن الديمقراطية كفر وتناقض مع الدين. ولعلنا نؤمن أن الخلاص في الاسلام خلاص فردي فيساعدنا هذا على التخلص من سيطرة المشعوذين والرجعيين من ممثلي العقل الايماني، مديري الجماعات والجماعية، والمتحدثين باسمها، والمسيطرين على عقول أبنائها.

إن تبرئة الدين من كونه يشكل عامل إعاقة للتقدم في مجتمع ما، من بين عوامل أخرى، تستند الى أن الدين ذاته لم يشكل مثل هذه الإعاقة لتقدم مجتمعات أخرى تقدمت نسبياً مع انتمائها الى هذا الدين، وضعت نهضتها أو سارت في طريق النهضة الفعلية، دون أن يضار لا المجتمع، ولا الدين، وفي هذه الحالة فإن نفي التهمة عن الدين بقيمه الأساسية التي بشر بها لاتعني نفي التهمة عن العقل الايماني الذي وظفت سيطرته الدين كما تشاء، وحصرته ضمن حدود أسيجتها العقائدية الضيقة، هذه العقول التي توظف من الأديانماينسجم مع طبيعتها ومصالحها وتهمل الباقي عبر عملية انتقائية، وعلى العموم فإن الدين لايحتاج الى من يدافع عنه، ولن يقدر أحد الدفاع عنه، إنما يدافع هو عن نفسه، بأن ينهج مديروه نهج الدفاع عن الانسان وقيمه الأساسية، ووضعها في الاستثمار اليومي.

إن أسلوب مواجهة الأحداث التي تسوقها الحياة يبرز مدى الالتزام بالعقلانية أو بغيرها، وليس بكثرة الكلام والاعلان عن ذلك وكثرة الدراسات والاشارات، فزعيم الجبهة الاسلامية في السودان، حسن الترابي، دعا الشعب السوداني لتكريس أسبوع كامل للدعاء على الامريكان تحت شعار أسبوع الدعاء المستجاب، بعد ضرب الولايات المتحدة الأمريكية لأهداف في السودان[٢٠]. إن مثل هذا العقل يتغافل ويبقي الناس في غفلة، إنها عقول في أعلى مستويات السلطة، والذي يثير الأسى هو خضوع الناس لمثل هذه العقول التي تعالج الأمور بهذه الطريقة. في زمن النبي كان يقول «أعقلها وتوكل» فيجعل العمل مقدمة لاستجابة الدعاء، أما هنا فيتم إلغاء العمل باعتبار أن المشكلة يحلها الدعاء الذي يهزم العدوان ويواجهه. يذكرنا هذا بحادثة نقل جبل المقطم من وسط القاهرة، والتي مرت سابقاً، كما يذكرنا بطلب الرئيس السوداني تقريراً عن مساهمة الجن المؤمن في عملية التنمية في السودان. ولا أدري إن كنت بحاجة الى

الاشارة الى مستوى اللاعقلانية والإصرار على التخلف الكامن وراء هذه الأخبار.

إن الايمان بالحسد في الأوساط المؤمنة وحمل الخرزة الزرقاء، أو وضع الكف في وسطها عين زرقاء، أو تعليق الحذاء على السيارة أو المنزل، وأساليب أخرى لابعاد شر الحسد عن الانسان، لاتزال متبعة، ليس أخرها فرقعة رصاص ذائب من الحرارة في ماء بارد، لتفرقع عين الحسود الشريرة وتتشظى كما تشظت الرصاصة. وهذه الأساليب تشير الى مستوى التخلف القار في بعض مجتمعاتنا ولابأس أن نذكر حادثة تم الاطلاع عليها، تضمنت معالجة أحد المشعوذين الدجالين من أصحاب هذا العقل الايماني لمريض بمرض عادي، إلا أن وهم أهله البسطاء صور لهم المرض بحاجة الى قوى الغيب كي يشفى، فمن جزئيات العلاج بعد الاجراءات الاحترازية والايهامية الكثيرة، وبعد الأدعية وسلب جيوب أهل المريض، وفي جو يعبق بالبخور والظلام، يكتب المعالج عدة تمائم، كان عليهم أن يرموا الأولى في ماء نهر جارٍ من أعلى جسر، على أن يرميها الرامي وهو يدير ظهره للماء، وتفسد العملية ويفشل الدواء إذا خولفت التعليمات وتم النظر الى التميمة وهي تسقط في ماء النهر، والثانية يجب أن تطعم لكلب أسود ليس في شعره شعرة غير سوداء، والثالثة تذاب في الماء الذي يشربه المريض، والرابعة توضع في فراشه، والخامسة يحملها في ثيابه، وهكذا لأن عدد التمائم سبع تمائم.

وهكذا يسمع صوت أمثال هذا الدجال، في حين يخفى ويغيب صوت رجل الدين المتنور والعقلاني الذي يحارب هذا النهج، مهما كانت درجة الاحترام والثقة التي يحوزها، ويلجأ الناس (المؤمنون) الى الدجالين ويتجاوزون من يقول:[٢١]

أبا الأحراز تحفظني رويداً	فإن الله خير منك حفظا
طلاسم ماعرفت لهن معنىً	فكيف وماقرأت لهن لفظا

إن عجز العقل الايماني وقصوره ومأساته، تكمن في خوفه من الآخر وعدم قدرته على مواجهة النور بعد أن نشأ وترعرع في الظلام. وهكذا يقضي هذا العقل بتحريم دخول المخالفين دينياً (أي الكفار) الى الأماكن الدينية والمقدسة، ناسين أن النبي سمح لمسيحيي نجران بأداء صلواتهم في مسجده كما مر بنا، كما تم تحريم دراسة لاهوت الأديان الأخرى على المسلم خوف التأثر بها، مما يفسد الايمان.

إن أسلوب التعاطي السلبي مع الاتجاه الذي يريد إخضاع الحياة بأبعادها المتعددة، بما فيها البعد الديني الى العقل ومفاعليه استجابة لنداءات القرآن المتكررة في معظم سوره، وسم التاريخ الفكري العربي والاسلامي، منذ المعتزلة، مروراً بابن رشد وصولاً الى أمثال نصر حامد أبو زيد، وكان أسلوب الأذية والرشق بالتهم والنفي والابعاد، بل والسم كما حصل لابن باجه، هو المسيطر، وذلك لصالح الاتجاه النقيض، الممتد من فقهاء السلطان زمن معاوية ومن جاء بعده مروراً بالغزالي وابن تيمية... وصولاً الى الغزالي الحديث والشعراوي وسيد قطب والمودودي وسعيد حوا وآلاف غيرهم، ينتشرون على مساحة عالمنا المعاش.

واللاعقلانية ليست سمة اتجاه ايماني واحد دون غيره، كما أنها ليست محصورة في زمان أو مكان محددين، فظهور حركة التقوى أول الأمر في ألمانيا أواخر القرن السابع عشر، كرد فعل ضد المذهب العقلي المتطرف الذي كانت تعتنقه فرق المتألهين، التي أنكرت الوحي، بل أيضاً ضد المذهب العقلي المعتدل، الذي كانت تدعو إليه اللوثرية، ومجمل دعوات أنصار «التقوى» هؤلاء تتركز حول «ديانة القلب» وتأكيد عجز العقل، والتركيز على الايمان باعتباره الطريق الوحيد للمعرفة الصحيحة[٢٢].

ولقد لفت مدى التخلف واللاعقلانية عند موجهي العقل الايماني وأنصاره، نظر المؤرخين في كثير من العصور، إلا أن عصور التخلف والانحطاط تكون أكثر خصوبة لنمو هذا العقل، واستبدال قيمه الإيجابية بالقيم السلبية. يروي ول ديورانت، أن قساً في العصور الوسطى، كلف بإحدى النساء وعندما عجز عن استمالتها، احتفظ بجسم المسيح الطاهر في فمه بعد القربان، لعله إذا قبّلها والجسم في فمه تستجيب له بقوة القربان، وعندما أراد الخروج خيل إليه أن جسمه قد تضخم حتى لايستطيع الخروج من الكنيسة، فدفن الخبز المقدس في ركن من أركانها، وذكر ذلك بعدئذٍ لقس آخر فأخرجا الخبز فوجداه قد استحال الى صورة رجل مصلوب يقطر منه الدم(٢٣). ومن هذه المرويات أن إحدى النساء احتفظت بالخبز المقدس في فمها وهي في طريقها من الكنيسة الى بيتها، ثم وضعته في قفير نحل للبركة، فبنى النحل له بالشهد معبداً صغيراً بديع الصنع. ولقد ملأ البابا جريجوري الأول مؤلفاته بقصص كالسابقتين، كما يخبر ديورانت[٢٤].

وفي زمن اللاعقلانية والتخلف تجد الحلول السحرية لمشاكل الحياة طريقها الى واجهة الحياة، وأبرز مشاكل الحياة عند الانسان مايعانيه من أمراض، وهذه الأمراض غالباً مايتم التعامل معها عن طريق مايسمى «الشفاء العجائبي» أو «الشفاء عن طريق الايمان» ويتم تناقل حكاياته بشكل واسع، فما أن يضع المبشر الانجيلي يده على رأس المريض الذي يعاني من الآلام حتى يتم شفاؤه فيصرخ، وهذا دليل على خروج الشيطان والشفاء، كل ذلك يتم على شاشة التلفزيون أمام المشاهدين[٢٥]. ومن هذه الحكايات تطبيب الناس في الأحلام من قبل القوى الخارقة، وعن طريق الزيت المقدس الذي ينضح من أيدي فتاة مؤمنة، أو عن طريق حبس التوابع أو كتابة الأحراز والتمائم، ويضيع صوت المتنورين من المؤمنين مهما حازوا من مكانة علمية وايمانية على قلتهم. يقول الشاعر الشيخ سليمان الأحمد، الذي تم النقل عنه سابقاً في مجال محاربته للتخلف واللاعقلانية:

كلما انحطت المدارك تربو	بين أربابها فنون العرافة
إنما الجن والتوابع والتنجيم	في مذهبي حديث خرافة
غلب الجهل بافتراها على	العلم شيوعاً والجهل للعلم آفة

٨ - الموقف من المرأة

بالموقف من المرأة نصل الى أبرز تجليات العقل الايماني، لأن ذلك يشكل حالة صارخة، يصعب سترها أو الالتفاف عليها، إذ يبدو وضع المرأة في ظل هذا العقل المثقوب وضعاً مكتمل التراجيدية، ولم تستطع كل الاشارات أو التصحيحات الجزئية التي وردت في بعض النصوص الدينية الأساسية، أو تعليمات وتوجيهات الرسل أن تكون بديلاً لوضع موروث تراكم الأيام عليه ماهو سلبي وتبعد عنه ماهو إيجابي.

لقد كان الوضع الذي ورثته الأديان السماوية عن المراحل التي سبقتها، يقدم المرأة بصورتها الجسدية (الكُتَلِيَّة والمساحية)، يقدمها كمادة، كأداة للانجاب والمتعة. ولما بدأت هذه الأديان تتوالى بمنظوماتها القيمية والاجتماعية والقانونية، كان التغيير في هذه الصورة جزئياً، فقد بقيت المرأة موضوعاً لسيطرة الرجل، والصورة النهائية التي يقدمها آخر الأديان السماوية وهو الإسلام، تبرز المرأة، حرثاً للرجل، والرجال قوامون

على النساء، والمرأة موضع للعيب والعار، وبالتالي اخفاؤها ضرورة دينية لما يمثله مظهرها (مجرد مظهرها) من خطر على المجتمع (الرجال) في حين تبدو امكاناتها العقلية والاقتصادية باهتة وشبه مغيبة في إطار هذه الصورة. صحيح أن الأديان السماوية وأبرزها الاسلام في هذا المجال، حاولت أن تصحح بعض الأوضاع في مجال المرأة فأشركتها في الميراث وحملتها مسؤوليات ما، لكن كان الموروث أقوى وبقي مسيطراً حتى في النصوص، وأثبت التاريخ أن هذا الموروث السلبي هو الذي قد امتد عبر الأيام في تعامل الرجال المسيطرين مع النساء.

في أصل الموقف من المرأة ايمانياً، تكمن تلك الحكاية الاسطورة التي تقدم تبريراً لهذا الموقف، وهي حكاية الخطيئة الأولى، خروج آدم وحواء من الجنة. يعمل د. نصر حامد أبو زيد على تحليلها تحليلاً عقلانياً جميلاً[٢٦]. مايهمنا من الحكاية وتحليلها، اعفاء آدم من المسؤولية فهو يبدو في الحكاية عاجزاً مستسلماً للغواية، تتلاعب به حواء المقرونة بالحية كيفما تشاء، وتدفعه ليفعل ماتشاء (الى المعصية) وهو مشلول الارادة والتفكير حتى يتم طرد الجميع من الجنة، وتقع تلك اللعنة الأبدية على المرأة في أن تدمى كل شهر لما اقترفته بحق آدم، وبقيت صورتها مقترنة بالحية وسميتها المميتة، في حين أن آدم المشلول الارادة والتفكير لايقع عليه لوم. وبقيت صورة المرأة إيمانياً عبر تاريخ الأديان السماوية، صورة إبليسية مقترنة بالغواية والخطيئة، واللوم والعقاب والتأبيد في اللعنة واقع عليها، في حين لايلام الرجل على عدم تعلمه من أسلافه منذ آدم حتى الآن، ولا على قلة عقله، حيث يبدو وحسب الحكاية لعبة بيدها، ولايعتبر شريكاً على الأقل فيما يجري، مما يوجب التصرف على هذا الأساس، وتقع العقوبات على الطرف الذي حمله المؤمنون المسؤولية الكاملة، ولايزال الرجال يشتقون من هذا التراث (تراث اللعنة) كل مايخطر ببالهم، من أساليب لإحكام السيطرة على هذا المخلوق الذي بهرهم جماله وسعوا إليه بِلَوعةٍ.

حكاية آدم وحواء توراتية، برزت مفاعيلها في تاريخ بني اسرائيل وعلاقتهم بالمرأة، وعندما انحرف سليمان عن خط أبيه داوود تم تحميل المسؤولية الى الكنعانيات والصيدونيات فمن ارتبط سليمان بهن، بالزواج أو التسري (أي بالنساء) فهن اللواتي أملن عقله وحرفنه عن الصواب، وهو لم يحمل أية مسؤولية، وهنا إخراج جديد لقصة آدم وحواء.

ومع أن السيد المسيح أظهر عطفه على المرأة وحتى وهي متلبسة بالخطيئة في قولته الشهيرة «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر»، فإن أخلافه ووارثي تعليماته لم يلتزموا بموقفه، وإذا تنازلنا عن كل مراحل تاريخ المسيحية في هذا المجال، فإن مرحلة العصور الوسطى، مرحلة «محاكم التفتيش» تقف لنا بالمرصاد، وتدفعنا الى عدم التنازل عنها في قدرتها على إعطاء صورة حقيقية للعقل في تحوله الى عقل إيماني في أجلى صوره، لأن الهيئات الاكليروسية المؤمنة هي التي كانت توجه وتقود الحملة المسعورة لمحاكم التفتيش، فهي تفتش في عقول الناس عن الأفكار الهرطوقية، كما يتم التفتيش عن المهربات. أوردت ذلك كل الكتب التي تحدثت عن تاريخ تلك المرحلة، بل إن هذا التاريخ، ارتبط بهذه الصورة المأساوية ومن أبرز هذه الكتب «قصة الحضارة» لـ «ول ديورانت». كما أن هذه المصادر أكدت على الحصة المميزة التي نالتها المرأة من تعسف هذه المحاكم. وقد أوردت الدكتورة نوال السعداوي في كتابها «الانثى هي الأصل» وفي أماكن متفرقة نماذج من هذا التعسف، نقلاً عن مصادرها الغربية، فقد كان يتم البحث عن الشيطان، لا في عقل المرأة بل في جسدها بواسطة إبر طويلة، تجعل معظم دمها ينزف، وفي النهاية يصل البحث عن الشيطان الى المنطقة المحرمة في جسدها، عندما يكون مجمل دمها قد نزف تقريباً، وهنا لايخرج الدم على إثر الابرة فيكون ذلك دليلاً عندهم على وجود الشيطان، فتحرق بطريقة توحي بالثأر من هذا الجنس، لما فيها تفنن وترويع، ومن هذه الأساليب في البحث عن الشيطان لدى المرأة، أن تلقى في مياه الآبار أو البحيرات، فإذا هي طفت على سطح الماء يكون الشيطان هو الذي جعلها تطفو، وعندها تُخرج وتقتل، وإذا هي غاصت تكون خالية من الشيطان، لكن قد لايتم انقاذها إلا بعد أن تكون قد ماتت غرقاً[٢٧]. ولاننس حكاية المرأة والسحر وملاحقة الساحرات وقتل النساء بدعوى تعاطي السحر، كل ذلك من مفاعيل العقل الايماني ذي المفاعيل المروّعة.

وينقل ديورانت الكثير من الحكايات التي تدل على التعسف في التعامل مع المرأة، والنظرة السلبية إليها، ومن هذه الحكايات، الحكاية الطريفة التالية: «يروي قيصريوس الهيسترباخي قصة .... عن رئيس دير وراهب شاب خرجا راكبين معاً. ووقعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى فسأل رئيس الدير: «من هؤلاء» فأجابه:

«هؤلاء الشياطين» فرد عليه الراهب بقوله: «لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت في حياتي كلها»[٢٨].

وقد دفع موقف رجال الكنيسة من المرأة ول ديورانت الى القول: «كانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفساني بين المرأة والمسيح»[٢٩].

وفي الاسلام وبالرغم من محاولة تعديل الصورة السلبية لوضع المرأة كما مر سابقاً، فإن السلبية بقيت طاغية عليها، وبدل أن يتم التماشي مع تعاليم الاسلام والاستمرار بتعديل الصورة باتجاه ماهو ايجابي انسجاماً مع الخطوة التي بدأها الاسلام في بدايته حتى يتم انقاذ المرأة واعطاؤها دورها الاجتماعي والحياتي كما يليق بها، بدأ العقل الايماني يحرف التوجه القائم باتجاه السيطرة والامتلاك، الى أن أورثنا هذا الموضع الذي لانزال ضمن مفاعيله، ولايزال عالمنا يبذل جهوداً وأموالاً لايعلم مداها إلا الله، لتصحيح هذه الصورة، دون كبير جدوى، فلا يزال حراس الايمان، المتمترسون بالموروث في صورته التي يزيدونها سلبية يوماً بعد يوم، هم الفاعلون الأساسيون في هذا المجال، وما أظنني بحاجة الى كبير جهد لإبراز الصورة التي عليها المرأة في معظم البيئات الاسلامية الايمانية، الآن، فالمشهد واضح فاضح، يفقأ الأعين، ويقرع الأذهان، ولو بد أنا نعدد، لخرجنا بصورة لاتشبهها إلا صورة المرأة في أوربا «محاكم التفتيش»، ومن هذا البحر المتلاطم من الحكايات والتقارير والصور التي تبرز دونية المرأة في ظل العقل الايماني، وسلبية النظرة إليها، وما يلحقها من ظلم وتعسف منذ ولادتها وتربيتها وتعليمها الى زواجها وطلاقها وسجنها في بيت أهلها أو زوجها والحجر على عقلها وجسدها وعواطفها وطاقاتها، وهنا نشير الى تقرير لمنظمة العفو الدولية صدر مؤخراً[٣٠]، يوصف بأنه تقرير مرعب عن المرأة الباكستانية على مشارف الألفية الثالثة، ويشير التقرير الى أن الأهل والدولة والقضاء تشجع على قتل الفتيات والنساء باسم الشرف، ولاتقوم السلطات المختصة بأي دور لمنع التصفية الجسدية للمرأة المتهمة، حتى لو لم يكن هناك دليل، وحتى لو ثبت أن الاتهام باطل. ويشير التقرير الى أن الرجال «يمتلكون» الإناث «كسلعة تباع وتشرى أو يمكن مبادلتها»، ولا ملجأ للمرأة حتى في أقسام الشرطة، لأن الشرطة متواطئون بفعل تأثير العقل الايماني على المجتمع، وهم يسهلون عمليات التصفية الجسدية مقابل مبلغ زهيد من المال أو دون

مقابل، فالقتل باسم الشرف مبرر، واختيار الزوج من قبل الفتاة جريمة عقابها الموت، وجرائم الطلاق مورعه قد تكون نهايتها الموت لأدنى تهمة توجه الى المرأة المطلقة، وجرائم الشرف ملفقة، وأماكن الاختباء من القتلة مغلقة، أو غير متوفرة، والشرطة متحيزون والقضاء متحيز، والدولة ساكتة، والاعلان العالمي لحقوق الانسان، وحقوق المرأة في الاسلام، تنتظر التطبيق. والقابع خلف كل هذه الهمروجة المستمرة هو العقل الايماني. لقد وزعت منظمة العفو الدولية هذا التقرير بعد أقل من أسبوع على الانقلاب العسكري الذي أطاح بشريف وجاء بمشرّف.

تكتفي للتدليل على وضع المرأة في الكثير من المجتمعات الاسلامية بهذا التقرير لأنه طازج ومعبر وصادر عن هيئة دولية انسانية، ليس من السهل اتهامها، لانتفاء المصلحة في الكذب، ثم إنه في الكثير من جزيئاته معروف في مناطق مختلفة من عالم الاسلام الايماني، ومثل هذا الوضع لايوجد في باكستان فقط، بل في كثير من الدول والمجتمعات، مما تصل إليه منظمة العفو الدولية ومما لاتصل، مما تم توصيف وضع المرأة فيه ومما لم يتم، ولو أردنا الاسترسال بتوصيف وضع المرأة في عالمنا الاسلامي لاحتاج ذلك الى كتاب ضخم لابل الى كتب.

٩ - الاهتمام بالمظاهر والشكليات

الايمان يحيل الى معنى غير ظاهري، الى فعل يجري في العمق، الى قناعة، والقناعة التي هي شرط الايمان، هي فعل قلبي وجداني أيضاً، يتمكن الايمان من الأعماق قبل أن يبرز على السطح، فعل فيه الكثيرمن التسليم والكثير من الانقياد، لكنه انقياد روحي، انقياد لما هو داخلي، وليس انقياداً لمؤسسات وهيئات وتخطيطات اكليروسية لاتخلو منها ديانة أو مذهب، سواء أعلن ذلك أو أنكره.

لذا فإن مايشوه الايمان الحقيقي، هو الخروج به عن هذه الحالة الوجدانية العميقة واختصاره لابل حبسه في اطار الشكليات. ومن هنا جاء الرد القرآني على من ادعوا الايمان ولم تتحقق عندهم شروط اليقين العمقي (أي بقوا في إطار الشكليات والمظاهر) بأن أمرهم الله أن يقولوا «أسلمنا» لأن الايمان لم يدخل الى قلوبهم.

وبهذا المعنى فإن كل خروج بالايمان عن إطار الفعل القلبي فهو نقض للايمان وعدم

التزام بشروطه كما حددها القرآن، ومن قبل كان السيد المسيح يجهد لاخراج تلك المعاني الدفينة، وتلك الطاقات العميقة الكامنة، لانتاج مؤمن مفعم بالقيم الجميلة التي تنزعه مما هو شر وقبيح وباطل لتدخله فيما هو خير وحق وجمال.

وبهذا المعنى وانطلاقاً منه نفهم مدى التشويه الذي أصاب الايمان، ليحيله الى مظاهر وشكليات، طقوسية خالية من بعدها الوجداني، وموجهة باتجاه التسطيح والايهام بالقيام بالواجبات، كي لايبقى الشعور بالتقصير مسيطراً، ولقد مر بنا سابقاً كيف أن محمد عبده شكى تحول الصلاة الى حركات لايفقه لها الناس معنى، إنما هي أشبه بحركات القرود. وقد دخل الاعلام الى ساحتها في العصر الحديث، ليبرز الجوانب الابهارية التي تم تزييفها في الطقوس الايمانية، وتاريخية هذه العملية تشير الى أنها كانت ولاتزال تلجأ الى التعويض عما تفتقده من العمق الوجداني ببعض المظاهر والشكليات، إيهاماً بعدم التفريط، وتقديم الأدلة الشكلية للتغطية، لقد كان كبار الطغاة في العالم الاسلامي وعلى امتداد تاريخه، أولئك الذين انتهكوا كل حرمات المسلمين، ومارسوا الظلم والقهر، وتعسفوا في علاقتهم برعاياهم، حريصين على ارسال كسوة الكعبة سنوياً في موسم الحج في إطار من الاحتفالية التي ترافق المواكب الذاهبة الى الحج بأمرتهم أو بأمرة من يكلفونه باسمهم، كما كانوا حريصين على المظاهر اللائقة في المناسبات كالأعياد الدينية وغيرها، مما يجعل مواطنيهم يلهجون بالثناء على إيمانهم الذي لاتشوبه شائبة، وعلى رأس هؤلاء فقهاء السلطة. ولقد كانت هناك تمردات وثورات كثيرة، جرت في إطار كل ديانة للتخلص مما هو شكلي والعودة الى ماإعتبرته هذه الثورات أصولاً، ومن هنا كانت الأصولية - كما توهمت - تعبيراً عن الدفع للعودة بالإيمان الى نقائه الأول، لكن كما فهمت هذه الأصولية وكما أرادته. لقد كانت اللوثرية حركة في هذا الإطار، بل ثورة على الجمود والركود والمظاهر التي ارتبطت بممارسات وطقوس الكنيسة، كما أن حركات في العالم الاسلامي جرت على الخط ذاته، كالحركة الوهابية التي قامت بدور بارز في هذا الاتجاه، زاعمة أنها تبغي تخليص الممارسة الايمانية (باعتبار النصوص مصانة) من شكلانيتها ومظاهرها التي أصبحت تشكل إعاقة. إلا أن هذه الحركات وقعت في الخطأ الذي أعلنت حربها عليه، وضعت كل منها سياجها العقيدي، وكرست عبر الأيام لشكلانيتها، ومظاهرها الايمانية، وكأنّ

هناك رابطاً لا فكاك منه بين الايمان والشكليات، بل إنها لجأت الى العنف لإجبار المؤمنين على مارأته هذه الأصوليات صواباً. وفي إطار اليهودية كانت حركة التنوير اليهودية رداً على الجمود والتحجر والشكلانية.

ما الرابط بين اليهودي المؤمن، أو الايمان اليهودي والشكليات التي يحافظ عليها؟ هل لغطاء الرأس الصغير أي ارتباط بوجدان لايستقيم الايمان إلا به؟ وهل يزعزع خرق نظام السبت إيمان اليهودي المؤمن إذا كان هذا الايمان حقيقياً وصادقاً؟ إن الكثير من الأمثلة تطرح نفسها، عندما تتم الاشارة الى ما آل إليه التفريط بكنه الموسوية، وتحيل الإجابات الى أن العقل الايماني اليهودي المصلحي والمحافظ جعل من الشكليات والمظاهر مقوماً أساسياً من مقومات الايمان، بل المقوم الأساسي، وفي ذلك شيء من التعويض عما فاته.

ولدى الطوائف المسيحية أيضاً، نجد مثل هذا الاتجاه الذي غلب على الناس عند تعبيرهم الايماني عما في وجدانهم، فرسم إشارة الصليب والطريقة المتبعة في ذلك تبعاً لكل مذهب، علاقة شكلية لا رابط بينها وبين الحالة الوجدانية، كما تناول الخمر والخبز (دم المسيح ولحمه) في المناسبات الدينية، وتلوين البيض وارتداء الأقنعة في مناسبات مقدسة، ثم هذه الاحتفالية في أداء الطقوس في الصلاة، ومايرافق ذلك من أزياء وانشاد موسيقى وتبخير وغيرها، وارتباط بعض المناسبات بأطعمة معينة. وكثير من المظاهر والشكليات، يحيل الى العادات القارة والمتوارثة التي اكتسبت شيئاً من القداسة أكثر مما يحيل الى عقيدة.

والاسلام الذي يوصف بدين الفطرة، كما يوصف باليسر، والذي لم يرتبط في مرحلته التدشينية بزي معين، نرى أنه أصبح للزي عند المؤمنين المسلمين، ومن جميع الطوائف، دور لاغنى عنه في الحضور الايماني، بل كما أن كل طائفة مسيحية ارتبطت بزي أو بتحويرات عن زي الطوائف الأخرى، إيحاء بالاستقلالية، تحديداً في مايرتديه رجال الدين، فكذلك الطوائف الاسلامية التي تتمسك بهدي نبيها الذي لم يلتزم زياً واحداً كما تقول الأخبار، فالعمامة السنية غير العمامة الشيعية مثلاً، والزي في المغرب غيره في الشرق، إلا أنه لايقبل في أغلب نواحي العالم الاسلامي أن يلبس رجل الدين كما يلبس بقية الناس، فهناك خصوصية يتميز بها لباس هؤلاء، أصبحت جزءاً

من شكلانيات الايمان من غير علاقة بالايمان.

تمثل زيارة القبور، ووضع الأغصان الخضراء عليها في الأعياد، عملاً يرتبط ببعد ايماني، في حين تحاربه جهات أو مذاهب إيمانية أخرى كالوهابية. وتعتبر علاقة الايمان باطالة اللحية وحف الشوارب علاقة وثيقة، عند جهات ايمانية متطرفة، علماً أنه شكل قد لايوحي بمضمون ما بالضرورة. ولبس الجلباب وتقصيره علامة أيضاً. كذلك حركات أخرى توحي بخصوصية الانتماء المذهبي، كوضع اليدين أثناء الصلاة.

كثيرة هي المظاهر والشكليات التي تسعف المؤمنين في صنع السياج الدوغمائي العقيدي، كما يسميه محمد أركون، وما هذا السياج سوى التعبيرات الايديولوجية التي رأينا فيما سبق من فصول، إنها سمة من سمات هذا العقل، إنه تقنين وتثبيت لكل المظاهر والشكليات التي تضمن البقاء تحت السيطرة، والعبارة التي ترفعها بعض المحلات التجارية بأنها تبيع الزي الاسلامي، تربط بين الاسلام وزي محدد، علماً أن تاريخ الاسلام وتعاليمه لايمدنا بما يؤيد وجود زي مرتبط بصحيح الحياة والممارسة الاسلامية، والخارج عليه خارج على ما لايجوز الخروج عليه، ولكنه مزيد من القيود التي تفرض تحديداً على حياة المرأة وسلوكها، دون الاهتمام بجوهر عقلها ووجدانها. إن ارتباط الزي بالبيئة والعصر أكثر أصالة ومنطقية من ارتباطه بالايمان.

ومن مظاهر الشكلانية الايمانية، أساليب الخطاب الشفاهية والكتابية المتبعة في التواصل بين المؤمنين. فالترسيمات المتبعة في ديباجة الأحاديث، خاصة في بداياتها ونهاياتها تميز الخطاب الايماني الشفهي أو الكتابي، كما أن اللغة التبجيلية المشبعة بالجمل الدعائية، وجمل الثناء، والاشادة، والاتكاء على الموروث من التعابير المطعمة بالآيات والأحاديث والأدعية، والابتعاد عن المصطلحات المستجدة والدقيقة في إطار العلوم الانسانية، وعن أسلوب العصر السائد، كل ذلك يدخل في إطار الالتفات الشديد الى الشكليات والمظاهر، وإيلائها دوراً أساسياً في إعادة انتاج العقل الايماني.

١٠ - الانقياد السهل

لقد أوضحنا فيما سبق أن العقل الايماني يستمد طاقته ومؤثراته من حقول أخرى أيضاً غير حقل الدين كالمصالح والعادات وغيرها، مما يترسخ في العقل الفردي

والجمعي للمؤمنين وتكسبه السنون مفعولاً سحرياً حتى يصبح الخروج عليه عملاً إجرامياً، وتزداد الأغلفة والقواقع، وباعتبار أن الايمان يحيل في ذهن العامة الى مفهوم ديني، وما هو ديني يحيل الى الارتباط بالله عز وجل، من هنا يبدو كل ماهو ايماني، هو إلهي في مآله، وماهو إلهي فهو مطلق، مطلق الصحة، ومطلق السيادة، ومطلق في وجوب الخضوع له أيضاً، إذاً لاتلبس في هذه الحالة أن ندخل داخل الحرم.

أرأيت كيف يصبح على الإنسان، على المؤمن أن ينقاد، أن يخضع؟ ويبدو أن هذا الانقياد يحقق الرضى والطمأنينة، وليس كالانقياد في مجالات أخرى، إن الانقياد لما هو إلهي يلغي كل الرواسب والبقايا والمخلفات والظنون والشكوك. طبعاً هذا الانقياد يتم بآلية ايمانية توجب التسليم وبالتالي توجب البعد عن الكثير من الاستفهامات والتساؤلات، لما يحمله الاستفهام من معاني التشكيك والموارية، وما ينتمي الى أيديولوجيا المطلق، يحقق مطلق الخضوع الداخلي والخارجي، بحيث يبدو النقد والتحليل، وإخضاع المسائل للتمحيص والدرس ومناهج التفكيك، علامة سلبية تبقي صاحبها معلقاً بين الانتماء الى المقدس والوقوع في الخطيئة.

الأمر يتطلب تمحيصاً في أصل المادة موضوع الايمان، من حيث الانتماء الى ماهو إلهي، أي مقدس، أو الى غير ما هو الهي، لقد اقتحمت الخرافة والدجل والسحر والخداع وغيرها من الأساليب أسوار القداسة منذ قديم الزمن، وربطت نفسها بها، ولم يحدث بينهما الافتراق المطلوب، كما أن العادات التي اكتسبت مع الزمن صفة الاجلال والتقدير والمحافظة عليها حتى الخشية من الخروج من أسارها، كذلك قد دخلت حرمة القداسة، كل ذلك يحقق مصالح مادية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها، لمن يتعاطون في هذا المجال.

قد يكون الانقياد فردياً، كما رأينا في حكاية الراهب ورئيس الدير التي مرت سابقاً من مرويات ول ديورانت، وقد يكون جماعياً، ويبدو الانقياد الفردي في كل تصرفات وحياة المؤمنين، خاصة في مناسبات الكوارث والنكبات، وما يستتبعها من تفسيرات، الى الاهتراء الايماني والتراخي الحاصل عند الناس، كتفسير أسباب الزلزال الذي أصاب تركيا في شهر آب ١٩٩٩م، حيث سارع العقل الايماني الى إشاعة تفسيره الذي يتوقف عند تردي ايمان الناس، وابتعادهم عن الصراط المستقيم، وعدم أداء

واجباتهم الدينية، فهو انذار وعقاب إلهي، وتذكير وعبرة، وهذا التفسير من شأنه أن يشكل سوطاً يعيد القطيع الى الحظيرة. كما أن كسوف الشمس الذي حصل في الشهر ذاته الذي حصل فيه الزلزال التركي، ارتبط بتحليلات وتفسيرات مشابهة، فهو عقاب إلهي وهو انذار، وهو إشارة الى نهاية الزمان، أو القيامة. وقد نقلت وكالات الأنباء استجابات إيمانية مختلفة مع هذه التفسيرات التي لاتصدر إلا عن عقل إيماني سحري خرافي وغير علمي بالتالي غير ديني بالمفهوم الحق للدين، من هذه الاستجابات، أن يقيم أحدهم قيامته بنفسه غير منتظر، فيقوم بقتل أسرته والانتحار مستبقاً الحدث العظيم المنتظر وهو القيامة، فقد حاسب نفسه، وأزهق روحه وأرواح أسرته، وأخذ دور الآلهة، وهذا التفسير الايماني لم ينحصر بطائفة معينة أو دين معين.

الملاحظ في كلا التفسيرين المرتبطين بحدثين طبيعيين، هو غياب العقل والعلم عن التفسير، أو تغييبهما عن سابق إصرار وتصميم. لأن الساحة لاتتسع لتفسير بتأثير العقل العلمي وتفسير آخر بتأثير العقل السحري اللاعلمي، فإما أن يقتنع الانسان بالتفسير العلمي، أو يدخل عالم المتاهة والمجهول، وبالتالي يبقى مغيباً مشدوهاً. لقد نقلت الأخبار في شهر تشرين الثاني ١٩٩٩ أن الحاخام (ديفيد...) قام بشفاء سيدة بإخراج عفريت منها أمام الناس المنقادين لهذا العمل الايماني الجليل والمعجبين به، وقد كان هذا العفريت قد سيطر على عقلها لصالح زوجها الذي انفصل عنها، لقد حصل ذلك في اسرائيل وليدة المجتمع العلمي الغربي.

ويظهر الأثر السلبي للانقياد الايماني في تلك الحركات التي يقال عنها إنها شيطانية تارة، وتارة يقال عنها أو عن بعضها إنها تنتمي الى حركات إحيائية في إطار دين سماوي ما، حيث الانتحارات الجماعية وحيث يظهر انقياد الأتباع الى رئيس الطائفة أو كاهنها، وقد برزت هذه الحوادث في الولايات المتحدة الأمريكية سابقاً أكثر من غيرها، حيث تم الحديث أكثر من مرة عن عشرات بل مئات المنتحرين في عملية جماعية لابناء نحلة معينة، غالباً ما كانت توصف هذه النحل بأنها شيطانية، المهم في القضية، مدى الانقياد والتأثير الذي يدفع بهذه الجموع الى ممارسة طقس ايماني يتمثل بعملية انتحار جماعي. ومن الأخبار الطازجة التي تناقلتها وكالات الأنباء العالمية كثيراً نبأ الانتحار الجماعي الذي تم في أوغندة وراح ضحيته عدد من الناس بدأ بـ

/٢٠٠/ ثم تم الحديث عن /٤٠٠/ ضحية، تم تناقل الخبر في ٢٠٠٠/٣/١٩ ثم تبعه الحديث عن /١٥٣/ ضحية أخرى وجدوا في منزل قرب مكان المجزرة الأساسية، وقد وجدت الجثث متفحمة بعد أن أضرموا النار بأنفسهم، وكان من الصعب على الشرطة فصل الجثث عن بعضها حيث شكلت كتلة متراصة، وقد ذكر أنهم أتباع نحلة تؤمن باعادة الاعتبار للوصايا العشر.

ويظهر الانقياد الجماعي (وكل انقياد جماعي هو فردي بالضرورة)، من خلال الحشود والجماهير المتدافعة التي تنقاد بدوافعها الايمانية الداخلية، وبالعدوى، وبتأثير التجييش المتواصل. فالأعداد الغفيرة من الناس التي تحضر حفلات شفاء المرضى من قبل رجال الدين (القديسين) أو بتأثرهم، وحفلات الزار والموالد، والقداديس التي يحضرها مئات آلاف الناس حيث يحل بابا الكنيسة الكاثوليكية في كل أنحاء المعمورة (كما حدث في زيارته الى مصر شباط ٢٠٠٠ وزيارته الى الأردن وفلسطين آذار ٢٠٠٠ وكلا الزيارتين كانت حجاً لأماكن التدشين المقدسة) وهي أعداد ملفتة للانتباه، والجماهيرية التي حققتها وتحققها الانتفاضات التي قادها رجال الدين الشيعة في ايران، كحركة المشروطة، وثورة التنباك، والثورة الاسلامية بقيادة الخميني، أيضاً تلفت الانتباه الى الانقياد الايماني، كما أن الحضور والمشهدية التي ترى في ليالي عاشوراء في جنوب لبنان وحيث يتواجد الشيعة، والممارسات الايمانية ظاهرة الفاعلية، بجماهيريتها الواسعة، وبالمشاركة بالطقوس الايمانية التطهرية، مثال واضح على الانقياد السهل لقناعات داخلية أو لقادة إيمانيين. ومنه الالتفاف الواسع حول بعض الحركات الأصولية كجبهة الانقاذ في الجزائر وما حققته في الانتخابات التي افتتحت باب العنف المستمر.

من جهة أخرى لايمكننا أن نصنف الانقياد تصنيفاً واحداً، فقد لايكون بالاتجاه السلبي في كل الأحيان، فكما يكون لما هو سلبي قد يكون لما هو إيجابي. فكما أن بعض الجماعات الايمانية تمارس ماهو خارج عن القيم والعقل والدين، كتلك التي تتعاطى القتل الجماعي والترويع والتخريب في الجزائر ومصر أو في بلاد كايرلندة الشمالية، فإن هناك جماعات تضع امكاناتها وإيمانها المجيش في خدمة شعوبها، كتلك التي تقود نضالاً وطنياً ضد العدوان والاغتصاب، عجزت عنه أكثر الأحزاب

والاتجاهات الأخرى وطنية، مثلما يجري في جنوب لبنان وفلسطين وجماعات لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، وفي بعض هذا رد على نكوص جهات كانت تحمل لواء الجهاد.

إن التحركات الايمانية علمتنا أن تكون في إطار تكريس ما هو سلبي من القيم، بدفاعها عن الموروث بما لحقه من تراكمات الأيام، وبما له من مردود تأخري على الجماعات، وهذا نراه مستمراً حتى يومنا هذا في الكثير من بقاع الدنيا، وتعتبر حركة طاليان الأفغانية مثالاً صارخاً عليه، لكن تحركات أدى إليها وقادها التجييش الايماني، قد لاتفسح لنا المجال أن نصنفها تاريخياً في إطار ماهو رجعي وسلبي، كالتحرك الايماني الذي أدى الى مايعرف بثورة التنباك في ايران وحركة المشروطة بعد ذلك أيضاً. وهما حركتان تصنفان في إطار مصالح الجماهير الواسعة، قادهما وحركهما عقل إيماني تمثل في آيات الله.

نتبين إذاً أن الانقياد على المستوى الايماني حاصل، وهذا الانقياد قد يكون بتأثير القناعة أو قد يكون بتأثير التجييش المستمر. إذ من المعلوم أن الايمان هو قناعة أو مجموعة من القناعات تشكلت لدى صاحبها، فأصبح رهناً لها بتصرفاته وأفعاله، وهذه القناعات يحيل الكثير منها الى ماهو خرافي وسحري، وهنا يكمن خطر الانقياد، كالوقوع تحت تأثير الدجالين والمشعوذين ممن يمارسون الطب منتحلين صفات إيمانية، أو ممن يطلقون التفسيرات لكل مايمر في الحياة من أحداث بعيداً عن حقل الحقيقة والعلم، ويهاجمون ويدعون الى الهجوم على أصحاب العقول المتسقة والتفكير العلمي السوي، وهو يتم في إطار رجال الدين في الكثير من الأحيان، ومن هذه التفسيرات والتجييش ما يساعد الناس على تخطي عقبات حياتهم ويدعوا الى القيم الايجابية، وهو مادعوناه بعقل الرحمة وصنفناه في بابها، كما أن منه مايشل عقولهم ويتركهم فرائس منقادة للنصب والاحتيال والجهل، وتفسير حدوث الزلازل مثلاً بغضب الله والبعد عن صحيح الدين، أو تفسير عدم حدوثها في منطقة أخرى بأن هناك أولياء ومؤمنين مدفونين في هذه المنطقة، وهذا مايمسكها عن أن تهتز أو تتزلزل، بالتالي ينفي الخطر، كلا التفسيرين غير عقلاني وغير علمي وكلاهما يحرمان الناس من اتخاذ الاحتياطات في بناء بيوتهم، وتجهيزها ضد الأخطار المتوقعة.

١١ - إخضاع الطبيعة والسيطرة عليها

تعتبر الطبيعة وتغيراتها وإمكان التأثير فيها، أو الايحاء بأن الكثير من الأحداث الطبيعية يجري وفق إيقاع إيماني، دليلاً على تجيير الطبيعة والعلاقة بها للتأثير على الناس إقناعاً واقتناعاً بالتوجهات الايمانية، ويعتبر هذا الخط أبرز الطرق المعتمدة في إبراز مفاعيل العقل الايماني وتجلياته، حيث لايتأخر تفسير أية ظاهرة طبيعية كونية أن يأتي منسجماً مع معتقدات المؤمنين، ومتأثراً بها، ولا يستبعد أن يتم ذلك من قبل أكثر من اتجاه إيماني، ولهذا ماله من قوة التأثير في عقول الناس البسطاء خاصة حين لايتيسر في كل لحظة ايراد التفسير العلمي للظاهرة، لعدم وجود من يمتلك القدرة على إبراز التفسير العلمي، ولأن التفاسير العلمية لاتقوم على العشوائية والارتجال فيكون السبق في تفسير الظواهر الطبيعية لمن تهياؤوا لاستنفار القوى الماورائية والحديث عنها وباسمها، والسبق الى إحداث التأثير في أذهان الناس يعني صعوبة إزالة هذا التأثير في المستقبل، لضعف المستوى العلمي أولاً ولمصادفة أذهان خالية يسهل التأثير فيها عند بسطاء الناس المؤمنين. ومع انتشار العلوم التجريبية الحديثة، والوسائل التكنولوجية المبتكرة لاكتشاف حقائق الكون، وجدت الكثير من الحقائق طريقها الى أذهان الفئة المتنورة من الناس، حيث أصبح من الممكن الحصول على تفسيرات علمية مقنعة وربما أكيدة للكثير من الظواهر التي كان تفسيرها حكراً على اللاهوت، ومنطق قوى الايمان. ومع ارتياد العلم لمجاهل هذا الحقل الطبيعي، فإن تفسيرات مناقضة لحقائق العلم والعقل العلمي لاتني تظهر كلما اقتضى الأمر، مخالفة لأي فكر علمي وموضوعي، ومنسجمة مع قوى ومفاعيل العقل الايماني، وهذا دليل على استمرار هذا العقل في المنافسة على امتلاك الساحة الاجتماعية، باستدعائه التفسيرات الغيبية، وتأثير قوى الماوراء والسحر والخرافة، وذلك كأسلوب مواجهة لامتداد العلوم الحديثة، واستبعاداً لبسط هيمنتها الكاملة، مما يعني الكارثة على العقل الايماني وممثليه، ومن هنا يظهر استنفاره للمواجهة كلما دعت الحاجة، أو كلما كان ذلك ممكناً ويخدم أيديولوجيته. نذكر هنا بما ذكرنا عن الزلزال في تركيا وعن كسوف الشمس، وعلى النسق ذاته تأتي التفسيرات لأبسط الظواهر، حتى أن احتباس المطر ونزوله مرتبط بقوى الغيب، برضى الآلهة وغضبها، بالتالي بانصياع المؤمنين للتوجيهات التي

يدبجها وكلاء الآلهة، أو من نصبوا أنفسهم لهذا الوكالة، إن في ذلك إخضاع السماء، لمنطق المزاجية والتأثر، وإبرازها على أن كل تعاليها، وكل جبروت آلهتها وسموهم واقتدارهم لايستطيع أن يرتفع فوق هذه المزاجية، التي هي شأن انساني، وبذلك يتم تفريغ الأديان من هدفها الرئيسي الذي هو تربية مجتمعات فاضلة، وليس هدفها، استجداء آلهة تكون كل لحظة في شأن، لأن هذا التغير والتبدل في مزاج الآلهة، والتأثر بالناس وعلاقاتهم وسلوكهم ونذورهم، وخضوعهم أو عدم خضوعهم، يوحي بآلهة لاتبتعد في طريقة آدائها عن الناس وطرائقهم ولاترتفع عن مستوى مزاجيتهم ناسين أن الله أبلغ الناس أنه غني عنهم، بالتالي عن خدماتهم، بالتالي لاينتظرهم أن يستحثوه بما لديهم من اغراءات ليتمم رعايته لهذا الكون. وهم بهذه الطريقة من التفكير والأداء يسيئون لايمانهم، وإنني اعتقد أن الله لايرضى عن ابرازه بمزاجية الانسان.

في هذا الإطار نصف مانسمعه ونراه من صلوات الاستسقاء التي يقوم بها المؤمنون طلباً للرحمة، ومواجهة حالة الجفاف التي تعانيها المنطقة، وفي ذلك محاولة لكسر جمود الطبيعة وتغيير قوانينها، بتأثير الكرامات والشفاعة والتوسلات، ولاشك أن هذا يعتمد على تراث غير منقطع من الأساليب التي تم بها استجلاب رحمة السماء وتعاطفها، لا بل إخضاعها، عن طريق التذلل والتصاغر الانساني أمام عظمتها وجبروتها. وفي تراث الطوائف، خاصة في المناطق الريفية، وحسب انتماء كل منطقة، دلائل على أن السماء قد استجابت لمثل هذا التضرع في مواقف مشابهة، حتى أن هطول المطر استجابة لصلاة وابتهال ودعاء المؤمنين في منطقة ما، وطائفة ما، أصبح عقداً سنوياً يتكرر كل عام، حيث يهطل المطر في ذكرى الاستجابة الأولى، مما يعيد تذكير المؤمنين بضرورة عدم ابتعادهم عن حظيرة الايمان، لأن النفع والضرر مرتبط بمثل ذلك الخضوع الذي استجلب المطر، وينسب المؤمنون من طوائف مسيحية واسلامية في منطقة الشرق الأوسط الى رجال دينهم المتميزين بطهارتهم ونقائهم الايماني، الحصول على هذه الهبة السماوية المتكررة كل عام ضداً أو تجاوزاً لقوانين الطبيعة وضروراتها. وفي هذا السياق نشرت وسائل الإعلام أن حاخامات يهود، قاموا بأداء صلاة استقاء وهم يحلقون في الجو بإحدى الطائرات، لمواجهة الجفاف في شرق المتوسط، وذلك في تشرين الثاني ١٩٩٩م.

لقد تمت الإشارة الى أن العقل الايماني في هذه الناحية هو سليل تراث الايمان الذي اعتمد على المعجزات التي تخرق قوانين عمل الطبيعة والتي جاءت تأييداً للرسالات السماوية، ولأنبياء الله، ولكن وبعد انقضاء النبوات أغلق الباب على تجدد دلالاتها، ولكن العقل المولد للمعجزات الايمانية استمر في انتاج هذه الدلالات واستمر في كسره لمفاعيل القوانين التي تنظم عمل الكون بكرامات حازت الصفات الرسالية، فهي متولدة عنها وتنتمي الى حقلها، وتعيد انتاجها، وفي هذا تكريس للوظيفة الإخضاعية للعقل الايماني.

إن العقل الايماني يقدم الكتب السماوية على أنها كتب كليانية، شمولية، مغلقة، لكن انغلاقها تم على كل الاسرار الكونية، فلا شيء من هذه الاسرار حصل أو سيحصل خارج دفتيها، ولاشيء حدث أو سيحدث إلا ومبرراته موجودة فيها، وهي تنطوي على العلم به. هذا هو المنطق الناظم للايمان بالكتب السماوية والرسالات التي جاءت بها.

لقد آمن المسلمون بالقرآن ككتاب قيمي معجز للبشر، انطوى على أسرار كونية تتسم بالشمول والاحاطة، وقد فرض العصر الحديث بما قدمه من انجازات علمية هائلة الحجم والاتساع، أبهرت العقول، فأثارت فزع نواطير المقدس، ولما كان منطقهم ليس في مقدوره نفي أو مواجهة هذا الوافد الغربي الجديد من منجزات العلوم الكونية الحديثة، وبعد أن حاولوا نفيها ومواجهتها كما هو معلوم أسقط في أيديهم، فلجأوا الى استنطاق القرآن بها، فجاءت الأبحاث كالتي قدمها «يوسف مروة» حول العلوم الطبيعية في القرآن، لتنفي كل جديد عن مستحدثات العلوم في هذا العصر، ولتجعل القرآن مخزناً ومصدراً لكل هذه العلوم وناطقاً بها، دون أن يبالي هذا العقل، أتعسف في تبريره أم لم يتعسف، المهم الايحاء بأن السيطرة على الطبيعة ملكية خاصة له، ولايجوز التخلي عن هذه الملكية لأنها ذات أثر كبير في التجييش الايماني، وإبراز القدرات الالهية التي هي مناط هذا التجييش، يكون من خلال آثارها في الطبيعة وتوجيهها.

وأنا لست بصدد تحليل مضمون هذه الكتابات، واستعراضها، ولكني بصدد مساءلتها عن منطقها وغاياتها، والمصداقية التي يتحصل عليها المؤمنون من الخوض

فيها، أي مساءلة الجانب الايماني فيها لا الجانب العلمي، والتحقق من وجوده أولا، وبالتالي تهافت المنطق الذي يحكمها، ويحكم العقل القابع في خلفية انتاجها.

أولاً: لم يستطع المسلمون وهم يقرأون كتابهم، ويدققون في كل حرف فيه أن يستنتجوا منه أي علم من هذه العلوم التي قالوا إنه يؤسس لها، أو ينطق بتفاصيلها منذ نزوله قبل أكثر من أربعة عشر قرناً. وكان الأولى بهم وهم يتعاطون دراسة القرآن والتعبد بتلاوته ويتفكرون في كل كلمة فيه، أن يكتشفوا بعض هذه العلوم أو كلها، وقد برز فيهم من العلماء الأفذاذ الكثير في كل مجالات العلوم!

ثانياً: لقد كان المسلمون وخلال تاريخهم يمثلون صورة من صور الغباء والغفلة المطلق (وهذا ما لايقرون به) حسب مدلول هذه الاستنتاجات العلمية، حين لم يلحظوا أثناء تدارسهم للقرآن شيئاً من هذه العلوم، وكان دورهم انتظار علماء الغرب (الكافر) ليستخرجوا لهم وليطبقوا في الطبيعة مكنونات أقدس مقدساتهم!.

ثالثاً: إن المسلم يتعبد ربه بتلاوة القرآن وفهمه والتعمق به (وهذا غاية ووسيلة في وقت واحد) فهل كان إيمان كل الرعيل السابق من المؤمنين، ايماناً ناقصاً، (وهؤلاء هم الذين لاننقطع عن الثناء على علمهم وقدراتهم وايمانهم)، لأنهم لم يعيشوا في زمن العلم الأمريكي الذي جاء لإنقاذهم، وليكشف لهم ماخفي من دينهم؟ فما ذنب هؤلاء الذين انطوى إيمانهم على كل هذا النقص لأنه لم يقيض الله لهم علماء أمريكا ليشرحوا لهم مااستغلق عليهم من دينهم؟!.

رابعاً: إن أصحاب مثل هذه الدراسات يبدون غير مقتنعين أن الله أكمل لهم دينهم حسب منطق الوحي، وغير مقتنعين أن النبي الكريم بلّغ وأدى الأمانة حسبما أشهد عليه الله أمام المسلمين، ولذلك حرصوا أن يستمدوا من علماء الغرب الفهم الذي يكملون به إيمانهم، هذا بعض ماتوحي به هذه الدراسات، إذن تنطوي على موقف سلبي.

خامساً: إنهم يقدمون أدلة على أن العلم الحديث لم يستطع أن يستخرج كل ما في القرآن من أسرار علمية وهذا من أدلة إعجازه. وكمثال على هذا المنطق أشير الى نقاش شفوي حضرته، قال فيه أحد ممثلي هذا العقل الايماني ليدحض قدرة العلم على استكناه حقائق القرآن، إن أحد العلماء الأمريكيين قضى إحدى عشرة سنة يبحث في أسرار

الأجنة في الأرحام، وعجز عن معرفة جنس الجنين في فترات الحمل الأولى، وهذا رد على من قال إن الأجنة أصبحت معروفة الجنس، وبذلك ينتزع سراً من أسرار الألوهة، وقد رُدَّ عليه بسؤاله إن كان سيبطل إيمانه بالقرآن إذا جاء عالم آخر وقضى إحدى عشرة سنة ثانية أو أكثر في البحث، واستطاع إيجاد آلية يحدد من خلالها جنس الجنين؟ فما استغلق سابقاً من أسرار الكون على العلم ليس بالضرورة أن يبقى مستغلقاً، فهل علينا أن نعيد تقييم إيماننا في كل مرة يقدم فيها العلم كشفاً جديداً؟ وهل سينتهي كون القرآن معجزاً عند مثل هذه التخوم؟ أم أننا يجب أن ننتقل باستمرار من مأزق الى مأزق؟!.

سادساً: القرآن كتاب ينطوي على قيم ومثل ورموز متعالية، وليس كتاباً في الانجازات العلمية، ولا يضيره أن ينطوي على تفسير أو تبرير لكل حادث كوني ولكل حالة علمية أو لاينطوي، ولن يكون إيمان المسلم باطلاً إذا لم يجد في كتابه شرحاً وتفسيراً وإشارة لكل مكتشف علمي، من كروية الأرض ودورانها حول الشمس الى أسرار المعلوماتية وأطفال الأنابيب والاستنساخ وعلم الذرة وفيزياء الكم...الخ.

سابعاً: إن في عدول المؤمنين عن الخوض في هذا المجال احتراماً لكتابهم، وضناً به عن إدخاله في معترك يتكرر كل يوم، أو عن الزج بمنطوقه في كل مناظرة، سواء كانت جليلة أو حقيرة، إنهم إذا أرادوا أن يبرهنوا عن احترامهم لهذا الكتاب، والحفاظ على هيبته وعظمته، يجب أن يترفعوا عن أن يجعلوه النقيض لما لا يعجبهم ولا ينسجم مع تفكيرهم، وأن يجعلوا منه مشجباً يعلقون عليه غفلتهم أو جهلهم وافتراءاتهم وأخطائهم. المعارك التي يخوضها هي معاركهم وحدهم لا معارك القرآن. وهذا الكتاب القيمي يترفع عن أن يكون له ند أو شبيه أو منافس، لأنه ليس من جنس كل هذه الأشياء، إنه كتاب إلهي. بهذا المنطق يمكن أن يخدم المؤمنون كتابهم، لابزجّه في كل موقع سواء خرج منه محترماً مهاباً أم لا، لأن معطيات العلوم الحديثة تتوالى والمعارك تبشر بالازدياد لا بالنقص. إن منطق المفاخرة والانتصار للآراء الشخصية، يجب أن يتم بعيداً عن الكتاب وزجه في معارك لا طائل منها.

هوامش الفصل الثالث

(١) – علي مبروك ، النبوة ، من علم العقائد الى فلسفة التاريخ ، محاولة في إعادة بناء العقائد ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة أولى بيروت ١٩٩٣ ص ٢٢٧ – ٢٢٨ . نقلاً عن ، عالم الفكر ، عدد خاص عن السيرة النبوية والخيال الشعبي مجلد /١٢/ عدد /٤/ الكويت ١٩٨٢ .

(٢) – د . سيد محمود القمني – مجلة روز اليوسف ، العدد /٢٦٨٢/ تاريخ ٢/١/١٩٨٩ .

(٣) – د . صادق جلال العظم ، نقد الفكر الديني ، دار الطليعة ، بيروت ، ص-١١ .

(٤) – د . محمد أركون ، العلمنة والدين ، دار الساقي ، طبعة ثانية ١٩٩٣ ص٧١ .

(٥) – نقلاً عن مقال لعماد مصطفى ، مجلة الناقد ، أعيد نشره في كتاب ، الابداع من نوافذ جهنم/العنف الأصولي ، دار الناقد (رياض الريس للكتب والنشر) طبعة أولى ١٩٩٥ ص٢٤١ وما بعدها .

(٦) – ول ديورانت . قصة الحضارة ، مجلد /٤/ عصر الايمان جزء /٣/ ترجمة محمد بدران – الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، طبعة ثانية ١٩٦٤ /١٤/ ص٨٧ ومابعدها .

(٧) – أديب ديمتري ، نفي العقل ، دار كنعان للدراسات والنشر ، دمشق طبعة أولى ١٩٩٢ ص٥٣ .

(٨) – في مقالين للدكتور رفعت السعيد والدكتور فيصل دراج ، مجلة النهج العدد /٢٠/ شتاء ١٩٩٩ .

(٩) – رياض نجيب الريس ، مجلة الناقد ، العدد /٧٤/ .

(١٠) – سمير عبده ، المسيحيون السوريون خلال ألفي عام ، دار علاء الدين ، طبعة أولى ، كانون الثاني ٢٠٠٠ ص١٠٨ .

(١١) – أديب ديمتري – المرجع السابق ص٥٢ .

(١٢) – المرجع السابق ص٥٤ .

(١٣) – المرجع السابق ص١٥ .

(١٤) – ول ديورانت – قصة الحضارة ، مجلد /٤/ جزء /٤/ عصر الايمان /١٤/ ترجمة محمد بدران ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، طبعة ثانية ١٩٦٥ ص٦٧ .

(١٥) – المرجع السابق ص٢٣٧ .

(١٦) – المرجع السابق ص٩٧ .

(١٧) – هذه الأحداث ذكرها ، محمد كرد علي في محاضرة له بجامعة القاهرة بتاريخ ١٧/١٢/١٩٩٣ نقلها عماد مصطفى – مرجع سابق ص٢٤١ ومابعد .

(١٨) – صحيفة المحرر نيوز ، عدد /٢٢٨/ ٢٢ – ٢٨ كانون الثاني ٢٠٠٠

(١٩) – د . عزيز العظمة ، العلمانية من منظور مختلف ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة أولى بيروت ١٩٩٢ ص٩٨ .

(٢٠) – د . سيد محمود القمني ، مجلة روز اليوسف ، العدد /٣٦٧٤/ تاريخ ٩/١١/١٩٩٨ .

(٢١) – المعني هو العلامة الشيخ سليمان الأحمد ، المتوفى عام ١٩٤٢م ، والأبيات في ديوانه المنشور ، مطبعة العرفان – صيدا ، ص١٢٣ .

(٢٢) – أديب ديمتري – المرجع السابق ص٧٢ .

(٢٣) – ول ديورانت المرجع السابق مجلد /٤/ جزء /٥/ ١٦/ ص١٢ .

(٢٤) – المرجع السابق ص١٢ .

(٢٥) – أديب ديمتري ص٢٦٠ .

(٢٦) – د . نصر حامد أبو زيد . دوائر الخوف – قراءة في خطاب المرأة . المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى – الدار البيضاء ١٩٩٩ ص١٧ .

(٢٧) – د . نوال السعداوي ، المرأة والجنس – الانثى هي الأصل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى – تموز ١٩٧٤ ص٤٠ .

(٢٨) – ول ديورانت ، المرجع السابق مجلد/٤/ جزء /٥/ ص١١١ .

(٢٩) – المرجع السابق ص١١١ .

(٣٠) – صحيفة المحرر نيوز ، عدد /١٢٦/ ٢٠ تشرين الأول ، ٥ تشرين الثاني ١٩٩٩ .

الفصل الرابع

الحضور التاريخي للعقل الإيماني

إن العمل الذي نقوم به هنا ليس عملاً تأريخياً، بمعنى أنه لايقوم على تقصي ظاهرة ما باحثاً عن تموضعها حسب تسلسل الأحقاب التاريخية المتتابعة، ولا الى تقصي تأثيرها، أو فعلها وانفعالها. إنما هو عمل استدلالي، يطمح الى زيادة التعرف على الظاهرة، وتسليط الضوء عليها ابستمولوجياً، كما يطمح الى التمييز بين العقل الديني والعقل الايماني، على مستوى الدراسة كما على مستوى الواقع.

لكن نفي صفة التأريخ (بالهمزة) عن العمل باعتباره مشروعاً ثقافياً وفكرياً، لايعني نفي صفة التاريخ عنه، أو اخراجه خارج تاريخية الفكر المعاصر وقضاياه التي تشغله، فالاحساس براهنية الهيمنة الايمانية على مساحة كبيرة من حيّزنا الثقافي والسياسي والاجتماعي هو الهدف الضاغط الأول للحديث في الموضوع. إن حضور العقل الايماني، ذلك الحضور المهيمن، واستبداده بعقول الناس حتى في قضاياهم التي لاتمت الى الدين بصلة، هدف ضاغط ولّد الإحساس بضرورة معرفة أوسع، وكما أن حضوره المعاصر كان حضوراً استبدادياً، كذلك كان حضوره في التاريخ، فقد كان ضاغطاً على التاريخ بجميع جوانبه، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية... الخ، ولا أدري إن كان من حقي أن أقول إن حضوره حضور إيماني، ومعنى أن يكون حضور العقل الايماني، حضوراً إيمانياً أي أن يكون متمكناً من وجدان الانسان، ومسيطراً على حياة الفرد والمجتمع في أزمنة وأمكنة حضوره، بالتالي يكون بحث سيطرته على جوانب الحياة وحضوره فيها من قبيل تحصيل الحاصل.

إن حضور العقل الايماني في المجتمعات، ليس حضوراً على مستوى الماضي فقط، بل هو حضور معاصر بقوة، ثم إنه مرشح ليكون حضوراً مستقبلياً أيضاً.

إن المستوى الذي وصلت إليه الدراسات التاريخية ومستوى الفهم الذي تتيحه لحضور الماضي في الحاضر على المستوى الايماني، يؤكد حقائق كبيرة وكثيرة، لانزال

نتوارثها، وتشكل حضوراً لافتاً وحياً على امتداد عشرات القرون. فالتقدم الذي أتاحته الدراسات الآركيولوجية والميثولوجية والانتروبولوجية، كما الدراسات المقارنة، في علم الأديان، وعلم التاريخ، أتاح فهم الكثير من العناصر والتصرفات الحياتية التي لاتزال حية وتبحث عن تفسير يعلن عن انتمائها الحضاري والثقافي.

إن الكثير من العناصر التي تظهر في متضمنات العقل الايماني عند انبثاقه وتأثيره المباشر في حياة الناس اليومية، تنتمي الى مواريث سابقة على الديانات التي ينتمي إليها الاتجاه الايماني الذي تظهر فيه هذه العناصر، ويجب ألا يكون مستغرباً أن نجد الكثير من العناصر الايمانية التي تنتمي في حقيقتها الى حضارات قديمة جداً، لأن الحضارات الأصيلة وعناصرها المكونة، لاتموت موتاً كاملاً، إنما قد تغور الى الأعماق، بفعل عوامل تغلب حضارات أقوى، وثقافات أقوى صاعدة، ولكن الثقافات والحضارات الصاعدة والوارثة لغيرها، لاتستطيع أن تحمي نفسها، من وراثة وحمل بعض العناصر من الثقافة المغلوبة، تجد لها متسعاً لدى الغالبة، بشكل عفوي، ويظهر هذا المحمول عندما تتاح له ظروف الحياة أن يظهر، ويعبر عن نفسه وعن انتمائه في المواضع والمناسبات التي يضعف فيها منافسه، أو لايستطيع تغطيتها، أو يلتقي معه فيها.

إن الحضارات التي تلي، وارثة ثقافة ماقبلها، مما أزاحته يد التاريخ، سواء بمبرر أو دون مبرر (أي بجديد أو دون جديد)، لاتستطيع أن تمحي ماقبلها محواً كاملاً، إذا كان متجذراً، فتعمل على هضمه واستيعابه وإضافته الى مخزونها، لتصبح أكثر ثراء، وذلك كلما كان العمق الحضاري الذي تستند إليه أكبر وأوسع. فالحضارات في النهاية تعبر عن عظمتها بمقدار ماتراكم من خبرات، وعناصرها ربما تتمظهر بمظهر العصور اللاحقة، ولكنها لاتستطيع إخفاء أصلها اخفاءً كاملاً، فيبقى هذا الأصل مقروءاً ودالاً على نفسه، مفصحاً عنها عبر ممارسات وتصرفات تنم عن اعتقاد من يقوم بها بالجدوى المتحصلة منها ربما. وفي الأعم الأغلب قد تظهر في البيئات الشعبية البسيطة التي لم يتعود الناي فيها أن يسألوا أنفسهم عن أصل كل عنصر أو معتقد في حياتهم، أو عن أي تصرف توارثوه، ويقومون بممارسته عبر طقوسهم. وعمليات الحفر والنقد التاريخيين، وتحليل عناصر الحياة المعاصرة، تحليلاً مقارناً، يجعل الدارس يهتدي الى

أصل الكثير من هذه التصرفات التي أصبحت جزءاً من عادات الناس ومسلماتهم الايمانية، كتلك التي يوردها الدكتور (طيب تيزيني) في كتابه (الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى» وهو جزء من مشروعه الكبير في قراءة التراث، فالمفكر تيزيني يورد في سياقات مختلفة، مايذكّر بأصل الكثير من التصرفات التي تمارس في مجتمعاتنا الشرق أوسطيه، والتي أخذت قوة الايمان ومفعوله (أي أصبحت راسخة رسوخ الايمان) بفعل الزمن، وتم توارثها من قبل أديان سماوية أو المنتمين الى هذه الأديان، ولو بحثنا عن أصلها لوجدناها تنتمي الى حضارات قديمة عاشت على أرضنا، كالمسح بالزيت، الذي وجد في حضارات وادي النيل وبلاد الرافدين وسوريا القديمة، واستمر كطقس له بعد ديني في بعض الديانات السماوية وكعادة شعبية في بيئات أخرى، كعادة دهن أجسام المواليد الجدد بالزيت، وكذلك في اعتقاد بعض الناس من أهالي المناطق الوسطى في سورية أن شرب بقايا الماء الذي تشرب منه فرس أصيلة، يجعل المرأة الحامل تلد ولداً قوياً كمهر الفرس، ومنها سقي المصاب بالشاهوق من حليب الحمير[١]، وغير ذلك من الأمور التي قرّت في معتقدات الناس الشعبية والتي تساهم في تشكيل عقولهم، وهي في حقيقتها، عناصر موروثة من أديان وعادات الشعوب الغابرة، تظهر بشكل عفوي دون أن ينشغل ممارسها بأصلها.

ولاننسى هنا المظاهر الاحتفالية الكبيرة التي تتشح بغلالة إيمانية، وتحدث في الكثير من البيئات الشعبية، والتي تجري في أغلب الأحيان بالقرب من أضرحة الأولياء والصالحين، أو الأماكن التي تنطوي على رموز دينية، كما في الساحات العامة، وترتبط في أذهان الناس ببعد إيماني تم توارثه تلقائياً على المستوى الاجتماعي. هذه المظاهر يتبين عند البحث في جذورها أنها تنتمي الى ماهو بعيد وسحيق في تراث المنطقة الحضاري، كاحتفالات الربيع التي تأخذ أطراً وأشكالاً مختلفة، وقد نسي الناس المحتفلون أصلها الأول على الأغلب، فهي في مصر تسمى (شم النسيم) ويعيد الدارسون أصلها الى الاحتفالات بعودة «أوزيريس» الى الحياة، في الأسطورة المصرية القديمة، وهي في مناطق سورية ترتبط بعودة «تموز» أو «أدونيس» أو غيرهم من الآلهة الى الحياة، كما تقول الأساطير الآرامية والكنعانية الفينيقية، وقد أصبح غياب وحضور (موت وحياة) هؤلاء الآلهة رمزاً لتوقف الطبيعة عن ممارسة نشاطها في مجال

نحو النباتات وأخصاب الحيوانات، مما يثير الأسى والحزن، كما يرمز بعودتهم الى عودة الطبيعة الى ممارسة نشاطها النمائي والاخصابي، مما يعيد للانسان الأمل في حياة يغيب عنها شبح الجوع والخوف من العوز، مما يستدعي قيام الاحتفالات، وهذه الاحتفالات والأعياد تسمى بـ «النوروز» لدى الفرس والأكراد، وهي بالتأكيد تحمل شحنات إيمانية موروثة.

بعد هذه الاحتفالات لايزال يحتفظ بجذره الديني الايماني الموروث من الحضارات القديمة، وهذه الاحتفالات، غالباً ماتجري أبان الانقلابين الخريفي والربيعي، ولها جذورها في حضارات عاشت على أرضنا، وفي ظروفنا البيئية (المناخية)، ومارس مؤمنوها هذه الطقوس والاحتفالات ثم استمرت في عادات الناس، لأنها كما يرون لاتشكل تعارضاً مع أديانهم الجديدة، بل قد تشكل رديفاً لها، وليس ببعيد أن تأخذ أشكالاً قدسية.

من هذه الاحتفالات مايرتبط بشخصيات بقيت حية في المعتقدات، واكتسبت بعداً رمزياً، بكل مالها من تقدير وتبجيل، لدى أكثر من طائفة أو مذهب، كتلك المرتبطة بشخصية (الخضر) النبي الحي في كل زمان ومكان، وله مكانة شعبية عند الطوائف جميعاً اسلامية ومسيحية، لما يشكله في المعتقدات الشعبية من ضمان لمواسم الفلاحين وحماية للمزروعات، وكثيراً ما تتم النذور الزراعية له، وتقام الاحتفالات بالقرب من المقامات التي تحمل اسمه (مارجرجس - حسب التسمية المسيحية)، في مناطق من سورية، مثل منطقة تلكلخ، وتكون هذه الاحتفالات سنوية وربيعية وتستقطب الناس من جميع الطوائف والأديان، كما تتم احتفالات أخرى لها رموزها وبعدها الثقافي في مناطق أخرى مثل صيدنايا أو معلولا ويتم ربطها بالمعتقدات الاجتماعية، وبعادات وتقاليد أبناء هذه المناطق[٢].

ومن هذه المعتقدات والعناصر الايمانية، ماهو وارد الى بيئتنا من تراث حضارات بعيدة عن منطقتنا، ولكن فعل التثاقف وحوار الحضارات الذي شهدته المنطقة منذ قديم العصور، جعل مثل هذه المعتقدات تتسلل الى معتقدات أهل المنطقة وتستقر فيها، وهو ما أدى الى كل هذا الغنى والاختلاط الذي وسم المرحلة والمنطقة، ولانزال نجد أثره لدى بعض الطوائف أو الجماعات الايمانية كعنصر ايماني معتقدي، كالتقمص مثلاً، والذي

يدخل كمكون أساسي من مكونات عقائد بعض هذه الجماعات، حيث تشكل ازاحته عامل انهيار لهيكلية المعتقد، بالتالي لايمكن إبعاد هذا العنصر منه، علماً أن عامة المسلمين على أن عقيدة التقمص لاتنتمي الى الإسلام، من هنا يعتقد ورودها بالطريقة التي تم توصيفها سابقاً، وتشير المصادر الى أن موطنها الأصلي الهند ومعتقداتها، وقد وفدت الى منطقتنا مع ما وفد وأخذه العرب وبيؤوه، حتى إذا تمت عملية التوالد المذهبي الواسع في الاسلام، وجد هذا المعتقد من يعده مرتكزاً من مرتكزاته الايمانية.

وكما أن هناك عناصر أيمانية تنتمي الى ديانات وثقافات غابرة وغائرة، بقيت تعبيراتها عن نفسها، على شكل عناصر جزئية في عادات الناس ومعتقداتهم، كذلك كانت هناك انبثاقات دينية وايمانية في منطقتنا العربية أو جوارها، ربما حصلت في بعض حالات الفراغ، وقد تأثرت بغيرها من الديانات والاتجاهات الايمانية وحوت في مشاريعها الاعتقادية عناصر من الديانات السماوية ومن غيرها.

كانت المانوية مثلاً إحدى هذه الانبثاقات الايمانية على أرضنا العربية، وقد كان ماني مؤسس هذا الاتجاه، أو المذاهب: «يطمح الى انشاء دين جديد يجمع بين الزردشتية والبوذية والمسيحية ويعتمد الغنوصية»[٣].

الصابئة أيضاً إحدى تلك الجماعات أو الطوائف التي تمارس نشاطها الايماني في المنطقة، ومنهم صابئة حران والصابئة القدامى، كما أن منهم الطائفية المغتسلية الذين ينتمي إليهم والدماني وهم المندائيون[٤].

ولقد كانت الزرداشتية المجوسية بثقافتها التي انتشرت في بلاد فارس، وبقي تأثيرها الثقافي واضحاً في ثقافتنا العربية الاسلامية، إحدى تلك الانبثاقات الايمانية، وليس بالضرورة أن تكون جميع عناصر هذه الثقافات أو الانبثاقات الايمانية قد امحت تماماً، بل قد تحتاج الى من يميط اللثام عن تأثيرها وعناصرها فيما جاء بعدها من جماعات.

وإن أحد الأسباب التي تدعوني الى الحث على دراسة هذه المراحل التاريخية، وهذه الديانات، هي محاولة تتبع العناصر الموروثة منها، أو تلك التي بقيت تدل عليها وتذكر بها، ولم تستطع الأيام أن تمحوه، ويمارسه الناس بعفوية، ودون كبير تعب لمعرفة أصله، من هذه العناصر مثلاً إشعال النيران في أماسي بعض المناسبات في الكثير من

البيئات الريفية التي لاتزال تتوارث هذه العادة (أو كانت تتوارثها حتى زمن قريب) دون أن تتوقف لنقد هذه الممارسة ومعرفة أصولها أو جذرها المعتقدي الايماني. إن العقل الايماني للناس استطاع أن يشكل منظومته بإدخال الكثير من العناصر الغريبة إليها دون أن تكون هذه العناصر تنتمي الى مصدر واحد.

وعند نقاط التماس هذه نجد أنفسنا قد اقتربنا من مشاريع انبثاق العقل الايماني في إطار الديانات السماوية الحية (الابراهيمية) وهي الوارثة لما سبقها.

١ - في حقل اليهودية

لقد ظهر اليهود كجماعة بشرية ودينية في خضم البحر المتلاطم من الجماعات البشرية والدينية أيضاً، وكان لهذه الجماعة تماس مباشر وتأثر وتأثير مع غيرها من الجماعات، وتنتمي هذه الجماعة (بنو اسرائيل - العبرانيون - اليهود لاحقاً) الى ابراهيم جدها الأول كما تحدث التوراة، ويجمعها النسب مع جماعات أخرى كالعرب المنتمين الى ابراهيم أيضاً، والروايات كلها إيمانية، حيث تسعى كل جماعة أن تلتصق بالمتعالي أكثر وأكثر. والمصدر الوحيد للأخبار هذه، والذي كان أساساً للدراسات التاريخية لجماعات المنطقة وأحد أكبر المصادر لتاريخ الاجتماع البشري القديم - أو أكبرها على الإطلاق - هو التوراة، الكتاب الذي يروي السيرة الذاتية للجماعة الاسرائيلية اليهودية، ويسجل أحداث حياتها من وجهة نظر أبنائها، ويصور جوانب حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية والنفسية...الخ، وبالتأكيد انطلاقاً من قناعات ومواقف غير بريئة من الانحياز، مما أتاح للدارسين، ليس فقط المعرفة المباشرة التي ينتجها النص التوراتي، بل قراءة ماوراء السطور، عبر تحليلها واخضاعها لمناهج الدرس الحديثة، بعد أن سمحت الأحوال بذلك، لاكتشاف ماهو مزيف وما هو حقيقي، في مادة هذا الكتاب. ويهمنا منه تأسيسه للتوجهات الايمانية التي هي في كثير من الأحيان مخالفة للتعاليم الدينية التي تشكل مايعرف باليهودية، ويعتبر هذا الكتاب مصدرها الأول والوحيد. والغريب فيه أنه يؤسس القيم المتعالية ويؤسس الخروج على هذه القيم المتعالية فيما يرويه من أحداث وسلوكيات لاتحظى بالإدانة في أكثر الأحيان، ومن هنا قلنا إنه يؤسس لأشكال إيمانية تتنافى مع قيم الأديان التي عرفت

بالسماوية أو الابراهيمية.

التوراة يتحدث بصراحة لاتحتاج الى حفر وتأويل عن التأثر الواضح للجماعة اليهودية الاسرائيلية، بثقافات ومعتقدات الشعوب التي كانت تملأ المنطقة، وكانت على تماس معها، وكانت هذه الجماعات متجذرة في المنطقة على كافة المستويات عندما وفدت الجماعة العبرانية (اليهود لاحقاً) إليها. فالتوراة يتحدث عن اللوم الشديد من قبل رب الجماعة الاسرائيلية (يهوه) لسليمان الملك الاسرائيلي (والنبي) الشهير، لأنه لم يسر على نهج أبيه داؤود، فصنع الشر في عيني الرب باكثاره من الزيجات والتسري بنساء تقول عنهن التوراة إنهن (كنعانيات وصيدونيات) مما أثار الخوف على معتقد سليمان الذي انحرف عن خط والده الايماني، وتبع نساءه في معتقداتهن، مما أوجب لومه، فهؤلاء النسوة «أملن قلبه» الى ألهتهن حسب تعبير التوراة.

فإذا كان التأثير والتأثر بين الديانات السماوية وأديان المنطقة الأخرى، يعود الى هذه الوقت المبكر من فجر هذه الديانات، التي لم تنج أي منها من مثل هذه المؤثرات، والتي نحن بصدد الحديث عنها في اليهودية، والتوراة صريحة في الحديث عن ذلك، فلا شك أن التأثر واستمراره أبقى العناصر الأجنبية من متضمنات الاتجاهات الايمانية المتوالدة نتيجة هذا الاحتكاك والتأثر، بارزاً في إطار هذه الديانات السماوية الكبرى. وقد ظهرت هذه الديانات الكبرى كأنها شجرة ضخمة، يمثل جذعها أصل هذه الديانة، وأساسها المعتقدي يوم وجدت، وبدت المذاهب والطوائف والتأثرات الايمانية، كأنها أغصان هذه الشجرة التي تحمل أوراقاً وثماراً منها المتشابه ومنها غير المتشابه.

وقبل أن استغرق في الاشارة الى الطيف الايماني الذي أحدثه حقل اليهودية الكهرطيسي، وبمناسبة ذكر بعض شخصياتها الأساسية، كسليمان داؤود، المثقلين بالخطيئة، واللذين يصورهما لنا القرآن غير ما هما في صورة التوراة لهما، إذ هما يتحولان من ملكين يرتكبان الأخطاء والجرائم والفظائع في التوراة وهما بين رضى الرب وغضبه إذ هما في القرآن، ينتميان الى المتعالي والعصمة، فهما نبيان، وهنا أود أن أشير الى أنه في كل دين، شكلت دعوته ديناً سماوياً واسع الانتشار، هناك شبكة من الأشخاص على شكل سلاسل تبدأ من المراكز ثم تبتعد فتمتد وتزداد تشعباً كلما ابتعدت، هذه الشبكات تألفت في البدايات ممن صدقوا الدعاة (الأنبياء) وآزروهم

وحموهم وحملوا تعاليمهم، وقد أظهر الأنبياء الاهتمام الشديد بهؤلاء الرهط أو الحواريين أو الصحابة المجتمعين حولهم، لأهداف ايمانية، وأولوهم ثقتهم، واعتمدوا عليهم في الكثير من المناسبات، مما أكسبهم سمعة طيبة في تاريخ الدين الذي ينتمون إليه، وربما الدين الذي تلاه، وصل هذا الاحترام وهذه السمعة الطيبة، حد التقديس عند من تلا من أجيال، متناسين أن هؤلاء ينتمون الى عالم البشر، ومع ذلك فقد تم التعاطي مع تميّز هؤلاء وتقديسهم، بمنطق السكوت عنه، وتشجيعه أحياناً، لما لهم من مكانة سامية في نفوس المؤمنين في كل دين على حدة، وهذا الأمر أيضاً دفع الى تكوين طيوف إيمانية كان محورها إحدى هذه الشخصيات التي بالغ أتباعها والمعجبين بها بتقديسها، حتى أصبح ذلك ديناً داخل دين، أو مذهباً إيمانياً جديداً يقترب من الدين الأساسي أو يبتعد عنه درجات، كما أن الذي حدث، أن جل الشخصيات التي تعاطت مع الشأن الديني التقديسي، وبالتوارث والعدوى، بدأت تحظى بشيء من الاحترام بتدبير منها أو بفعل الأيام والمشاعر الإيمانية، باسباغ الاحترام والقداسة على كل ماهو قديم خاصة ما كان قريباً من التدشين، حتى أصبح تاريخ الأديان هو تاريخ قديسين، وبالتالي تاريخ شياطين، باعتبار أن القداسة تحصل ضداً على الشيطنة، وباعتبار أن من امتنع عن الترادف والانسجام مع منطق القداسة، لن يجد إطاراً يحتويه سوى إطار الشيطنة، والشيطان نقيض الرحمن، حسب منطق الحديّة والاستقطاب الذي رعته الأديان، حيث أن الحد الثالث مرفوع.

هذه النظرة ظلمت الناس على مر العصور، وظلمت التاريخ حين جعلته رهناً بهذه الأحكام القاصرة عن رؤية الانسان داخل شرطه الانساني الفاعل، وفي طيف ألوانه المتماوجة بين الأبيض والأسود، بل جعلته محروماً من الفاعلية المضحي بها نتيجة الفهم القاصر الذي لم يستطع أن يرى أن الانسان لن يكون فالحاً عند الله ما لم يكن فالحاً في تعامله مع أخيه الانسان، فجوهر الأديان العمل على إيجاد مجتمعات بشرية تكرس إنسانية الانسان، مما أحال هذه القيم الدينية الى إيمان قاصر، لم ير في الإنسان إلا هذا الصراع الأزلي بين الرحمن والشيطان على مستوى الروح، والذي هدفه استمالة بني الانسان، وساحته عقول وقلوب وضمائر هذا المخلوق المضيع والمشتت، بالتالي فإن اختزال الانسان الى إنسان رحماني أو إنسان شيطاني، ضيع إنسانيته وانتماءه الى

جذره، وأزاح من المعادلة الانسان الانساني الذي يختزن ميزاته وقدراته فيه، لافيما يستمده من خارجه. وهذا مانتج عنه الاتصال بالهرمسية التي لاتجد الالوهة خارج الإنسان، ثم الحلولية والمذاهب الصوفية: «إننا لانعمل إلا على تضليل أنفسنا حين نبحث خارجنا عما هو في الحقيقة داخلنا (الله) »(٥). هذا النص الهرمسي الذي ينقله د. (محمد عابد الجابري)، يوحي باهتمام المؤمن بالبحث عما يعوض له مافتقده.

إن الاصطفائية والتفضيلية التي كرسها ورثة الحواريين والصحابة والرهط المقربين، قد ضحت بأهم مبدأ من مبادئ الأديان السماوية، وهي مبدأ المساواة الذي بشرت به هذه الأديان وجاءت رداً على منتهكيه، من هنا تنبع انسانيتها وجاذبيتها، ومن هنا أيضاً كان على المتعاطين في الشأن الديني أن يبرزوا هذه الصفة بالتخلي عن نظرة التعالي والايحاء بأن الله اصطفاهم وأنهم ورثة الحواريين والصحابة شهود التدشين جيلاً بعد جيل.

وبالعودة الى اليهود واليهودية، نجد أن العامل السياسي لعب دوراً مميزاً في حياة اليهود وانتشار اليهودية، أو تحولها الى اتجاهات إيمانية، بدا واضحاً وجلياً فيها أثر البيئات والشعوب التي عاش اليهود فيها في كل أنحاء العالم، والملاحظة الايمانية المبدئية هي الانغلاق الذي تعيشه هذه الديانة، من حيث قبول الآخر والانفتاح عليه، والدخول والخروج إليها ومنها، وقد انعكس هذا الانغلاق على حياة اليهود الاجتماعية، فأدى الى عزلة كرست الانغلاق الايماني، وكان تأثرهم وتأثيرهم في البيئات، تكريس جو الشحناء، خاصة في المجتمعات الغربية.

لكن أثر السياسة والبيئة التي ينتشر فيها أي دين من الأديان، سيظهر بشكل أو بآخر من خلال العناصر العبادية والطقوسية التي تتسلل الى عبادات وطقوس ومعتقدات هذا الدين أو ذاك، والتي قد تتطور عبر الأيام لتصنع تياراً إيمانياً، وجماعة إيمانية لها شيء من التمايز عن غيرها، لكن هذه العوامل، تلعب أدواراً مختلفة بالتالي يكون تمظهر تأثيراتها مختلفاً. وإذا كانت التوراة - كما أوضحنا - قد أسست لتأثير المؤثرات الخارجية، بايرادها للاشارات المتعددة الى تأثير ديانات البيئة في الكثير من العناصر والشخصيات اليهودية العالية المستوى، ونوهت بمن انحرفت قلوبهم عن إلههم (يهوه)، فإن التوراة قد أغلقت وتم اكتمالها عبر صياغتها النهائية من قبل

أحبار اليهود، الذين لم يتخلوا عن مهامهم في حماية الأسيجة وزيادة متانتها لإحكام الانغلاق، فبقيت آراؤهم وتوجيهاتهم الايمانية والعقيدية تتوالى، وبقيت تفرض على شعبهم زيادة في التجييش، فيزداد التعصب وتشتد العزلة والانغلاق. يبرز ذلك واضحاً فيما سمي بعد ذلك بـ «التلمود» وكأن التوراة بما تحتويه لم تكف، والتلمود أيضاً تلمودان، تلمود فلسطيني، وتلمود بابلي[٦]. هذا الكتاب بصفحاته التي قد تربو على ستة آلاف صفحة، تضمنت مزيجاً هائلاً من العادات وتجارب الحياة والآراء والمصالح، التي أصبح اليهودي المؤمن يوظفها في تعصبه وانغلاقه وفي علاقاته التمييزية العنصرية مع الشعوب، وقد أصبح جزءاً لايتجزأ من أقدس مافي التراث اليهودي، وبدخوله عالم القداسة ساهم مساهمة كبيرة في صياغة الشخصية الايمانية اليهودية. والتلمود نص ايماني بجدارة، لأنه كتاب وضعي يحاكي الكتب المقدسة، وقد اكتسب القداسة كما اكتسبها غيره من الكتب في جميع الديانات ولدى جميع التيارات الايمانية.

وهذا الكتاب بقي يستمد من التوراة أسلوبها في بناء الشخصية اليهودية المؤمنة، حتى كثرت علامات الاستفهام على هذه الشخصية، وقد عكف الدارسون على توضيح الشخصية الفضائحية للكتابين من ذلك مافعله د. (جيورجي كنعان) في كتابه «أمجاذ اسرائيل» وغيره من الدراسات، ومن بحور الأمثلة التي استمدها المؤلف من التوراة وناقشها مبيناً فضائحيتها على ما للكتاب من مكانة قدسية رفيعة، يشير الى استخدام ابراهيم (ابرام) زوجته (سارة) للحصول على مكاسب مادية، مضحياً بالجانب الأخلاقي أكثر من مرة، فقد قال عن زوجته أنها أخته وأوصاها أن تقول ذلك، ليحصل على رضا فرعون الذي أخذ سارة إليه[٧]. وكرر إبرام التجربة مع أبي مالك، ملك جرار الفلسطيني، حيث أدعى وطلب منها أن تدعي (سارة) أنها أخته، كي يحظى بخير أبي مالك، غير مبالٍ بالنتائج الأخلاقية[٨]. وتكرر الدرس ذاته ثالثة مع «رفقه» كنة سارة وزوجة اسحق، كذلك مع أبي مالك، ملك جرار حيث قال عنها اسحق إنها أخته مضحياً بالقيم الأخلاقية في سبيل المصالح النفعية[٩].

والتوراة التي بين أيدينا تعج بالدروس المنتمية الى العقل النفعي (البراغماتي) الذي يوظف الايمان ولايتورع عن الاقدام على أي عمل في سبيل المصالح، وهي دروس

تتعلم منها الأجيال المؤمنة، وقد تعلمت فعلاً، فيعقوب يخدع أخاه عيسو ويأخذ بكوريته في عملية خداعية سافرة، ومؤامرة واضحة أوردتها التوراة، ويعقوب (اسرائيل) يستولي على غنم خاله الذي كرمه وزوجه بنتيه، أيضاً بالخديعة، ورأوبين بكر يعقوب يضاجع بلهة زوجة أبيه، هذه الحكايات وآلاف غيرها توردها التوراة، لتتعلم منها أجيال (شعب الله المختار) المؤمنة، وقد وثقتها التوراة ومن بعدها التلمود، لتكتسب أعلى درجات القدسية، وهذا السيل من الحكايات مفروضة على عقول الناس ووجداناتهم، في كتاب تأسست الدراسات التاريخية وغيرها بناء على معطياته، فأي تاريخ تعتز به البشرية هذا؟! وأية مصداقية لمثل هذا التاريخ؟! وأية ميزات للشخصية المؤمنة سينتجها الاعتماد عليه؟.

لقد برز اليهودي في تاريخ المجتمعات البشرية التي عاش فيها مرابياً، وعلم ذلك لغيره من الشعوب كما سنرى، وايمانه يسعفه في مثل هذا الاستغلال السافر، والايمان اليهودي أيضاً إيمان عنصري سافر ارتبط بقبيلة بني اسرائيل التي احتكرت حتى إلهها (يهوه). إذاً كان الاعتماد على التراث اليهودي خير معين لليهود خلال التاريخ في الأشكال الايمانية التي ظهرت بينهم.

من أبرز الحركات الايمانية التي ظهرت في إطار الدين اليهودي هي الحركة الصوفية (القبالة) أو فلسفة القبالة، التي كانت فلسفة ونمط تفكير وايمان يقول عنها د. (الصادق النيهوم)، إنها فلسفة تنتمي الى الكنعانية وأن اليهود استحلوا لأنفسهم حروف الأبجدية الكنعانية، وأصبحوا الورثة غير الشرعيين لحضارة الكنعانيين وأراضيهم، وحولوا القبالة الى نوع من السحر والشعوذة، وبقيت القبالة الحقيقية ضائعة، وقد تحولت على يد اليهود الى مذهب صوفي في حين أنها في حقيقتها ليست صوفية، بل منهج يسعى لتنمية وعي المواطن بتدريبه على اكتشاف قدراته العقلية[١٠]. وهذه القبالة يصفها د. (عبد الوهاب المسيري) بالصوفية الحلولية «وجوهر حلولية القبالة قولها: إن الخالق يحل في المخلوقات، والمخلوقات هم أساساً الشعب اليهودي»[١١].

وسواء كانت هذه القبالة كنعانية أو عبرية، وسواء كانت حلولية أو لا، فإنها تمثل أحد انبثاقات العقل الايماني اليهودي وتجلياته، مثلها مثل إحياء البرجوازية اليهودية

للشعور الديني وتحويله الى وسيلة للتحالف والسيطرة مع بقاء التمايز، بينها وبين البورجوازية الأوربية، وقد جعلت هذه البورجوازية (الصهيونية) الدين غطاء لما هو خارج على الدين، ويندرج في سلم المصالح، كما علمتهم التوراة. ولاتزال المرتكزات الايمانية منطلقاً لاستغلال الآخرين (الغوييم) في أبشع عمليات استغلال ونهب للشعوب، ولقد برزت الصهيونية الدينية (الايمانية) قبل السياسية ومنطلقاً لها.

ويشير أديب ديمتري الى أن فرقة المتصوفة المعروفة بـ «الحصيدية» والتي هي فرقة أو اتجاه ايماني تحت لواء اليهودية، انتشرت على يد حاخامين متبحرين في الطرق الصوفية الباطنية، أو (القبالة)، وهي فرقة شابها الكثير من ضروب البدع والخرافات وادعاء الخوارق والمعجزات وعلم الغيب، مع أنها مثلت شكلاً من أشكال التمرد على الغيتو[١٢]، وقد كان هذا في منتصف القرن الثامن عشر، وقد انتشرت في تلك الفترة بأوربا فرق سبتية ومسيحيانية وشاعت الفوضى والالحاد[١٣].

هذه الحركات الايمانية كانت تأخذ اسماء متعددة فتارة تنتشر تحت راية الاصلاح الديني اليهودي الذي تأثر بالاصلاح المسيحي السابق له، وإحدى أشهر حركات الاصلاح في إطار اليهودية الأوربية كانت الحركة التي قادها «موسى مندلسون» ضد سلطة الحاخامات كما كانت ثورة لوثروكالفن في المسيحية ضد الكنيسة[١٤].

وقد سميت حركة الاصلاح اليهودية التنويرية (الهسكلاة أو الهسكالا) ومعناها الحكمة أو الفهم، وهي تستخدم بمعنى التنوير أو تثقيف العقل أو الليبرالية، وقد انتشرت في أوربا بين ١٧٥٠ - ١٨٨٠م[١٥]. والملاحظ أن كل حركة اصلاح سواء في اطار اليهودية أو غيرها من الديانات، تدعي أنها تنويرية، وانها هي التي تمثل الخط الارثوذكسي وتحارب الانحراف والهرطقة أي إنها توجهات إيمانية.

هذه الحركة الدينية الاصلاحية اليهودية دعت الى اندماج اليهود بمجتمعاتهم الغربية، وهذه تعتبر فكرة ثورية تدعو الى هجر عقيدة الغيتو وعقلية الغيتو التي تشكلت عبر علاقة اليهود بالمجتمعات التي عاشوا فيها والتعصب الذي مارسوه هم ومارسه الآخرون عليهم حتى أصبحت الشخصية اليهودية رديفة للانغلاق والتعصب، بالتالي الحقد والكراهية، وقد شجعت هذه الحركة الاصلاحية الزواج المختلط مع طوائف أخرى واعتماد اللغات الوطنية في العبادة[١٦].

في الوقت ذاته كانت هناك أصوات تثبت النظرة العنصرية، وتحفر مجاري التعصب، من أشهر هذه الأصوات، رائد الصهيونية العنصرية «موسى هس» الذي توفي عام ١٨٧٥م(١٧). والذي كان يرى أن الفرقة الحصيدية هي الأشد والأكثر انغلاقاً ومحافظة في تاريخ اليهودية. ولاشك أن الصهيونية كانت دعوة خلاقة استطاعت كاتجاه ايماني تعصبي عنصري أن تخلق شعباً يفتقر للكثير من عناصر اللحمة، كما أنشأت دولة ومجتمعاً.

واليهودية لاتزال حتى يومنا هذا تفرّخ الكتل الايمانية التي تقوم ككل السلفيات في الأديان الأخرى على احياء ماضيها الايماني التليد، لكنها تأخذ في اسرائيل، بعداً أكبر من حيث قدرتها على التأثير في المجتمع والسياسة، بشكل مباشر أكثر، ومن أمثلة ذلك، جماعة كاهانا وغوش ايمونيم، وحراس الهيكل، وكاخ وغيرها، وكل هذه الحركات تقوم على أساس التجييش الطائفي والديني التعصبي الذي يقوم على نفي الآخر.

وهذا العقل الايماني اليهودي لايزال يستحضر من أعماق تاريخه كل مايسعفه في الاستنفار الايماني وبقاء جذوته متقدة، فغذاؤه الروحي يقوم على أساس التمايز التعصبي مع الشعوب، ويستغل كل مناسبة لذلك، فلا يزال اليهودي يحتفل بأعياد ومناسبات دينية، ويبرز تشدده في إيلاء الجانب الايماني في هذه الاحتفالات الأهمية الكبرى، ولاتزال الرموز تحفز الوجدان، وتثبت الايديولوجية الصهيونية، ويتم استحضارها في مناسباتها، فاليهودي يحتفل في /١٤/ نيسان ولمدة ثمانية أيام من كل عام، بعيد الفصح اليهودي الذي يسمونه عيد الخبز الفطير، لأنهم يحتفلون فيه بذكرى فرارهم من مصر، حيث يقولون إنهم لم يستطيعوا خبز عجينهم فحملوه معهم فطيراً لم يتم تخمره، وقد تحول الى رمز ايماني يتم استحضاره باستمرار(١٨). وقد اتهم المسيحيون الأوربيون اليهود باختطاف الأطفال ليقدموهم قرباناً الى يهوه، أو ليتخذوا دماءهم دواء، أو ليستعملوها في صنع خبزهم الفطير في عيد فصحهم، كما اتهموا بتسميم الآبار التي يشرب منها المسيحيون، وهذا ما أدى الى قيام مذابح بشعة لليهود على يد المسيحيين في أواخر القرن الحادي عشر أو على امتداد التاريخ اليهودي والعلاقة مع العالم المسيحي(١٩).

وقد كان اليهودي يلجأ الى الدهاء ليتقي الأذى الذي كان يلقاه من الأوربيين(٢٠).

ولما كان الهدف مما تقدم ليس التأريخ لدين ما، ولتحولاته وتشعباته وانقساماته وعلاقاته المستحدثة مع غيره من الأديان، فإننا نتوقف هنا لنشير الى أن ما ذكرناه جاء للتدليل على أن الدين لم يحافظ على نفسه كما بدا عند اكتماله، كما لم يحافظ على خط تطوري واحد وثابت يطلق عليه خط الدين الفلاني، بل إن الصراعات وعلاقات الفرق الناشئة عن هذه الصراعات ببعضها وعلاقتها بأبناء الأديان الأخرى أوجدت خطوطاً تقترب وتبتعد عن الدين الأساس، حسب ما اقتضته مصالحها وظروف حياتها وعلاقاتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وتتغير شدة التمسك بالدين ضعفاً أو قوة حسب ظروف الحياة، من الرخاء الى الشدة، ومن العداء الى الوفاق، ومن العلنية الى السرية، ومن البساطة الى التعقيد، وكل هذه المتغيرات تحمل جديدها الى الدين، هذا الجديد المتحصل من الاحتكاك الثقافي بالآخرين، ومن ظروف الحياة الأخرى، حتى ليكاد الجديد أو العناصر الدخيلة على مذهب من مذاهب أحد الأديان تغلب على ماهو أصيل ومنتمٍ الى هذا الدين، وكثيراً ما يتم اللجوء الى السرية والتهويل بعذاب الآخرة الذي ينتظر المخالفين لاخضاع الناس وجعلهم ينصاعون فـ «كثيراً مايكون التهويل في القول ضرورياً لالقاء الهيبة في أذهان الشعب، فكلما قل إدراكه زاد عجبه» (هذه العبارة حفظتها بنصها منذ زمن طويل، وقد أوردها مؤلف كتاب عن التقمص على مذهب الموحدين الدروز، وقد نسيت اسم مؤلفه كما نسيت العنوان الحقيقي للكتاب، والعبارة منسوبة الى القديس غريغوريوس النازياني).

لقد كانت حياة اليهود عرضة لكل المؤثرات بسبب تشتتهم واحتكاكهم بالشعوب والأديان والثقافات الأخرى وكان لها الغلبة العددية والسلطوية في مواقع الاحتكاك، مع ما كان هناك من تنوع مذهبي يفرض نفسه. هذا الاحتكاك أتاح لهم حركة تثاقف أدت الى تغيير في الايمان اليهودي الأساسي الأول، وتعددت مللهم وطوائفهم وتمايزت عن بعضها، وتمايزها لم يكن بالتعاليم الأساسية لأنها واحدة لاتتغير، بل تم التمايز بما دخل على قنواتهم الايمانية الدينية من مؤثرات، وهذا التثاقف، وهذه المؤثرات ليست حكراً عليهم، ولم يخضعوا لها وحدهم، بل جرت على مستوى كل الشعوب والأديان، وسنرى أنه لم ينج منها دين أو مذهب، ولقد مر معنا كيف أن حركة الاصلاح الديني

اليهودي تأثرت بحركة الإصلاح الديني المسيحي في أوربا، وقلدتها ربما في محاولة كسر الجمود، في مثل هذه الحركات يمكن أن تتسلل العناصر الخارجية الى إيمان الناس وتحصل خطوط إيمانية مشبعة بفكر آخر دخيل، لايلبث أن يصبح جزءاً من اتجاهات حديثة تأخذ مجراها في الحياة، من ذلك ماهو متأصل يأخذ مداه في صياغة حياة الناس وقوانينها ونظمها ومنها ماهو شفهي متوارث ولكنه ذو تأثير لاينكر.

٢ - في حقل المسيحية

إن انبثاق المسيحية من حضن اليهودية، يشير أنها جاءت في الأساس استجابة لدواعٍ استدعتها، في الوسط الذي ظهرت فيه، وكأن التجربة أثبتت أن اليهودية خلال القرون التي سبقت المسيحية لم تستطع سد حاجات المجتمع الذي انتشرت فيه. إذاً كانت المسيحية عملاً خارقاً، جاء لاصلاح خلل، ولتدارك ماتم إهماله من جزئيات في سياق الحياة. فاليهودية اتسمت بصرامة تشريعها، وقسوة عقوباتها، ومن هنا فقد أثبتت الحياة أنها بحاجة الى فسحة أكبر من الرحمة والمحبة والتسامح، وأن هذه القيم هي أقرب الى تركيب النفس الانسانية، بالتالي لهما دورها الفاعل في الحياة الاجتماعية. وكانت سيرة السيد المسيح وحياته القصيرة، تجسيداً للمعاني التي تتوق إليها النفس البشرية، وتعتبرها من مقومات الحياة الحرة الكريمة، إذاً جاءت تكرس السلوك النقيض، والخروج من عبودية الغرائز، جاءت نقيضاً للكراهية والحقد والجشع وغيرها من القيم الرديئة التي بقيت سائدة في مجتمع سيطرت عليه اليهودية ردحاً طويلاً من الزمن. إذاً كان الخروج من عبودية التملك وشهوته الضاغطة على حياة الانسان الى رحابة الحياة الحرة حيث لاتضغط الشهوات والغرائز، فتحقق الحياة أكثر معاني الإنسانية إشراقاً. وقد أشرنا سابقاً كيف أراد السيد المسيح من خلال سلوكه أن يعلم الناس القيم الايجابية الرفيعة، فتخليه عن أملاكه التي كانت كوزاً يستخدمه في الشرب ومشطاً يمشط به لحيته، عندما وجد أن الحياة يمكن أن تستمر بدونهما، إنما هو عمل تعليمي، أراد أن يعلم الآخرين كيف يخرجون من عبودية المادة، الى رحاب حرية أعمق، وأقل استلاباً، وقد عزز هذا الموقف بتعاليم لاتزال الانسانية ترددها عندما تستعيد أجواء الرحمة مثل قوله: «إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الابرة من أن

يدخل الغني ملكوت الله» متى ١٩:٢٤. ويشير سمير عبده الى أن كلمة الجمل هي في الأصل (كملا) بفتح الكاف وتعني حبل السفن، وهذا ما قصده الرسول متى، وهذا المعنى منطقي أكثر، إلا أن الذي راج لفظ (الجمل) حيث فهمت (كملا) بضم الكاف بمعنى حيوان الجمل[٢١].

لقد وجدت حياة المسيح وما جسدته من معان الكثيرين ممن تحدثوا عنها واستخرجوا معاني ودلالات ودروساً من هذه الحياة، كما درست تعاليمه التي تأسست عليها الديانة المسيحية ذات الانتشار العالمي الواسع، والمسيحية الآن أصبحت مسيحيات، فمن أين جاءت هذه المسيحيات كلها؟ وكم بقي من المسيحية الحق فيها؟ إن هذا التشظي يحيلنا الى التفارق بين الممارسات وبين النظرية، وهو الأسّ في تعطيل فاعلية أعظم المبادئ في الكون سواء كانت المبادئ سماوية أو وضعية.

لقد جاءت كل هذه المسيحيات من الفهم المختلف الذي آلت إليه المسيحية الأم، هذا الفهم المتحصل من الفروق بين الشخصيات وقدراتها وميولها وثقافاتها، كما هو آت من حياة الشعوب والمؤثرات الفاعلة فيها، كما من الموروث عندها، ومن الاحتكاك والتثاقف، ومن العادات والمصالح والسياسات، كما هي حاصلة من نتائج صراع السيوف ومنطق الغلبة.

وماتقدم أدى الى هذا التنوع الشديد، والى وجود مذاهب شتى في إطار المسيحية، هذا التنوع يبرزه تنوع الكنائس وتعددها، فالكنائس المسيحية تحمل خصائص قومية وعرقية ومناطقية، آيلة عن انتشارها، وطرق تلقي الشعوب لها وفهمهم إياها، بالتالي فإن الديانة الواحدة التي تفترض عبادة واحدة، أصبحت ديانات وعبادات، كلها لها شرعيتها التي ليست محل شك، ولكل منها نكهتها وخصوصيتها وثقافاتها الشفهية والكتابية وعاداتها ورموزها، ويشير سمير عبده الى أن عدد الكنائس المتواجدة في سوريا، والتي يقدم لمحة موجزة عنها، (مع الأخذ بعين الاعتبار أن سورية ليست بلداً تغلب عليه الديانة المسيحية، بل يعتبر المسيحيون أقلية وطنية متجذرة) هو اثنتا عشرة كنيسة أصيلة[٢٢]، غير مايتواجد من رعايا كنائس أخرى والكنيسة هنا قد تعني مذهباً، أو ملة، أو فهماً له خصوصيته، أي بمنطق بحثنا توجهاً إيمانياً يتشارك مع غيره بعناصر ما، ويحافظ على عناصر من تلك التي بشرت بها المسيحية في أولياتها بنسبة

ما، ولكنه يحافظ على قيم التغاير التي كانت السبب في وجوده، ولولاها لفقد مبررات هذا الوجود، ولم يعد في مقدور أحد الاعتراض على ذلك أو انكاره.

الكنائس المتعددة هي قراءات متعددة لدين واحد هو المسيحية، قراءات مغرضة (بمعنى أنها تجري على ضوء ثقافة وظروف وقناعات من قاموا بها) إنها قراءات تلوينية (والمصطلح مأخوذ من كتاب نصر حامد أبو زيد «نقد الخطاب الديني» حيث يشير الى القراءات ذات الطابع الخاص لنصوص الدين، تحديداً الاسلام)، هذه القراءات المغرضة أو التلوينية والتي ترتب عليها مذاهب أو كنائس لها طقوسها وحياتها الدينية المستقلة والمتمايزة، والتمايز يبدأ من الأزياء حتى الأعياد والقديسين والقوانين الكنيسية والعادات وغير ذلك، هي التي نعنيها بقولنا جماعات إيمانية قد تفصح عن خلافاتها برموز وتصرفات بسيطة، وعادات منها مايلفت الانتباه ومنها لا، ولكنها ذات فعل كبير في أرض الواقع وحياة الناس، فطريقة رسم الصليب باشارة من اليد تحدد الانتماء الطائفي لشخص ما، وهذا ليس المهم، بل المهم أنها تحدد طريقة التعامل مع هذا الشخص، من هنا يبدو الأثر الحياتي للتوجه الايماني، فأثناء تواجدي في منزل مسيحي في لبنان، دخل شخص مسيحي آخر دل عليه اسمه المسيحي (جورج)، ولما لم يرغب أن يفصح عن مذهبه أو طائفته المسيحية بشكل فج، جاءت الفجاجة من زوجة المضيف (صاحبة المنزل)، عندما طلبت الى الضيف أن يعرف على طائفته، ولما رفض طالبته أن يرسم إشارة صليب، وعندما تساءلتُ بعد ذلك عن الهدف، قيل لي إنها تعرف انتماءه الطائفي من طريقه رسمه للصليب بحركة من يده.

إن الحفاظ على التمايز في تاريخ الأديان ومذاهبها كان مكلفاً، فالمؤمنون الارثوذكس المتصلبون في كل دين، والذين يحسنون الترادف على مؤدلجيهم، كانوا مستعدين للتضحية باستمرار في سبيل مبادئهم وقناعاتهم الايمانية، وخصوصياتهم الطائفية التي تحمل عناصر عدوانية، وإلا، كيف نشأت كل هذه الحروب في تاريخ الأديان؟! حروب داخلية في إطار الدين الواحد بين المذاهب، وحروب خارجية مع أديان أخرى. وكيف سالت كل هذه الدماء، وأتيح لكل هؤلاء الأبطال المؤمنين أن يحصلوا على الشهادة ويتحولوا الى قديسين؟! إنه لشيء منفّر أن يكلل المجد هامة من يقتل بني الانسان! وكل ذلك باسم الله أو نيابة عنه! وكلما أوغل الإنسان المؤمن في القتل

والحقد، قيل له أو تخيل أنه أقرب الى الله. هكذا يقول التاريخ، تاريخ الشعوب المصطبغ بالحمرة! وإذا انطلقنا من تعاليم المسيح أو غيره من الأنبياء في التأسيس لتساؤل تضج به الرؤوس: كيف اجتمع الحقد والكراهية ونفي الآخر وقتله مع القيم الإنسانية الرفيعة التي بشر بها الأنبياء لتكوين المؤمن؟ وهل المؤمنون وطرائقهم إلا صوراً بشكل أو آخر لهذه القيم الرديئة إذا وجدت لها مكاناً في قلوبهم وعقولهم؟.

هذه التشعبات الايمانية، وهذه المناخات الايمانية هي التي صنعت هذا العقل الايماني ذي الجبروت، وإطلاق العقل على هذه المنظومة يحمل معنى زائفاً من وجهة نظر ما، ومن المفهوم السائد للعقل اجتماعاً. في حين أن العقل بمفهومه المجرد محايد، وهو «يتمظهر بكونه فعل تطلع الى الحقيقة وإدراك لها، أي بكونه القوة الطبيعية السامية التي يمتلكها الانسان للقبض على الحقيقة، أو لانتاجها. والعقل يتعرف على نفسه بكونه طاقة حرة وسيدة في مجال الكشف عن الحقيقة وتكوين المعرفة الصحيحة»(٢٣) إن التعريف السابق يندرج في إطار النظرة المعيارية للعقل، فنراه طاقة خلاقة. في حين أن الدكتور (محمد عابد الجابري) يرى العقل نظاماً معرفياً تقرأ على ضوئه الأحداث والأفكار، وإن الثقافة إطار يتجلى فيه العقل، وبالتالي هي المجال الأساس لمعرفة عقل ما(٢٤)، وباعتبار العقل الايماني هو المنتج لثقافات شعبية متنوعة بتنوع الطوائف والملل، فإن الثقافة الشعبية شفهية أو كتابية هي الإطار الضابط لهذا العقل، مع قلة ضوابطه وضعفها.

من هنا – والحديث لايعني الثقافة أو الثقافات المسيحية وحدها – كان لابد من القاء نظرة، أو إعطاء فكرة عن التمزقات والانقسامات التي حدثت في إطار الأديان، والتي أعطت كل هذا التنوع الثقافي الذي ينظمه عقل إيماني أو عقول إيمانية.

من هنا أيضاً تبدو الإشارة الى التمايزات الحاصلة في الثقافة المسيحية، منذ بدأت بالانقسام الى مسيحية شرقية ومسيحية غربية، لكل منها تلوناتها وتعرجاتها، بالتالي ثقافاتها وعقلها. ويعتبر عام /٤٥١م/ هو عام انقسام الكنائس المسيحية الأربع الكبرى الى مجموعتين على إثر انتهاء عمل المجمع الخلقيدوني في ذلك العام، ثم بدأ التفرع والانقسام بعد ذلك(٢٥) . ويشير سمير عبده قبل ذلك الى أن آراء واتجاهات مذهبية مسيحية ظهرت سابقاً، وأن النسطورية تعود الى أوائل القرن الخامس الميلادي(٢٦).

والآن نحن أمام هذا الغنى والكم من الكنائس والمذاهب والاتجاهات التي تحمل معاني النعمة، مثلما قد تحمل معاني النقمة، كما لايخفى. وإذا كان النساطرة قد اثبتوا للمسيح خصائص بشرية في الوجود والارادة والفعل، فإن اليعاقبة أكدوا على وحدة المسيح الالهية[٢٧]. وقد كانت هذه الانقسامات على أرضنا العربية، أو بعض هذه الانقسامات، وهنا تأثير الفيثاغورية المحدثة في تكوين اتجاهات وتيارات إيمانية، ليس في إطار المسيحية فقط بل في إطار الإسلام أيضاً، تجلى في الحلولية والتصوف، وهذا ماجعل الجابري يدرسه تحت عنوان «العقل المستقيل»[٢٨].

وقد أشرنا سابقاً الى المانوية كاتجاه إيماني كان يطمح الى إنشاء دين جديد، وقد حقق انتشاراً واسعاً، امتد من اسبانيا غرباً الى الصين شرقاً، وتشير الدراسات الحديثة الى هذا الانتشار، وقد تأثر هذا (الدين القديم الجديد)، بالمسيحية والبوذية والزرادشية واعتمد الغنوصية[٢٩].

مع أن القرون الأولى لظهور المسيحية، كانت قرون الانتشار، وتثبيت العقيدة الجديدة ونشرها، ومع أن الكثير من الجهد بذل من قبل أجيال المؤمنين المتفانية لنشر المسيحية، مما استدعي طوابير الشهداء على هذا الطريق، فإن ذلك لم يمنع من انتشار آراء كثيرة أدت الى تكوين طوائف وطرق وأساليب إيمانية مجددة، وقد كانت كل طائفة أو جماعة تغير في طقوسها وعاداتها المرتبطة بالممارسة الدينية، وكل طائفة تخلق قديسيها، وتوجب احترامهم، وكل هذا أوجد المناخات الايمانية الشعبية التي شكلت العقول الطائفية تشكيلاً إيمانياً يختلف بين طائفة وأخرى، وهذا مايجعله يتفارق عن العقل الديني المنتمي فقط الى التعاليم الأساسية قبل الانقسام، أي قبل الطوائف والملل والشيع، إن كان هناك ماقبلها.

في هذا المناخ كانت الظروف تقتضي التشدد أحياناً، خاصة في ظروف المواجهة، وتثبيت العقيدة في مواجهة العقائد الأخرى، وكانت إرادة التمايز تفرض ذلك، ولكن في أوقات الاستقرار يتم التراخي، وتتبدل القيم، فما لايكون مقبولاً زمن الشدة، قد يصبح مقبولاً زمن الأمن والطمأنينة، وهذا مايجعل التسامح يسود، ولايلبس التسامح أن ينقلب الى التراخي فالتسيب، وفي هذه الظروف تكثر البدع والخرافات، هذه الخروجات، يرعاها العقل الايماني، الذي يقطع مع العقل العلمي والنقدي، كما يقطع مع

الدين في نواح كثيرة، في ظل سيادة الجهل، بالرغم من انتمائه أساساً إليه، وتفرعه عنه، ولكن القطع بمعنى عدم انتماء كل وافد أو أي وافد الى التعاليم والقيم الأساسية للدين، بالاضافة الى البعد عن قيمه الأخلاقية.

فقد كان تقي وورع رجال الدين يشوبه الكثير من التراخي، ويقول ول ديورانت إنه يستطيع أن يثبت ذلك بما يضربه من مئات الأمثلة[٢٠]. ويشير الى أن الكثير منهم انغمس بالدعارة واللواط والفسق والشره وبيع الوظائف وسموا «خدم الشيطان» وأن أديرة الرجال والنساء كانت قريبة حيث يسمح ذلك لمن فيها بالاشتراك من حين الى آخر في فراش واحد، ويثبت ذلك المجلدات العديدة التي تحوي المحاكمات بسبب الاتصال الجنسي بين الرهبان والراهبات والتي لاتزال محفوظة في الأديرة[٢١].

مثل هذه الروايات عن واقع الدين والايمان في أوربا كما أورثتها العصور الوسطى الى عصر النهضة، كثيرة حتى أن ديورانت يفرد باباً كاملاً أو أبواباً في كل مجلد من مجلدات سفره الضخم (قصة الحضارة) لما سماه «الانحلال الاخلاقي»، ففي الجزء الرابع من المجلد الخامس من الكتاب يشير كثيراً الى الأولاد غير الشرعيين المنتشرين في كافة طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العليا، ورجال الدين أيضاً، حيث يرى بعضهم وصل الى كرسي البابوية وله أولاد غير شرعيين، وإذا كانت هذه أخلاق رجال الدين الذين وصل بهم إيمانهم الزائف الى هذا الادراك، فما بالك بعامة المؤمنين؟! وماذا يبقى من الأديان عندما تتحول الى حقول إيمانية ترضى وتسكت عن وتسوغ الانحلال؟!.

ولما كان أكبر وأعظم وأسمى الأهداف التي تسعى الأديان لتحقيقها هي إيجاد مجتمعات تسود فيها القيم الرفيعة، والأخلاق الحميدة في جميع النواحي، فإن ما وصلت إليه حالة المؤمنين في العصور الوسطى في أوربا كما يصورها ول ديورانت، توحي بأن هذه المجتمعات المؤمنة قد وضعت الدين (الأخلاق) جانباً، لتعيش إيمانها الخاص وأهوءها الخاصة التي تسوغ لها أسوأ ما سجلته البشرية في قواميسها الأخلاقية، فقد أصبح المسؤولون الدينيون مجبرين على غض النظر عن الزنا والدعارة واللواط والأبناء غير الشرعيين عند كافة الطبقات حتى رجال الدين أنفسهم، كما أصبحت السرقة والرشوة والدسائس والخداع والتحايل للوصول الى الأهداف بأي شكل، وبأي ثمن من أساسيات القاموس الأخلاقي للمجتمع، مجتمع المؤمنين الذين تقوم على

حراستهم السلطة الغاشمة للكنيسة مدعومة بأقذر محاكم عرفها التاريخ وهي: «محاكم التفتيش».

وفي مجال أخلاقي آخر هو المجال المالي يقول ديورانت إن الربا قد بلغ من الانتشار حداً جعل البابا «أنوسنت الثالث» يجهر عام ١٢٠٨م بأنه لو طرد جميع المرابين من الكنيسة كما يتطلب ذلك القانون الكنسي لوجب إغلاق الكنائس جميعها[٢٢]. هنا نتذكر الاشارة الى العقل الربوي اليهودي الذي كان منتشراً في أوربا، فلقد انتقلت العدوى وأصبحت شهية الملك لا بل شراهة هذه الشهية، قد لامست الكنيسة كمؤسسة، فقد أصبحت الكنيسة أعظم قوة مالية في العالم[٢٣]. وقد مر وقت كانت الكنيسة فيه تمتلك ربع أرض فرنسا[٢٤]. فأي انسجام حاصل بين تعاليم السيد المسيح وورثة تعاليمه؟! وأي انتماء الى المسيحية هذا؟.

لاننسى أن هذه المرحلة الايمانية التي مرت بها أوربا قد شهدت أعظم مراحل التجييش الايماني وتوقد المشاعر الدينية، مما اقتضى تنظيم الحروب الصليبية (الايمانية) على المشرق العربي والتي استمرت قرنين من الزمن، وهي حروب استعمارية بجدارة، اكتسبت الاسم الايماني والسمعة والهدف الايمانيين المعلنين لتغطية مضامين وأهداف حقيقية.

ومن الطبيعي جداً أن نجد صورة إيجابية للممارسة الدينية الايمانية، ينسجم فيها المبدأ والتطبيق ويعيشها الكثير ممن لاتزال مسيحيتهم نقية، ويحافظون على نقائها، وهذه هي الحالة الطبيعية، والتي لاتستوقف الباحث الذي يرصد الخروج على المبادئ الصراطية، ولاشك كما أنه لمملكة الغرائز والشر من يشغلها، فكذلك لمملكة الطوبى من يشغلها. إن رصد التوجهات الايمانية ينطلق من استخدام مملكة الطوبى والتعاليم الصراطية والقيم الايجابية التي تذخر بها نصوص الأديان وتعاليمها، معبراً ومرتكزاً لتحقيق ما لاينتمي إليها ولاينسجم معها، ولا نستطيع إنكار وجوده أو تجاهل هذا الوجود في الواقع المعاش تاريخياً.

في هذه المرحلة ومن المظاهر الواضحة للعقل الايماني، كان التمييز الشديد الذي يمارس على اليهود في أوربا العصور الوسطى، حتى أن الأعمال الدنيئة والمرفوضة من قبل الآخرين، كانت تسند إليهم وكان يتم احتقارهم في كل مجال من مجالات الحياة مما

دفعهم الى التقوقع، ونشوء ماأصبح يعرف بـ «عقلية الغيتو»، حيث كان العمل في الجيوش أو الأعمال الشريفة والمحترمة محرماً على اليهود[٢٥]. هنا نشير الى تصادم العقول الإيمانية للجماعات المنتمية الى أديان مختلفة، في ظل العقائد المتصلبة وأجواء المشاحنة والبغضاء. فالعقل الايماني للجماعات الايمانية اليهودية، يصطدم بالعقل الايماني للجماعات الايمانية المسيحية في تلك المرحلة، وهذا التصادم هو الذي قاد عملية التمييز والاحتقار، وهنا يبدو واضحاً ما أشرنا إليه دائماً من أثر المصالح في تكوين قناعات إيمانية تشكل عناصر أساسية للعقل الموصوف.

ومن مظاهر العنف الموجه ضد اليهود كما أشرنا سابقاً، أنه قبل يوم واحد من رحيل كولومبس لاكتشاف أمريكا في /٣/ آب ١٤٩٢م تم طرد /٣٠٠.٠٠٠/ ثلاثمائة ألف يهودي من اسبانيا، وفي الأعوام ١٤٢٤ - ١٤٢٥م طرد من المدن التجارية الأكثر أهمية في ألمانيا اليهود الذين كانوا يعيشون فيها، وواجه اليهود المصير ذاته في ايطاليا في القرن السادس عشر[٢٦]. وكانت الادعاءات بأن اليهود يسممون مياه الشرب ويختطفون الأطفال وغيرها شائعة، وكلها للايقاع بهم وطردهم وقتلهم والتضييق عليهم.

ولما كنا لسنا بصدد الحديث عن التفرقة الدينية أو الطائفية، إلا بما يخدم إثبات فكرة وجود عقل إيماني قرأ الدين قراءة تلوينية مغرضة، فإننا ننصرف للإشارة الى بعض الانبثاقات التي حصلت لهذا العقل في التاريخ.

أدت الحركة الرومانسية التي نشأت في أوربا على أثر الحركة الكلاسيكية الى تغير النظرة للأمور في حياة الناس في أوربا، ومع أنها حركة برزت أكثر مابرزت على مستوى الفنون، كما عرفها العالم، إلا أنها أشاعت جواً على مستوى العقل والحياة، فقد أدت دوراً كبيراً في إسقاط وتراجع دور العقل وتأثيره، وهي التي جاءت على أنقاض عصر العقل، الذي تم نقده ونقض مقولاته، وإشاعة الركون الى الغرائز، والثقة بالعواطف والأحاسيس المبهمة، مما أعطى الدور للشاعر والقديس، وسحبه من العالم والفيلسوف، وأعطى القيم الايمانية فسحة كبيرة للنمو والتحرك، فقد كانت ثورة على المعايير الأخلاقية والجمالية الموروثة والجامدة، لقد كانت ثورة على جمود العقل الذي كان قد بدأ ثورته قبل ذلك، لقد أفسحت المجال لكثير من العادات والقيم الجديدة،

حتى الوثنية، بالعودة الى الحياة العامة وممارسة دورها[٣٧]. لقد وجدت هذه الدعوات الرافضة للعقل، والمبشرة بايمان القلب والعاطفة، دفعة قوية على يد المذهب الانجيلي الذي انتشر في انجلترا وأمريكا، إبان حركة الاحياء الديني في مستهل القرن التاسع عشر، وقد طرح الانجيليون المذهب العقلي (العقيم) جانباً، واستبدلوا بالبرهان العقلي التجربة الدينية المباشرة، تجربة الخلاص ونقاوة القلب[٣٨]. وتشكلت في عام ١٨٥٩ جمعيات منها «جمعية النهضة المسيحية» و «دكاكين الهداية» و «جيش الخلاص» البروتستانتي المقاتل في بريطانيا[٣٩].

إن الجمعيات والمناخات الايمانية المذكورة فيما سبق، قد أفادت ولاشك بشكل كبير من حركة الاصلاح الديني على يد كالفن ولوثر في القرن السادس عشر، وقد كانت حركة الاصلاح هذه، حركة إيمانية عظيمة بكل معنى الكلمة، فيما أدت إليه من نتائج، وما أشاعته من مناخات، وما تولد في إطار مسيرتها من حركات إيمانية، أشاعت أجواء جديدة، ادعت فيها العودة الى الأصول والنقاء، لكنها فتحت الباب عريضاً لحركات إيمانية تتناسل دون انقطاع.

لقد أورثت حركة الاصلاح العصر الحديث مناخاً انتشر فيه العقل الايماني انتشاراً لا سابق له، أضيف الى ماكان موجوداً على الساحة الايمانية. فقد نمت الأصولية الانجيلية في أمريكا نمواً كبيراً، وهي حركات دينية ايمانية مسيّسة، فهي مساندة لاسرائيل مساندة مطلقة، وصهيونيتها تفوق الصهيونية اليهودية في كثير من الأحيان، وتعتبر أن اسرائيل تحقيق لارادة إلهية، واسرائيل الحالية، هي اسرائيل الواردة في العهد القديم. ويعمل الدكتور (يوسف الحسن) على إثبات الجذور الصهيونية في المسيحية الأصولية الأوربية[٤٠]. كما يثبت التأصيل التاريخي للاتجاهات الصهيونية في المسيحية الأصولية الأمريكية[٤١]. وهذه الأصولية المسيحية مستمرة بقوة في أمريكا. فتحت عنوان (الكنيسة المرئية) يتحدث الدكتور الحسن عن استخدام البث الاذاعي والتلفزيوني لنشر أفكار الأصولية الأمريكية (البروتستانتية) لدعم الصهيونية واسرائيل، كما تسمى (الكنيسة الالكترونية)، ويثبت المؤلف سيطرة هذه الأصولية على الاعلام الديني الذي يشرف على البث التلفزيوني والاذاعي لآلاف المحطات الاذاعية والتلفزيونية، والسيطرة على شبكات من المجلات والصحف؛ كل ذلك يؤثر

على مئات الملايين من البشر، ويصنع الرأي العام الأمريكي والعالمي، ويدفعهما لمساندة الصهيونية واسرائيل، ويظهر ذلك من خلال الاحصائيات المذهلة للأعداد التي تتلقى البرامج الدينية الدعائية الموجهة لهذه الأصولية الايمانية(٤٢). والى الفكرة ذاتها يشير (أديب ديمتري)، حيث يشير الى السيطرة الكبيرة للأصولية الانجيلية بالتنسيق مع الصهيونية، على محطات وشبكات البث المتلفز والمذاع، والتي تعد بالآلاف، والى زيادة عدد العاملين في هذه الشبكات، ومشاهديها(٤٣). كما يشير ديمتري الى التعليم الديني الذي يزداد انتشاراً في أمريكا، وتشرف عليه كنائس وطوائف معينة، وهو تعليم مؤدلج وموجه، بعقلية إيمانية معينة من شأنها تصنيع عقل الأجيال بما يخدم توجه هذا العقل، وبمساعدة الأعلام والسياسة، والسيطرة على قطاعات اقتصادية تربوية، ففي الولايات المتحدة كان عدد المدارس الدينية لايزيد عن /١٢٣/ مدرسة تضم /١٢/ ألف تلميذاً عام ١٩٥٤ – ١٩٥٥م، أما الآن فقد تضاعف هذا العدد مئات المرات، إذ بلغ عان ١٩٨٠م /١٨/ ألف مدرسة، تضم أكثر من مليوني تلميذ(٤٤).

كل هذا سيؤدي الى نتيجة أخرى، هي زيادة التجييش الايماني ويظهر ذلك في زيادة عدد الملتحقين بالكنيسة للصلاة، وزيادة نشر الكتب الدينية (ذات الأغراض الايمانية المحددة) حيث بلغ عدد مشتري الكتب الدينية في أمريكا عام ١٩٨٤م /٣٧/ مليون مشترٍ، دفعوا ثمنها ربما مايزيد على مليار دولار(٤٥).

لقد كان أحد أبرز الأفكار التي ركزت عليها وأشرت إليها بشكل متواصل في هذا البحث، هي دور المصالح والظروف في تكوين ورعاية العقل الايماني، ونحن نفهم أن يساير الانسان مصلحة عامة أو خاصة، لكن إذا كانت هذه المصلحة لاتتم إلا على حساب المبادئ والأخلاق، وضداً لهما، سيكون كارثة، تتمثل في استخدام القيم المتعالية للوصول الى أغراض قد يكون ضررها أكثر من منافعها الشخصية.

وإن تغيير انسان لدينه أو مذهبه، مضحياً بهما لتحقيق مصلحة شخصية، يعد بمقاييس الايمان الحق والمبادئ السليمة، كارثة وعملاً لا أخلاقياً، لأن الثمن المضحى به وبجميع المقاييس أغلى من الثمن المتحصل، لكن ماذا نفعل، هذا هو العقل الايماني.

يقول (سمير عبده): «كانت اهتمامات الدول الأوربية القومية الناشئة بمنطقتنا اقتصادية بالدرجة الأولى، وبالتالي كانت تفتش في السلطنة العثمانية عن وكلاء

وزبائن لتوسعها الاقتصادي مع مايلازمه من زيادة في نفوذها السياسي. وقد قام المسيحيون بهذا الدور، ومن شروطه الضرورية التقارب الايديولوجي (الايماني - الشرح من قلبنا) وهذا ماحصل عن طريق انتشار الكثلكة التي شقت جميع الكنائس الشرقية دون المرور على الموارنة»[٤٦].

وبعد فإن الاشارات السابقة الى انبثاقات معينة للعقل الايماني، والتي لاتشكل نقطة من بحر في مسيرة نشوئه وازدياد جماعاته، أدى الى تصنيع عقلية معينة لاتزال حاضرة حضوراً نسبياً، كما بينا سابقاً، في مناطق ومناسبات وطوائف أكثر من مناطق ومناسبات وطوائف أخرى، وهناك من يعمل لزيادة هذا الحضور في كافة الملل والجماعات، ولزيادة التجييش وبقاء الايمان متقداً أو في حالة من الجاهزية.

وقبل أن أسوق وأحلل الحادثة التالية فإنني أؤكد أنه لايجوز لأي كان أن يتعاطى مع إيمان الناس وقناعاتهم باستخفاف، وليس ذلك من حق أحد، كما أنه ليس من علامات الرصانة الفكرية والعلمية، وهنا أرجو أن أكون قادراً على إيضاح شعوري باحترام مشاعر الناس وقناعاتهم، والرأي المختلف، مهما كان رأيي أو كانت قناعتي، فليس الهدف الانتقاص وإنما تسليط الضوء والتحليل والدراسة التنويرية التي لاتقلل من احترام أي مجال تثير الأسئلة حوله.

الحادثة أو النبأ كما أوردته محطة تلفزيونية لبنانية في أوائل كانون الأول ١٩٩٩م يقول أنه لوحظ أن نوراً ينبعث من مدفن أحد القديسين المتوفى في أواخر القرن التاسع عشر، وذلك في أوائل الخمسينات من القرن العشرين، وعندما فتح المدفن، لوحظ دم طري تحت جثة القديس التي لم تتحلل.

سيقت الحادثة بالطبع للتدليل على قداسة الشخص موضوع الحديث، ولاستنفار إيمان الناس وتذكيرهم بعدم النسيان، وبضرورة الحفاظ على المشاعر الايمانية. وهنا يثير العقل أسئلته حول الدلالات التي يحملها خبر بقاء جسد إنسان متوفى منذ مايزيد على نصف قرن سليماً دون أن يتحلل كما تتحلل أجساد الآخرين بعد الوفاة، وما دلالة وجود دم طري نازف من جثة فقدت الحياة منذ عشرات السنين؟ وإذا كان النور المنتشر في المدفن نوراً إلهياً، فليس من الوارد باطراد في تاريخ هذه المادة التي يتكون منها جسم الإنسان أنها مادة إلهية مقدسة، وأن احتفاظها بسلامتها يجب البحث عنه بعد

ذلك في حقل لا إلهي، وإلا لماذا تحللت أجساد آلاف القديسين والأولياء والصالحين الآخرين، الذين آمنوا كما آمن هذا القديس؟ مما ألجأ المؤمنين بقداستهم الى الاحتفاظ بعظامهم أو بقاياهم الأخرى. هذا إذا لم نبحث عن الإجابة في حقل العلم ومعطياته.

إن الايمان سواء كان صادقاً أو كاذباً، موضوع يمس النفس أو الروح أي الجانب اللامادي في الإنسان، كما تشير الى ذلك كل الأديان، وإضفاء صفة البقاء دون تحلل على هذا الجسد كل هذه الفترة، لايمكن فهم دلالاتها في حقل القداسة والارتباط بقوة فوق طبيعية، عملت على حفظ هذا الجسد دون غيره من أجساد القديسين، لأن المادة المكونة منها هذه الأجساد جميعاً واحدة، ولأن الجسد ليس الموضوع المخصوص بالايمان.

إن الجسد موقع الدنس والشهوة، والدنس والشهوة، منافيان لعالم الطهارة والنقاء والقدسية، وهي معان روحية، يستلزمها انتماء صاحبها الى عالم القداسة، وبالتالي فإن هذا التنافي يجعلنا نشير الى بقاء جسد دون تحلل لفترة من الزمن، طالت أو قصرت، لاتعتبر أو يجب ألا تعتبر دليلاً على القداسة، مع التأكيد أننا لسنا بصدد تأكيد القداسة أو نفيها فليس هذا من شأننا، لكن نشير الى أن هذه الأسباب في رأينا ليست هي الأسباب التي تحتم القداسة، باعتبار القداسة تمس القيم والقيم لامادية، فعلى المؤمنين أن يبحثوا عنها ويستحضروها إذا أرادوا تثبيت معتقدهم بقدسية شيء ما أو شخص ما، حيث يفترض أن تكون.

إن تركيز الأديان السماوية على بقاء الروح وخلودها، كنقيض لفناء الجسد، يعتبر الركيزة الأساسية لعقيدة (المعاد) التي تعتبر أحد أسس الايمان ودوافعه ومنجزاته. ولكي تكون الطهارة ناجزة والمعاد غير مشكوك فيه، لابد من قيود المادة المدنسة الفانية، ومجيء هذا الدليل ببقاء الجسد دون تحلل، كدليل على الانتماء الى القداسة، يحمل في طياته نقضاً للعمارة الايمانية التي أرادت المذاهب بناءها، بالتالي فإن استبعاد هذا الدليل، ابتعاداً عن التناقض وانسجاماً مع المبادئ، يجب أن يكون محل اعتبار، وهو بالتالي لن يكون مفهوماً، أو ذا مصداقية في التدليل على قدسية كلما ابتعدت عن المادة كانت أقرب الى حقائق السماء.

إن ما أردت الإشارة إليه في هذا الموضوع، هو اسقاط الأسباب التي تجعل من مادة ما موضوع قدسية أو دليلاً على هذه القدسية، انطلاقاً من أن الايمان قيمة روحية

لامادية، والتقديس يكون للقيم، والايمان قوة منبعثة في النفس، أشير إليها عبر التاريخ (تاريخ الأديان والايمان) إشارة لامادية. وهنا تظهر مدلولات أخرى لمثل هذه الحكايات والأخبار، وما أكثرها، ولايمكنني أن أصنفها إلا في إطار التجييش الايماني كما أشرت، وهذا الدور تقوم به كل المقامات الايمانية، مقدسة أو غير مقدسة على امتداد العالم، سواء تلك التي تشير إليها قبور الأولياء، أو تلك التي تشير إليها بيوت العبادة، والبنيات التي نصبت للتذكير والتبرك والتطهير، والجماهيرية التي تشير إليها وتنعم بها هذه المواقع وهذه الأخبار ورعاتها ونواطيرها ومؤدلجوها، ليست موضع شك من أحد، ومن شك في ذلك فليقم بزيارات الى هذه المواقع، من حائط المبكى الى كنيسة القيامة الى مارجرجس، ومن المشاهد المقدسة في ايران والعراق الى مقام السيدة زينب في دمشق الى قبر الشافعي في القاهرة ومقام سيدي خالد في حمص الى ضريح الأدريسي في المغرب، ومئات بل آلاف المواقع غيرها على امتداد العالم وبالأخص في الشرق موطن الديانات والقداسة، وكلها تستخدم للقبض على ناصية المؤمنين وتوجيه عقولهم، حيث لأرباب الايمان مأرب.

هكذا تظهر قدرة العقل الايماني على إعادة إنتاج نفسه، فهو بحاجة الى آلية توليد وتوالد، تمنع هذا العقل من الضعف والتلاشي، وقد أثبتت الأيام أنه من أجدر العقول، بل من أجدر الايديولوجيات، في صناعة الاستمرار والبقاء قيد الاستعمال المباشر وحشد الطاقات، كما أثبتت أن استثمار الناس في هذا الميدان يحقق ربحية عالية، حيث ينتج مؤمنين يتناسلون بخصوبة عالية وبأساليب محض إيمانية.

٣ - في حقل الاسلام

لم تكن الخريطة التي رسمها الاسلام عبر رحلته في الزمان والمكان، أقل غنى أو تشعباً من الخرائط التي رسمتها الديانتان السابقتان له، المسيحية واليهودية، فالعوامل التي صادفتها هاتان الديانتان والتي أدت الى كل هذا التلوين في لوحتهما المشهدية المعاصرة، ساهمت أيضاً هنا، فاختلاف البيئات التي انتشر فيها الاسلام أصبح كبيراً قبل نهاية القرن الأول على ظهوره، وما إن جاء القرن الثالث أو الرابع حتى كانت أقدام المسلمين قد حطت في أغلب مناطق العالم المعروف أيامذاك، واختلاف الشعوب التي

دخلت في الاسلام، أو كانت على تماس معه، كان كبيراً من حيث الأصل والمستوى الحضاري والثقافي، وبالتالي كانت المصالح مختلفة كما العادات والتقاليد والمطامح، غذى كل هذا الخلافات التي نشبت على الامامة في الاسلام بين المعنيين بها، مما أوجد الأسباب والذرائع والمناخات التي ينتعش التلوين فيها.

والتلوين كما يشير الى الغنى والقوة يشير الى الفقر والضعف أيضاً، فالتلوين يشير الى الغنى الثقافي والحضاري، ولكنه في الوقت ذاته يشير الى تشتت الجهود بالتالي ضياع الطاقات الخلاقة.

مشهد المنطقة التي ظهر فيها الاسلام كثير الغنى والخصوبة، والعناصر المكونة للمشهد كلها تحمل قابلية التشكل الايماني، فالعرب الذين ظهر الدين بينهم، كان لهم دياناتهم، والوثنية هي الغالبة مع ضحالة ثقافية شديدة في المناطق التي تسود فيها هذه الوثنية، واليهودية التي تحمل ثقافتها الخاصة منتشرة في منطقة الحجاز، وعلى أطراف شبه الجزيرة العربية، في اليمن وبلاد الشام، والمسيحية على تخوم شبه الجزيرة العربية في الشام وفي الحبشة، ومكونات هذه الديانات أو أجزاء من هذه المكونات، تشكل جزءاً من ثقافة جماعة ظهرت في المنطقة هي جماعة (الأحناف)، وكأنهم بانتمائهم الى هذه البيئة، وبثقافتهم التوحيدية، التي تشكل أو تحيل الى مايسمى بـ «ملة ابراهيم»، أو الى مقتبسات من النصرانية أو غيرها، يؤكدون أهلية المنطقة للتشكل الايماني، ويردون من جهة ثانية على الأخطار المحدقة بمنطقتهم، فالرد على أطماع مسلحة بثقافات متطورة، وهي ثقافات يشكل الدين أهم محاورها، ويرفدها بقوة، سواء انتمت الى اليهودية أو الى المسيحية، لم يكن الرد عليها ممكناً من خارج حقلها أو منطقها (حقل الدين ومنطقه) لذلك جاء الاسلام الدين، والاسلام الحضارة، ليكون في رده ومواجهته للأخطار، مسلحاً بأسلحة لاتقل قوتها عن قوة الأسلحة التي يواجهها، وقد جاء يؤكد موقف الأحناف من هذه الزاوية، فقد كانت الحاجة ملحة قبل أن يتم ابتلاع المنطقة من خارجها. ولقد طالعنا سابقاً نشوء قوي للمواجهة حاولت أن تعزف على الوتر الديني، فحركة ماني التي قلنا أنها استفادت من اليهودية والمسيحية والزرادشتية المجوسية، هي أيضاً محاولة للرد رداً مكافئاً بسلاح دفاعي لايقل عن سلاح الهجوم، ولكن لم يكتب لها الانتشار الكافي في المنطقة، ربما لأنها بتعاليمها

ومنطلقاتها ليست بنت البيئة.

والسياسة التي كانت تقع في القلب من اليهودية، والتي لم تولها المسيحية المكانة الكبيرة، عادت الى الواجهة في الاسلام، فهناك دراسات تشير الى أن الإسلام كان الخطوة الحاسمة والأخيرة في بناء الدولة التي بدأت قريش ببنائها، ابتداء بقصي، أحد أجداد النبي محمد(٤٧). وهذه تعتبر عاملاً إضافياً سنرى فيه أثره الكبير على التلوين الاسلامي منذ البداية وحتى اليوم.

وإذا كان الاسلام يعتبر الأخ الثالث لدينين سماويين سبقاه، واتصف بالسماوية مثلها، ويقال لها جميعاً (الأديان الابراهيمية)، ففي هذه الحالة من الطبيعي أن يأتي ساداً لجوانب قد يراها جوانب نقص، أو جوانب لم تعرها الديانات السابقة القدر الكافي من الاهتمام، من وجهة نظر الدين الجديد، ولاشك أن كل دين من هذه الأديان، جاء تلبية لحاجات كانت ماسة في مرحلته، وربما كان هذا سبب التركيز على جوانب دون أو أكثر من أخرى، كما أفاد الدين اللاحق من جوانب بدت ثغرات في سابقه، أو أن تجارب السابق أعطت ضوءاً للاحق، وهذه المعاني متضمنة في اعتراف الاسلام أنه جاء مكملاً لما سبقه من أديان سماوية لانقضاً أو ضداً أو بديلاً لها.

كذلك، وفي الوقت الذي لم ينفِ ما سبقه من تعاليم الأديان الابراهيمية، بل التقى معها في أبرز أسسها، فإن الاسلام لم ينفِ ما وجده قاراً في البيئة الوثنية التي جاء خطاباً لها نفياً مطلقاً، بل أقر وأبقى الكثير من العناصر التي توارثها الناس عبر الفترة التي دعيت بالجاهلية كمكونات أساسية من مكونات الدين الجديد، وفي مجالات متعددة(٤٨).

والمظهر السياسي الأبرز الذي كان له الدور الأساسي في الجانب الايماني في حقل الاسلام، هو الخلاف على الرئاسة أو الامامة بالتعبير الديني، وإذا كانت الأحداث تشير الى أن الخلاف قد بدأ جلياً في اللحظة التي توفي فيها النبي محمد، فإن البعض يعود بالخلاف، الى الوقت الذي كان لايزال النبي فيه حياً، وبالتالي يتم تجذير الخلاف في التربة الخصبة للبيئة الدينية والثقافية والاجتماعية الصاعدة.

إن استقطاباً واضحاً قد جرى سواء سعى إليه أقطابه أم لم يسعوا، (ولا نستطيع القول إن فعلاً جرى بدون فاعل) وقد ساعدت الأحداث على نمو هذا الاستقطاب

وتبلوره، وأيضاً تحوله الى صيغ إيمانية واضحة.

وإذا كان الامام علي بن أبي طالب قد اضطر الى إتخاذ أقصى العقوبات بحق عبد الله ابن سبأ وجماعته، لسوء عقيدته به كما يقول المؤرخون مما ألجأه الى تحريقهم بالنار، فإن هذه العقوبة، وما قبلها من ارهاصات كانت ايذاناً بتاريخ اسلامي أبرز وأكثر خلافاته هي التي دارت حول هذه الشخصية غير العادية (شخصية الامام علي) نقضاً أو تأييداً.

وإذا كان أول تلوين ايماني يتخذ صفة الالتفاف العقيدي حول شخصية أو مبدأ، كما فهم من السبئية فإن هذا التلوين سيصبح المحور الأبرز، الذي سيدور حوله الاختلاف في المستقبل، سواء على المستوى السياسي، أو على المستوى الديني، حيث تم الربط بينهما في تالي الزمن، حيث أصبح السياسي يحيل الى الايماني الديني، والايماني يحيل الى السياسي، ولافاصل بينهما، وهذا يشكل أساس العقيدة عند فرق الشيعة.

وتعتبر وقعة صفين بقيادة علي، الذي كان يقود جيش الشرعية، ضد جيش يقوده معاوية بن أبي سفيان، ويمثل الاغتصاب والخروج على الشرعية، هي نقطة تحول كبرى في تاريخنا العربي والاسلامي باتجاه بناء العقل الايماني في الاسلام.

في هذه المعركة تبلورت ثلاثة اتجاهات، مثلت آراء ثلاث فرق أو ثلاث اتجاهات اسلامية، اختلفت فيما هو سياسي لينعكس الخلاف على ماهو عقيدي ديني، ولتنشأ مذاهب عقيدية امتدت الى ما هو لاهوتي، ودخل ذلك نظرتها للألوهة وعلاقة الانسان بها، وتمايزت عن بعضها تمايزاً واضحاً، ظهر جلياً في ممارساتها الطقسية، وعلاقاتها الاجتماعية، ونظرتها لتراثها.

هذه الاتجاهات كما هو معروف هي:

أولاً: الاتجاه الخارجي، ومعلوم أنه تعبير في بعض جوانبه عن ردة الفعل على سيطرة قريش على مقدرات المسلمين، وعدم إفساح المجال لقوى أخرى، بدأت تتنامى في رحم المجتمع الاسلامي آنذاك، لتعبر عن وجودها، ولاشك أن التعبير المطلوب عن الوجود، كان سياسياً، وبالتالي فالسياسي تعبير عن الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ولما فشلت في ذلك، شكلت حالة تمرد على امتداد التاريخ الاسلامي،

بدولتيه القويتين، الأموية والعباسية، بعد انتهاء الراشدية.

إن حالة التمرد الخارجية، كانت تحتوي تعبير الساخطين عن سخطهم، والناقمين عن نقمتهم، والرافضين عن رفضهم، وقد كان تعبيراً سياسياً، إلا أن الاسلام (التجربة) قارب بين السياسة والدين مقاربة لا انفصال فيها.

ولايستطيع الفكر السياسي المعاصر إلا أن يثني على هذا الاتجاه فكرياً، لأنه أقرب الى التعبير السياسي المعاصر والمطالب بتداول السلطة، وبالديمقراطية كحلم موروث يجد بعض تعبيره في هذا الاتجاه، إلا أنه لم يكن بعيداً عن التوجه الايماني الذي ينسجم في كل حين مع التوجه السياسي المعلن، إذاً التعبير السياسي له عمق إيماني، وكان العنف أبرز اللغات التي خاطب بها مخالفيه، بل قد تكون لغة التخاطب الوحيدة.

ثانياً: الاتجاه الشيعي، وهو مايجعل أمر الخلافة (الحكم) أمراً إلهياً، ويشل إرادة الناس والمجتمع بربط الأمر بالسماء وإرادتها، وقد تناسلت فرق الشيعة التي مثلت هذا الاتجاه حتى تعددت وكثرت، وقد آمنت هذه الفرق بأن خلافة النبي محصورة في آل بيته، وكل خروج عن ذلك خروج عن الاسلام في صورته المثلى، وحددت معظم هذه الفرق تسلسلاً إمامياً انتهى مبكراً بالمهدي المنتظر المأمول رجعته عند الشيعة الامامية، بينما استمر هذا التسلسل عند الشيعة الاسماعيلية، وقد أناب الأماميون الفقيه محل الامام الغائب. وبقيت فرق الشيعة الأمامية والاسماعيلية وفية لفكرها السياسي ونظرتها العقيدية، سواء أخطأت في سلوكها أو أصابت. ولم تكن السياسة مجردة عن العقائد، بل كانت العقائد الدينية تعضد الآراء السياسية، وتشكل عمقها الايماني، وكانت عرضة للمؤثرات التي أتتها مع المنتظمين في سلك التشيع من شعوب وحضارات أخرى.

ثالثاً: الاتجاه الثالث، هو اتجاه الاسلام السني الذي بقي محتفظاً بارثوذكسية الإسلام، وهو الاتجاه الذي شكل الأغلبية في تاريخنا العربي والاسلامي، لأنه الأكثر انتشاراً، إنه اتجاه مثلته مذاهب السنة الأربعة، فخلافاتها بقيت بسيطة ومحصورة في قضايا لاتصنع انشقاقات كبرى وظهرت فقهياً وكلامياً أكثر منها سياسياً.

هذه المذاهب بفقهها وفقهائها بررت كل دولة على امتداد التاريخ الاسلامي،

وأعلنت أن طاعة الحاكم واجبة، سواء توصل الى الحكم بالرضا أو بالغلبة، بالجماهير أو بدونها، على الرقاب أو على الأكف، وطاعة الحاكم من طاعة الله، والخروج عليه شق لعصا الطاعة، ومخالفة للسماء، ثم هو بدعة، فضلالة، فلعنة، وما يلبث هذا الخارج الذي كان مبتدعاً، فضالاً، فملعوناً، أن يتغلب فيصبح شرعياً واجب الطاعة، ويخطب أئمة المساجد باسمه، وهكذا دواليك، وإما أن يكون انتقال الحكم بالوراثة، ولايهم من كان الوارث، فاسقاً، زنديقاً، خبيثاً، أو طاهراً حكيماً، والنصوص في خدمة الجميع، والباحث عن هذا الواقع في كتب التراث فإنه واجد منه الكثير، ولاشك أن الانحرا ف السياسي عضده انحراف إيماني، يعتبر الأخطر، لأن للسياسة أمداً وتنتهي، إنما لانهاية لما هو عقيدي.

هذه اللوحة المشهدية للواقع الاسلامي في بواكيره، وهذه الخريطة للأرضية الفكرية والسياسية في الحقبة المبكرة، هي التي تناسلت، وخرجت من تحت عباءتها أغلب الاتجاهات الايمانية، وفي الاسلام كما في غيره من الديانات، كان التناسل شرعياً طالما انتمى الى النصوص الأساسية، ورجع إليها ولو شكلاً، والنصوص لاتبخل على أصحاب الآراء فهي تكسب شرعيتها لكل جديد عبر آليات كان من أهمها التأويل. وفي وقت مبكر نبه الامام علي، الى هذه النقطة عندما وصف القرآن بأنه «حمال أوجه« ، ونصح بعدم محاجة الخصوم به، لأن كل فريق سيجد فيه ملاذاً، وقال «إنه لايتكلم وإنما ينطق به الرجال». وبهذا تم إفساح المجال لكل أصحاب الآراء، موافقة كانت أو مخالفة. للاستناد الى قدسية النص وبالتالي اكتساب شرعية فقهية وفكرية حتى لو لم يكتسبوا الشرعية السياسية التي تحتكرها الدولة المتغلبة.

المرة الأولى التي يكون فيها للعقل الايماني دور حاسم وكبير في توجيه التاريخ وصناعة الحدث على ضخامته، كانت في صفين، المناسبة التي أشرنا إليها، فقد أبرزت أحداث هذه الموقعة المفصلية، انبثاقاً إيمانياً حاداً، تمثل في فئة فرضت رأيها، وهذا الرأي وجه التاريخ اللاحق لشعوب المنطقة. فقد أصرت طائفة القراء – وهم الموصوفون بالتشدد والتمسك بصحيح الدين كما حاولوا أن يظهروا – على أن يخضع علي الى نداء الطرف الآخر باللجوء الى التحكيم، وهذه الطائفة ذاتها هي التي تحتل موقع الأبوة للثقافة المتشددة[٤٩]، وتأتي المفارقة بأنها هي التي رفضت التحكيم ونتائج التحكيم،

وخرجت بالقول الذي لايزال يتوالد عنفاً ونفياً وتعصباً، ويتناسل على أيدي الخارجين من ممثلي الفكر الأصولي وهو «لاحكم إلا الله»، ومنه جاءت قاعدة الحاكمية التي يتمسك بها المتشددون الاسلاميون.

إذاً كل تطرف في مجال السياسة - ولابد للسياسة في الاسلام أن تؤسسها العقيدة - على امتداد التاريخ الاسلامي، هو من نسل هذا الاتجاه، الذي هو ايمان بطريقة ما وأسلوب ما، وكما أدى هذا الاتجاه، اتجاه الخروج على الحكومات المعتبرة شرعية، الى أن صبغ تاريخ الاسلام بلون الدماء، كذلك أدى في عصرنا الحاضر، أو كاد يؤدي الى النتيجة ذاتها، فكل من لايروق لهؤلاء المتطرفين، متهم بأنه يعيش الجاهلية بأبعادها الفكرية والدينية والاجتماعية، وبالتالي فكل الطامحين الى بناء مجتمعات تساير التطور الحضاري للبشرية، والساعين الى الانعتاق من التخلف، هم جاهليون وكفره، ولايجوز التعاطي معهم إلا بالسيف.

لابد من الإشارة هنا، الى أن التطرف في الآراء السياسية والعقيدية، كان وراء التطرف في المواجهة، وهذا التطرف، صنع عنفاً وعنفاً مضاداً، لم يكن أحدهما أرحم من الآخر، فعنف السلطات، وازى إن لم يفق عنف الخارجين عليها، ولما كان الخارجون قد اتجهوا الى العنف لترجمة قناعاتهم السياسية، فقد كان رد الحكومات، أكثر حدة لأن عنفها موصوف بالشرعية، والدفاع عن المجتمع، بالتالي فإن اعتماد أسلوب العنف مع الخصوم، انسحب على جميع من يختلفون مع الدولة، سواء أختلفوا معها في مشروعها الفكري أو في مشروعها السياسي، أي سواء كان الخلاف بالرأي أو باستخدام السلاح، وظهرت الدولة الموصوفة بالاسلامية، أنها لاتتسع إلا لأبناء جلدتها، ولاتحتمل الرأي الآخر، إلا في القليل من تاريخها، وإنها لاتتعامل مع هذا الآخر تعاملاً ديمقراطياً، فالديمقراطية بعيدة عن تراثنا، وحاضرنا لم يفترق كثيراً عن ماضينا في هذا المجال، فرفض الآخر ونفيه لايزال الأسلوب المحبب لمن كان في الحكم.

ولاشك أننا لدى البحث سنجد المصالح - وربما الضيق منها - في أساس هذه المواجهات، بين من يرى أنه حاصل على شرعيته الفكرية والدينية والسياسية من وجوده في الحكم، ومن يرى أن شرعيته الفكرية والدينية تستند الى فهمه للنص واستنطاقه وتأويله، في حين تعتبر الشرعية المستندة الى الناس غائبة. من هنا نرى أننا أمام

عقلين يلتقيان كثيراً ويفترقان كثيراً، كل منهما فهم النص على طريقته، وحسب مصلحته، وبما يتلاءم مع خطه السياسي، إذاً هو فهم تلويني، يلون النص حسب الحاجة والضرورة، وحسب المصلحة، إنها القراءة الايمانية التي صنعت على امتداد تاريخنا عقلاً إيمانياً سائداً، صنع التاريخ ووجهه وسيطر، خارج الكتب وداخلها أحياناً.

وإذا كان الاتجاه الخارجي الذي نشأ مبكراً في الاسلام، قد تناسل وامتد حتى أصبح جزءاً من مكونات المشهد الحياتي المعاصر، والذي يسلط الضوء عليه من خلال ممارسة العنف والعنف المضاد، في الرأي وفي المواجهة العسكرية، فإن الاتجاه الآخر، الاتجاه الشيعي، ربما كان أبرز وأقوى على امتداد التاريخ الاسلامي، وتاريخه لم يكن خالياً من العنف والعنف المضاد، بل إن عنفه والعنف الذي تمت مواجهته به، لخطورة مشروعه ومشروعيته على الحاكم، جعله يأخذ مناحي وتوجهات أغنت المشهدية الاسلامية، في الأحداث التاريخية كما في التوجهات الفكرية الذي لم يتخيل تصور العقل الاسلامي والفكر الاسلامي بدونها.

إن الإبعاد الذي مورس على الإمام علي لوضعه خارج الفعل السياسي على رأس السلطة، قد زاد من تكتل من يثق به ويؤيده، وفي الأعم الأغلب كان هؤلاء هم أصحاب المبادئ الذين يشكل الفقر جامعهم، وقد كان لتبشير المبادئ بالانعتاق، المبشر الأساسي الذي دفعهم الى الأسلام عن قناعة. فكان الرابط بينهم وبين هذه المبادئ قوياً، وهم الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة الأغنياء ورأس المال الناشئ أو العائد من جديد ممثلاً ببني أمية، فكانت جاهليتهم، كما كان إسلامهم، في مواجهة الاستغلال.

إن إبعاد هذه الفئات جعلها تتمسك بعلي مفكراً بعد موته، بعد أن تمسكت به قائداً في حياته وجعلها ترى في ذريته امتداداً له على المستويين كليهما، وقد حفر الإبعاد العنيف لهذا الاتجاه خلال حقبة الأمويين والعباسيين، مجرى إيمانياً، غذّاه قتل هذه الأسرة قتلاً عنيفاً، وجعل الناس يتشيشون بقيم نادى بها علي، وعاشها سلوكياً، وحاول تطبيقها عندما آلت إليه الخلافة، فحيكت المؤامرات ضده، ومنع من وضع مبادئه موضع التطبيق الكامل، حتى وصل الأمر الى قتله، وفي كل هذه المجريات عنف واضح.

واستمرت ممارسة العنف في التعاطي مع أولاده وأحفاده الذين تيمن الناس بهم

خيراً، ثقة منهم أنهم سيكونون متابعين لنهجه، وقادرين على قيادة الجماعة الى الخلاص، فكان مصير ابنه الحسن الموت مسموماً كما يقال، وكان مصير الحسين بعد ذلك المصير المأساوي الذي لايزال يطل علينا بكل ثقله التراجيدي المروع، من خلال الدماء التي لاتزال تراق، والدموع التي لاتزال تسيل، ولكن هذه المرة تكفيراً عن ذنب تاريخي لايرى أصحابه أن الأيام قادرة على غفرانه، وذلك في واحد من أبرز مظاهر العقل الايماني قوة وتعبيراً، في الاحتفالات والتجمعات التي تجري في المجتمعات الشيعية، التي تستعيد كل جزئيات مأساة استشهاده في ذكرى كربلاء التي تحولت الى رمز تجبيشي.

ولما كان الفشل من نصيب الحسن والحسين بعد مقتل أبيهما في الوصول الى السلطة، وإقامة دولة العدل الذي يطمح إليه كل المطحونين تحت رحى الاستغلال والتسلط، وهو مابشرت به قوى التشيع، فإن أنصارهم لم يتخلوا عن الحلم بالخلاص، بل بدأ هذا الحلم يتأدلج، وكلما تم قمع تحرك شيعي، سواء من قبل الأمويين أو من قبل العباسيين الذين رأوا في الحلم الشيعي والتحركات الشيعية وجماهيريتها خطراً سياسياً وايديولوجياً، لتسلحه بالقيم الثورية التي غذاها الاسلام، كان يتم حفر المجرى أعمق وأعمق في الوجدان والضمير الفردي والجمعي المؤيد للخلاص من ظلم الحكومات والحكام على يد أية جهة تقدم هذا الوعد، وفي أغلب الظروف كانت الحركات التي تنتمي الى التشيع تتقدم بمثل هذا الوعد مستندة الى تراثها.

هذا الواقع، واقع القمع المتكرر بعنف وقسوة لامثيل لهما لكل التحركات التي صنعها الشيعة بقيادة الطالبيين أو أنصارهم، وما أدت إليه من فشل في أغلب الأحيان، جعلها، سواء، بتخطيط مسبق أو بدونه تأخذ منحى آخر، هذا المنحى، هو المنحى العقيدي الايماني، حيث لم يعد هذا الاتجاه يظهر باعتبار حركة سياسية أو ثورية تتطلب القمع، بل أصبح فكراً وعقيدة أي ثقافة، وأصبح حاملها الأدب والفكر أي النصوص بشكل عام، بدل السيوف والرماح، وهنا يبرز الغنى بالعقائد وتفرعاتها وتشعباتها، فطوائف الشيعة، بلغت من الكثرة والتنوع حداً أغنى الفكر والثقافة في الاسلام بما تم اكتسابه من ثقافات العالم وما عكسه من تلوينات. إذن أصبح البديل عن العنف والسياسة والسلطة في توجيه الحياة عند الاتجاهات الشيعية المتعددة هو

التغلغل العقائدي على كافة المستويات السرية والعلنية، وأصبحت السياسة تمارس بشكل بارد.

كثيرة هي الفرق الشيعية التي اتصلت عبر حركة التثاقف التي كانت حاصلة في المجتمع الاسلامي بشكل واسع، بثقافات وفلسفات واتجاهات فكرية تركت طابعها عليها، وظهرت آثارها فيما انتجته هذه الفرق من فكر ديني أساساً، تم على أساسه التمايز بين الفرق والمذاهب الاسلامية فيما بعد، لأن انفتاح المجتمع الاسلامي في القرون الأولى للاسلام على ثقافات الشعوب كان من أبرز العوامل التي ساهمت في الغنى الفكري، والتعدد في التوجهات الايمانية، والجماعات المرتبطة بأفكار وطقوس نجد جذورها فيما هو وافد، لأن البيئة لم تكن تمنع الوافد حتى لو كان هذا الوافد يمثل إلحاداً من وجهة النظر الإسلامية.

من المعروف أن معظم الديانات المنتشرة في جنوب وشرق آسيا، لاتقوم على أساس النبوات ولاتعترف بها، حتى أن بعضها لاتعترف بالآلهة(٥٠)، أو لاتهتم لتكريس سلطة إله. ومع التنافر الذي تشكله هذه العقائد مع الإسلام، فقد وجدت سبيلها الى الفكر العربي والاسلامي، وأصبح أمر الإسلام والنبوة يناقش على ضوء مثل هذه الأفكار التي تعتبر إلحاداً، وأفكار الرازي وابن الراوندي تعتبر في هذا المجال مثلاً للحرية الفكرية في تلك المرحلة، بعيداً عن السياسة، كما تعتبر تعبيراً عن غنى الحركات المصطرعة في بوتقة الفكر الإسلامي. هذه الأفكار، ينقل بعضاً منها أو كلها كل من (محمد عابد الجابري) «نقد العقل العربي – تكوين العقل العربي ... فصل العقل المستقبل» و(عادل ضاهر) «الأسس الفلسفية للعلمانية» و(صادق جلال العظم) «ذهنية التحريم...» و(أدونيس)«الثابت والمتحول» و(عبد الرحمن بدوي) «من تاريخ الالحاد في الاسلام» وغيرهم، وكل هذه الكتب تناقش مسائل كإنكار النبوة كما وردت عند ابن الراوندي والرازي أو غيره. وكانت مثل هذه القضايا التي تتم مناقشتها من مكونات اللوحة الفكرية الثقافية الايمانية بكل غناها في المرحلة العباسية.

بعيداً عن هذا التوجه وبالضد منه، نجد اتجاهات أخرى مفرقة في روحانيتها واستلهامها بكل الفلسفات التي كرست هذا الاتجاه، سواء الهندية أو اليونانية أو غيرها، وقد أشرنا فيما سبق الى التقمص كعقيدة وجدت طريقها الى فكر وعقيدة

بعض الفرق الإسلامية، خاصة المتفرعة عن الشيعة. وهنا نشير الى تأثير الفيثاغورية والافلاطونية المحدثة اللتين يشير الى تأثيرهما د. (محمد عابد الجابري)[٥١]، كأحد الأسس أو المرتكزات لانتشار موجات جديدة على الإسلام، وهي موجات إيمانية، كما يشير الى تأثير الأفكار الغنوصية والهرمسية ودورهما في انتشار التصوف الاسلامي بما جاء به من حلولية عند الحلاج واشراقية كما لدى السهروردي وحروفيه كما لدى النسيمي، مثلما كان سابقاً أساساً في حركة الرهبنة وازدياد فرقها في العالم المسيحي منذ بدأ التعرف على هذه الفلسفات.

ولقد أشرنا سابقاً الى أن فرق الشيعة تأثرت أكثر من غيرها بهذه الاتجاهات، وكان للقمع السياسي الذي واجهته، وعدم تركها تعبر عن نفسها سياسياً لافتقاد الاهتمام بالرأي الآخر، ولفقدان أي توجه نحو الديمقراطية، الدور البارز في وجود هذه التوجهات الفكرية لدى الشيعة أكثر من غيرهم. فالهرمسية نقلت الى الثقافة العربية الإسلامية عناصر الموروث القديم، وذلك عبر الكيمياء والتنجيم[٥٢]، علماً أن الهرمسية قد: «حاربها أهل السنة... لأنها كانت الخلفية النظرية لآراء الشيعة والفرق الباطنية، الخصوم التاريخيين لأهل السنة»[٥٣].

ظهرت آثار الفكر المغترب، أو كما يسميها الجابري «العقل المستقيل» مبكراً في عقائد الشيعة وفكرهم منذ السبئية، وصولاً الى فكرة المهدي المنتظر، هذه الفكرة التي كانت محاكاة لليهودية في فكرة ظهور المسيح، وللمسيحية في فكرة أو عقيدة عودة المسيح أو قيامته، وقد حاولت الفرق الأخرى وخاصة من السنة الرد على فكرة المهدي المنتظر فوجدت نفسها تستلهمها أو تحاكيها وتستنبطها، عبر فكرة المراوني المنتظر أو السفياني المنتظر أو العباسي المنتظر.

ولم يوقف وصول بعض الفرق الشيعية الى الحكم وتكوين دول قوية، استمرار التوليد الايماني للاتجاهات والجماعات التي تجد خطها الايماني في مفارقتها لفرقتها الأم، هكذا نشأ مذهب الموحدين الدروز مثلاً في رحم الدولة الفاطمية الاسماعيلية، التي هي أيضاً فرقة نشأت في رحم الشيعية، حيث نشأ عن افتراقها أكبر شعبتين شيعيتين، هما الامامية والاسماعيلية، ولم تنقطع الفرقتان عن التكاثر وتوليد فرق أخرى، فقد انقسمت الاسماعيلية أيضاً الى فرق منها المستعلية والنزارية، وكلها

اتجاهات ايمانية تلعب السياسة دوراً بارزاً فيها، بالإضافة الى المصالح.

والاسماعيلية، إحدى الفرق الباطنية التي أتيح لها ولفلسفتها وفكرها أن تنتشر انتشاراً واسعاً كما أتيح لها أن تعبر عن نفسها سياسياً وعنفياً.

فبالإضافة للدولة الفاطمية التي قامت في المغرب ثم في مصر، على المذهب الاسماعيلي، وكان لها دور بارز في تاريخ المنطقة، وحازت على السلطة والامتداد والقوة، فأن اتجاهات اسماعيلية أخرى عبرت عن نفسها في أماكن أخرى من العالم، كالحركة القرمطية، ذات الشهرة الكبيرة والتي درست في العصر الحديث، كتجربة اشتراكية في التاريخ العربي الاسلامي، كما ظهرت الدعوة الاسماعيلية في شكل جديد، عبر عن نفسه بالأسلوب الذي اتبعته حركة أطلق عليها حركة «الحشاشين» ربما للنيل من سمعتها، وإظهارها أنها خارجة عن القيم الرفيعة والأخلاق المحترمة، كل هذه التوجهات فهمت الاسلام على طريقتها، وطعّمته بما حصّلته من ثقافات وعقائد وآراء الشعوب التي أطلع عليها الوسط الإسلامي وحركته الثقافية.

بالرغم من نعت البعض للمثقفين بقوله «هم صوت الشيطان»(٥٤)، فقد كانوا هم الأساس في نقل فكر وفلسفات الشعوب، وذلك لأنهم الأقدر على التأثر بحركة التثاقف في العصر العباسي، أو هم أساس هذه الحركة، والتي كان أحد أسسها نقل الفلسفات عن طريق الترجمة التي قادها السريان الذين يعيشون في البلاد العربية تحت رعاية الدولة في أغلب الأحيان. ومثقفوا العصر امتداد لمثقفي العصور المنصرمة.

وبإطلاع المثقفين العرب على هذه الثقافات والعقائد والأفكار، أخذت طريقها الى الثقافة العربية الإسلامية، والى عقائد الفرق الإسلامية، وساهمت في تشكيل المشهد الايماني، حتى أصبح عدد الفرق في الاسلام عديداً، وكلها تقوم على المفارقات العقيدية الايمانية، فالدكتور (رفعت السعيد) ينقل عن «محمد اقبال» قوله: «لقد ظهرت في الاسلام مابين سنة ٨٠٠م وسنة ١١٠٠م ما لايقل عن مائة فرقة من الفرق الدينية، وهو أمر قاطع في دلالته على مرونة التفكير الإسلامي»(٥٥). وعلى التشتت الايماني أيضاً.

هذه المرونة التي يفترض أن تكون رحمة وأن نجني نتائجها انفتاحاً وديمقراطية وتواصلاً واعترافاً بالآخر وتعاوناً بين هذه الاتجاهات المختلفة عقيدياً، كان أثرها عكسياً فلم تحصد مجتمعاتنا إلا التناحر والتسلط والانغلاق والعنف والنفي بين هذه

الفرق، لأن الخلاف هنا يكون على مستوى العقيدة، ومتصل بالمقدس، والعقيدة حارسة المصلحة، إذاً لايصح التنازل في هذا المجال، فأي تنازل من قبل جهة لصالح جهة أخرى، أو جهات أخرى، يعد تفريطاً فيما لايملك أحد التفريط فيه، لأنه ليس من الأملاك الشخصية أولاً، ثم إن التفريط فيها تفريط بالايمان يؤدي الى غضب الله ثم النار أيضاً.

إن حالة الغيبوبة التي عاشها العالم الاسلامي طيلة عصور الانحطاط والتي لاتزال آثارها ومفاعيلها مستمرة حتى يومنا هذا، تركت بصماتها البارزة على الواقع من جميع النواحي، إحدى هذه البصمات تجلت في غلبة الاتجاهات الايمانية، ففي مثل هذه المناخات تضعف الامكانات العلمية والعقلية، وتتم الاستعاضة عنها بتنشيط المناخات السحرية والخرافية. فقد انحسرت موجة التثاقف الكبيرة التي أوجدتها الحالة الإسلامية المتألقة حتى القرن الرابع والخامس الهجريين، وبعد ذلك بقليل، إذ أن الانحسار الفكري والثقافي لايتم دفعة واحدة وبالحدة ذاتها التي يتم فيها الانحسار السياسي، وقد أحدث هذا الانحسار حالة ضعف وفراغ، وإذا كان لابد من إملاء هذا الفراغ فقد تم الإملاء بالعملة الرديئة التي تطرد العملة الجيدة من السوق كما يقول قانون جريشام.

من هنا وعلى المستوى العقيدي كان البديل للمبدعين الأول في مجال الفكر والفقه، نمط آخر مشابه للعصر في جموده وانغلاقه، فكان من أبرز الوجوه البديلة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية وابن الصلاح وغيرهم، هذا في مجال الفقه والفكر العقيدي، وقد كان نتاجهم الفكري صورة لعصرهم في انغلاقه وضعفه، وقد طبع هذا النتاج الذي قدموه المرحلة التاريخية التي عاشوا فيها، ولايزال يرين بثقله حتى يومنا هذا، ولايزال كل المنغلقين والمتعصبين والمتطرفين اللاعقلانيين، يجدون ملاذهم ومبرر سوكهم في نتاج فقهاء ومؤدلجي ذلك العصر، والذي يعد ابن تيمية أحد أكبر ممثليه، حيث لاتزال فتاويه المتطرفة والمغلقة والداعية للعنف، مصدر امداد للمتشددين الاسلاميين على امتداد العصور التي تلت، والتي استلهمها أمثال المودودي وجماعة الأخوان المسلمين، ولاتزال أحكامه على فئات وطوائف إسلامية تخالفه الرأي، عنواناً لرفض الآخر، وللضيق بالرأي الجديد، كما لايزال من يريد أن يبرهن على صحة إيمانه

وتمسكه بصحيح الدين، يعيد التمسك بهذه الفتاوي، كما فعل مفتي الديار المصرية د. (سيد محمد طنطاوي) منذ سنوات وقبل أن يصبح شيخ الأزهر، مما اقتضى الرد عليه من قبل الكثير من الجهات.

وليست العودة الى هذه المعارك في عصرنا دليل عافية فكرية، ولا اجتماعية، ولابد لنا ونحن نجتاز عنق القارورة، من التخلي عن إعادة الاعتبار لها ولأمثالها.

ولقد اتسمت هذه المرحلة بسيطرة الضيق والانغلاق الفكريين كما في مجال العقيدة، ويبرز هذا الضيق في فتوى المشايخ لصلاح الدين بقتل السهروردي بمخالفته لهم بالرأي، واتهامه بفساد العقيدة، من خلال الحيلة، هذه الحيلة تشير الى ما آل إليه الأمر في تلك المرحلة،، فعندما طلب صلاح الدين امتحان السهروردي في عقيدته، وجه إليه المشايخ سؤالاً مضمونه: هل يستطيع الله إرسال نبي جديد؟ وواضح أن أي جواب يجيبه الفيلسوف سيؤدي حتماً الى الفتوى بقتله كما يريدون. والسهروردي الفيلسوف الاشراقي معروف بمنهج آخر ضاقت عنه عقولهم الضيقة. وكما كانت حال السهروردي كان حال الفيلسوف الحروفي (ياقوتة حلب) عماد الدين النسيمي الذي لاقى المصير ذاته، وكان أحد ضحايا الانغلاق والتعصب للرأي الواحد[٥٦]. ومع أن هؤلاء جميعاً يشكلون عناصر اللوحة الايمانية بتنوع مضامينها، ومع أن المناخ السائد، مناخ الضعف والتخلف يساعد كثيراً على نمو الاتجاهات والجماعات الإيمانية، والآراء والعقائد الخرافية والسحرية، فقد كانت كل حالة إيمانية من هذه الحالات، تنفي الأخرى وتحاربها وتحاول تشويه صورتها.

لقد أورث هذا الوضع حالاً من أهم سماتها، سيادة الأخلاق الرديئة، التي كانت بوادرها قد بدأت بالظهور قبل ذلك، حتى إذا جاء عصر أبي العلاء المعري في القرن الخامس الهجري، لم يكن قادراً على السكوت عن رداءة القيم الأخلاقية التي صور الكثير منها في شعره المتضمن وصف أحوال عصره، والذي هاله ودعاه الى الحدة في الهجاء الذي لم يكن يجرؤ عليه غيره، هو أن المسؤولين عن المجتمع من سياسين ورجال دين، كما أنهم من طليعي المجتمع في الحياة الاجتماعية والدينية، كذلك هم طليعة في الفساد والسقوط الأخلاقيين.

لقد غرقت بلادنا في عصور الانحطاط في ظلام التخلف والجهل والطقوسية

الفارغة في كل مجال من مجالات الحياة، وهذا مايوحي بثقل الميراث الذي كان على بلادنا أن تتخلص منه إذا أرادت النهوض، فكيف إذا كانت البلاد لم تمتلك بعد الإرادة الكافية للتخلص من ضغوط هذا الميراث، بل كيف الصنيع إذا كنا لانزال نعمل على إعادة إنتاج هذا الواقع المتخلف، بكل مفرداته الطقوسية التبجيلية، والخرافية والسحرية، ولايزال يلاحقنا مئة هم وهم للخلاص مما أحالنا عصر الانحدار إليه، أو أورثنا إياه، فبأيها نبدأ؟.

إن الوضع العقائدي والتعليمي الثقافي والاقتصادي والسياسي، والمجتمع ووضع المرأة وو... الخ كلها حقول تحتاج الى من يلامسها بعقلانية ليرفع عنها ظلامية العصور السابقة. وكيف نبدأ ذلك ولا يزال بيننا أمثال الشيخ محمد متولي الشعراوي ممن يدعون الى العودة الى عصر الرق، فهو يقول: «أما معاشرة النساء الأسيرات معاشرة الأزواج ففي هذا تكريم لهن، إذ يفعل السيد مايفعله مع زوجته»[٥٧]، وأمثال الشيخ الغزالي الذي يحدد الكفار في شهادته أمام المحكمة في قضية أغتيال فرج فودة، بأنهم: «كل من قال بالقانون الوضعي»[٥٨].

وتبدو صعوبة الأمر في أن هؤلاء وأمثالهم لهم الكلمة الأولى في السيطرة على الناس وعقولهم، وأوامرهم وآراؤهم لها صفة القداسة، ولابد للمؤمن إذا أراد أن يكون مؤمناً أن يهتدي بها، طبعاً هذا في عرف العامة الذين يبدع الشعراوي والغزالي تلك الآراء الأكثر شذوذاً وهم يتوجهون إليهم لإنقاذ عقولهم من آراء التقدم لأنها بدع، وبالتالي انقاذ أرواحهم من النار، مما يبقيهم في نار التخلف والفقر في الحياة الدنيا.

كيف نتجاوز هذا الواقع ونحن لانزال نؤدلج كل شيء إيمانياً، حتى القبور والموتى الذين ينالون حظهم من العناية في كل مناسبة، خصوصاً المناسبات الدينية، حتى لو كانوا قد قضوا منذ وقت طويل، فلاتزال عادة زيارة القبور ووضع أغصان الآس الخضراء عليها عادة يمارسها الناس في صبيحة الأعياد، فتغدوا المقابر كأنها تعيش مهرجاناً، ولا يمكن عزل ذلك عن الحالات الايمانية للناس، ولا يقتصر هذا على اتجاه ايماني دون غيره. إن في انتماء المقابر الى عالم العقل الايماني دليل ترابط بينهما، إنه عقل تفوح منه في أكثر الأحيان رائحة الموت في أحد مظاهره وتجلياته، ويعبر عنا موت الخلايا المنتجة للجمال والمجددة لأشكاله في الحياة.

إن التجديد الإيماني قد برز في عصرنا باعتباره أحد العناصر التي وسمت الواقع بسمات واضحة، ولاننسى أن كل حركة تجديد للايمان تقوم على أرضية الاعتقاد بفساد إيمان الناس وانحرافه عن الأصول المتبعة والنصوص المقدسة وتعاليم الآباء والأجداد. وتهم فساد العقيدة والتحلل من الواجبات، والتراخي في تطبيقها، وبالتالي الدخول في الضلال المؤدي الى الهلاك، هو الحجة التي رفعها كل الساعين الى تطويع الواقع لوجهات نظرهم الإيمانية، والذين لايحتملون الرأي الآخر ولايرون أن الإيمان يمكن أن يكون إلا كما يمارسون هم، وكما يرون هم، هذه الحركات بعضها ينتمي الى الصوفية في الأخذ بطرائق معينة في أداء العبادات كالنقشبندية والشاذلية والقادرية وغيرها، وينضوي الناس في ظلها طواعية، بينما نجد غيرها تريد أن تفسر الواقع والناس وتجبرهم على اتباع ماتريد كما في الوهابية مثلاً.

وتكاد تكون الحركات الإسلامية المتشددة المعاصرة، والتي تكفر المجتمع وتسعى للوصول الى أهدافها المصلحية والسياسية عبر القتل والترويع والتدمير، كل ذلك باسم الله وتحت راية الايمان به كما يعلنون، هي اللون الطاغي على اللوحة المشهدية للايمان بما مارسته من عنف وقتل في كثير من البلدان كالجزائر ومصر وتركيا وباكستان وافغانستان، ولاينفي هذا وجود مثل هذه التنظيمات العنيفة في إطار أديان أخرى كالحاصل في ايرلندة مثلاً.

إن الكثير من مظاهر الحياة قد تحولت الى موضوعات ومشاهد وحقول لممارسة وإظهار مدى الالتزام الايماني في معظم المذاهب أو النحل المتفرعة عن كل من الأديان، حيث تشكلت الكتل الايمانية الصلبة، ويبرز الالتزام الايماني في حضور التاريخ وأحداثه بشكل كبير، ولكن ذلك يتم بشكل انتقائي ويظهر في سلوك الناس وحياتهم اليومية، فالناس في البيئات الشيعية أو المتأثرة بالفكر الشيعي، أو المسلمون الذي لايزالون يحفظون في أعماق وجدانهم مشاعر المحبة لآل البيت النبوي ويرون فيهم القدوة والمثال، يظهرون ذلك في ممارسات كالاكتحال يوم عاشوراء ذكرى مقتل الحسين ظناً منهم أو إيماناً بأن العين التي تكتحل في هذا اليوم لايصيبها الرمد، كما كان الناس يمتنعون عن غسل ثيابهم يوم الاثنين لأن الحسين كما قيل قتل يوم اثنين. أليس في مثل هذه التصرفات تعبير عن بقاء الموروث الايماني عبر التاريخ؟.

من المظاهر أو الحقول التي يحضر فيه الايمان بشكل كبير، وتحمل تاريخيتها أشير الى حقل الأسماء (أسماء الأشخاص) التي لاتزال عن سابق إصرار وتصميم، أو بشكل لاشعوري، تستحضر الموضوع الايماني وتجعله متجلياً على سطح الحياة، وفي إطلالة على حقل الأسماء في الإسلام حسب طوائفه تبدو الظاهرة جلية، كما تبدو في حقل الأديان الأخرى، حيث تحيل الأسماء الى موضوع إيماني.

فالمسلم مثلاً ومن أية طائفة أو مذهب كان، يتبرك باسم محمد ويجعله لازمة تسبق أي اسم آخر يختاره لأولاده، ولهذا التبرك دلالته الايمانية، والأسماء التي ترد في حقل الإسلام السني قد لانراها منتشرة بكثرة في حقل الإسلام الشيعي الذي يتوارث أسماء أخرى لها مكانتها الايمانية في وجدانه، ويرى أن البركة والتطهر يتحققان من خلالها ، فالشيعي يرى أسماء علي وحسن وحسين وغيرها من أسماء آل البيت خير ما يطلقه على أولاده، وهذا شعور قار في أعماق وجدانه، ونرى أن بعض أسماء هذه البيئة الشيعية تشير باتجاه الأدلجة أكثر وأكثر مثل عبد الحسين أو عبد الحسن أو عبد الزهراء أو فاطمة الزهراء، وإن كان بعضها يشيع في طوائف أو ملل أخرى. ونجد أثر الإيمان بالأسماء التي تبدأ بكلمة عبد مثلاً كعبد الله وعبد الكريم وعبد الرحمن وغيرها ولدى المسيحي عبد المسيح مثلاً، ونجد الأثر الإسلامي أيضاً في الأسماء المركبة مع كلمة الدين كعز الدين ونور الدين ،فخر الدين... الخ، إذن لانزال نستحضر في أسمائنا وأسماء من نحب مشاعرنا وآراءنا الايمانية، ويبدو في تغييبنا لبعض الأسماء واستحضارنا لغيرها ثقل الموروث التاريخي، بل تبدو مساوئ التاريخ ويحمل أبناء المجتمع أوزاراً ليست أوزارهم بدون كبير جدوى، فما الذي يقدمه غياب اسم كعائشة في بعض الأوساط الإيمانية لقضية الايمان من فائدة سوى إبقاء المشاعر الإيمانية مشحونة ضد هذا الاسم مثلاً لأن شخصية ما حملته في يوم ما ومارست ما لم يرض بعض الناس، إنها عقدنا التي نستحضرها وننفخ فيها الحياة تاريخياً.

هكذا ندخل الايمان ونخرج منه في كل لحظة من حياتنا ، دون الكثير من التفكير بما نعمل والى أين يوصلنا مانعمل، المهم أن نرضي مشاعر الموروث الذي لايبدو كله جميلاً، وهكذا يبدو الأثر النفسي اللاشعوري والشعوري يستحضر القيم من دفاتر التاريخ كل لحظة، ويعيد نفض الغبار عنها وطلاءها بالألوان الزاهية. شكسبير يقول:

(فلان) كالقط يلحس المبرد فيتلذذ بطعم الدم الخارج من لسانه!!.

لايجوز للمسلم أن يوالي غير المسلمين فيتخذ من الكفار الذين يتربصون بالمؤمنين السوء أولياء يصادقهم ويتودد إليهم أو يستعين بهم ويترك إخوانه المؤمنين فليس بين الايمان والكفر نسب وصله، فالآية الكريمة: «لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين...»[٥٩]، «تحذر من موالاة الكافرين إلا في حالة الضرورة وهو حال اتقاء شرهم وتجنب ضررهم أو الخوف منهم فتجوز موالاتهم بشرط أن يقتصر ذلك على الظاهر مع إضمار الكراهية والبغض لهم في الباطن»[٦٠]. يشار الى أن صاحب هذا الرأي أستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة وقد نادى بتلك الفتوى علناً (محمد متولي الشعراوي) في حديثه الأسبوعي بالتلفزيون المصري فأهاج ثائرة البعض، كذلك (عمر عبد الكافي) الذي أعلن هذا الرأي من فوق منبر مسجد من أكبر مساجد القاهرة ثم قام بتعبئته في شريط كاسيت بيعت نسخه بالملايين[٦١].

هكذا يبدو العقل الايماني قيد الاستثمار، وهو يتوالد عنفاً وكراهية ونفياً، ومجتمعات معاقة ينقصها التأهيل.

هوامش الفصل الرابع

(١) – د . طيب تيزيني ، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى ، صفحات متفرقة .

(٢) – فراس السواح ، لغز عشتار – الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة . دار الكندي . طبعة ثالثة ١٩٨٨ ، صفحات متفرقة .

(٣) – د . محمد عابد الجابري ، نقد العقل العربي – تكوين العقل العربي – مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة خامسة ١٩٩١ ص١٤٩ .

(٤) – المرجع السابق ص١٥٢ .

(٥) – المرجع السابق ص١٨٣ .

(٦) – ول ديورانت – قصة الحضارة ، مجلد /٤/ جزء /٣/ عصر الإيمان ، ترجمة محمد بدران ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، طبعة ثانية ١٩٦٤ ص١١ .

(٧) – د . جيورجي كنعان ، أمجاد اسرائيل ، دار الطليعة – بيروت ، طبعة أولى . أيلول ١٩٧٨ .
نقلاً عن سفر التكوين /١٢/ . أيضاً كتابه ، العنصرية اليهودية ، توزيع دار النهار للنشر طبعة أولى ١٩٨٢ .

(٨) – المرجع السابق نقلاً عن سفر التكوين /٢٠/ .

(٩) – المرجع السابق نقلاً عن سفر التكوين /٢٦ – ٦/ .

(١٠) – د . الصادق النيهوم ، إسلام ضد الإسلام ، كتاب الناقد – رياض الريس للكتب والنشر طبعة ثانية ، دمشق . شباط/فبراير ١٩٩٥ ص١٠٧ ومابعد .

(١١) – علي العميم ، العلمانية والممانعة الإسلامية – محاورات في النهضة والحداثة ، دار الساقي طبعة أولى ١٩٩٩ . من لقاء مع الدكتور : عبد الوهاب المسيري ، منشور في الكتاب .

(١٢) – أديب ديمتري ، نفي العقل ، دار كنعان للدراسات والنشر ، دمشق ، طبعة أولى ١٩٩٢ ص٢٨ – ٢٩ .

(١٣) – المرجع السابق .

(١٤) – المرجع السابق ص ٢٢ .

(١٥) – المرجعالسابق ص ٣٤ .

(١٦) – المرجع السابق ص٤٢ .

(١٧) – المرجع السابق ص١٠٦ .

(١٨) – ول ديورانت ، المرجع السابق ص٤٧ .

(١٩) – المرجع السابق ص٨٧ ومابعدها .

(٢٠) – المرجع السابق ص٦٨ .

(٢١) – سمير عبده ، المسيحيون السوريون خلال ألفي عام ، منشورات دار علاء الدين ، طبعة أولى ، كانون الثاني ٢٠٠٠ ص٤٠ .

(٢٢) – المرجع السابق ص٤٢ ومابعد .

(٢٣) – د . تاصيف نصار ، الايديولوجيات على المحك – دار الطليعة – بيروت – طبعة أولى ١٩٩٤ ص٧٤ .

(٢٤) - د . محمد عابد الجابر ، المرجع السابق .

(٢٥) - سمير عبده - المرجع السابق ص٤٤ .

(٢٦) - المرجع السابق ص٤٣ .

(٢٧) - د . محمد عابد الجابري - المرجع السابق ص١٦٣ .

(٢٨) - د . الجابري - المرجع السابق ص١٦٢ ومابعدها .

(٢٩) - مجلة الناقد ، مقال لـ : سليم مطر كامل ، بعنوان : الديانة المنبوذة - المانوية حلقة مفقودة من التاريخ العربي ، العدد / ٧٠/ نيسان/أبريل ١٩٩٤ ص٤٤ .

(٣٠) ول ديورانت ، مرجع سابق مجلد /٥/ جزء /٤/ ص٨٤ .

(٣١) - المرجع السابق ص٨٤ .

(٣٢) - المرجع السابق كجلد /٤/ جزء /٤/ ص١٠٨ .

(٣٣) - المرجع السابق ص٩٧ .

(٣٤) - المرجع السابق ص٢٣٧ .

(٣٥) - أديب ديمتري - المرجع السابق ص-٥ .

(٣٦) - المرجع السابق ص١٣٥ .

(٣٧) - المرجع السابق ص٦٦ - ٦٧ .

(٣٨) - المرجع السابق ص٧٣ .

(٣٩) - المرجع السابق ص٧٣ .

(٤٠) - د . يوسف الحسن ، البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني - مركز دراسات الوحدة العربية ، سلسلة أطروحات الدكتوراه /١٥/ بيروت ، شباط ، طبعة أولى ١٩٩٠ ص١٩ ومابعدها .

(٤١) - المرجع السابق ص٣٧ ومابعدها .

(٤٢) - المرجع السابق ص٩١ ومابعدها .

(٤٣) - أديب ديمتري ، مرجع سابق ص٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٤٤) - المرجع السابق ص٢٥٥ .

(٤٥) - المرجع السابق ص٢٥٦ .

(٤٦) - سمير عبده ، مرجع سابق ١١٨ .

(٤٧) - انظر خليل عبد الكريم ، قريش من القبيلة الى الدولة ، سينا للنشر .

(٤٨) - انظر خليل عبد الكريم ، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية ، سينا للنشر + الانتشار العربي ، الطبعة الثانية ١٩٩٧ .

(٤٩) - انظر بهذا الصدد . د . علي أومليل ، السلطة الثقافية والسلطة السياسية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة أولى - بيروت أيار ١٩٩٦ .

(٥٠) - انظر بهذا الصدد ، فراس السواح ، دين الإنسان ، دار علاء الدين ، ط١ ، دمشق ١٩٩٤ ص٢٧٧ ومابعد .

(٥١) - د . محمد عابد الجابري ، المرجع السابق ص١٦٢ ومابعد .

(٥٢) - المرجع السابق ص١٩٥ .

(٥٣) - المرجع السابق ص١٩٤ .

(٥٤) - نقلاً عن رفعت السعيد . المتأسلمون - الإرهاب والفتنة الطائفية ، دار الأهالي ، طبعة أولى ٦/ ١٩٩٤ ، دمشق ص٢١ ، نقلاً عن الأخبار القاهرية التي نقلتها بدورها عن النيويورك تايمز - من مقابلة مع راشد الغنوشي .

(٥٥) - المرجع السابق ص٣٩ .

(٥٦) - انظر ، عبد الفتاح رواس قلعة جي ، ياقوتة حلب - عماد الدين النسيمي - حياته - شعره -آراؤه الفلسفية ، اتحاد الكتاب العرب ١٩٩١ .

(٥٧) - رفعت السعيد ، المرجع السابق ص١١ ، وكتابه (ضد التأسلم) كتاب الأهالي يونيو /٥٦/ ١٩٩٦ ص١٢ .

(٥٨) - المرجع السابق ص١٥ .

(٥٩) – قرآن كريم . آل عمران /٢٨/ .

(٦٠) – رشاد سلام . تطبيق الشريعة بين القبول والرفض – سينا للنشر . القاهرة + مؤسسة انتشار العربي . بيروت طبعة أولى ١٩٩٧ ص١٦٥ – ١٦٦ نقلاً عن : محمد علي الصابوني . روائع البيان ج١ ص٢٩٩ مكتبة الغزالي . دمشق .

(٦١) – حاشية الصفحة المذكورة من كتاب رشاد سلام . نقلاً عن روز اليوسف العدد ٢٢٨٢ ص١٤ .

الفصل الخامس

العقل الإيماني وصراع الأزمنة*

---

* كان هذا الفصل قد نشر في مجلة النهج /١٨/ ربيع ١٩٩٩ . وقد جرى تعديله .

أردت الحديث عن العقل الإيماني، لا العقل الديني، مع مافي ذلك من صعوبة في الفرز، لما بينهما من تداخل. فالعقل الديني، يطالعنا في النتاج الثقافي - الكتابي، لدين أو طائفة أو ملة من حيث ارتباطها بالإله، ابتداء بالنص المقدس (الأساس، لأن جميع النصوص في هذا المجال تصبح مقدسة) وصولاً الى مادار حوله أو تفرع عنه من قضايا عقيدية وفقهية، ويمكن أن نستطلعه في الأسفار والمجلدات التي لاحصر لها، والتي راكمتها الأيام والقرون في بداية ظهور التفكير الديني المتسق حتى اليوم.

أما العقل الإيماني، فقصدت به، ذاك العقل الذي نقرؤه في سلوك المؤمن، في ممارسته لطقوسه وشعائره، ويظهر في حياته اليومية بمعزل عن النصوص، دون أن يقطع معها قطعاً نهائياً، بل إن له نصوصه التي ينطلق منها، وله نصوصه التي ينتجها، وهو في جانبه الأهم سلوكي إجرائي.

ولاكتمال النظرة الى العقل الإيماني، لابد من الوقوف عند نظرته الى الزمن تلك النظرة المميزة، وكيف يتعاطى في مجاله، بل كيف يوظف الزمن في منظومته.

معروف ما للزمن وتطوراته من تأثير على الأفكار، وحقول المعرفة، وفي الأعم الأغلب ينظر الى الزمن في مفهومه التطوري التعاقبي، بينما نجد الحيز أو الإطار الذي يحتوي الأحداث والموضوعات والأفكار، بل أصبح بحد ذاته فكرة، يتم الصراع حول مفهومها، من هنا جاء تقسيم الزمن في إطاره الى زمن مقبول وزمن مرفوض.

والزمن محايد، لأن التحيز مرتبط بالإنسان وأفكاره، فعندما تضاف الأفكار الى الزمن يصبح متحيزاً، ويتراوح بين الرداءة والجودة، بين السلب والإيجاب، من هنا أصبح مفهوماً مراوغاً.

كثيراً مانعبر عن أن الأيام خدمت فلاناً من الناس، وأن الزمن خان فلاناً، والأيام والزمن براء من الخدمة والخيانة.

لايتميز زمن عن زمن إلا بالأداء الإنساني أو بالأحداث التي تواجه الأفراد والمجتمعات، ولو أن الزمن بقي خارج الوعي الإنساني، لما كان له وجود. وعندما نتحدث عن الزمن، فليس القصد الزمن المجرد، إنما الزمن في علاقته بالناس، وعلاقة الناس به، يميزونه بإرادتهم أو بغير إرادتهم، عن طريق القيام بنشاطاتهم المتنوعة مادية كانت أو معنوية، أي بالدلالات التي أصبح يحملها، ويوحي بها.

نقصد الزمن بصفته ظرفاً، وتاريخاً، أو بصفته إطاراً لأفكار الناس وتطلعاتهم، لا الزمن باعتباره تاريخاً للطبيعة. الزمن في ارتباطه بالإنسان، وتحديداً في بعده الإيماني، لا الزمن في حالة تجرده عن العلاقات والأفكار البشرية.

الزمن فكرة مجردة وعشوائية وغائمة، تفقد معناها ووجودها إذا لم ترتبط بالأحداث، إذن، إن الأحداث هي التي تعطي الزمن بعده ومفهومه، بالتالي يتم التعاطي معه على أساس الأحداث التي تجري بين لحظتين زمنيتين، لا على أساس التجرد منها.

ما قيمة كل القرون التي خلت لولا ماجرى فيها من أحداث؟ إذاً لا وجود للزمن خارج هذا المفهوم الذي تقدمه الأحداث.

الزمن من وجهة النظر هذه ليس واحداً، فهو ملون بألوان الناس وتوجهاتهم وأعمالهم واختصاصاتهم وأفكارهم. فالزمن عند المؤرخ غيره عند ربة المنزل، والزمن عند الأديب والفنان غيره عند التاجر، والزمن عند الملحد غيره عند المؤمن.

وطريقة تعاطي الناس مع الزمن، لايمكن فصلها عن اتجاهاتهم الحياتية، وقناعاتهم واختصاصاتهم وتوجهاتهم، إذ لاشك أن للفلكي وعالم الآثار والجيولوجي نظرة الى الزمن تختلف عن نظرة الصحفي الذي يلاحق اللحظة الحاضرة، وكل يعيش زمنه، الزمن الفكري.

من هنا كان رصد تبدي الزمن في سلوك الناس وقناعاتهم، وكيف ينعكس على الحياة الاجتماعية شيئاً ليس بالسهل، وكما أن لحياة الناس تأثيراً واضحاً في النظرة الى الزمن، كذلك لفهم الزمن تأثير في سلوك قطاعات كبيرة منهم، يتحركون بهدي فكرتهم عن الزمن، ويتوجهون بتأثير قناعاتهم، فقد تحول الزمن عندهم الى أيديولوجية، لا بل الى دوغما لافكاك من أسرها.

هكذا يعيش المؤمن عقيدته، هكذا يتمظهر الزمن في قناعاته، علماً أنه ليس بالضرورة أن تنسجم تصرفاته مع قناعاته النظرية فيعيش التناقض. فلنتوقف عند طريقة المؤمن في التعاطي مع الزمن.

ينقسم الزمن عند المؤمن الى ثلاثة، اثنان مقدسان، والآخر دنس فاسد ملوث، مفسد بالرغم من كونه معبراً الى غيره، ويقرر العلاقة بغيره المقدس.

تتداخل هذه الأزمنة جداً عند المؤمن، ولايمكن الفصل بينها إلا للدراسة، فالمؤمن الذي يستحضر فعلاً مرّ منذ قرون، أملاً بثواب مستقبلي لايعرف توقيته، يعيش الأزمنة الثلاثة في لحظة واحدة، ولا أظن أنه لكل زمن من هذه الأزمنة بعده الفكري وتمايزه في ذهن المؤمن، إنه زمن إيماني واحد ضارب الجذور في الماضي، مستمر الى أن يرث الله الأرض.

ليس الدور هنا للحدث التاريخي، بل لتجلي القدرة الإلهية التي هي أساس شعور المؤمن بالزمن، فالتاريخ وأحداثه لاقيمة لها، القيمة لتجلي المطلق في الزمن. والمطلق هنا هو المطلق الخاص، مطلق الفئة الإيمانية التي ينتمي إليها المؤمن، فلو كان المطلق واحداً لأدى الى شكل من أشكال الوحدة التي لم يعرفها المؤمنون، ولن يعرفوها، لتمسكهم بالخصوصيات التي تصنع الطوائف والاتجاهات.

١ - الحاضر فاسد مفسد

المؤمن لايتصالح مع زمنه في الأعم الأغلب، فزمنه مدان، لأن ولاءه لأزمنة أخرى تتسم بالنقاء. فالنقاء وراءه والخلاص أمامه وهو في مرحلة مخاض. الحاضر نهر متدفق يخوضه الإنسان، كانت ضفته الأولى تحمل الهدوء والطمأنينة والمثال المحتذى، وضفته الأخرى تعد بالخلاص الأبدي، ولايجد الإنسان نفسه إلا وهو يصارع المياه بما تحمله من مخاطر، وكل زلة أو خطأ يجلب له الهلاك. فلا هو عائد الى الضفة الأولى، ولا هو واصل الثانية وكلاهما حلم منشود.

كيف يتصالح المؤمن مع زمنه وهو زمن الشهوات القاتلة؟! لو أقرّ أنه هو الزمن الذي يجب أن يعيشه لما كان له أن يطلب غيره، وهو لايرضى بأقل من الكمال المبشر به، إذاً هو لايستطيع أن يسبغ عليه الرضى، لأنه يسعى الى الخلاص منه عبر طلب

غـيـره، إنه لايسـتطيع طلب الخـلاص من زمنه لأن زمنه لايمتلك مـثل هذا الموعـود، ولايستطيع تحقيـقه، لأن له زمناً آخر قادم، الوصول إليه يكون بمكابدة ومجاهدة الحاضر الفاسد، إنه مشتت بين الزمن الواقع، الذي تصعب مواجهته، وبين الزمن الحلم، الذي يحتاج للوصول إليه الى عناء كبير ومجاهدة ومشقة لايقدر عليها إلا من رحم الله.

المؤمن يعيش الماضي في الحاضر، يستحضره كلما شعر بالضياع، وكلما شعر باللا انتماء، كلما شعر أنه معلق ولا رابط بينه وبين الواقع، إنه يستحضره لينقذ نفسه من هذا الضياع، والضياع هو الحاضر، وهو لايشعر بالانتماء الى الحاضر، ولو شعر أنه ينتمي إليه، لما استدعى الماضي ليخرجه منه، هذا الماضي المحمل بعبق الإيمان والمؤمنين، إذاً فرار المؤمن من الحاضر أو محاولة فراره منه ليلوذ بالماضي، دليل على عدم انتمائه إليه، وعدم رضاه عنه، بل ورفضه، واستبداله بغيره ولو في حالة من الوهم.

إن هذا الشعور بالخوف من اقتلاع الجذور من أرض الواقع، يدفع المؤمن الى محاولة غرس جذوره حيث تعلق هواه، وهذا تعلق زائف، إنه انبتات من الواقع، وما لم يتجذر في الواقع فمن الصعب أن يحقق التجذر في الماضي.

المؤمن يجمد الزمن فلا يؤمن بالتطور سنة للحياة، لأن تفكيره مرهون باعتبار لحظة التدشين (تدشين دينه أو مذهبه أو ملته أو نحلته) هي لحظة النقاء الأولى، وربما الوحيدة، وكل ماجاء بعدها لم يستطع أن يستحضر درجة نقائها.

إذاً هاجسه في حياته الحصول على لحظة النقاء هذه، ولما كان الأمر شاقاً بل يكاد يكون من المحال، لأنه ألغى من تفكيره قدرة البشر على أن يعيشوا لحظة مشابهة لتلك اللحظة بارتباطها بالأشخاص الذين صنعوها، من هنا عمل خياله على خلق البدائل للقبض على الزمن الحلم، فلما كان الأصل محالا، أي لما كانت النبوة محالاً مثلاً، تعلق بالقيامة، أو بالمهدي المنتظر، وهنا نجد من الجدير بالذكر أن نشير الى أن كل جماعة إيمانية لها مهديها، فالأمور معلقة لم تحسم، والإنسان لايستطيع أن يحسمها، إذا لابد من قوة تفوق قدرتها قدرة الإنسان، قوة فوق بشرية تسعى لحسم الموقف، ووضع الأمور في نصابها، بعد أن عم الجور، ويكون ذلك باستعادة الصالح الطيب، والقضاء على الطالح الخبيث، وهنا يتجلى خوف المؤمن من المواجهة مع قوى الشر والخبث، لايستطيع أن يواجهها، لايستطيع أن يقضي على عدوه، لأنه قد سلم بامتداده وانتشاره وهو

ينتظر أن يستولي الشر على كل شيء في الحياة، حتى يكون ذلك إيذاناً بقدوم الفرج الممثل بالقيامة، بالمسيح، بالمهدي، أو بغيرها من قوى الفوق.

المؤمن يحيل المهمة الى تلك القدرة الإلهية الخارقة المتمثلة بهذا القادم في لحظة ما، لحظة مستترة، غائمة المعالم، هذا القادم القادر على كل شيء، المعوض عن فشل المؤمنين في إنجاز مهمة الاستخلاف، لإقرارهم بضعفهم وهزيمتهم، وهذا مايجعلهم عاجزين عن المواجهة عجزاً بنيوياً، فعندما لايصح الإيمان إلا بأن يؤمن المؤمن بأن الخلاص لايتم إلا بقوة ربانية، فإنه في ذات الوقت يقر بعجزه عن زحزحة الشر المؤبد، فمتى تمتلىء الأرض جوراً وظلماً، وينتهي الخير من هذا الكون ليكون على المهدي أو المخلص أن يظهر؟! يا الله كم على البشرية أن تنتظر، وكم عليها أن تتحمل من الآلام أكثر مما تحملت!!.

هل من المنطق أن نحلم ونتمنى أن ينتهي الحق والخير والعدل، ويعم الفساد والباطل والجور، لتحقق حلمنا بقدوم المخلص؟! أليس هذا الحلم حلماً مريضاً؟!

إنها إحالة الى المجهول، المجهول الذي هو المسيح المنتظر عند اليهود، وعودة المسيح عند المسيحيين، والمهدي (سفيانياً أو مروانياً أو عباسياً أو طالبياً) عند فئات المسلمين، هو الذي سيحارب عن الجميع، وهو الذي سيقول وسيفعل ما لا يتجرأ المؤمن أن يقوله ويفعله في الحياة. كل شيء انهزم المؤمن اتجاهه أحاله الى فكرة المهدي المنتظر أو القادم الذي لايواجه. إنه التعويض عن الخور والضعف وتبرير الهزيمة. وليس بالغريب أو المجهول ماتحمله هذه الفكرة معها من الركون الى الكسل، والاستسلام لفكرة رداءة الواقع، وعبث محاولات تصحيحه، لأن التصحيح لايتم بواسطة قوة بشرية عاجزة، إنه تثبيت لمنطق الفساد في الحياة. إذن فكرة المهدي أو المخلص تحمل مرارة الخيبة، والدور الناقص للمؤمن في هذه الحياة، والتبرير للتقصير والعجز وعدم المحاولة لتدارك الأخطاء والأخطار، فهناك من سيأتي ويقوم بهذه المهمة، فلماذا التعب؟!

وكما ينتظر المؤمن مخلصه، فإنه يتوسل الى هدفه بالصالحين والقديسين، ريثما يحدث المطلوب، وبالنظر الى استحالة إحضار لحظة التدشين، بعمقها وظروفها ومضامينها، اكتفى باستحضار، بعض الشكليات، ظناً منه أنه يعوض عما فاته من حقيقة تلك اللحظة.

ربما كان بروز الماضي المقدس في حاضر اليهودي المتدين أو المؤمن للتعويض عن رداءة الواقع وفساده، أكثر وضوحاً، وعلى الحلم بهذا الماضي ووعوده، برزت ضرورة إحيائه واستعادة مناخاته، وعلى ذلك عاش المؤمنون اليهود كغيرهم من المؤمنين، باستغراق أقل أو أكثر في هذا الماضي المستعاد. وهذا مادفع الشكليات الى البروز في عملية الاستعادة والاستحضار الى الواجهة لأن استعادة الحقائق والمضامين الفعلية صعب إن لم يكن محالاً.

لم يغفل اليهودي المتمسك بأهداب دينية (المؤمن) عن أن الزي الذي يلبسه له علاقة بالحضور الإيماني، والالتزام بعطلة السبت بكل مافيها من تفاصيل والتزامات هي جزء من تلك الدوغما الاعتقادية، وهذه الدوغما هي التي تدفع رجال الدين اليهود لتفحص شعر بقرة حمراء اللون بالعدسات المكبرة بحثاً عن أية إشارة أو شعرة فارقة تنقض الإيمان اليهودي بأن المسيح المنتظر سيظهر عقب ظهور بقرة حمراء نقية الحمرة(١). ولا يغيب عن بالنا مدى استغلال الحركة الصهيونية للشكليات التي استحضرها اليهود من الحفريات التوراتية والتلمودية، ليصنعوا منها زمنهم الإيماني، وغيتواتهم العقيدية، وهذا مادفع المفكر الفرنسي «روجيه غارودي» للكتابة عن الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

إن الماضي المقياس الذي باستحضار جزئياته الشكلية حتى يقيس المؤمن مدى التزامه بعقيدته، وبالتالي مدى رضى ربه الذي يعتبر معبراً لزمن اللامسؤولية، يستحضر السياج الذي يصون وجوداً وعقيدة ويطرد الشياطين والأبالسة، ويمنعها من أن ترتع في عقول المؤمنين، وهذا مايدفع المسيحي الى القيام بالكثير من الطقوس، لا بل العادات المكتسبة التي يتوخى من خلالها استحضار الجو الإيماني للمؤمنين الأول، وللمقدسات التي لاغنى عنها.

لنأخذ مثلاً طقس غسل أرجل الناس في بعض المناسبات الدينية من قبل رجل الدين، تعبيراً عن التواضع الذي يميز المؤمن المخلص؛ هذا الطقس لايعطي الثقة بأن هذا الكاهن قد تخلى عن تكبّره وأبدل به التواضع، لأكثر من الثواني التي يستغرقها غسل رجل إنسان آخر في طقس رمزي شكلي قد يكون بعيداً عن عمقه الإيماني المبدئي المرتبط بفكرة التواضع عند المؤمن.

أليست شجرة الميلاد إحدى تلك الرموز التي يتم إحياؤها على نطاق واسع، ومغارة الميلاد رمز ثانٍ، يأمل المتدين المؤمن أن يساهم في شحن النفوس بقيم ارتبطت بهذه الرموز الموحية، بأن ذلك الزمن الموغل في القدم، وبالتالي الموغل في القداسة، لايزال مستمراً. فلماذا لايستمر مايوازيه من الشعور بالرهبة والإيمان والالتزام، وغير هذه الرموز مما يتم استحضاره في الأعياد والمناسبات الدينية كثير ومتنوع، وكله يقصد منه إحياء الشعور بأننا في عصر الرهبة والقداسة، كتناول الخمر والخبز في الطقوس المسيحية، كما أنه إشارة الى إدانة الواقع باستبدال أحداثه ومكوناته بأحداث ومكونات مستمدة من عصور النقاء.

إن التركيز على العقل الإيماني الشكلي الموروث، أكثر حضوراً، وأكثر تأثيراً، في مجال الايديولوجيا الدينية الإيمانية، على حساب الإيمان الشعوري القلبي، فقد توقف المسلمون عند الوضوء كإجراء شكلي له طقوسه، وهي في الأصل طقوس تطهير الجسد الذي يجب أن ينطوي على طهارة جوانبه، أكثر مما توقفوا للتأكد والتأكيد على وجود هذه الطهارة فعلاً، وأن الطهارة الخارجية لاتساوي شيئاً تجاه الطهارة القلبية، وكذلك أحيلت الصلوات الى حركات خاوية فارغة من مضامينها التطهرية الى حركات تشبه حركات القرود كما رأينا في تعبير الشيخ محمد عبده عن ذلك، ووضعية الأيدي أثناء الصلاة في العقائد الموروثة من الماضي الإيماني، أكثر ثباتاً ودلالة من حضور النية الصادقة، ويحاسب عليها المؤمن في مجتمعه أكثر باعتبارها قضايا خلافية شديدة بين طوائف المسلمين، ودليل إيمان أو كفر كما صورتها الأيام، وهي في حقيقتها لاتنطوي على أي بعد قيمي لترجيح وضعية على أخرى ترجيحاً حقيقياً، مثلما كانت قضية رسم إشارة الصليب، وقضية إجرائها بحركة من اليد، مثار خلاف بين الطوائف المسيحية، وكل ذلك تكريساً لموروثات زمنية حفرت مجراها، وعمقت أثرها إستناداً الى الآراء الضيقة الأفق للفقهاء واللاهوتيين.

أما كيف يتعامل المسلم مع الحاضر؟ فالصورة لاتختلف كثيراً عن غيره من أبناء الديانات الأخرى. المؤمن المسلم لم يتصالح مع زمنه الحاضر، ويسعى لإدانة هذا الحاضر، حتى لو لم يصرح بذلك، فتصرفاته وأفكاره توحي بما في أعماقه. وإدانته للحاضر واضحة، في أنه يعيش قيم الماضي وعلاقاته وأسلوبه، في هذا الحاضر، لصالح المستقبل.

إن حلم المسلم الذي لم يستطع أن يستبعده لصالح حلم آخر، يظهر بمحاولة استعادة المشروع النبوي والراشدي، حتى وهو مقتنع باستحالة ذلك، ولما كان عاجزاً عنه في العمق، استعاده على مستوى السطح، أي استعاد بعض الشكليات التي كانت تنسب الى ذلك العصر الغابر والتي فرضتها ظروف الحياة والطبيعة، فإطالة اللحية وحف الشوارب ولبس القصير من الثياب، والإفطار على تمرات في رمضان، وغيرها وغيرها، قضايا لاتحيل الى إيمان في العمق، كما لاتحوّل المؤمن كافراً ولا الكافر مؤمناً، والكثير من المؤمنين يستعيضون بهذه الشكليات عما يعتبر من عناصر الإيمان المنطلق من عقل المؤمن وشعوره، ولما عجز هذا المؤمن عن الإيمان باعتباره فعلاً قلبياً إيمانياً استحضر هذه الشكليات كبدائل توهم بما افتقده، والمؤمن في هذا المجال يعيش تناقضاً داخلياً، فهو في الوقت الذي يصر على استخدام السيف مثلاً في إيقاع عقوبة الإعدام، ولايلبس إلا القصير والخشن من الثياب، تشبهاً بعصر النبي وخلفائه الراشدين، وهي أدوات وألبسة تنتمي الى ماهو بدوي بدائي، وتثبت الواقع عند لحظة رسمتها الأيام في مجرى التاريخ، لايتورع هذا المؤمن عن استخدام آخر ما ابتكرته تكنولوجيا الإجرام من أدوات القتل والترويع لمن يختلفون معه في هذه الشكليات، كما أنه لايتورع عن استخدام أرقى ماوصلت إليه تكنولوجيا الصوت والإضاءة في المساجد والأماكن المقدسة، غير عابئ بأن هذه الأدوات لم تكن على عهد النبي، كما أن استخدام أرقى ماتوصلت إليه تكنولوجيا الكومبيوتر والمعلوماتية في دراسات النص المقدس الذي نزل شفهياً، يبرز تناقضاً آخر بين حياة المؤمن المعاصرة وارتباطه بالماضي في طريقة تعاطيه مع القضايا الإيمانية، فكيف يعيش على هذا المستوى الحياتي، أسلوباً عصرياً متقدماً، ويعيش على مستوى الايمان وفي القطاع ذاته أسلوب وأفكار أربعة عشر قرناً خلت؟.

من هنا يبدأ تناقضه مع نفسه، ومن هنا لم يستطع أن يحيي إلا أكثر الأفكار رجعية وانغلاقاً في تجربة الحياة الإسلامية الماضية، بدل أن يحيي أكثر قيم العقلانية التي برزت جلية في القرون التي اتسمت بالإسلامية فيما مضى.

ليس من السهولة بمكان فهم طريقة المؤمن في ترجمة أفكاره الى أسلوب معاش، والى حياة يومية يريد أن يعيشها دون أن يفرط بالإيمان، إلا بوضع صورة هذه الحياة المعاشة أمام نقيضها، الماضي المثال، والمستقبل الحلم، مما جعلها تبدو مضخمة في

جانب ومقزمة في جانب آخر، أي صورة شوهاء كاريكاتورية تبرزها مرآة محدّبة، وهذه الصورة الشوهاء لاتصنع استقراراً، إنها تكرس القلق بدل الطمأنينة التي يتوخاها المؤمن من إيمانه، ومظاهر القلق عند المتدينين في عصرنا بارزة بحده، وكأن هناك ضياعاً، وكأن أربعة عشر قرناً عند المسلم وأكثر منها بكثير عند اليهودي والمسيحي، لم تكن كافية لإرساء تقاليد إيمانية، ولفهم المقدس والتعامل معه. يظهر هذا في الاختلافات الحادة بين مؤمن ومؤمن، حيث يبدو كل منهما كافراً في نظر الآخر، مع مايستتبعه هذا الوصف من إجراءات لمحاربة الكفر.

أليس هذا قلقاً وعدم استقرار على مستوى عقيدة المؤمن وممارسته؟. من هنا كان المؤمن كثير الاتهام لعصره، ولأبناء عصره، غير قادر على التسامح الذي حاولت الأديان أن ترعاه وتطوره كجزء من الأخلاق الإيمانية، فظهر القلق اضطراباً وعنفاً. المؤمن مشتت، لايريد التفريط بقيم آمن بها وخاف من التخلي عنها، كما أنه لايريد أن يخسر الحياة المعاصرة بما تقدمه من مغريات، ولما لم يستطع أن يزاوج بين الأفقين كان ضحيتهما وكانا ضحيته.

يقول د. نصر حامد أبو زيد مؤكداً عدم تصالح المؤمن مع عصره واتهامه له: «إن الخطأ الجوهري في موقف «أهل السنة» قديماً وحديثاً هو النظر الى حركة التاريخ وتطور الزمن بوصفها حركة نحو «الأسوأ» على جميع المستويات، ولذلك يحاولون ربط معنى النص ودلالته بالعصر الذهبي، عصر النبوة والرسالة ونزول الوحي، متناسين أنهم في ذلك يؤكدون زمانية الوحي لا من حيث تكوّن النص وتشكله فقط، بل من حيث دلالته ومغزاه»[٢]. إن اساءة المؤمن الى النص بربط دلالته ومعناه وتحقق هذه الدلالة وهذا المعنى في زمن مضى، لايوازيها إلا إساءته للنص وللواقع معاً عندما جعل الواقع المعاصر يبتعد عن النص وليس بقادر على أن يجسد معطياته، بل يشكل الحالة النقيض، لارتباط النص بالزمن، وغياب الجدلية عن ارتباطهما ببعضهما.

والسؤال المطروح الآن، هل بمقدور هذا النمط من المؤمنين النهوض بمجتمعاتهم بالمعنى الحضاري للنهضة؟ وفي الإجابة، أقول لا أظن، لأن أول المبادئ التي تحكم عملية النهوض الحضاري هو القناعة بضرورة ذلك، قناعة تولد إرادة، والإيمان بتفعيل قوى الواقع لإحداث التغيير المطلوب، فمن كان يرى أن الواقع فاسد ولاخير فيه، ولا

يعيشه الانسان إلا لتجاوزه، إذ لا مصلحة له فيه، وأن سبيل النهوض ليس أرضياً، وأنه لايمكن الاعتماد على هذا الواقع لإحداث النهوض المرتجى، لايمكن أن يكون سعيه لغير مايؤمن به، أو لغير ماله فيه مصلحة، صادقاً. وبالتالي نفهم سبب الاعاقة التي عانت منها مشاريعنا النهوضية، من أيام محمد علي حتى يومنا هذا. إن هذه الإعاقة مرتبطة بالعقل الإيماني السائد الى حد كبير، والفعل الحضاري يفترض أن يعيش صاحبه حالة تلبس حضاري تشمل كيانه جميعاً، عقلاً وإرادة وروحاً، لايستطيع الفكاك منها إلا باتجاه تفعيلها وإخراجها الى حيز الوجود.

لاقيمة للحاضر عند المؤمن إلا بمقدار شبهه بالماضي، ولا يخلصه من الدنس والفساد إلا قدرات المؤمنين على نفيه وإزاحته من حياة المجتمع والأفراد لصالح غيره.

٢ - الماضي والحنين الى التدشين

لا أظن أن المرء يحتاج الى كبير عناء لإبراز دور الماضي في العقل الإيماني وأثره في حياة المؤمن وقلقه الروحي.

أن يحيل المؤمن قلقه واضطرابه الى طمأنينة، لم يكن بالإمكان إلا بتلبس الماضي، حيث ظهر الإيمان فعلاً جامداً، شيئاً ينتقل عبر الأيام والعصور، وينداح بين الناس بكتلته التي صنعتها الأيام، وبكل ما أضيف الى المقدس من خارجه، حتى كأنه من هذه الكتلة التي بدت عصية الاستيعاب على العصر كما هي بدون رتوش، والعصر عصي عليها بما امتلك من ممكنات لم تكن في حسبانها.

حمل المؤمن الماضي كتلة واحدة في قلبه وعقله دون أن يحاول تفكيكها ليعرف ماينتمي منها الى الثابت وما ينتمي الى المتغير، وبما أن الثابت ليس بحاجة الى التثبيت، ثبّت المتغير، فأحال نفسه وعقيدته الى دوغما.

الماضي زمن التدشين، حيث الدين في أوج حضوره، وشخصياته الأولى تصنع الإنسجام، وتبعد الاختلاف، والمبادئ لاتزال تحتفظ بطزاجتها وبريقها الآسر، والدهشة لاتزال تسيطر على الناس، والشحنة الانفعالية الايمانية الأولى لم تخلِ مكانها لا للمال ولا للجاه، ولم يحن الوقت لالحاق التغير والتبدل على عناصرها. فالتعاليم والنصوص لاتزال في أول أطوار اختمارها، لم تتفتق بعد عن خلافات في الفهم، واختلاف في

المصالح. وعندما أدلهمت الخطوب، وكثرت الخلافات، وفسدت الأخلاق، ولحق التغير كل شيء كان اللجوء الى استحضار هذا المشهد في غير زمانه أو في غير مكانه هو المنقذ الوحيد من الضلال، وربما كان شكلاً من أشكال التعويض.

إن إظهار الواقع قزماً لايثبت في وجه ومواجهة الماضي العملاق، تفرغ هذا الواقع من شحنته الأيجابية الدافعة الى الأمام، وتجعل من ادانته شرطاً مسبقاً لتجاوزه، بل شرطاً لاغنى عنه للانسجام مع صحيح الدين، كما يفهمه حراسه، وصحته مرتبطة بتحققه على أكمل وجه في الماضي.

ببساطة، يريد المؤمن أن يخضع ما تلحقه الصيرورة الى ما لاتلحقه هذه الصيرورة من نصوص يؤمن بأزليتها وأبديتها، فصنع هذه المفارقة بينه وبين الواقع.

إن اليهودي يقوم باستحضار ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى ويوشع وسليمان وداؤود وغيرهم متى كان في استحضارهم مصلحة. ومتى أراد أن يحاكم عصره حاكمه بالمقارنة بما فعلوه باعتبارهم ممثلي السماء في الأرض، والقمم الشوامخ الذين لايطاولهم عاقل، ومتى أراد أن يجيّش ملته في سبيل قضية ما، ألحق عصره بعصورهم، للاقتداء بها، ولكنه لايرى ضيراً أن ينساهم عندما يكون في النسيان مصلحة أيضاً.

إن صورة الماضي كما دشنتها التوراة في سفر التكوين، هي الصورة المعتمدة رسمياً في الأديان الابراهيمية، والجزء الذي ألحقه بالمقدس من هذا الماضي، حمل قدسيته معه حتى يومنا هذا، كما أن الجزء الذي ألحقه بالدنس والفساد لايزال في أذهان حاملي هذا التراث من المؤمنين في الديانات المشار إليها دنساً وفاسداً، وكما أن هذا الجزء من الماضي هو جزء مشترك بين هذه الديانات، فقد كان لكل ديانة ماضيها الذي صنعه مناخها الفكري وظروفها الحياتية، وهنا أصبح ماضي كل ديانة ماضيين، واحد مشترك موحد مع غيرها، وماضٍ ذاتي مستقل مفرد يحمل نكهتها الخاصة، وكلاهما يتمايز فيه المقدس عن الدنس.

إن حضور العقل اليهودي الذي أثر فيه الأسر البابلي وانعكس هذا الأسر في دليله التوراتي بقوة، لايزال يقود تفكير اليهود وطرق معاملتهم لشعوب العالم (الغوييم). إن الحنين الى صهيون وربط حلم الشعب اليهودي بالصهيونية، واستحضار نجمة داؤود لتكون شعاراً ليهود العالم أمثلة حية للحنين الى الماضي، بالإضافة الى كونها رموزاً

تاريخية يعيشها اليهودي المتدين في هذا العصر بعد العديد من القرون، حيث يظهر اليهودي أن الهدف من حياته ونضاله وسعيه وجمعه للمال ومؤامراته وأحقاده وصلواته، وكل نشاط يتصل بكيانه فرداً أو جماعة على المستوى الديني الإيماني، متصل بالحلم في إعادة بناء الهيكل كبيت للرب، رب هذه القبيلة، والذي يرتكز وجوده والايمان به على أساس استغلال الآخرين واستعبادهم أو إبادتهم على يدميليشياه التي يرعاها.

إن الإله القبلي (يهوه)، وعلاقة اليهود بغيرهم من الشعوب، والوصايا، والتحريمات المتعددة، ويوم استراحة الرب، والعلاقة بحائط المبكى وغيره، والأراضي المقدسة، والحدود الممتدة، وما توافق عليه التوراة وما لاتوافق، كل هذه وغيرها الكثير شواهد صارخة على أن اليهودي المؤمن لايزال يعيش في عقله وقلبه عصراً سحيقاً، راكمت الأيام والأحداث الكثير من المقدسات وأضافتها إليه، وإن ماضيه مستمر فيه بشكل سلبي. إنه زمن العقل الإيماني اليهودي العنصري، الذي صنع كل مايؤمن به على صورته ومقاسه، وربطها بالاله، بالتالي أصبحت نهجاً إيمانياً لكل يهودي مؤمن. ومما لاشك فيه أن أي مؤمن من أي دين لايعيش قيم عصر مضى إلا على حساب قيم عصر حاضر، يضطر للتنكر له ولو شكلاً، لأن من يراقب هذه الشريحة يراها تتناقض مع ماتعلن ايمانها به قولاً وعملاً.

لايزال اليهودي في استحضاره الدوري لأحداث الماضي وتمثيلها أو تحويلها الى رموز، يريد أن يرسخ فكرة التمايز عن الآخرين، حتى ولو حملت معها معاني التفرقة والحقد والعنصرية، وأن اختيار العقل الايماني اليهودي لرموز محددة مستمدة من تاريخه وابقائها حية، يشير الى ضرورة التمسك بمنطق التمايز، فالرمز الذي يمثله الخبز الفطير (فطير صهيون) في حياة اليهود الايمانية، يستحضر جو العداء، وشحن النفوس ضد الشعوب الأخرى، بالتالي الحقد عليها، متجاهلاً الأخطاء التي مارستها الجماعة الإيمانية التي ينتسب إليها والتي ساهمت في الوصول الى الحدث التاريخي الذي يترجم دورياً بضرورة التمسك بالتمايز، فالرمز الذي يمثله الخبز الفطير في حياة اليهود الإيمانية، هو استحضار للحظة تاريخية اضطر فيها اليهود للخروج من مصر بأقصى سرعة ممكنة خوف العقوبة التي أراد فرعون أيقاعها بهم بسبب تصرفاتهم وإساءاتهم للمصريين، مما اضطرهم الى حمل عجين خبزهم قبل أن يتخمر أو خبزه قبل تخمره طلباً

للنجاة من المصريين، إن العقل الايماني اليهودي يبرز بذلك مدى الظلم الذي حاق بالجماعة (بني اسرائيل) لكنه يتغافل عن الإساءات التي صنعها الاسرائيليون مع المصريين. إن استحضار هذا الرمز وتكراره، هو وغيره لدى الجماعات الإيمانية، لن يسمح بانتشار مبدأ التسامح والتعايش الذي تحتاجه الشعوب، ويبدو الضرر الذي تحدثه مثل هذه الرموز والاشارات بما تدفع إليه من تجييش ضد الآخر، وهنا يبدو ضرر هذا العقل، وعدم قدرته على إحداث التنمية على أسس سليمة، كيف ولاتزال الاحتفالات تجري في ذكرى الأحداث التي تجعل الأحقاد والعنصرية تستفيق كالاحتفال بذكرى الخبز الفطير سنوياً ١٤/نيسان، ويستمر التعبير فيه عن المعاني والقيم والدلالات (والكثير منها سلبي) لمدة ثمانية أيام وتسمى، عيد الخبز الفطير[٣].

ولايقل حضور الماضي وطريقة عيشه في حياة المسيحي عما هو عند اليهود، فقد زرع المسيحيون التاريخ بالقديسين وأعيادهم والمناسبات الإيمانية والتذكير بها، وأثر إعادة انتاج الماضي يظهر في كل عيد، وفي كل مناسبة، وعند تطويب كل قديس، ومع كل أيقونة، أو مشهد ديني على جدار، أو مع كل كومة عظام لقديس ماتزال تحتفظ بقداسة صاحبها، أو عند كل مزار.

يتحدث ول ديورانت عن حمى اقتناء آثار القديسين وبقاياهم للتبرك واستحضار لحظات النقاء الايماني التي تفعل فعلها في نفوس المؤمنين، فقد كانت عظام القديسين تنقل وتباع للكنائس وللأفراد، وكانت هذه الأعمال الايمانية العبادية مليئة بالغش والخداع، والهدف منها جني الأموال الطائلة، وكانت الكنائس تتكسب من ذلك، وكان شر هذه المساوئ هو تقطيع الأولياء والأصوات ليتيسر لعدد كبير من الأماكن أن تحظى بقطع منهم، بالتالي برعاية هؤلاء القديسين وقوتهم[٤].

إن في مثل هذه الأعمال تغافل عن أن القداسة لاترتبط في شرطها الصحيح بالأشياء المادية، إنها ترتبط بالقيم، واستحضار العظام أو الأغراض الشخصية والمقتنيات التي كانت لقديس ما لايمكنها أن تصنع المعجزات، إنها لم تمنع من انتشار الالحاد في العالم المسيحي في الزمن ذاته حيث انتشرت موجة الارتباط بالقديسيين من خلال اقتناء عظامهم أو بقايا تخصهم، فلقد كان الالحاد موجات عبرت عن نفسها وأفكارها بشكل صارخ في هذا العصر الذي اصطبغ بصبغة الإيمان، وسمي عصر الإيمان[٥].

الماضي حاضر عند المسيحي فيما يتم إحياؤه واستحضاره في كل مناسبة، كاستحضار عذابات المسيح على الصليب، واستحضار رمز أكل لحمه وشرب دمه، وتعاليم الحواريين والقديسين الذين تم على أيديهم تدشين المسيحية كدين وماتفرع عنها من مذاهب، وطقس العماد، والزواج الكنسي... الخ. إنها شهادات حية وماثلة على أن المسيحي المؤمن لايعيش عصره فقط، بل يعيش عصوراً متعددة، راكمت تجارب لاحصر لها، وعادات لاحصر لها، وقيماً لاحصر لها في حياته. ومن هنا يبرز تعدد الانتماءات وتنازعها.

لقد كان بروز الانتماء الى الزمن الماضي بما يحمله من تجارب وقيم أكثر وضوحاً عند المؤمن المسلم في بيئة اسلامية، وازداد بروزاً وحدّةً خلال العقدين أو الثلاثة الماضية، وجاهرت الاتجاهات الاسلامية الأكثر تشدداً، بجميع فئاتها وأحزابها برفضها للواقع المعاش وكل مفرزاته الحديثة، وعاشت تناقضاً مع نفسها ومع عصرها، بالولاء للماضي فكراً وعقيدة وأسلوب حياة، وطالبت بالعودة الى أسلوب ونمط الدولة الإسلامية الراشدية، وعمر قلبها الحنين الى عصر الرسول، فحاولت استعادته مجاهرة بذلك من خلال مشروعها السياسي. ولكن مانود الإشارة إليه هو الحياة الفردية والقناعة التي يعيشها المؤمن الذي لايزال يرى أن الزمن الماضي بأشخاصه وأحداثه عنوان الكمال، ومصدر الالهام، وذروة الكمال، التي لايحلم أحد بالوصول إليها، ويدعم ذلك بأحاديث نبوية تؤكد انتماء المؤمن الصالح الى هذا الماضي، «أصحابي كالنجوم الزهر بأيهم اقتديتم اهتديتم»، «خير القرون قرني ثم الذي يليه...»، «بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ...»، كما يظهر هذا الانتماء بالدعوة الى ملة ابراهيم التي تعود الى ماقبل الاسلام بكثير، والدعوة الى ملة ابراهيم تكريس لاعتبار الماضي دائماً يزخر بالتجارب التي إذا اقتدى المؤمن بها وصل الى مايصبو إليه، وليس بعيداً عن ذلك ارتباط المؤمنين كل في إطار دينه بالحج الى أماكن التدشين وذكريات الأوائل ممن اكتسبوا القداسة بارتباطهم بمنظومة قيم جديدة، بقي للفاعلين الأوائل في ظهور هذه المنظومة كل الاحترام الذي تحول الى قداسة فطقوس، يرتبط بهذه الشخصيات التي كان لها دور فاعل في نشوء مذاهب ونحل جديدة (نشير هنا بالإضافة الى الحج السنوي الدوري الذي يقوم به المؤمنون الى أماكنهم المقدسة، الى

الزيارتين اللتين قام بهما (البابا) رأس الكنيسة الكاثوليكية في نهاية الألفية الثانية، الى أماكن التدشين المقدسة وقد ظهر الالتفاف الايماني حول تقديس الماضي وتبجيله وتأكيد حضوره من خلال هاتين الزيارتين اللتين تجمع خلالهما عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من المؤمنين حول البابا في الطقوس والمراسيم التي أقامها سواء في زيارته الأولى الى مصر وما تحتويه من أماكن مقدسة خاصة تلك التي في سيناء حيث أشارت التوراة الى أن هذه المناطق شهدت معاناة اليهود بقيادة موسى، كما شهدت تجلي الرب لموسى، أو في زيارته الثانية التي عرج فيها على ما في وادي الأردن والقدس وطبريا من أماكن الذكريات التي شهدت الخطوات الأولى التدشينية للمسيحية) ، إذاً لايزال المؤمن في لحظات صدقه الإيماني يحاول استعادة الماضي والتشبث به واستلهام المدد والذخيرة المعنوية منه.

وكما في الديانات السابقة كذلك في الإسلام، فقد أضافت كل طائفة وكل مذهب الى التراث المقدس للدين من أماكن وشخصيات وأحداث ومعاني، تلك الذكريات والشخصيات والأحداث والأماكن والمعاني التي ارتبطت بنشوء المذهب أو الطائفة، وربما حلت بعض هذه الشخصيات والمناسبات مكان شخصيات ورموز أساسية. فالشيعي له تراثه المقدس الذي يرتبط به، وهو مختلف عن تراث السني وزمنه، والشيعي الاسماعيلي مختلف في هذا عن الشيعي الإمامي، والزيدي غير الإسماعيلي وغير الإمامي، وهكذا بقية الفرق التي تنتمي الى الشيعة مثلاً، كما أن مذاهب السنة الأربعة وما تفرع عنها، كل منها تفرز مقدساتها وماضيها وأزمانها وشخصياتها، والجميع في هذا متشابهون، وما أكثر الطوائف والنحل.

إن الإصرار على اعتبار لحظات النقاء الايماني قد عبرت مع عبور لحظات التدشين (ظهور الأديان أو المذاهب في غابر الأيام) يعني تثبيت الزمن وحرمانه من مفهومه التطوري ومعطيات سيرورته بالمعنى الايجابي، هذا المعنى الذي يقصد منه لا الزمن الذي يحسب بالدقائق والساعات والأيام والسنين، بل الزمن باعتباره لحظة تجلي العقل، كما يحرم هذا المفهوم التاريخ من معناه الحقيقي، فالتاريخ يفهم منه أنه حركة تطور الحياة بكافة جوانبها، ونحن عندما نعلن أن هذا التاريخ قد بلغ ذروته في لحظة معينة، وأنه بدأ بالانحدار عن هذه الذروة، ولا سبيل للوصول الى مثلها ثانية، باعتبار أن

العمل الالهي هو الذي أوصل الى هذه الذروة، وتم إغلاق الباب دون المحاولة، فإن الإنسان يفتقد الحافز، حافز التطور وتغيير الواقع، وهنا نرى أن المؤمنين قد سبقوا في هذا المجال كل من قال بنهاية التاريخ، سواء ماركس أو فوكوياما أو غيرهما، وأحالوه الى التراجع والاضمحلال تحقيقاً لمشروع القيامة.

إن الحوافز تبدو خير محرك للتاريخ، والمانع له من التأبيد على حالة واحدة، وما يحرك التاريخ ويجدده، أي يعلن مبدأ التطور فيه، هي الحوافز التي تسعى لتجاوز الماضي، فالأعمال لاتكون عظيمة إذا كانت تقليداً لما مضى، والانجازات لاتكون في المنظور الإنساني جديرة بالاحترام، إلا إذا قدمت للبشرية شيئاً جديداً، وهذا لايصح في إطار العقل الإيماني الذي أعلن أن التاريخ بلغ ذروة تطوره ولا مطمح له في بلوغ هذه الذروة ثانية، وإن هذا قد جرى بقدرات إلهية لابشرية منذ قرون مرت، إذاً ما معنى السعي لتجديد حياة الشعوب انطلاقاً من الاستنارة بالعقل الإيماني الذي أقفل الباب في وجه أي تطور؟!.

إن لحظة اكتمال الدين التي أعلن عنها النبي محمد هي الذروة، ذروة ما بلغته الأديان والتشريعات والحضارة البشرية، يقول (ابراهيم بشير الغويل): «ومعيارنا أو إطارنا المرجعي هو ماشرع من الدين مما وصى به نوحاً... ومروراً بأبي الأنبياء: ابراهيم.. وموسى وعيسى.. وانتهاء بمحمد(ص)»[٦]. ويقول: «فيوم أن أكمل ربنا الدين باختتام الرسالة التي بلغها محمد(ص) كانت البشرية قد امتحنت كل طاقاتها»[٧]، ويقول في ذروة تعبيره عن الفكرة التي نطرحها: «إذ كان رسول الله(ص) قمة الكمال.. وقمة الكمال لا يأتي بعدها إلا النقص»[٨].

إذاً، أي هدف نبغيه في أن يقودنا العقل الإيماني باتجاه تطوري يتجاوز الواقع؟!.

وإذاً، زماننا وكل زمان يأتي بعده، أي بعد القمة هو في اتجاه الانحدار، ومحكوم بالنقص، إنه نقص مؤبد.

ما أردت قوله، هو مايبدو واضحاً وجلياً في حياة المؤمنين الذين يعيشون ماضيهم في حاضرهم، ولا يرون للحاضر فضيلة إلا بمقدار يشبهه بالماضي الذي تراه كل ملة، كل طائفة، كل دين، بشكل مختلف، سواء كان ذلك في الأديان السماوية الإبراهيمية أو في غيرها من الأديان، وهذا ما أحال حياة المؤمنين الى مفارقات وفي أحيان كثيرة الى

ضياع، نتيجة تنوع الولاء وتنازعه، وعدم القدرة على تحديد الانتماء أحياناً، ولايغيب عن بالنا الصراعات التي حصلت فيما مضى بين الطوائف وما هو حاصل بينها الآن، لا بل ماهو حاصل بين من ينتمي الى الزمن الايماني وبين من ينتمي الى العصر.

٣ - المستقبل والوعد بالخلود

لم تشغل بال الإنسان على امتداد الحياة البشرية فكرة كما شغلته فكرة الخلود، ففي سبيلها كان مستعداً لكل تضحية، وقد أرعبه منطق الفناء، وبعد أن جرب حظه في المعارك التي خاضها من أجل الاستمرار (اسطورة جلجامش) اقتنع ربما بأن قضايا كهذه لاتؤخذ غلاباً، وهذا مادفعه الى أن يحيا فكرة الخلود على مستوى آخر، وكانت الأديان هي التي مهدت له الطريق ليحيا هذه الفكرة حتى الآن على المستوى النظري وهو لايدري إن كان يحياها على المستوى العملي، فسلفه الأول آدم، عاش التجربة مغايرة، ووعد أخلافه - حسب منطق التوراة - بحياة مثل حياته في الجنة إذا هم ناضلوا وقدموا الفروض المطلوبة.

لقد أخرج الله آدم من الجنة عقاباً له على تلك الخطيئة القاتلة، واستمرت العقوبة تتوارثها ذريته، ويحملون وزرها، ويعاقبون من أجلها، مما أحال حياة الإنسان الى نضال مرير لا انقطاع فيه، في سبيل العودة والقبض على اللحظة المضيّعة، التي دفع الناس ثمناً غالياً لها، صبغ التاريخ باللون الأحمر. وبدأت الأديان كل بدوره يضع شروطه على الإنسان ليحصل على جواز المرور من دار الفناء الى دار البقاء، وهذا الجواز يحتاج بصمات وتواقيع أكثر، أين منها معاملات زماننا الراهن وبيروقراطيتنا المتخلفة، لكنها معاملات ومجاهدات على مستوى آخر، لايجتازها أصحابها إلا بأداء الفروض، وإلغاء الآخرين، وتكفيرهم، والطعن بهم، والإيمان بأن الحقيقة ملكية خاصة للمسيطرين على الواقع والموجهين له.

إنها طريق وعرة من أجل حلم جميل. إنها الجنة، والخلود الأبدي، المستقبل، المستوى الثالث من المستويات الزمنية التي تتنازع عقل المؤمن وقلبه.

لكل دين جنته، بل لكل طائفة أو جماعة دينية، وبالتالي له طريقه المحدد الى هذه الجنة، وهو طريق عبّده الصالحون بعد أن رسموا معالمه وأحاطوه بالأسيجة والتخوم،

التي يعني تجاوزها أو الاقتراب منها فقدان هذا الطريق، بالتالي فقدان الجنة، إنه طريق له لون الرغبات والمصالح، بل لون البشرة، ورائحة الانفاس اللاهثة، إنه طريق مرسوم بدقة، وبالتالي فإن المؤمن يعيش حلمه المستقبلي، وينتعش هذا الحلم في داخله أكثر، كلما كان أداؤه على مستوى احترام الزمن الماضي في حاضره وطريقة عيشه وعلاقاته أكثر حرصاً ودقة؛ أي كلما كان المؤمن أميناً على عقل الاسلاف، ملتزماً نهجهم حتى في أبسط القضايا الشكلية، ما ضوي التفكير والرؤية، كان حظه من الزمن المستقبل، الزمن الحلم، أكثر، لمقدرته على تحقيق الشروط وفك الطلسمات والشفرات الموضوعة للانس والجن.

الزمن الثالث، زمن الحلم، جميل، ربما كان مرتبطاً عند اليهودي بظهور المسيح الذي يرى أنه لم يظهر حتى الآن، وعند المسيحي، ربما كان مرتبطاً بالقيامة، أي بعودة أخرى للمسيح، وعند المسلم بالنفخ في الصور، وعند المسلم الشيعي بظهور المهدي المنتظر، إنها علاقات تبدل الزمن، إنها أشكال من الإحالة للفقراء بأن زمن خلاصهم قادم، لينسوا عذاباتهم، وليتحملوا القهر والحرمان، وهم يرون غيرهم مؤيداً بالجاه والمال مع أنه نسي فروضه الدينية، وليتقاضوا أجورهم طالما أن غيرهم قد تقاضى أجره في الحياة الدنيا، وربما تمنوا ذلك، وهناك بعض الملل التي تؤمن بأن هذا الجزاء لايكون إلا في الحياة الدنيا ويتخذ أشكالاً أخرى كالتقمص أو غيره.

المهم أن المؤمن يعيش هذا الحلم، وموقع الحلم هو المستقبل، إذاً فالمستقبل هو الزمن الثالث الذي على المؤمن أن يعيشه إضافة الى الحاضر والماضي.

إن منطق الاغراءات التي استخدمتها الأديان كحوافز للمؤمنين، بقي الكثير منها يدور في إطار الحسيات التي تخاطب الغرائز، وهذا دليل على دنيوية الحلم الذي لم يجد السبيل الى التحقق في الحياة الدنيا، فأحيل الى الآخرة، وطلب من المؤمن أن يجاهد في سبيله أكثر وأكثر وينتظره أكثر وأكثر، فالطعام والشراب والمغريات الجنسية كانت في صلب الخطاب الديني الدافع للناس باتجاه الإيمان، منهم من حقق هذا الحلم، وعاش هذه المغريات في حياته الدنيا، ومن لم يستطع ذلك فلا بأس أن ينتظر، المهم أن يبقى مطمئناً، فسيتم تبادل المواقع بين الفقراء والأغنياء في الآخرة، ولاشك أن الخطاب الديني، فيه مافيه من الإشارة الى صغر الاهتمامات التي تشغل بال الانسان الذي يعبر

وصـوله الى الجنة عن أن عـلاقـتـه بربه كـانت فـوق مـسـتـوى القـيـم المادية، والملذات الدنيوية، وهذا المنطق هو الذي حدا بالمتصوفة وبعض الفرق الإسلامية وغير الإسلامية الى القـفـز فـوق هذه اللذة المادية أو العـلاقة الحسـية، وأظن أنهم اعـتـبـروا من ضـمن اعتباراتهم أن المكافأة المادية تتناقض مع الهدف المعلن للمهمة العبادية التي تقطع مع ماهو مادي، متجاوزة المادة الى ماهو أسمى. كما عبرت بعض الأديان عن ضرورة وصول المؤمن الى زمن الخلاص الروحي (النيرفانا) عبر المكابدة، لارتباط المادة بالدنس وعالم الشهوات التي تمنع المؤمن من الترقي، وبالتالي كلما اقترب منها ابتعد عن عالم الروح اللامادي، والعكس صحيح أيضاً.

إن الاعتماد على مابين أيدينا من نصوص لايسعفنا في رسم صورة ليست المادة أحدى عناصرها لعلاقة المؤمن بربه طالما أن أجره سيحصل عليه من الحور العين والولدان المخلدين والكثير من الخمر والعسل واللبن.

ولم يكن الوجه السلبي (الآخر) للزمن المستقبلي (النار - جهنم) يبتعد عن منطق الحسيات، فجهنم تشكل الوجه الآخر من صورة المستقبل كزمن يعيشه المؤمن على مستوى هواجسه وتفكيره، والعذاب الجسدي الحسي هو المعطى الأساس لذلك الوعيد الالهي، ولا ننس أن الإنسان لايستحق العذاب الجسدي إلا إذا عاش حاضره بعيداً عن منطق الرعب من النار، وإلا إذا فشل في الامتحان، امتحان ضبط الغرائز والشهوات المادية، وبالتالي عندما لايستطيع أن يعمل في الزمن الحاضر لصالح زمن آخر قادم ربما.

إنه الضرر الذي يحيق بالجسد في حالة السلبية (الكفر) مقابل طمأنينة هذا الجسد ودوام شبابه وتمتعه بالملذات في الحالة الإيجابية (الإيمان) والصورة (الوعد) لاتنفذ الى المستوى العقلي أو الروحي إلا جزئياً وعند بعض الطوائف أو الفئات.

إن الزمن المستقبل عند المؤمن بما حمله من صور النقيضين، اللذين شكلا طرفي المعادلة، الجحيم - النعيم، الجنة - النار، كانت صياغته لهذين النقيضين، وتصويرهما من قبل النصوص الدينية، لها فعل السحر، ومع كل مالها من تأثير، فقد راكم الخيال الشعبي على مدى القرون، مايزيد هذه الصورة حدة وبروزاً، وشرح الشراح، ما كان مبهماً أو غير واضح في رسمه لصورة المستقبل، حتى بدا هذا الزمن الحلم على مقاس

الناس، وأقرب الى صورهم الإنسانية المليئة بانفعالاتهم أكثر مما هي قريبة من صورة زمن إلهي.

إذن، كلما اقترب المؤمن من الزمن الديني الايماني ابتعد عن الزمن الدنيوي (الواقع) ومن ابتعد عن الواقع، لن يكون فاعلاً فيه، ويصح عكسه.

بالعودة الى منطق الحافز المباشر نجد أن تفريغ الحياة من حوافزها المباشرة يتناقض مع منطق الثواب والعقاب الذي يعتبر أحد ركائز العقل الإيماني، فكيف يمكننا أن نعرف فيما إذا كان هذا الإنسان قد قام بفعل الخير ويجب أن يثاب عليه، أو قام بفعل الشر ويجب أن يعاقب عليه، إذا انعدمت حوافز العمل الإنساني في الحياة التي يحياها الإنسان؟.

لقد علمنا الدين أنه بناء على هذه الحياة وفعل الإنسان فيها يكون حسابه الأخروي، هذا بالمنطق الايماني، فإذا تم تفريغ الواقع من حوافز الإبداع والعمل في الحياة الدنيا، وركن الإنسان الى الكسل، وعدم تقديم الانجازات الجديدة فعلام سيحاسب؟

إذن، إن العمل على إحياء الماضي وعدم تجاوزه يحمل في طياته نقضاً لمبدأ الحساب والعقاب كحصيلة للاحسان أو الاساءة، والإحسان والإساءة لايكونان في الثبات على قيم تمت معرفتها واختبارها ومدى انسجامها مع الإيمان، بل يكون في الاتيان بما هو جديد، ومعرفة مدى انسجامه مع هذه القيم الإيمانية.

ثم إن هناك تناقضاً آخر مع تاريخية الفعل الإيماني المتسم بالتطورية، فالمسيحية جاءت نقضاً لليهودية، والإسلام جاء نقضاً لهما معاً، إن هذا الخط التطوري يقطع مع تكريس قدسية الماضي، باعتبار أن هذا الماضي ينقض جديده قديمه، كما أن تكريس قدسية الماضي والعودة إليه كمدخل للايمان الصحيح يقطع مع دعوة الأديان الى التطور والعمل الصالح.

لقد اتسم حديثنا بالتعميم، ولاشك أن التعميم يحتمل الخطأ، لكن الغلبة دفعت الى ذلك، والغلبة لاتعني الإطلاق، والواقع يقدم لنا حالات كثيرة كانت مثالاً لمحافظة أصحابها على روح إيمانية نقية وإيجابية، فهم يعمقون تجربة العصر علمياً وفكرياً في حياتهم ومجتمعاتهم بكثير من العقلانية، وبعيداً عن الشعور بالتناقض بين الاتجاهين، ولاشك أن غلبة هذا التيار وانتشاره، ينحو بنا باتجاه العصر، ويحافظ على الهوية

المهددة.

متى سيكون الإنسان في حياته الأولى هدف العقل الإيماني، بدل الإنسان في حياته الأخرى البعيدة؟!.

هوامش الفصل الخامس

(١) – الخبر تناقلته وسائل الإعلام عام ١٩٩٨ . وقد ذكرت الأنباء أن البقرة الحمراء كانت في حيفا حيث أسرع حاخامات لفحص شعرها بالعدسات المكبرة كل بدوره ليتأكد أنها البقرة الموعودة ، أيذاناً بظهور المسيح .

(٢) – د . نصر حامد أبو زيد ، مفهوم النص – دراسة في علوم القرآن ، المركز الثقافي العربي ، طبعة أولى ، حزيران ١٩٩٠ ص٢٢٢ .

(٣) – ول ديورانت ، قصة الحضارة ، مجلد / ٤/ جزء /٢/ عصر الإيمان ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، ترجمة محمد بدران ، طبعة ثانية ١٩٦٤ ص٢٧ .

(٤) – المرجع السابق مجلد / ٤/ جزء /٥/ ص٢٥ .

(٥) – المرجع السابق ص٨ – ٩ .

(٦) – ابراهيم بشير الغويل ، نحو « أو مشروع » الطريق الثالث ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت طبعة أولى ١٩٩٩ ص٦١ .

(٧) – المرجع السابق ص٦١ .

(٨) – المرجع السابق ص٦٤ .

الفصل السادس

العقل الإيماني والتنمية

الأسئلة الكثيرة التي تثيرها دراسة العقل الايماني، يفتتحها ويأتي في مقدمتها السؤال الأهم، والذي تعتبر الإجابة عليه مدار البحث والهدف الأساسي منه: لماذا ندرس العقل الإيماني؟ ما الغاية من إثارة الموضوع الشائك؟ وهل لانزال بحاجة الى مثل هذه الدراسات التي تجعلنا نلتصق بقضايا نجد في واقعنا ماهو أهم وأكثر إلحاحاً وأقرب الى روح العصر ومنطق العصر منها؟.

لا أظن أن دراسة العقل الإيماني خارجة عن منطق العصر، لشدة حضوره في العصر، ولا مانعة من التفكير والانشغال بغيرها، كما لا أظن أننا وصلنا الى الحد الذي نشعر فيه أننا تخلصنا من تبعات هذا العقل وسيطرته على التفكير وأسلوب الحياة، خاصة بين القوى التي تؤلف الكتلة الشعبية الأكثر انتشاراً أو تأثيراً.

لانزال نجد هذا العقل يشكل أكبر إعاقة في كل مستويات ومناحي حياتنا، وهذا مايولد الإصرار على محاولة معرفته أكثر، ولن تتم معرفته دون تحليله والإحاطة بالقضايا التي يفرزها أو يقع على تماس معها، في ساحة الحياة. من هنا جاءت أهمية علاقته بموضوع التنمية، وموضوع التنمية، هدفاً ووسيلة هو الإنسان، والعقل الإيماني هو طاقة ومفاعيل إنسانية، لايمكنها أن تتبدى في الطبيعة إلا من خلال الإنسان، وبه.

لقد فهمت التنمية مذ فكرت فيها، أي منذ ألحت على ذهني، كإنسان مشغول بقضايا الثقافة والواقع، وباعتبارها تشغل عقل هذا الجيل، فهمتها أنها «تجاوز الواقع» وهذا الفهم يحمل مفهوم عدم الاقرار بما هو موجود، إلا بمقدار السعي الى تجاوزه، وإلا لكان فهمي فهماً إيمانياً، لقد كنت أصر على هذا الفهم للتنمية، ولا أزال أراه فهماً صالحاً للمناقشة، مناقشة، ما التنمية؟ وما متطلباتها؟ وماذا أريد منها؟.

بأي معنى أفهم تجاوز الواقع؟ إذا كنت أفهمه أو نفهمه على أنه الواقع المادي والحياة المادية معراة عن بعدها الآخر الأكثر التصاقاً بالإنسان، فربما كنا في طريقنا الى

هذا التجاوز، أو ربما سرنا في مساره شوطاً، إذا كنت أفهم أن التنمية عمارات وشوارع وسيارات وأزياء وكهرباء فقط، فقد نعمنا بها جزئياً، ولكن هذا الفهم يغفل أننا امتلكنا هذه المنتجات امتلاكاً استثمارياً، ولم نمتلكها امتلاكاً حضارياً، أي فكراً وإنتاجاً، كما أنه يغفل البعد الإنساني فيها، حتى لو كانت كل هذه التنمية التي تطال المادة وأسلوب الحياة الاقتصادية هي من أجل الإنسان.

يقول تعريف للتنمية، إنها «العلم حين يصبح ثقافة» والتعريف على مافيه من قيمة فكرية، يحيل الى العلوم التطبيقية، ويعطيها السيادة، والواقع يحتاج لتجاوز مشاكله لا الى العلم فقط، بل أيضاً لاستثمار العلم استثماراً عقلانياً، لا استثماراً إيمانياً، فعند إخضاع هذا التعريف للنقد وجدناه قد قصر عن إدراك دور التنمية ومتطلباتها، ووجدنا أن الأحداث برهنت على سقوط هذا الفهم أمام التجربة، فالجماعات التي فهمت الدين فهماً إيمانياً تسليمياً لاعقلانياً، خضعت للدراسة مرات ومرات، وقد جاءت الدراسات التي أجريت على هذه الجماعات المتطرفة في مصر لتشير الى أن الغالبية من عناصرها، حازت على مستوى علمي جيد وتحديداً في العلوم التطبيقية (الرياضيات، الهندسة، الطب، الصيدلة...) بل الكثير منهم تتمتع أسرهم بهذه الصفة، صفة الانتماء الى العلوم الحديثة. من جهة الأب أو الأم أو الأخ الأكبر أو معظمهم[١].

لقد حصلنا على خيبة الأمل من هذه العلوم، حين تحولت الى ثقافة لكنها لم تستطع أن تحصّن أصحابها، ولم تستطع أن تصنع الأفق الحضاري الذي صنعته هذه العلوم ربما في مجتمعات أخرى، إذاً بانتشار هذه العلوم بشكل واسع اجتماعياً، لم نستطع تجاوز الواقع الذي نعيشه، أي لم تحصل التنمية، لأن العقل الذي تلقى هذه العلوم المعاصرة لم يتلقها تلقياً تغييرياً، فبنيته الأساسية استاتيكية قارّة تغلبت على السمة التغييرية التي تنطوي عليها هذه العلوم، وربما كان تحولها الى ثقافة تحولاً سطحياً.

إن فكرة تجاوز الواقع، كمفهوم تهدف إليه التنمية، لايمكن فهمه فهماً تغييراً تنموياً إلا محكوماً بطاقة إيجابية، وتوجه الى الأمام، الى انعتاق الإنسان وتحقيق إنسانيته أكثر وأكثر، والحلم والطموح، أي عدم الركون الى مستوى معين وصلناه، لقد

نقل عن المفكر والأديب المسرحي الألماني برتولد بريخت ما معناه أنه لن يكون مسروراً إذا علم أن مسرحياته لاتزال تمثل بعد عشرين عاماً - وهو موضوع يحلم به أي مؤلف مسرحي - لأنه عند ذلك سيعلم أن المجتمع الذي جهد لتغييره لم يتغير بعد، وهنا ندرك عمق الأدراك لدور الأدب والفكر، ونعرف أنهما من منطلقات التغيير التي يجب أن تثمر تغييراً أي تنمية وإلا عدّت الثقافة فاشلة.

التجاوز ليس محكوماً أو محدوداً بحد معين أو بدرجة معينة، وليس له مقياس يشير الى الامتلاء أو الانتهاء أو الاكتفاء، فالتغيير يحكمه ويضبطه جدل العقل مع الواقع، إنها عملية صيرورة مستمرة.

١ - التنمية وعقدة الإغلاق

لقد تتالى ظهور الأديان عبر التاريخ المديد للبشرية، وقد كان الهدف المعلن، والمتضمن في أدبيات وفكر ورؤى هذه الأديان، تغيير الواقع، تجاوزه تجاوزاً إيجابياً، الى ماهو أفضل، الى أفق يفصح عما هو أكثر إنسانية وانعتاقاً.

حتى في المفهوم الذي يطرحه الاسلام باعتباره آخر الأديان السماوية، وتطرحه قبله المسيحية، فلقد جاءت المسيحية لتتجاوز وتغير ما أصبح يعيق حركة تقدم الإنسان في اليهودية السابقة لها، لقد كانت حركة من شأنها إنجاز تغيير يتجاوز ماظهر أنه يعيق حركة تقدم الإنسان وخير البشرية، وجاء الإسلام في مرحلة تالية، جاء يحمل مفهوم الاكتمال والاختتام، فهو يعلن أنه حركة من شأنها تجاوز ما لاينسجم مع تغيّر الواقع من الأديان التي سبقته، وإن التجاوز والتغيير باتجاه ماهو أفضل حتماً، لكنه وبحزم أعلن إغلاق الباب في وجه أية محاولة قادمة للتغيير على هذا المستوى، المستوى الديني.

هنا لايخفى أن الإسلام تم إغلاقه وإعلان اكتماله (نهاية تاريخ متقدمة) بما تضمنته نصوصه الأساسية (القرآن والحديث) وما ينسجم معهما، ويعتبر هذا الفهم أو هذا الاغلاق، مثار نقد، من زاوية أن مايتناهى (النص) لايحكم ما لايتناهى (الواقع)، فالحياة متغيرة متطورة، ديناميكية، والنص ثابت قار لايمكن التغيير والتبديل فيه. من هنا أصبحت النصوص بمثابة عامل تجميد للحياة والواقع اللذين يحتاجان الى استمرار التغيير.

ليس في مقدور الأديان أن تعلن أنها لاتعني فيما طرحته مفهوم الاكتمال، ليس في مقدورها لأن ذلك يعني أنها محكومة بالنقص، وما هو محكوم بالنقص لاينتمي الى المتعالي، بالتالي لاتكون أدياناً إذا هي قبلت الاتهام بالنقص أو أعلنته، لأن النقص من ميزات البشري لا مما ينتمي الى المقدس، الى المكتمل والمتعالي، ولهذا كان إعلان كل دين أنه الغاية، غاية مايمكن أن يصل إليه التطور والتفاعل بين الدوني والمتعالي.

لقد أفتتح كل دين من الأديان بل كل مذهب من المذاهب المتفرعة عنها (باعتبارها صيغ إيمانية لهذه الأديان)، أفتتح كل منها منظومته الفكرية والعقائدية، حتى إذا اكتملت، وضم إليها ما انسجم أو ما لم ينسجم، تم إغلاقها، تم الإغلاق على ماهو مقدس، أي إغلاقاً محكماً، لايمكّن من الاختراق دخولاً أو خروجاً، باعتبار إلهية المنظومة، ولكن قد تتم بعض الاضافات والتحويرات التي تصنعها الأيام في إطار المنظومة، وتدخل الى كتلتها بالاكتساب، وهنا تظهر لعبة المصالح والتقاليد وأثر الاحتكاك. مايهم من كل ذلك أن التنمية من الصعب أن تفعل فعلها في إطار الحالات الاستاتيكية المتصلبة، إنها لكي تحقق الاختراق وتفعل فعلها، يجب أن يتم ذلك في إطار منظومات ديناميكية، تفسح المجال للحركة والتغير، من هنا نجد أن هذه المنظومات الإيمانية تفتقد الأرضية، أي الإطار العقائدي والمنطقي والمفاهيمي الذي يصح اعتباره أساساً يمكّن من الانتقال الى حالة تنموية.

أليس في هذا مفهوم الانغلاق وقطع الطريق لكل تطوير؟ أليس في هذا تناقضاً ما؟ فإن كانت الأديان قد جاءت مبشرة بتجاوز الواقع وتغييره الى ما هو أفضل، بما لايقاس، لأن هذا التغيير يبعد الإنسان عما هو دنس لالصاقة بما هو مقدس ومطهر، بما لايجوز تجاوزه مستقبلاً، ففي تجاوزه خروج على الإرادة الإلهية، وهذا يدخل عالم المحرمات. من هذه الزاوية نفهم كيف أن الأديان خاصة عندما تتحول الى إيمان قار، قد سمّرت الحياة عند وضع معين بعد ما أعلنت أنها جاءت في الأصل لتغييرها، والتسمير أو التثبيت هنا محكوم بالقداسة، هل يقر يهودي أو مسيحي أو مسلم مؤمن أن هناك ماهو أفضل من دينه وعقيدته؟ كيف يمكن أن يبرر التمسك بهذه العقيدة إذا هو أقر وآمن أن هناك ماهو أفضل منها، ألا يكون ذلك طعناً وانتقاصاً من قداسة إيمانه المعلنة؟.

إن إقرار المؤمن – كل مؤمن – في إطار كل الأديان، أن دينه هو الأفضل والأكثر اكتمالاً، وتجاوزه غير ممكن، واكتماله ونهائيته جاءت بتوقيع إلهي، لا حيلة لبشر في تجاوزها، يحمل في طياته القطع مع أي تطور، أي مع أي تجاوز قادم، ومفهوم التنمية مرتبط كما أشرنا بمنطق التجاوز، إذاً لن تكون هناك تنمية، على الأقل حسب منطق الأديان التي صنع كل منها أو كل فئة إيمانية طائفية في إطار أي دين منها سياجه العقيدي الدوغمائي (حسب التعبير أو المصطلح الأركوني)، أي غير القابل للاختراق والتغيير والتبديل.

إن الحلم بتنمية لاتنطوي على تغيير أمر غير ممكن، لقد رأينا كيف أن مفهوم التنمية يحمل في طياته مفهوم الزيادة، والزيادة تعني التغيير أيضاً، إنها الإضافة على الواقع، والأديان أو المذاهب والاتجاهات الايمانية المغلقة لاتحتمل الإضافات، إذا لاتحتمل التغيير والتجاوز، وبالتالي لاتنسجم مع التنمية بمفهوم التنمية الأكثر ديناميكية.

ربما لن يوافق المؤمنون على هذا الاستنتاج، لأنه مربك لهم، وفيه إدانة، ولن ألومهم على عدم موافقتهم، لعلمي أن كل شيء في قناعاتهم قد تم تثبيته، إن المؤمنين يرون أن الحياة في ظل مفاهيمهم ستزدهر، وستتطور وتتغير، ناسين أن كل تطور، كل تغيير، بالتالي كل ازدهار، يحتاج الى تغيير في التفكير، وفي النهج وفي المفاهيم العقلية القارة، يحتاج الى الأرضية الفكرية التغييرية التي يستند إليها وينطلق منها، أي الى القاعدة، وهذا ما لايمتلكونه ولايستطيعون إعطاءه، إنه محكوم بالاستحالة.

قد يقول قائل لقد حملت الثورة اللوثرية البروتستانتية معها رياح التغيير لأوربا، أو ربما كانت نتاج رياح التغيير التي بدأت تتولد وتهب في تلك البيئة، واللوثرية وغيرها من حركات الإصلاح الديني كالكالفينية هي في الأساس حركات مسيحية إيمانية أصولية بحتة، ولايقل تزمتها وانغلاقها عن غيرها من المذاهب والاتجاهات الايمانية، إلا أن الادعاء بأنها حملت رياح التغيير وقادته ليس دقيقاً، الأصح أن نقول أنها ساهمت في صنع مناخ أفادت منه قوى التغيير التي بدأت تتخلق وتتطور وتتفاعل في أحشاء المجتمعات الأوربية، لقد شجعت على ذلك بعد أن قادت التمرد على السلطة البابوية الجبارة، والتغيير اللوثري ضمن إطار البوتقة الإيمانية لا خارجه،

لم يكن هو فاعل التغيير، بل ربما أعطى المؤشر أن التغيير ممكن، فقامت قوى التغيير الرأسمالية المتخلقة خارج الإطار الإيماني بتحركها، وحصراً بالضد لما يعتمل داخل هذه البوتقة، وبالنقض لقناعاتها وأدواتها، ففي الوقت الذي جاءت البروتستانتية فيه تبشر بالتغيير على المستوى الروحي المعنوي، أو يمكن أن نقول أن تغييرها كان في جزء من البنية الفوقية، فإن قوى التغيير في المجتمعات الأوربية بدأت تتجاوز واقعها بالتغيير في إطار البنية التحتية المادية بتوظيف رأس المال، وتحكيم العلم بادارة دفة التغيير. بهذا المنطق نرى أن التغيير جاء من خارج العقل الإيماني، وبالضد منه، وإن يكن المناخ واحداً، وإن من يحاول إلصاق عملية التغيير به لاشك سيكون مغالطاً للحقيقة وواهماً.

من هنا وعند المفصل الهام، يمكن أن نشير الى أن القوى التي أثبتت أنها مستعدة وقادرة على قيادة عملية تغيير أو تنمية حقيقية هي قوى دنيوية، إنها الأحزاب وقوى المجتمع المدني الأخرى، التي عرفت كيف توظف وتستثمر الطاقات الخلاقة. ولابد من الإشارة هنا الى أن الكثير من هذه القوى جربت أن تحول برنامجها ورؤيتها الى عقيدة، الى ايديولوجيا، فأوقعها ذلك في إطار الإيمانية والسياج العقيدي الدوغمائي، متشبهة بالأديان بشكل عفوي أو عن سابق إصرار وتصميم، بالتالي لاقت الفشل في تجربتها، ويعتبر فشل التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وبلدان ما كان يدعى المعسكر الاشتراكي الأخرى مثالاً حياً وواضحاً لذلك، بالرغم من البراغماتية التي يفترض أنها حكمت وتحكم أسلوب عمل الأحزاب التي تصارع وتعمل جاهدة لتغيير الواقع بقوى الواقع لابقوى الغيب أو الفوق أو الماوراء.

٢ - التنمية رهينة النظرة الى الزمن

إن تتبع عوامل أعاقة التنمية من قبل العقل الإيماني لايتأتى من الجانب الذي سبقت الإشارة إليه فقط، على ماله من أهمية في مجال هذه الإعاقة.

إن أسساً أخرى من أسس هذا العقل ومرتكزاته تندرج في إطار المعوقات التي تعوق التنمية والتغيير، فنحن عندما سلطنا الضوء على علاقة العقل الإيماني بالزمن، وصلنا الى النتيجة التي تشير الى أن المؤمن يدين الزمن المعاش (المعاصر أو الحاضر)، وهو لايراه إلا فاسداً ومفسداً، ليسعى الى تغييره، ولكن أي تغيير؟ إنه ينظر إليه

ويتعامل معه باعتباره الظرف الذي يجب أن يحسم الصراع فيه على ضوء الماضي، ولصالح استحضاره والتشبه به، أي إن إدانة الحاضر قائمة في أساس النظرة إليه، لأن الكمال قد تم في زمن مضى، زمن موغل في القدم، زمن التدشين، زمن ظهور الدين أو المذهب الذي ينتمي إليه المؤمن ويتمترس به، ولايمكن لأحد النجاة أي الوصول الى الجنة، أي العودة الى ماقبل الخطيئة التي ارتكبها آدم، إلا بالتمسك بالقيم التي تم انتاجها في عصر التدشين، والتمسك بتقليد سلوكيات أولئك الأقدمين، الحواريين أو الصحابة، وبمقدار مايتم ذلك، وبمقدار مايكون الاستحضار يخلق حالة شبيهة بهذا الماضي، موضع الحلم، بمقدار مايكون ذلك ضمانة أكيدة للخلاص والنجاة.

الزمن الماضي هو الذروة، التي لا مطمح بعدها (كما رأينا ذلك في مقتطفات لابراهيم بشير الغويل)، وكلما تم التشبه به كان ذلك إشارة الى الفلاح؛ والزمن القادم هو الحلم، هو الفردوس المضيع الذي فرط به آدم عندما تمت غوايته، إذن هذا النضال الشاق الذي تخوضه البشرية (ذرية آدم وورثته) غايته العودة الى الزمن الحلم، والعودة تحمل مفهوماً رجعياً، ولاتكون العودة حقيقية وأصيلة ومكتملة تؤدي الى النجاة، إلا على هدي الماضي وبمقدار تطابقها معه، إذن طريق المستقبل عودة الى الماضي (ماضي التدشين)، طريق رجعه، وطريق الرجوع غير طريق التقدم بل هو نقيضه.

لقد مر بنا سابقاً عند مناقشة مفهوم الزمن الإيماني، أن اقتراب المؤمن من الزمن الديني الإيماني (زمن الأوائل من أنبياء وسلف صالح)، يبعده عن الزمن الدنيوي (الواقع)، ومن ابتعد عن الواقع، لن يكون فاعلاً فيه. وهو عندما يهزمه الواقع في أي أمر، يحيل المواجهة الى مخلصه القادم الذي لاينهزم، وإن خوف المؤمن من مواجهة الشر دفعه الى استحضار القوى الإلهية لهذه المواجهة (المسيح - المهدي) وقد غاب عن باله أن من يخاف المواجهة لن يكون قادراً على التنمية.

إن عدم امتلاك المؤمن لزمام السيطرة على الزمن الحاضر، يجعله غير قادر على إحداث التغيير (التنمية) فيه، وعدم امتلاكه لزمام السيطرة عليه ظاهر في إدانته له، وحرصه على الخلاص منه (باعتبار فساده) الى زمن أحلامه، وهذا يحيل الخلاص والتنمية الى المستقبل وقواه الغيبية، أي بهزيمة الواقع ونفيه. لأن الواقع يعني تأبيد الشر، فما الفائدة من تطوير واقع لاننتظر منه إلا أن يعم الشر فيه كي يكون ذلك

معبراً الى المستقبل أي إيذاناً بقدوم المخلص والشفيع.

إن الإقرار بأن التغيير وإنهاء الشر مرهون بقوى الغيب، إقرار بالعجز المؤيد وهذا يتنافى مع منطق التنمية، إن العاجز لايستطيع إحداث تنمية (تغيير)، إذاً لايستطيع إنجاز مهمات الاستخلاف.

لقد أشرنا الى أن التنمية تحمل مفهوم التجاوز وتفتح له أفقاً، والتجاوز حالة إيجابية، اتجاهها الى الأمام دائماً، إذاً، هي تحمل المشروع النقيض لمشروع العودة الى الزمن الحلم، زمن التدشين، زمن الإيمان النقي الذي لاتشوبه شائبة، فكيف نستطيع أن نوفق بين المشروعين، بين النقيضين؟ وإذا كان التوفيق محالاً ولابد من التضحية بأحدهما لصالح الآخر، فأيهما يمكن أن يتبناه العقل الإيماني؟ وأيهما الذي يرفضه؟ أيهما الذي تتبناه التنمية وأيهما الذي ترفضه؟.

ألم يصبح واضحاً الآن أن عملية توفيقية أو تلفيقية لن تكون قادرة على إنهاء الصراع؟ ولن تكون ناجحة فيما أرى في التخلص من المأزق؛ إن التوفيق من الصعب أن يصح بين النقيضين، ومجال التوفيق أن يكون بين المختلفين، ويصح بمقدار ما يكون الاختلاف قليلاً، أي بمقدار مايتمكن الموفق من إيجاد متشابهات، أو قواسم مشتركة، على أن تنحصر الخلافات فيما هو هامشي، أما عندما يكون الخلاف على أساس الفكرة والمنطلق، أي يكون الافتراق على مئة وثمانين درجة، فإنني أعتقد عندها أن يكون الفشل الذي ينتج عن عملية التوفيق فشلاً كاملاً.

كيف يمكن أن يركن المؤمن الى تطور هو يعرف أنه مهما جهد لن يصل الى الغاية المرجوة؟ كيف يمكن أن يقبل المؤمن على المستقبل آملاً أن يصنع منه شيئاً ذا أهمية وكيف يجده حلماً إذا كان يرى أن غايته ليست في هذا المستقبل؟ إن المستقبل كالحاضر مرفوض عند المؤمن إلا على طريقته، وهذه الطريقة تتضمن استحضار الماضي والتشبه به، وهذا كفيل بإيصاله الى مستقبله (الجنة)، إن عدم الإيمان بجدوى التوجه نحو المستقبل يعد سبباً كافياً ومباشراً لاقتناع المؤمن بعدم جدوى، أو استحالة التنمية التي تعني فيما تعنيه تجاوز الحاضر وصولاً الى المستقبل، بما يحمله من جديد، لا بما يختزنه من قدرة التشبه بالماضي وتلبسه، إن توليد الجديد هو غاية التنمية، وترقيع القديم والحفاظ عليه هو غاية الايمان، فكيف يتم الانسجام والتوفيق، بل أين تكمن التنمية؟.

لايزال المسلم الشيعي يدفع ثمن تقصيره في نصرة الحسين دورياً، وكل عام منذ أربعة عشر قرناً، والمدفوع دم ودموع وآلام، وبطريقة مروعة، تثير الهلع من هذا الشعور المسيطر الذي يدفع الى كل هذا العنف تجاه الذات، إنه الشعور بضرورة دفع دين مستحق وبالندم، وهو شعور إيماني جماعي مستمر ما تتالت الأيام، يعيد أصحابه الى أجواء ماضٍ سحيق ويذهلهم عن حاضرهم ومستقبلهم.

كما لايزال المسلم في بيئات يسيطر عليها الايمان المتفرع أو المرتبط أساساً بقيم دينية، لكنه نسي ارتباطه بما يتطلبه التدين الحق، والايمان الحق، من عقلانية ووعي، لايزال هذا المسلم يستحضر من الشكليات التي أوجدها الإنسان خلال مسيرته الإيمانية منذ القديم ما يشعره بأن آصرته بالماضي لاتزال قوية لم تنقطع، حتى ولو كانت هذه الآصرة بعيدة عن المنطق كما ذكرت، فحركة الطالبان الحاكمة بأمرها وباسم الله التي فرضت نفسها بالدم والنار وبقدرات الأجنبي على الشعب الأفغاني، وهي حركة مؤمنة جداً تحكم شعباً مؤمناً، فرضت مؤخراً عقوبة السجن بمن يحلق لحيته، تمسكاً بتراث تليد، هكذا تناقلت وكالات الأنباء الخبر، وهذا ليس غريباً عن مثل هذه الحركة التي قامت في إحدى الهبّات الإيمانية بمنع عمل المرأة، ومنعها من الخروج من منزلها، ومن هباتها الإيمانية تنفيذ أحكام الإعدام بالسيف في الساحات العامة وملاعب كرة القدم، بينما تحارب خصومها بأحدث الأسلحة، وحجتها أن الرسول كان يستخدم السيف في قتل أعدائه، ومن هباتها الإيمانية منع ارتداء الجوارب البيض، ومرجعية وكالات الأنباء في أخبار الطالبان، يبدو فيها التقصيرفي نقل كل ماتنضح به عقول هذه الحركة، وتكفي مثل هذه الأخبار التي تشير الى التمسك بالشكليات وترك الجوهر، لإعلان انتماء ممارسيها الى الإيمان في أكثر صوره تخلفاً، هذا التخلف الذي لايخطئه مراقب الحياة العامة في أفغانستان.

ولايفوتنا أن نشير الى أن الانتماء للماضي، والتعويض عن التنمية بالتمترس في زوايا هذا الماضي المعتمة، وفي استحضاره لمواجهة كل جديد، ليس محصوراً في الاتجاهات الإسلامية المؤمنة، بل في غيرها أيضاً، فالمراقب للصلوات والتمنيات التي يؤديها اليهودي أمام حائط المبكى، وطلب تحقيق الأماني، يؤكد حضور الإيمان حضوراً لامراء فيه، وهو حضور يوكد سيطرة الماضي وبقاء تأثير شكلياته.

كذلك في استعادة المسيحي لهذا الماضي عبر مجموعة من الإشارات والرموز، كشجرة الميلاد ومغارة الميلاد، وأكل القمح في بعض المناسبات والذكريات، وأكل البيض وتلوينه في مناسبات أخرى.

إن القيام بمثل هذه الممارسات التي مر بنا الكثير منها في سياق البحث، في مجتمعات نالت حظاً من التنمية والتطور المادي والعلمي، يعني عدم غياب العقل الإيماني، كما يعني عدم حضوره بالطريقة ذاتها التي يحضر بها في المجتمعات التي لاتزال على حالها من التخلف بالضرورة، كما قد يعني أن هذه الرموز قد تم تفريغها من الشحنات الإيمانية التي كانت تكتنزها، لتتحول الى مجرد تقاليد، تعبر عن كمون المشاعر الإيمانية، لكن هذه المشاعر تحمل إمكانية بروزها وانتعاشها كما تتحول الأحداث المنسية في طفولة الإنسان من ساحة اللاشعور الى ساحة الشعور والفعل، أو أنها لاتزال التخوم بين عقلين، أحدهما إيماني متزمت، والآخر علمي عقلاني لم يعترف أحدهما للآخر بالاستسلام والانسحاب من ساحة الفعل والتأثير.

إن في التعويض عن اللجوء الى الحلول العلمية لمشاكل تعترض المؤمن كالتعويض عن اللجوء الى الأطباء في حالات المرض، باللجوء الى الحلول السحرية اللاعقلانية من موحيات العقل الإيماني، كالتمائم والأحجبة والأدعية والتوسل بالأولياء حضوراً أو بالمراسلة، كالرسائل التي ترسل الى ضريح الشافعي في مصر، إشارة كافية الى مدى الإعاقة التي يشكلها العقل الإيماني للتنمية التي أصبحت من المطالب الملحة للشعوب، ويزداد الحاحها كلما تقدم الزمن، كما تبرز دور الزمن في تفعيل الإعاقة، من خلال إعطائه أبعاداً مشحونة بمشاعر المؤمنين.

٣ - جدلية العلم والتنمية

مناط التفكير في مجال التنمية، سواء في بيئة إيمانية مغلقة أو في غيرها من البيئات متعلق بالعلوم الحديثة في عصرنا، وتعاطيها بشكل عقلاني، فلقد أظهرت التجارب والمراحل التي مرت بها البشرية، تحديداً منذ عصر النهضة في أوربا الى يومنا هذا، أن مقدرة الشعوب على إدراك تنمية مأمولة، مرهونة بمدى الإمكانات العلمية التي استطاع أي شعب توظيفها في رحلته باتجاه المستقبل، والامكانات العلمية هنا

لاتحمل مضموناً كمياً فقط، بل يفترض أن تحمل مضموناً كيفياً، فليست كمية المعلومات ولا أعداد المتعلمين مع مالهما من تأثير، العامل الحاسم في إحداث التنمية. ولاشك أن أية دولة من دول العالم الموصوف بالثالث قد تحتوي على أعداد من حاملي الشهادات والمتعلمين تفوق الأعداد التي كانت توجد في بريطانيا مثلاً أو في غيرها من الدول، عندما بدأت مجتمعات هذه البلدان نهضتها الصناعية العلمية، مع ذلك فإن هذه المجموعة من الدول، التي هي أحياناً دول عالم ثالث أو أكثر، وأحياناً دول نامية أو متخلفة أو غير ذلك، لم تستطع أن تمتلك طريقها الخاص لخوض معركة التنمية على أساسه.

إن تحويل العلوم الى تكنولوجيا يحتاج الى التعاطي معها بمستوى عالٍ من العقلانية والمسؤولية، ولاشك أن العقلانية تقطع من العقل الإيماني الاستسلامي الغيبي، الذي يغلّب الحلول السحرية والخرافية أي اللاعلمية على الحلول التي ينظمها العقل العلمي الذي لايخضع إلا لمعايير الحقيقة ومتطلباتها.

إذا أنطلقنا من مسلمة علمية وعقلية تشير الى أنه لايمكن الركون الى تنمية تحدث نقلة في حياة الشعوب، أو البدء بها إلا على أساس من العلوم التطبيقية التي كانت الأساس في وصول بعض شعوب البشرية الى مستوى حياة رفيع، فإنه لن يكون من الصعب أن نبرهن أو نفهم أن حظ العقل الإيماني والمتمسكين به من هذه المسألة ليس بالكثير.

إن مجتمعاً كمجتمع دولة الصهاينة (اسرائيل) يوصف بأنه مجتمع عصري، ومجتمع علمي استطاعت الصهيونية العالمية أن تحشد فيه أعداداً كبيرة من الكوادر العلمية اليهودية، وبما كانت من أرقى العقول العلمية في العالم، وأفادت من خبرات الشعوب وتجاربها في مجال العلوم التطبيقية، بالاتفاق أو بالسرقة، ويبدو إن هذه الإمكانات العلمية استطاعت أن تصنع أساساً مادياً لصناعات حربية أو غيرها، لكن لنلاحظ أنها في جو بعيد عن المناخات الانسانية، لقد جرى ذلك في مناخات منغلقة، متنكرة لحقوق الإنسان، إلا المرتبط بالعقل الإيماني الصهيوني، بالانتماء العنصري الشوفيني، ولا تلبث هذه التنمية وهذا المستوى العلمي المتقدم، أن تعرّف على نفسها كشكل من أشكال التوحش والهمجية، والحقد واللصوصية، عندما يتم التعامل مع

الآخر سواء كان هذا الآخر هو العربي الذي يتم تكسير أطرافه أو قتله أو تشريده وإنكار حقوقه، أو كان هذا الآخر هو الأوربي الذي يتم ابتزازه باسم المحرقة (الهولوكوست) وتتم سرقته كما تمت سرقة الزوارق الحربية من فرنسا في يوم من الأيام من قبل اسرائيل التي تقوم على أساس استحضار العقل الإيماني لليهودية والمتمثل بالصهيونية التي لاتراعي حرمة لعدو ولا لصديق في سبيل تحقيق مصالحها، وإلا لما تم التجسس حتى على راعي الصهيونية الأول، الولايات المتحدة الأمريكية في سبيل الحصول على أسرار عسكرية.

وقد تتعدى هذه الأعمال التي تنم عن أخلاقية متردية، قد تتعدى أذية الشعوب الأخرى (الغوييم) لتصيب اليهودي الصهيوني إذا وجد العقل الإيماني الصهيوني الذي وظف سياسياً، أية مصلحة له في ذلك فكم شخصية يهودية تم اعتقالها أو اختطافها كـ «اسرائيل فانونو» لمصلحة تحققها الصهيونية، بل قد تصل بها الأمور الى حد اغتيال زعمائها الكبار الذين قدموا الخدمات التي سجلها تاريخ هذه الحركة وتاريخ العالم، كما حدث باغتيال «اسحق رابين» من قبل العقل الايماني اليهودي الصهيوني المتعصب الى حد العمى، وكم عمل راح ضحيته عدد من اليهود إذا وجدوا أن ذلك يسمح لهم بالصاق تهمة (اللاسامية) بجهة معينة، كما جرى حين تم إغراق سفينة فيها عدد كبير من المهاجرين اليهود القادمين الى فلسطين في عرض البحر والادعاء بأن أعداء السامية أو اللاساميين هم الذين قاموا بتلك الجريمة، وذلك لتجييش إيمان اليهود وأنصارهم، والرأي العام العالمي، ولابتزاز جهات عالمية معينة من جهة أخرى.

وقد أشرنا الى أن العقل الإيماني الصهيوني يقود عمليات التجسس للحصول على المعلومات والخطط التي تسمح لاسرائيل بالتطور التكنولوجي، هذا العقل يبرر لنفسه كل عمل في سبيل مصالحه، كأنه لايزال يعيش أجواء التوراة، وما ذكرته من خدع قام بها كبار رجالاتها وأكثرهم قدسية في سبيل تحقيق مصالح الجماعة، كما مر بنا.

قد يقول قائل إن هذه الاشكاليات والقضايا ليست موجودة في اسرائيل فقط بل في جهات كثيرة من العالم، وقد يكون ذلك صحيحاً، لكن يبقى أن نعلم أن ذلك يجري في اسرائيل على نطاق واسع أولاً، وبترتيب ورعاية وقيادة من عقل إيماني، يتم تمظهره تمظهراً قيمياً، وينشد الأخلاقيات الرفيعة.

بهذا العقل لاتزال القوى الإيمانية في اسرائيل، وبين اليهود تنتظر قدوم المخلص الذي يرتبط قدومه بميلاد بقرة حمراء ليس فيها شعرة مفارقة للحمرة، الشيء الذي استدعى قيام حاخامات اليهود أو الكثير منهم بفحص بقرة حمراء اللون في حيفا بالعدسات المكبرة كما مر سابقاً، مؤكدين بذلك بقاء انتمائهم الى كل ماهو خرافي وسحري ولاعقلاني، وتناقض إيمانهم مع قيم العلم القادر على صنع تنميه. ولا بأس هنا، وتأكيداً للفكرة مثار البحث أن نشير الى ماذكرته وسائل الإعلام في شهر تشرين الثاني ١٩٩٩م من أن حاخاماً اسمه (ديفيد...) قام باخراج عفريت من سيدة أمام الناس، كان هذا العفريت يعمل لصالح زوجها الذي انفصل عنها منذ مدة. في الفترة ذاتها نقلت وسائل الإعلام أيضاً، في حمأة الصلوات التي أقيمت للاستسقاء سواء في المعابد أو في العراء من قبل الكثير من الطوائف الدينية في شرق المتوسط، هذه الصلوات المصحوبة بالأدعية والتوسلات، لاحداث التغيرات المطلوبة في قوانين الطبيعة وعملها، لانهاء حالة الجفاف، نقلت أن المؤمنين اليهود قاموا بعمل متقدم إذ أدوا صلواتهم على متن طائرة تحلق بهم في أجواء فلسطين المحتلة، وربما لتكون صلاة استسقائهم أقوى وأكثر تأكيداً وتمايزاً.

لقد مررنا في سياق هذا البحث بكثير من الأمثلة على إطلاق العنان اللاعقلانية من قبل جماهير المؤمنين ومروجي العقل الإيماني في إطار الأديان السماوية جميعها، يساعدهم في ذلك حرص الكثير من رجال الدين على توظيف هذه الخوارق والحلول السحرية في إذكاء شعلة الإيمان وابقائها متقدة الجذوة، علماً أن الأديان التي ينتمي إليها الكثيرون من هؤلاء، تجعل من العقل محدداً أساسياً لايمانها وسلوكها، كما تنطق بذلك النصوص.

لكن دعوة النصوص الى تحكيم العقل، نحيّت جانباً ليتم تحكيم الهوى والعناصر الأخرى التي تؤيد وجهات نظر سحرية ولا علمية، استبدلت بالنصوص الأساسية.

لقد أنكرت فئات إيمانية كثيرة، أن تكون قدرات البشر العلمية والتقنية قد استطاعت أن ترود الفضاء وتكتشف الكثير من مجاهله، أو تحط على بعض أجرامه، التي نسبت إليها قدسية لا أعلم من أين مصدرها، باعتبار القدسية للقيم. إن اعتبار بعض القوى الإيمانية أن النزول البشري أو الآلي على بعض الأجرام السماوية وهم

ولاشك، وأن محاولة اكتشاف أسرار الفضاء الكوني هو عمل من أعمال الكفر، باعتبار الفضاء يدخل في الاختصاصات الإلهية فقط، ومعرفة الفضاء انتهاك لحرمات ومقدسات الألوهة. وما أدري لماذا؟ وماذا يفيدهم إذا نجحوا في إبعاد الإنسان عن ارتياد الفضاء؟ وماذا يحصل لهم من ضرر إذا نجح الإنسان في التعرف على الكون وتسخيره لمصلحته.

إن التنكر للعلم وبعض معطياته وتطبيقاته التي أثبتت وجودها وجدواها، ويمكن التأكد من دقتها وصحتها وفائدتها، خاصة من قبل ذوي الاختصاص، ومن قبل الناس الذين ينعمون بنتائجها، أمر يدخل في باب المعاندة، ولايقوم على أساس معتمد في محاولات الدحض والتكذيب للكثير من نتائج العلوم في كثير من نواحي الحياة الطبيعية، ولايكون ذلك على أيدي العقلاء أو المثقفين؛ كما لايكون على يد رجال الدين المتمكنين من المعرفة الدينية والذين يرفدون هذه المعرفة بثقافة عامة مقبولة، بل قد يتم الدحض والتكذيب والموقف السلبي من العلوم وتطبيقاتها، ومن اكتشاف الفضاء من قبل بسطاء المؤمنين وقادتهم، قادة العقل الايماني الذين لايعرفون من شوؤن العلم الحديث شيئاً وقد حكموا عليه وعلى نتائجه بالسلبية دون إطلاع أو دراية، وليس فهمهم للعلوم أفضل أو أكثر تألقاً من فهمهم للأديان، وهؤلاء هم الغالبية، وأتباعهم هم أكثر الفئات الاجتماعية، والكتلة الجماهيرية ذات الوعي (القطيعي).

إن هؤلاء يخوضون النقاشات لمواجهة الكثير من النتائج التي تعلن العلوم الحديثة التوصل إليها، بحماس شديد، خاصة تلك التي يجدون لها ذكراً في نصوصهم، فالاعلان عن أن معرفة جنس الجنين هي قضية إلهية وسر من أسرار الربوبية، يكفي أن يدفع المؤمنين لتكذيب ماقدمه الطب وأبحاثه والعلوم الحديثة من معطيات تشير الى إمكانية معرفة جنس الجنين، والتطبيق العملي لذلك، ومثل هذه النقاشات التي تنفي ماتشاء وتثبت ماتشاء مما يؤيد إيمان المؤمن، لاتنم عن معرفة حتى ولو بسيطة بمبادئ العلم الذي يخوض فيه المؤمن، ولاتنم عن فهم لمبادئ الدين وما يقدم من إمكانات المعرفة العلمية، أو المبادئ القيمية التي لاتدخل في صراع مع العلم لأن كل جهة منهما تنتمي الى حقل مختلف لايجوز إشهار التقابل والتضاد بينهما، وهذه النقاشات قد تكون تكراراً لأقوال وآراء بعض المجتهدين عن غير علم من المشايخ، بشكل محرّف أو

سليم، وهم يوحون بأنهم يقدمون خدمة جليلة للدين والايمان، ويزعمون أو يتوهمون أنهم يقومون بحماية حدود المملكة السماوية، كما يقوم الجنود المخلصون المدربون والمتحمسون بحماية حدود دولهم والدفاع عنها، وكما يقوم المزارع بحماية تخوم أرضه.

ماأريد الوصول إليه من خلال ذلك هو أن عقلاً يتمترس بمثل هذه المفاهيم، ويقف من العلم هذه المواقف، ويغلّب قيم السحر والخرافة، لايمكنه بحال من الأحوال أن يكون مع التنمية التي تحتاج الى عقل منفتح مجرب، يؤمن بأن العقل يخطئ ويصيب، وليس مصيباً دائماً، بالتالي فإن غيره مخطئ دائماً، ثم إن عليه أن يخضع الأشياء لمنطق التجربة، ويؤمن بها كأسلوب من أساليب الوصول الى الحقائق.

هنا يبدو التناقض في حالته العلمية، بين اتجاهين عقليين أحدهما يؤمن بقدرة العقل البشري، ويثق بالنتائج التي يتوصل إليها باتباع الأساليب العلمية، والمناهج العلمية، والآخر الذي ينطلق من التسليم وأن كل شيء مقرر سابقاً، وأن البشر عاجزون عن المعرفة، وإن العلم إما أن يكون إلهياً أو لايكون أبداً، وأن قدرة العقل البشري المحدودة ليس لها دور إلا معرفة حدود الله، ناسين أن وضع حدود للملكة الالهية هو اعتداء عليها، والمصيبة أن هذه الحدود المنتشرة في عصرنا هي في أغلبها من صنع الإنسان المؤمن، وتنتمي الى مفاهيم عالمه الإنساني، وهو يتصور أنه يقوم بعمل جليل.

إذن إن استحالة الركون الى أن العقل الايماني يمكن أن يقود عملية تنمية، أو يساعد عليها أو يسلم بنتائجها، أمر في غاية الوضوح، انطلاقاً من المسلمات والمعطيات المتوفرة، وهذا دليل آخر على أن انتظار الفرج من غير محله، كانتظار شروق الشمس من الغرب.

٤ - التنمية ومقومات النهضة الحديثة

على المستوى العالمي، ومن خلال تجارب الشعوب التي يمكن الركون إليها لأنها أصبحت حقائق علمية وتاريخية لايمكن إنكارها والقفز عليها، تبين أن التنمية تحتاج الى مناخات مجتمعية ترافق التقدم العلمي وتطبيقات العلوم، وأن الشذوذ عن هذه المناخات لايمكن الركون إليه، ولايمكن أن يعتبر قاعدة. وإذا كانت عدوى التنمية هي عدوى غربية، باعتبار أن شعوب الغرب خاضت تجربتها في هذا المجال، وحصلت على

نتائج باهرة، وأن مطامح الشعوب أن تلحق بها لعدم توفر نموذج آخر يتم تقليده، أو صرف النظر إليه، فمما لاشك فيه أن أي متطلع الى التنمية، الى الغد الأفضل، سيجد أمامه المثال الغربي الذي يبهر بريقه العيون، ويظهر أن كل مثال للتنمية سواء تحقق أو كان مشروعاً منطقياً لايزال في الذهن، هو عالة على هذا النموذج ومقلد له في المنطلقات النظرية أو في التطبيق.

إن الاعتداد بأن هناك حضارات نمت في الشرق أو في الغرب، في الشمال أو في الجنوب، لايعفينا من الإقرار بأن هذا التقدم وهذه التنمية تسير بهدي النموذج الغربي، وعلى مثاله الكوني المعمم، وتبقى المشاريع الأخرى تعاني من كونها وهمية أو غير حقيقية، وإمكانية تحققها على أرض الواقع موضع شك.

وهنا أتوقف لأشير الى أن كل تنمية تسعى لنسخ النموذج الغربي، لن تكون تنمية حقيقية لشعبها إذا عملت على النسخ دون الابتكار، فالغرب صنع تنميته المرتبطة ببيئته، ولابأس أن تكون حافزاً لجميع الشعوب، لأن البداية من نموذج غير موجود أي من اللاشيء أو من الصفر، أصبح أمراً غير ممكن في هذا العصر لأن النموذج الغربي ملء البصر والسمع والعقل، وقد أصبحت البشرية مسكونة به، ومن المحال التخلص من تأثيره نهائياً، وتصور غيره دون تأثيره سلباً أو إيجاباً، وهذا النموذج ربما كان مساعداً لنا، في إحداث حوافز وتصورات ومستندات، وإيجاد مناخات، وفي حقائق علمية توفر مئات السنين، إلا أن تنميتنا يجب أن تكون بنت بيئتنا، تحمل بصماتنا ولها لون بشرتنا، ونبض عقولنا وقلوبنا، وتفوح منها رائحة عرقنا ودمائنا، لتكون راسخة وذات فائدة، يجب أن تكون بأيدينا وعقولنا لنقول إنها ليست تنمية الآخر على أرضنا، مع أن الآخر موجود في حقائقها، من هنا نقول إن تبييء التنمية يحتاج الى المناخات التي نحن بصددها، وهي تنتمي الى ماهو فكري، يؤمن الظروف المناسبة للتنمية ويدخل في صلبها.

في الفضاء الممتد لتجربة التنمية الغربية، تبرز مجموعة من العناصر، التي تحولت الى مفاهيم لاغنى عنها لأية تجربة تنمية جادة. لأن تجربة الغرب قد وظفت هذه المفاهيم وأفادت من حضورها، حتى أصبحت من مقومات كل نهضة، لثبوت مفاعيلها وجدية الدور الذي تقوم به.

كان من أبرز هذه المرتكزات والمفاهيم توظيف العلم الذي لولاه لما كان لتجربة الغرب أن تنطلق، وقد حوى العالم الغربي من البحاثة الجادين والذين وجد لديهم الاستعداد للتضحية بالوقت والجهد، ما على أساسه قامت نهضة بلدانهم، ابتداء باختراع المطبعة في الأراضي الواطئة وصولاً الى الآلة البخارية التي أحدثت انقلاباً في الصناعة الحديثة. كما كان لتوظيف أفكار العلماء والمبدعين، واعتبارها ميراثاً علمياً للبشرية بالرغم من معاداة الكنيسة لها بداية، مايمكن اعتباره عملية مراكمة هامة وتطور لابد منه، فكوبر نيكوس وغاليلو ولافوازييه وباستور وماركوني وانيشتاين والآلاف غيرهم، ليسوا آخر القائمة في رحلة العلوم الطويلة.

ومن هذه المفاهيم والمنطلقات العلمانية، فقد استطاعت القوى الصاعدة والمتولدة في أحشاء المجتمعات الغربية، أن تلزم الكنيسة ورجال الدين بالبقاء في حيّزهم، والابتعاد عن الإمساك بخيوط التحكم بمسار الحياة فيما هو من اختصاص الكنيسة، وفيما هو من غير اختصاصها، وهنا يبدو ليس صحيحاً ذلك الاتهام الذي يوجه للعلمانية، أنها تريد أن تقضي على الدين، وأنها تحاربه، بل الصحيح إنها تضبطه في حيّزه، وتمنعه من التسلط على حيزات أخرى، بمعنى آخر إبعاد الدين عن أن يكون إحدى المعوقات التي تمنع الحياة من التمدد عبر مجالاتها الحاصلة والممكنة.

منها أيضاً *العقلانية*، حيث أنه من المعلوم أن المجتمعات الغربية كانت غارقة في ظلام القرون الوسطى، أي أنها لم تكن في حال أفضل من حالنا، وهنا تبدو أهمية وعظمة الحركة التي قامت في تلك البلاد والتي حصلت على ثلاث خطوات أو ثلاثة مسارات. ففي الخطوة الأولى تمت مراجعة تراث الغرب وإحياء الدروس العقلانية في تجربته التراثية، وهنا نرى امتداد أثر تلك المراجعة الى التراث اليوناني الغني. وفي الخطوة الثانية تم توظيف ما أمكن توظيفه من تجارب الشعوب ونتاجاتها في إطار هذه الحركة، والمثال البارز في هذا المجال، هو توظيف نتاج ابن رشد العقلاني. أما الخطوة الثالثة فقد تضمنت الانطلاق من الخطوتين السابقتين والبناء عليهما في إيجاد العقلانية الغربية التي حمل لواءها فلاسفة كبار كديكارت وكانت وصولاً الى هيغل وماركس وغيرهم.

من المفاهيم التي نحن بصددها أيضاً، الحرية و الديمقراطية و المجتمع المدني، إن

الحرية حتى في إطارها الفردي، كانت ذلك المقدس الذي تمت التضحية في سبيله بمقدسات أخرى، إذ لايمكن العزل بين المفاهيم السابقة وبين الحرية، كما لايمكن العزل بين الحرية والديمقراطية، فهي في صلبها، وقطب الرحى منها، وإذا كانت الديمقراطية قد قامت على إحياء تجارب سابقة، مضافاً إليها مكتسبات العصر وتجاربه، كما أوضحت في مكان آخر(٢).

وإذا كانت الحرية هي قرينة الديمقراطية وشرطها، فإن المجتمع المدني ومنظماته ومقتضياته، هي شرط الديمقراطية الثاني، حيث لايمكن تصورهما مفترقين، فمنظمات المجتمع المدني هي وليدة مناخ الديمقراطية، والديمقراطية هي بدورها تعتبر من هبات المجتمع المدني الذي بدأت منظماته تتولد في أحشاء مجتمعات الغرب.

أما الحداثة فإنها تعتبر تحصيل حاصل لكل تلك المفاهيم ومفاعيلها في حياة الغرب وفضائه، ومفهوم الحداثة هو هذا المتحصل من ممارسة وتطبيقات العلم والعلمانية والعقلانية والديمقراطية، وتبقى الحداثة شيئاً متحركاً ومواكباً للحياة على مر العصور، وهو هلامي يصعب القبض عليه وتثبيته، أي إخضاعه لمفاهيم قارة، لأنه مولد لمفاهيمه وقيمه وإحداثياته كل لحظة، الحداثة حركة سيرورة مستمرة مواكبة لكل ماتحصل عليه الحياة من تطور ومستجدات في مجال الاكتشافات العلمية وتطبيقاتها، والرؤى الفكرية والفنية، وبالضد ممن يرى أن مجالها الفنون والآداب، فإننا نرى أن مجالها كل شؤون الحياة وعبر كل مساراتها.

والآن، إذا كانت هذه الحقول والمفاهيم هي مرتكزات التطور والبناء العصري الذي اعتمدت عليها الحضارة الغربية الحديثة، فهل يمكن توظيفها في إطار المجتمعات التي يسيطر عليها العقل الإيماني لإحداث النقلة الحضارية المرجوة، والتي لاخلاص لهذه المجتمعات إلا بالإفادة من مناخاتها وترسيخها في بيئاتها؟.

إن كيفية تعاطي العقل الإيماني مع هذه المفاهيم والمرتكزات، وإيجاد البنية الفكرية شيء هام جداً، وهنا أود أن أشير الى أن بنية فكرية جاهزة ومسبقة يتم توظيفها أو تطبيقها تكنولوجياً لإحداث نقلة ما، أمر غير ممكن وليس الإقرار بهذه الفكرة وتوظيفها في مصلحة التطور الحقيقي والتنمية؛ كل مايمكن أن يطلب هو ألا يكون العقل الإيماني عائقاً ومعرقلاً، ألا يعترض مسيرة الحياة في توجهها الجميل

والانعتاقي، أن يبتعد بتابواته عن حقل تدمره التابوات وتمنع زرعه من الإخضرار والنمو، وبالطبع لانرى أن هذا حاصل بهذه السهولة والبساطة، بل أن يزحف العقل العقلاني والنقدي للاستيلاء على ما من حقه أن يكون له في مسيرة الحضارة الإنسانية، وأن تكون المواجهة بينهما عقلانية، وأن تأخذ وقتها كي تكون راسخة، عليها أن تثبت أنها الأقوى الذي يقتلع الضعيف المعرقل للحياة وتقدمها دون نفي أو إلغاء قسري من خارج قوانين اللعبة الديمقراطية والعقلانية.

إذاً، هذه المفاهيم ليست نظرية علمية نسعى لتطبيقها معملياً بعد أن تم إنجازها مخبرياً، إنها مناخ وأفق.

فأين موقعها في منظومة ما نحن بصدده؟.

لقد حاول العقل الإيماني أن يوجد حالة من العدائية والتضاد لا تستند الى حقيقة أو واقع، كما لاتستند الى نص محترم، وقد حاول أن يوظف هذه العدائية وينشرها على التخوم بينه وبين العلم، بينه وبين الحياة، ثم بين العلم والحياة. وهنا أريد أن أشير الى براءة الأديان في كثير من الحالات من هذه التوظيفات، لأن حقل الدين القيمي لايسمح بزجه في مثل هذه المعارك إنها لاتعنيه وليست من شأنه طالما أنه معني بتحصين الإنسان من الداخل، وإيجاد المناعة المطلوبة لديه، وإنما تم الزج باسم الدين وسمعته من قبل تلك العقول الايمانية التي اعتبرت نفسها هي الدين أو وريثته والمتحدثة باسمه.

ليس معقولاً أن يكون دين، الكثير من منطوقه يشير الى أهمية العلم والعقل، والعلماء والعقلاء، مصراً على اعتراض العلوم ونتائجها، إنه حينها يناقض نفسه. ولكن ما سقناه من أمثلة على موقف المؤمنين بعقلهم الايماني ضد العلم وتطبيقاته، يؤكد الابتعاد ولو نسبياً وفي بعض الحقول عما نسميه صحيح الدين.

إن هؤلاء يرون أن العلم هو ما أدى الى الله كما بينا سابقاً، أما ما أدى لغير الله، وهو كل علم مادي أو نظري غير علوم الدين، أولا ينسجم مع قناعاتهم الفردية، فهو مؤدٍ الى الشيطان، إذاً هو ليس علماً، إنه الجهل بعينه.

لم يقم العقل الايماني الذي يعتبر نفسه حارساً للأخلاق والقيم الإنسانية بالاحتجاج الكافي على خرق العلم لمبادئ الأخلاق، وتهديد البشرية، إن الاحتجاج الفاعل الذي يقوم به العقل الايماني ضد زي، أو فكرة، أو كتاب أو لوحة، يبرز قوته وسيطرته، وما

يتمتع به من امكانات أمضينا كل هذا البحث في إبراز قوتها، فلماذا لم يبق احتجاجه فاعلاً في مواجهة هذا المخزون الهائل من أسلحة التدمير الشامل التي أنتجتها البشرية، أو كل هذه الحروب المدمرة.

إن الاحتجاج وإنكار دور العلم وقدراته، يتم في قطاع ما يمكن اعتباره من حقول السماء وحكراً عليها، فالمطر شأن إلهي لأن الله ينزل الغيث، من هنا يتم الاحتجاج على المتنبئ الجوي الذي يتوقع المطر إذا لم يردف توقعه بقوله: بإذن الله أو إن شاء الله، أو أية عبارة أخرى توحي أن هذا المجال بقي في الحيز الالهي ولم يتم سلبه أو توظيفه في المملكة الأخرى النقيضة لمملكة الايمان.

يشير د. صادق جلال العظم(٢)، الى رأي بعض ممثلي هذا العقل الايماني بالعلم، فينقل عن شكري مصطفى أحد قادة المنظمات المتأسلمة، المتطرفة في مصر قوله: «ثم دعوت فريقين الى العلم الذي أجاز الله تعلمه وهو عبادته وحده تعالى... ونقول إن ذرة تعلم خارجة عن ذلك لاتجوز...» ويتابع «لقد أراد الله أن يختار خير أمة أخرجت للناس، أمة أمية لاتكتب... لقد كان بمقدور النبي أن يتعلم لو كان في ذلك خير من العبادة... وما وجدنا الرسول والصحابة يعنون بتعلم الفلسفة والطبيعيات».

اعتقد أن الاشارات السابقة واضحة في إعلان العداء للعلوم العصرية الحديثة أولاً، وفي الفهم الخاص والمتخلف للعلم ولتطور الحياة ثانياً. وأظن أن رسول الله بريء من جهل هذا الجاهل، ومما ينسبه إليه، ولايجوز أن ننسب التنكر لأول نداء إلهي للرسول (اقرأ) الى الدين والرسول الذي هو المتلقي لهذا النداء، وهو نداء علم. إن إقامة التناقض والتضاد بين الدين والعلم، ورعاية هذا التناقض من عمل العقل الإيماني المتخلف الذي أراد عن سابق إصرار وتخطيط أن يكون حقله الجهل، فلا غرابة أن يعادي العلم، وعلى العاملين في حقل الدين قبل غيرهم، التصدي لأمثال هؤلاء الجهلة، بما يحدثونه من تشويه للدين في عقول الناس.

لقد مر معنا الكثير من الأمثلة التي توضح العلاقة غير الحميمة بين العقل الايماني والعلوم التي لايرضى عنها سواء كانت تطبيقية أو نظرية، مع توجه شره من قبل ممثلي هذا العقل للإفادة من نتاجات هذه العلوم التطبيقية، والصحيح أن الخوف ليس من كل العلوم بمقدار ماهو من المناهج التي تشيعها بعضها، ومن المناخات التي تخلقها، مما

يشير الى إلغاء مفاعيل التعاويذ والأحجبة والتمائم والغيلان والجن والعفاريت والأدعية وغيرها من أسلحة وأدوات السيطرة الإيمانية، والتبريرات الزائفة، ولقد تمت الإشارة الى طلب الرئيس السوداني الى وضع دراسة تبين مدى مساهمة الجن السوداني المؤمن في عملية التنمية في السودان، وطلب الزعيم السوداني الآخر (الترابي) تكريس أسبوع الدعاء المستجاب على أمريكا لقصفها السودان.

لاننسى أن تراثنا القديم والقروسطي، مليء بما يشجع على انتشار أساليب التبرير الخرافية واللاعقلانية، فعمر بن الخطاب رأى الغول في سفره الى الشام قبل الإسلام فضربه بالسيف[٤]. وذكر أبو أيوب الأنصاري أنه كان في سهوة (طاق) وكانت الغول تجيء فتأخذ[٥]. ويورد خليل عبد الكريم الكثير من الأخبار التي تتضمن هذه الحكايات في كتابه «شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة» وهو عمل علمي نقدي متميز، والحكايات التي ينقلها تنتمي في معظمها الى عصر الصحابة الأول ذلك العصر المتألق برجاله الأفذاذ، وهو العصر المثال، والمنقولات عن الصحابة الأجلاء، فقد ذكرت «عائشة بنت طلحة أمها أم كلثوم بنت أبي بكر قالت: كان جان يطلع على أم المؤمنين (خالتها)، عائشة (رض) فحرّجت عليه، أنذرته مرة بعد مرة فأبى إلا أن يظهر فعدت عليه بحديدة فقتلته، فأتيت في منامها، فقيل لها: أتقتل فلاناً وقد شهد بدراً، وكان لايطلع عليك لاحاسراً ولامتجرداً إلا أنه كان يسمع حديث رسول الله (ص) فأصبحت فزعة فأمرت باثني عشر ألف درهم فجعلتها في سبيل الله»[٦].

فإذا كان السيل من الحكايات - وهذه من ألطفها - ينتقل من عصر الصحابة وعن مجريات حياتهم، واحتكاكهم بالجان والمخلوقات الخرافية، فإن ماسنجده في عصور الانحطاط، التي يبلغ فيها العقل الايماني ذروة تطوره، أكثر هولاً وبعداً عن كل عقلانية، بالتالي عن كل تنمية.

برز الترابط وثيقاً بين النزعة العلمية والعقلانية، وبدت ضرورة كل منهما للأخرى، من هنا بدا أن عداء إحداهما يعني عداء للثانية. والذي لاشك في أن تنمية بدون علم غير ممكنة، وعلم بدون عقلانية غير ممكن، إذاً، العداء للعلم والعقلانية، يعني العداء للتنمية ورفضاً مطلقاً لها، مهما كانت الادعاءات. إن العقل الذي يسعى الى تجاوز واقعه الرازح تحت سيطرة الخرافة والدجل، وبالتالي التخلف بكل أشكاله، سيشير الى

أنه عقل مستقيل إذا لم يكن العلم والعقلانية رائدة.

أما العلمانية فقد وجدت مناخها في الظروف التي شجعت على العلم والعقلانية، والعلمانية في أحد تعابيرها الأكثر بروزاً، هي رد واضح على العقل الإيماني وسيطرته، وعدم صلاحيته لقيادة حركة تنوير لواقع التخلف الذي أنتجه، والذي كانت أوربا غارقة فيه. ولو كان العقل الايماني الذي تم التخلص من سيطرته صالحاً لقيادة النهضة في تلك البلاد لما كان هناك مبرر للبحث عن إطار آخر لنمو الحضارة الحديثة وتقدمها بعيداً عنه، وها هي الثمار تبدو ناضجة وتفصح عن أن التنمية في الغرب وصلت الى غايتها، أقول هذا مع التحفظ على الكثير مما أبدعته تلك البلاد.

لقد عبر المسلمون عن وجهات نظر متناقضة حول العلمانية تتراوح بين اعتبارها كفراً، وهذا منطق العقل الإيماني، وبين اعتبارها مطلباً ومناخاً لامحيص لنا من الأخذ به إذا أردنا الخروج من التخلف.

من أبرز التوجهات التي أخذت الدين أخذاً إيمانياً واعتبرته دوغما مغلقة كانت جماعة« الأخوان المسلمين » في مصر وامتداداتها منذ أواخر عشرينات القرن العشرين، ويعد أبرز منظري هؤلاء «سيد قطب»، الذي ينقل عنه محمد جمال باروت بعض آرائه في المجتمعات التي تأخذ بنصيب من العلمانية، يقول قطب[٧]: «جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً! تدخل فيه المجتمعات الشيوعية... وتدخل فيه المجتمعات الوثنية... وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعاً... وأخيراًيدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة» وينقل باورت أيضاً عن سيد قطب: «ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم أناساً ممن يسمون أنفسهم «مسلمين» بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، وإن صلى وصام وحج البيت الحرام! وليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلاماً من عند نفسه – غير ماقرره الله سبحانه وفصله رسوله صلى الله عليه وسلم – ويسميه مثلاً «الإسلام المتطور» وبذلك يكون مجتمعاً جاهلياً ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله في البيع والكنائس والمساجد»[٨].

إن المجتمعات التي عمل سيد قطب على توصيفها في المقتطفات السابقة هي مجتمعات علمانية، أو آخذة بطريق العلمانية، ولم يكن موارباً في إيضاح رأيه فيها،

بالتالي ما كان على أتباعه وورثته الذين أخذوا آراءه مأخذ التقديس، وأضيف كلامه الى التراث الممتد من فقهاء السلطان الى ابن تيمية الى المودودي وتم إسناده الى النصوص الأساس (قرآن وسنة)، وقد ترجم هؤلاء الأتباع كلامه قتلاً ودماراً واستباحة للأعراض والحرمات.

في هذا الوقت كان مفكرون متنورون يبرزون ماتعنيه العلمانية، وأية آفاق تفتح. وهم مفكرون لم يتهمهم أحد بالخروج على الدين إلا أمثال سيد قطب الذي أخرج الجميع، ولم يترك أحداً إلا اتهمه، ومن أبرز هذه الآراء.

تقول د. أنيسة الأمين: «والعلمنة لاتعني الإلحاد وإنما تعني حرية الاختيار واتخاذ موقف فلسفي أمام مشكلة المعرفة»[٩].

ويقول محمد عابد الجابري: «إن علمانية حقوق الانسان في الفكر الأوربي الحديث لم تكن تعني لدى فلاسفة هذا الفكر الاستغناء عن الدين كدين، بل فقط التحرر من سلطة الكنيسة وطقوسها. لقد بنوا «معقولية» حقوق الإنسان باعتماد العقل وحده فعلاً، ولكن لاضداً على الدين بل ضداً على الفهم الذي تفرضه الكنيسة ومايرافقه من طقوس»[١٠].

وينقل د. عبد الرزاق عيد عن د. سمير أمين في دراسة الدكتور عيد لكتاب «يثرب الجديدة» لمحمد جمال باروت قول أمين: «والعلمانية لم تلغِ الإيمان بل لعلها قوته وحررته من إشكاليات وعنصر الغرض وصفته من الأبعاد الخرافية التي صحبته في الماضي»[١١].

ويقول د. نصر حامد أبو زيد: «وليست العلمانية في جوهرها سوى التأويل الحقيقي والفهم العلمي للدين، وليست مايروج له المبطلون من أنها الإلحاد الذي يفصل الدين عن المجتمع والحياة»[١٢].

ويقول د. عزيز العظمة: «إن جل مانطمح إليه هو بروز المثقف الجديد الذي استبعد الفكر والخطاب الدينيين عن مجال الحياة العامة، دون أن يكون هذا الاستبعاد قائماً بفعل النيّة في استبعاد الدين أو صادراً عن موقف عدائي من الدين أو عن الالحاد، بل قام هذا الاستبعاد على كونية فرضت نفسها على الماضي القريب لمجتمعاتنا، تحولت فيها الجهة المحتكرة للثقافة والمعرفة من المؤسسة الدينية الى مؤسسة علمانية هي

الدولة وأجهزتها الثقافية ونمطها التنظيمي»[١٣].

كما يقول العظمة: «إن العلمانية ليست بالظاهرة التي يمكن توصيفها ببساطة ويسر، بل هي جملة من التحولات التاريخية السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والأيديولوجية، وإنها تندرج في أطر أوسع من تضاد الدين والدنيا، بل إنها تابعة لتحولات سابقة عليها في مجالات الحياة المختلفة»[١٤].

هذا يعني أن الوقوف ضد العلمانية يعني الوقوف ضد التحولات التاريخية التي يتحدث عنها العظمة، والتي تلمح من المقتطفات الماضية، فكيف يكون مع التنمية وتجاوز الواقع من كان ضد هذه التحولات؟!.

ولاننسى أن الكثير من المفكرين الذين انطلقوا، وتحدثوا، من داخل المنظومة الدينية أشاروا الى الانسجام بين العلمانية والفكر الديني، ولكنهم جوبهوا بالرفض والتكفير، من أبرز هؤلاء علي عبد الرزاق والذي جرى له بعد نشر كتابه «الإسلام وأصول الحكم» مشهور جداً.

في التوصيفات السابقة للعلمانية، والتحديد لحقلها، والآراء الواردة فيها، تظهر مدى جدية التعاطي معها كمناخ لابد منه لعملية تنمية حقيقية، من شأنها أن تتجاوز مساوئ الواقع وعقباته، وهذه الآراء لمفكرين لم يطلعوا على مناخ التنوير الغربي فقط، مع ما انتجه من فكر وثقافة، بل هم أبناء بيئة لايزال يسيطر عليها العقل الإيماني، وليس منهم من هو متهم في صدق انتمائه لشعبه ووطنه ودينه – إذا استبعدنا رأي أمثال سيد قطب وتلاميذه وحاملي فكره بهم – وتشغلهم مشاكل أمتهم وهمومها، والبحث عن طرق لتخطي واقعها المأساوي.

والوقوف ضد العلمانية لايكتمل إذا لم تتم إبانة موقف العقل الإيماني من الديمقراطية التي اتفقت شعوب الغرب والشرق على ضرورتها لبناء مجتمعات متطورة، لا بل تطالب بها جهات اسلامية دينية متعددة كـ «حركة النهضة الإسلامية» في تونس[١٥].

والديمقراطية تمارسها جهات إسلامية تمثلت في أحزاب كثيرة تصر على أن تصف نفسها بالإسلامية في الأردن وتركيا وغيرها، وأعتقد أن المسلمين وأصحاب العقل الإيماني لايشكون في أن حزب جبهة الانقاذ الإسلامية الذي تحول الى رمز للتطرف،

وكان قد نادى بالديمقراطية ومارسها وألغى نتائجها عقل إيماني مشابه ونقيض، حيث أظهروا أن لا أحد يؤمن بالديمقراطية وإنها ضحية الجهات المتناقضة، وهذا الكلام ليس تزكية أو تبرئة لجبهة الإنقاذ التي أولغت بدماء شعب الجزائر ولكن تقرير حقيقة.

ومع ورود هذه الأمثلة التي تشير الى تناقض العقل الايماني وقلقه وعدم وجود موقف ثابت له من هذه القضايا ، وبالتالي توحي بعدم الركون الى النتائج التي يتقدم بها، فإن مايثبت هذا التناقض، الكثير من الآراء الواردة عن المؤمنين في مراكز قيادته. ويورد د. صادق جلال العظم بعضاً من هذه الآراء:

جاء في البرنامج السياسي لقلب الدين حكمتيار، زعيم الحرب الأفغاني: «إن الإسلام والديمقراطية لايتوافقان مع بعضهما. وستكون أفغانستان دولة إسلامية متشددة.. تحظر فيها المشروبات وتعود المرأة الى البيت ويستلم الملاوات السلطة»(١٦).

ويبدو أنه جاء من أرباب العقل الايماني من زاود على حكمتيار وأثبت استغراقه في التخلف أكثر منه، وفي تبني مؤشرات ومفاعيل هذا العقل، فاستلم السلطة في أفغانستان وهم حركة (الطالبان).

أما ضياء الحق، حاكم باكستان العسكري السابق فقد قال: «إن هاتفاً جاء في نومه، أن الإسلام والديمقراطية يتعارضان تعارضاً تاماً»، وبناء على ذلك ألغى الانتخابات العامة التي كان قد وعد باجرائها(١٧).

أما صالح سرية وهو من قادة الحركات المتأسلمة في مصر ومن أصحاب العقل الإيماني المتشدد فيقول: «إن الديمقراطية على سبيل المثال منهاج مخالف للاسلام ففيه الشعب صالح للسلطة، في حين أن الشعب لادور له في التشريع، والجمع بين الاسلام والديمقراطية كالجمع بين الاسلام واليهودية»(١٨).

والآراء السابقة هي لقادة إيمانيين ميدانيين على رأس جيوش أو حركات أو دول، وكانوا فاعلين في واقعهم ومجتمعاتهم وحركاتهم، وهذه الأقوال ناضحة بصورة واضحة بآرائهم، ولاشك أن من يرى الديمقراطية هذه الرؤية، سيعمم رأيه هذا ليشمل المجتمع المدني ومنظماته، وليشمل الحرية أيضاً، لأن الحرية (طبعاً بمفهومها العصري، سياسياً واجتماعياً وفكرياً...) مفهوم متلازم مع مفهوم الديمقراطية، ولن تكون هناك ديمقراطية ليست الحرية منها قطب الرحى، كما لن تكون هناك ديمقراطية صحيحة لا تأخذ

منظمات المجتمع المدني فيها دورها الفاعل.

ويبقى الموقف من الحداثة على سبيل تحصيل الحاصل، وقد تكون إدانة العقل الإيماني للحداثة أقوى وأصرم من إدانته لغيرها من المفاهيم السابقة، فقد وقف هذا العقل ضد المرتكزات والمفاهيم التي لابد منها لإحداث تنمية فاعلة هدفها تحديث المجتمع، ونقله من حالة التخلف الى حالة نقيضة، تسمح في أن يتخلق عنها المجتمع الموعود. ولاشك أن الموقف من الديمقراطية والعلمانية والعلم والعقلانية هو موقف لامراء فيه من الحداثة وتعبير صريح عن رفضها. لقد ورد في كتاب «الابداع من نوافذ جهنم» وهو أحد ثلاثة كتب صدرت تحت عنوان عام هو «العنف الأصولي» كانت قد نشرت نصوصها في مجلة «الناقد» سابقاً، ورد نص يقول الكتاب إنه منقول بأمانة عن شريطي كاسيت من دون أي تعديل أو حذف، والأشخاص الذين أعدوا هذين الشريطين وغيرهما من الأشرطة، في إطار حملة واسعة لايزالون مجهولين، إلا أنهم على حظ جيد من الثقافة، ومن المعلوم أن أرباب العقل الإيماني استخدموا الكاسيت في نشر أفكارهم وقيمهم التي تملأ البيئات التي تأخذ هذه الأفكار مأخذ الجد، وأصبحنا نسمع أصواتهم وآراءهم وتحريضهم وأدعيتهم في السيارات والبيوت والمقاهي والشوارع، للتأثير في عقول الناس، لقرب وسهولة تناول الكاسيت، ولما يحمله من تلوين صوتي وخطابية وأدعية ووسائل إقناع.

ومضمون الشريطين الذي شكل النص المنشور، يصب جام غضبه، أي غضب كتابه (المثقفين) على رموز الفكر والأدب والثقافة العربية الرفيعة. والذين هم موضع فخر واعتزاز الأمة، ويكيل لهم شتى التهم، وذنبهم أنهم خرجوا على النهج الإيماني وعُقد أصحابه، وحلموا أن يروا أمتهم في موقع يليق بأية أمة تطمح للبقاء، ومن هؤلاء: غالي شكري، أدونيس، محمود درويش، صلاح عبد الصبور، أحمد عبد المعطي حجازي، عبد الوهاب البياتي، محمد عابد الجابري، عبد الرحمن الشرقاوي، محمود أمين العالم، جبر ابراهيم جبرا، أحمد سليمان الأحمد، كمال أبو ديب، نجيب محفوظ، وعشرات غيرهم، بل المعني بهذا الهجوم كل مثقف يطمح الى تحديث وطنه فكراً أو عملاً، على امتداد هذا الوطن العربي، وكل رموز النهضة الفكرية والأدبية والفنية، مع قرائهم ومعجبيهم وأتباعهم ومروجي أعمالهم ومن يتعاطى معهم[١٩].

كل ذلك حفاظاً على القيم والدين كما يراها هؤلاء، لا كما يتوجب أن يكون الحفاظ عليها، ومنعاً من انتهاك مقدسات، يتم انتهاكها من قبل المدعين الحفاظ عليها، فالحفاظ عليها يمر عبر ملاءمتها لتطور المجتمع لاعبر جمودها عند قوالب لايمكن تجاوزها لأن الثبات عند وضعية واحدة يعني الموت، وما أظن أحداً من هؤلاء الحداثيين المعنيين بالهجوم كان يحمل نوايا تحطيم مايجلب العزة والمكانة والرفعة لأمته، فهم مجددو هويتها والمحافظون عليها، والذين يرون أنه إذا كان عليك أن تحافظ على خط يحمي الأمة من الدمار والانتهاك والتخلف، فإن ذلك يمر عبر إيمانك بأن ذلك لايكون بمنطق (وراء سر) وقد وضعت على جانبي وجهك واقيتين تمنعانك من الالتفات الى مايجري حولك وتبقيانك على صراط مروجي العقل الإيماني.

لقد أفضت في الحديث قليلاً في هذا الجانب لجلاء حقيقة أعتقد أن الجميع يعرفون عنها الكثير، لكن لكي نساهم في إزالة بعض الشك من أذهان الناس، ولإقناعهم بأن العقل الإيماني ليس الإطار الصالح لاحتضان تنمية ونهضة تعمل على تجاوز الواقع المتخلف.

الحقيقة التي أردت الإشارة إليها والوقوف عندها، هي أن عداء العقل الإيماني للتنمية الإنسانية ولتجاوز الواقع، مع أن أربابه لايصرحون بذلك، ويدعون أنهم هم القادرون على التغيير بإيجاد (دولة العلم والإيمان) على طريقتهم، لكن منطق الأحداث يكذبهم، هذا العداء يستمد قدرته على الاستمرار، ومرجعيته، من تشويه ومهاجمة كل فكر عقلاني حداثي وفاعل ومن انغلاق الفكر الآخر وظلاميته وانكفائه على نفسه.

وبالتالي، أرجو أن يكون فيما تقدم من نصوص ومواقف وشهادات مايؤكد ويثبت أن العقل الايماني غير مؤهل لإحداث تنمية، وأن التنمية تنتمي الى حقل ومنظومة مفاهيم نقيضة لحقل العقل الايماني ومنظومته المفاهيمية. فالذين تم استنطاقهم في معسكر العقل الايماني هم من مهندسي ومصنعي هذا العقل وحراسه والمشرفين على استمراريته ونموه، والآراء الأخرى من الاتجاه المعاكس توضح تهافت هذا العقل. وما يجب التنبيه إليه هو ضرورة رفع سلطة هذا العقل ومؤدلجيه عن العامة، فهو فاعل في أوساطهم الى الحد الذي تنتفي مع فاعليته أية فاعلية لأية جهة أخرى، فلو حاول كل أطباء الدنيا مثلاً اقناع امرأة ريفية مؤمنة بأن من ضرورات الحياة الحرة الكريمة عدم

إنجاب الكثير من الأولاء لضمان تربية القلة في إطار أسرة منظمة تربية أفضل، لما أفلحوا في إقناعها طالما أن شيخ القرية يربط العملية بالقدرة الإلهية وبالإيمان ويوحي إليها بأنه حرام أن تعمل على الوقوف في وجه قدرة الله تعالى ومايرسله لعباده، وإن الله لايقطع الرزق عن أحد، وعنده مايكفي الجميع. إن أبرز أسلحة هذا العقل الجهل والخرافة والخوف وغيرها مما يمكن توظيفه في إطار من التقديس.

٥ - دور الفكر المغلق والفكر المنفتح في التنمية

نعود الى طرح الأسئلة. والسؤال الملح، ما الذي أحال الأديان ذات الأفق الايجابي والفاعلية الكونية، والمبشرة بالانعتاق الى دوغمائيات مغلقة؟ بالتالي كيف حولت هذه الدوغمائيات المجتمع الى غيتوات أو كانتونات؟.

السؤال ينطوي على المفارقة بين النظرية والتطبيق، هذه المفارقة التي فرضت نفسها حديثاً من خلال فشل الكثير من الأحزاب ذات الأفق الانساني التقدمي في ترجمة نظرياتها وبرامجها الطموحة الى عمل حسب الخطوط التي رسمتها لنفسها.

والأجوبة تأتي متباينة ومعبرة عن رؤية الانساق والاتجاهات الفكرية، وهي بالتالي أنساق واتجاهات آيلة عن الانتماء الى المعسكرات الفكرية.

عندما يكون الإنسان أمام نظريات كبرى ومبادئ عظيمة، عليه أن يكون شديد التحفظ في التعامل معها، وعليه أن يكون حذراً خصوصاً في أمر تطبيقها واستحضارها لكل صغيرة وكبيرة، فهي عندما تستخدم للتبرير ولقياس الاتجاه في صحته وعدم صحته، يبدأ التعسف في استخدامها، وعندها يبرز دور المصالح الخاصة، والآراء الخاصة، والمبادئ الخاصة، وتمتزج بالمبدأ والعقيدة، قد يكون هذا الخاص ملكاً لفرد أو جماعة، وتكثر الخصوصيات ويبدأ التشرذم، وتزداد الشروح والتفسيرات التي يحتاجها التبرير، ثم تبدأ هذه الشروح والتفسيرات والخصوصيات تنغلق، وكلها تستمد قدسيتها من المبدأ أو العقيدة، وبمرور الأيام يصبح المبدأ مبادئ والدين أديان وتصبح أبشع السرقات إرثاً مقدساً في نظر أحفاد اللص لايجوز الاعتداء عليه (حسب تعبير ول ديورانت في قصة الحضارة).

هكذا يصبح التشرذم سمة من سمات الفكر، ويصبح التقدم لدى كل فئة قليلة أو

كثيرة مشروطاً بتحقيق رؤيتها أو خطها وعقيدتها، ويظهر دور الأفراد والعقل الفردي المتمسك بالخصوصية أكثر، ثم يبدأ الاستبداد وعبادة القادة والأشخاص.

حدث هذا في كل دين من الأديان السماوية، كما حدث في الفلسفات الاجتماعية والمشاريع الكبرى في مجال السياسة والفكر، فتحكمت سياسة ومصالح القادة دينيين ودنيويين، وكثرت المذاهب والنحل، وأصبح لكل منها سياجها العقيدي المقدس، الذي التنازل عنه يعني التنازل عن الهوية والشخصية والكيان بالتالي عن الشرف والكرامة، ومن أجله ترخص الأرواح، ويحلو الاستشهاد والتضحيات، ويفسر كل تراجع يحصل في حياة الأمة على أنه ناتج عن التفريط بحق الله والتراخي في تطبيق الشرائع، وعدم الحفاظ على النصوص والمقدسات، وليصبح مقياس التقدم، التمسك بالعقيدة، والعض بالنواجذ على مابين يدي الانسان منها، وتبدأ اللعنات تصب على المفرطين، وتأخذ المزاودات أبعادها، ويظهر استغلال المواقف والانتهازية، ويصبح النفاق متبادلاً بين أقطاب هذا الاتجاه.

كان التفريط، والابتعاد عن صحيح المعتقد والتقرب من الشيوعية سبباً في هزيمة عام ١٩٦٧م حسب رأي الشيخ محمد متولي الشعراوي أحد مؤدلجي العقل الايماني، وهو الذي دفعه إيمانه الذي لم يفسده التقرب من الشيوعية (الايمان الصحيح) أن يصلي لله ركعتين شكراً له على هذه الهزيمة التي تعني مفاعيلها عنده غير ماتعنيه عند مجموع الأمة، فهي عند مجموع الأمة هزيمة بينما هي عنده نصر لأنها تعني العودة عن الكفر والتفريط وانتهاء زمنهما بفصم عرى العلاقة بالشيوعة الملحدة، هكذا، وبكل وضوح، بل بكل صفاقه عبر العقل الايماني عن دوره، وأفصح عن وجهه في وسط الآلام التي تعانيها أمة ذاقت مرارة الهزيمة لتوها، فيكون دور هذا العقل تصعيد الشماتة بدل بلسمة الجرح، وهكذا تعود المؤمنون البحث عن أسباب مآسيهم ومصائبهم، لدى شيوخ الضرب بالمندل، وكتاب الأحجبة، وقراء الفال، والمنجمين والمبصرين، ولدى الأبراج والمقامات والعتبات والأضرحة وعظام القديسين والتماثيل، المؤدية الى التحكم بالغيب، عوضاً عن البحث عن الأسباب الحقيقية وسلبيات الواقع، والتقصير والاستبداد، وإصلاح الواقع الفاسد إن أمكن، وتجاوز أنظمة الاعاقة، وإبعاد المتراخي والمفرط والفاسد والمتآمر واللص والمستبد والانتهازي والوصولي والمرتشي والكسول...

الخ بدل مباركتهم والحصول على هباتهم.

هكذا تبتسر الأمور، وهكذا تتوالى التبريرات اللاعقلانية، فتتألق قوى السحر والخرافة وتنتفخ، بينما تضمر قوى العقل والعلم، وتزداد أسطرة الشخصيات، وتبدأ كراماتها بالظهور، ويصبح المصير معلقاً بشطط أفكارها.

وضمن هذا الواقع يتم لعن الخارجين، وغير المترادفين، وتتم محاولات أعادتهم الى القطيع كي لايبقوا مخالفين للنسق، لأن نُسَبُهم يجب ألا تقل عن مئة في المئة، للانسجام مع المطلق، ويصبح الأكثر اغراقاً في لاعقلانيته معيار التقدم والنجاح، وفي هذا المناخ الذي يجب أن يسود فيه كل مايقوم على النقد الموضوعي البناء، يمنع النقد، وتتم الدعوة الى التكتل أكثر، والى الانغلاق في وجه الآخر أكثر، أي الى التقوقع وإغلاق الأبواب ونبذ التثاقف والتفاعل.

وإذا كانت سمة التفريط بالعقيدة، وعدم التمسك بصحيح الخط الارثوذكسي للطائفة أو الملة، والتحذير من الاغراق في ذلك، وضرورة التوبة، هي السائدة أيام المحن، فإن العون الإلهي وزوال الغمة برضى الآلهة، يعتبر التفسير الأكثر رواجاً في أيام الطمأنينة والرخاء، عند مؤدلجي هذا الاتجاه . ومن الواضح أن الإنسان هو نفسه لم يتغير وأن التمسك بالعقائد صحيحها وزائفها لم تتغير، فحصول ماهو إيجابي يعاد الى رضى الإله، حتى لو لم يتغير قيم الناس وسلوكياتهم وحتى لو لم يقوموا بأي عمل لنيل هذا الرضى، وهذا يلغي القراءة الدقيقة للواقع، ومعرفة المقدمات التي أدت الى نتائج، أي تغييب منطق العلية والسببية.

إن نسبة النجاحات والانتصارات الى الرضى الإلهي، والهزائم والفشل الى الغضب الإلهي، هو تفسير دائم، قديم ومستمر، فالناس لم يكونوا أكثر تديناً، ولاتدينهم كان أكثر صحة والتزاماً عام ١٩٧٣ حيث انتصر العرب نسبياً في حربهم مع اسرائيل، منه عام ١٩٦٧ حيث انهزموا، مع ذلك، فقد رأينا كيف يبرر العقل الايماني الهزيمة بغضب الله الآيل عن العلاقة مع الشيوعية والارتباط بها، كما رأينا العقل ذاته يشير الى الرضى الإلهي الذي يعتبر سبب الانتصار حتى أن الله أرسل ملائكته للقتال مع المؤمنين على جبهة قناة السويس، وقد رآهم شيخ الأزهر بثيابهم البيض، والله لايرسلهم إلا لنصرة الايمان، علماً أن العلاقة مع الشيوعية لم تكن قد تبدلت بما يرضي هذا

العقل، والعلاقة مع نقيضها الرأسمالية ليس انحيازاً كاملاً الى الإيمان. لقد نسي شيخ الأزهر الذي رأى الملائكة بعينيه الايمانيتين كل الجهود والتدريبات والتضحيات التي قدمها الجندي المصري والانسان المصري، الذين ضحوا بأغلى مايملكون، الدماء والأنفس والأموال، ونسب النصر للملائكة، أليست هي محرزة النصر على كل الجبهات الإيمانية التي افتتحت؟ أليست كل معركة من هذا القبيل عندهم بدراً لا أحداً؟!.

هذا هو العقل الإيماني ورجاله وتبريراته!!.

إذا كان هناك تقصير أو فعل سلبي، يعبر عن عجز وضعف أو هزيمة في مواجهة من أي شكل أو لون كانت، فالمسؤولية يتحملها الانسان، فهو ابن الخطيئة، وهو العاجز، وهو المقصر، دون التفكير بانسجام هذا النمط من التبرير مع فكرة الاستخلاف، التي جاءت بإرادة إلهية لعمارة الكون وصيانته، وإن العمارة والصيانة تصنعهما القوة لا الضعف. العجز مرتبط بالعاجز والعاجز هو الإنسان، إذن مايدور في فلك السلبية، وساحة العجز هو إنساني. والقدرة من سمات القادر، وإظهار القدرة يوحي بوجود صاحبها في ساحة الفعل، وكل مايدور في فلك الإيجابية، فلا دور للإنسان فيه، إنه فعل ينتمي الى قوى فوقية، بتدخل الأرواح أو المقامات أو الكرامات.

إن الاعتقاد بشلل الفاعلية الإنسانية، هو رهان يعمل على تثبيته من كان له مصلحة في ذلك، ولاشك أن هؤلاء ينتمون الى العقل الإيماني، لأن شلل الفاعلية البشرية يبقيهم أسياد الساحة، وهنا سأعود الى سؤالي الرئيسي في هذا البحث، كيف يصنع تنمية من لايستطيع مواجهة عجزه والخروج منه وتجاوزه؟.

ستتم مهاجمة من يشكك بمواقف العقل الإيماني، لأن أصحابه ربطوه بالآلهة، ولاتجوز المساواة أو المقارنة بين القدرتين الالهية والبشرية، ولأنه يشكك بإمكانية القيام بتنمية تحتاج الى قوة بواسطة انسان لاينسب إليه إلا العجز، إن الانسان العاجز، أو الذي تم تعجيزه عنوة، لايمكنه اجتراح التنمية.

٦ - التنمية في علاقتها بالسياسة

من الطبيعي أن تنتقل الأفكار من الحقل الديني والايماني الى الحقل السياسي،

لارتباط الحقلين تاريخياً ببعضهما، وهذا مابدا جلياً عبر الحقب التاريخية، لما بين الدين والسياسة من أواصر تم توارثها والحفاظ عليها منذ فجر البشرية، ولاشك أن كلا الجانبين يحصلان على الربح في هذا المجال إذا بقيت الأواصر بينهما قوية.

وتحول العقل الإيماني الديني الى عقل إيماني سياسي أمر واضح وجلي، وإعاقة هذا العقل لعملية تنمية حقيقية وواسعة أمر جلي أيضاً.

ففي أقدم الحضارات التي وصلتنا أخبارها كان الكاهن (رجل الدين والايمان) والملك (رجل السياسة)، إما شخصاً واحداً أو يتناغمان في وحدة مصلحية لاتنفصم عراها، وتتناقل الأدبيات السياسية وصية أحد ملوك الفرس لابنه والتي ينصحه فيها بتوثيق عرى العلاقة بينه كملك (سياسي) وبين الدين فـ «الملك والدين توأمان، فالدين أصل، والسلطان حارس»[٢٠]، وتستمر الوصية لتؤكد أن ما لا أصل له فزائل، وما لا حارس له فمفقود.

والعلاقة بين السياسة والدين وبالتالي الإيماني في تاريخ بني اسرائيل ممثلي اليهودية والمؤمنين بها، ليست بحاجة الى كبير عناء لاستجلائها، فكثير من الملوك والمدبرين لشؤون هذه المجموعة البشرية (بني اسرائيل) ومن قادتها الزمنيين كانوا أنبياء، من ابراهيم واسحق ويعقوب وصولاً الى موسى وهارون ويوشع، الى داوود وسليمان وغيرهم. وكان أمر الإيمان موظفاً في خدمة السياسة والعكس.

وفي المسيحية، فإن خير معبر عن انتماء السلطتين الدينية والدنيوية الى مصدر واحد هو المصدر الالهي، هي نظرية السيفين، والتي مؤداها أن لله سيفين مسلولين، أحدهما يمثل سلطانه على الأرواح، والثاني يمثل سلطانه على الأبدان، وقد تسلم القديس بطرس السيفين، فأعطى سيف الأرواح للبابا وسيف الأبدان للامبراطور.

وصحيح أن السلطة قد افترقت هنا إلا أنها ذات مرجعية واحدة، وهذه المرجعية ليست الإنسان ولا من حقله، فمصدر السلطة هو صاحبها والمسؤول عنها وهو هنا الله. هذا إذا سلمنا بأن كلا الجهتين قد التزمت بحدود دورها الموكل إليها، والتاريخ لايصادق على هذا فقد كان تسلط الكنيسة في بعض المراحل من تاريخها على الناس واضحاً ومطلقاً، كما أن الملوك أيضاً جمعوا بين السلطتين في آن واحد، وهذا دليل على وحدة الايمان والسياسة عبر الحقب التاريخية.

وفي الإسلام، فإن قراءة التاريخ الإسلامي تبرز نتيجة جلية، وهي تلازم الدين والسياسة، بالتالي الايمان والسياسة، وتوثق العلاقة بينهما – لما فيه خير الأمة؟ – وبما أن الغلبة للسياسي بما يملك من قوى مادية ومقدرات، فقد الحق الديني فصار تابعاً له، دوره ينحصر في التبرير، وطمأنة نفوس العامة الى أن كل مايجري هو في إطار ما هو إيماني، وليس هناك أي شذوذ أو خروج على التعاليم المقدسة. بالتالي فالطاعة للأمراء البر منهم والفاجر واجبة، والخارج على الأمير خارج على إرادة الهية، فقد قال أحمد بن حنبل: «السمع والطاعة للأئمة: البر منهم والفاجر، فمن ولي الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف فليس لأحد أن يطعن عليه ولاينازعه، وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل والٍ جائزة، ومن أعادها فهو مبتدع خرج على إمام من أئمة المسلمين»[٢١].

وليس الفكر المعبر عن العقل الإيماني الإسلامي عند السنة أقل استغراقاً في تضييع دور الإنسان من العقل الايماني عند الفئة الإسلامية الأخرى، الشيعة، إذ أن السلطة عند هؤلاء مرتبطة بتسلسل أسري، ذي مضمون إلهي، لا دور للبشر فيه، بالتالي فهي أكثر استغراقاً في التماهي بين السياسي والديني الايماني، وهي أدعى بالتالي لسيادة الاستبداد، كما أنها أدعى لتغييب دور الإنسان المحكوم، وإبعاده عن أن يكون له شأن في أمر السلطة التي تحكمه، فهي مفروضة عليه لابقوة الغلبة فقط، بل بقوة إلهية أيضاً.

لقد أوردت ما أوردته عن علاقة الدين بالسياسة، لأن مفهوم الايمان والعقل الايماني، يحيل الى الدين مباشرة، علماً أن هذا المفهوم فعل فعله في السياسة وعن طريقها، كما في الدين وعن طريقه، والسلطة التي يتمتع بها الحاكم هي سليلة السلطة الإلهية وقدرتها، فالسلطة التي تنتقل عن طريق الشرعية الالهية، عبر الرسل والشرائع، الى الورثة من ممثلي الإيمان ونواطيره والمتحدثين باسم هذه الشرعية ووارثيها، تؤول الى الحكام السياسيين الدنيويين، الذين بينا فيما سبق الوحدة بينهم وبين حراس الإيمان الارثوذكسي. ومن كان يجمع الشرعيتين الإيمانية الدينية والسياسية، فلا شك أنه سيستخدمها بالشكل الذي يؤمن له الحفاظ عليهما تحقيقاً لمصالحه، كل ذلك باسم الحفاظ على حق الله وحق الشعب، وهذا ماسيؤول الى

الاستبداد وقمع المعارضين، بالتالي التوحد والحكم الفردي، وهذا ما أظهره التاريخ جلياً، وهذا أيضاً ماورثته الحكومات في العصر الحديث، خصوصاً تلك التي كانت مسلحة بالنصوص الاطلاقية (النظريات الثورية)، والتي كانت حتميتها تتمثل الحتمية الالهيــة، فقد قرنت هذه الحكومات سلطتها على الناس والحياة المادية وإدارتها، بسلطتها على النصوص (نظرياتها الثورية) والتحكم بانتاجها ومنطوقها ومدلولها وشروحها وإدارتها، إذ لها في التاريخ قدوة.

هذه السلطة المتحكمة بكل قنوات الحياة، والمالكة لمصير البشر ومقدراتهم المادية، لن تفسح المجال لبروز فعالية بشرية تنموية تتجاوز الواقع الى مافيه مصلحة الناس، لأن ذلك سيفضي الى التقليل من هيبة وسلطة الدولة المتمترسة بالجيوش والنصوص، وليس في تراثنا البشري الكثير من المتنازلين عن سلطة منحت لهم أو اغتصبوها، كما ليس في هذا التراث من صنع تنميــة حسب رأيه الفردي، إلا خرجت هذه التنميــة المزعومة عرجاء وخادمة له، والتنمية الخادمة للحكام المتسلطين، ليس بالضرورة أن تكون خادمة للشعب المحكوم، فكل تنمية لاتتجاوز التسلط والاستبداد، هي ليست في خدمة الانسان، وما لم تكن في خدمة الانسان فليست تنمية، ولن تنتج إلا إعادة انتاج التسلط عبر تغييب الديمقراطية، المشروع البديل لمشروع الاستبداد.

هكذا يفعل العقل الايماني فعله. ففعله لدى الفئات الحاكمــة هو الاتجاه الى السيطرة المطلقة، فكما لايجوز أن يكون هناك انتقاص من قدرة الله في الكون الذي هو إلهه، كذلك لايجوز أن يكون هناك انتقاص من قدرة الحاكم في كونه الصغير الذي هو إلهه، والسيطرة لاتتم إلا بالتحكم بتسيير الحياة المادية للناس والإمساك بها وبمفاعيلها من خلال الإمساك بالنصوص والتحكم بها وتوجيهها. أما فعله بالنسبة لفئات الشعب، فهو الامتثال والرضوخ، وتأمين دوام هذا الرضوخ. أليس الخروج على الإرادة الإلهية كفراً؟ كذلك الخروج على إرادة الحكام باعتبارها آيلة عن إرادة الله، إن ذلك يعني الشلل، شلل الإرادة، خاصة عندما يصور الإنسان أن خروجه على إرادة الحاكم السياسي سيعني ولاشك خروجه على إرادة الله، لأن الحاكم يستمد مبررات حكمه من تمثيله لإرادة علوية.

إن إحداث التغيير المطلوب، يقتضي رفع سيف التسلط على عقول الناس

وإرادتهم، والمتسلط على عقول الناس وإرادتهم، هو ذلك العقل الإيماني الذي لاعلاقة له بالآلهة، إنما هو عقل صنعه الحكام ورجال الدين وحاشيتهم، لخدمة مصالح هي ليست بالتأكيد مصالح الله، بل هي مصالحهم، لأن مصالح الله لايمكن أن تكون لغير مصلحة الانسان، فحيثما وجدنا انتهاكاً لمصلحة الإنسان فهناك انتهاك لمصلحة الله، وحيثما كان ذلك فعلينا أولاً أن نبحث عن العقل الإيماني الذي تسلل الى السياسة عن سابق إصرار وتصميم، بل بتخطيط من أصحاب المصلحة.

وهنا أريد أن أشير الى أن خوف الناس المؤمنين من الإرادة الإلهية المانعة للتغيير لما فيه مصلحتهم، لامبرر له، إذ لايمكن أن تكون هذه الإرادة إلا لصالح البشر، لكن جهات ذات مصلحة، ربت في عقول الناس مفاهيم تشير إليهم بأن لله مصالح خارج مصالح عباده، والله بعيد في مفهومه المتعالي عن أية مصلحة خاصة، فمصلحته هي إيجاد كون خالٍ من كل مايشين انسانية الانسان أو يعرقل نموها، لأن ذلك سيعني عدم فهم الألوهة فهمها الصحيح.

الله مع الإنسان عندما يكون صادقاً في انتمائه لنفسه، لأن انتماء الانسان لنفسه، يعني انتماءه لإنسانيته بالتالي للألوهة، أليست الإنسانية تجلٍ من تجليات الألوهة وقدراتها.

إن خوض غمار التنمية والتغيير يتجاوز الواقع باتجاه ماهو أفضل، هو انسجام مع هذه المعاني لانقض لها، مهما كان في ذلك من تجاوز في المفاهيم القارّة التي وضعت لخدمة مصالح فردية، وهذا مانصر على أن العقل الإيماني ليس الإطار الصالح له كما بينا.

٧ - الرؤية الايمانية للمجتمع والتنمية

لايتبادرنّ الى الذهن أن حياة الناس في أطرها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية هي خارج امتدادات العقل الإيماني، وأنه لا علاقة له في هذه المجالات، إنها الحقول التي يمارس الناس فيها حياتهم، وتخومها هي امتدادات هذا العقل، فمنذ القديم تم التأكد من أن السيطرة على مقدرات الناس الاقتصادية، تمر عبر طريقين. الطريق الأول، هو التسلط على حياة الناس الاجتماعية، والطريق الثاني، الإمساك بالجانب

الايديولوجي، أي بقاء حركة الفكر والثقافة في أيدٍ أمينة، وذلك ضماناً للسيطرة، والطريقان يلتقيان ويتفاعلان ولايتنافران.

حياة الناس الاجتماعية تحت السيطرة، طالما تم ربط تفصيلاتها ومفاصلها وضبطها، بمفاهيم التحريم والتحليل، ومايجوز وما لا يجوز، والامساك بجوانب العملية، فالتحريم والتحليل ليس من اختصاص الناس العاديين، فهو فعل إلهي، وتحريم ماحرمته السماء وتحليل ماحللته، هو أس الإيمان وعموده الفقري، وما لم تحلله السماء أو تحرمه، فعله وكلاء السماء المعقدين، لأن مايخص السماء هو حقل نشاطهم.

فمؤسسة الزواج، جرى ربطها بالمؤسسات الدينية الايمانية في الأديان السماوية، وهي أهم المؤسسات الاجتماعية منذ القديم حتى اليوم، لعلاقتها بحياة الفرد والأسرة والمجتمع، ورجال المؤسسات الايمانية الدينية هم الذين يرون مايجوز وما لايجوز بامتلاكهم زمام النصوص، فالتزاوج بين أبناء الملة الواحدة يمر عبر ترسيماتهم، والتزاوج بين أبناء الأديان والطوائف والمذاهب والنحل، يخضع لمراقبتهم الأشد ويقررونه هم ولا تقرره قلوب الناس وأهواؤهم وإرادتهم ومصالحهم، حتى ولو كانوا هم المعنيون الذين سيتزوجون أو هم الضحايا، ولا يكون الزواج على سنن الله، كما لايكون الطلاق في حال حصوله، ولو كان العلم به حاصلاً للجميع وبموافقة هؤلاء الجميع، إلا أن يتم إعلانه وترسيمه عن طريق الكهنة أو من يقوم مقامهم، وعبر سيطرة النصوص والكليشهات الجاهزة الموروثة والمحفوظة، ومن خرج عن هذا الطريق خرج من ربقة الايمان. وما يستتبع الزواج من جنس وحمل وأجنة وولادة ورضاع وفطام وتربية ونسب وانتماء، كلها وضعت لها النصوص والترسيمات. وحياة الإنسان العاطفية والجنسية كذلك وضعت لها القواعد والقوانين الصارمة التي لم تشهد الأديان ولا الدنيا تشديداً يفوق التشديد الذي شهدته هذه الجوانب.

ونستبق الحديث للإشارة الى أن أبرز مظاهر تسلط العقل الإيماني على الحياة الاجتماعية للناس، هو التعامل مع المرأة والحياة التي عاشتها وتعيشها في ظل الأديان السماوية أو ماورثته من الحضارات التي سبقتها، والتي لم تسع الى تغيير الكثير منه، مما بدا متعسفاً وغير صالح لمسايرة انسانية الكائن البشري الذي هو المرأة. فقد بقي هذا العقل يصنف المرأة في خانة البضاعة المادية، ويعتبرها مصدراً من مصادر

الخطر والشر والغواية، ويحدد الخطر أكثر فأكثر في مفاعيلها الجسدية القادرة على تفجير المجتمع، ولذا بقيت المرأة خاضعة للنظرة المادية، التي يجب الحفاظ عليها كما يحافظ اليوم على المعادن المشعة خوف انتشار اشعاعاتها التي تفتك بالناس، حتى نفاياتها هي مصدر خطر، وكذلك المرأة، فبروزها للعيان مصدر خطر وغواية، والرجل أمام هذا الأمر قزم ضعيف، لاحول له ولا طول، أليس جده القديم آدم أحد ضحايا هذه الغواية؟! حتى المرأة النفاية (العجوز) لاتخلو من خطر.

هذا الواقع الذي قزّم المرأة قزّم الرجل أيضاً، فهو في مواجهتها عاجز مستسلم فاقد العقل والإرادة لمجرد رؤيتة أي جزء منها، لهذا جهد فقهاء العقل الايماني وفقهاء الأديان، على وضع الضوابط الصارمة، والأحراز المكينة، كي لانصل الى حافة الخطر، كأنظمة الرقابة على الأشياء الخطرة، وكأننا أمام جماعات من الحيوانات شديدة الافتراس، والتي لايقودها سوى غريزتها، وضحاياها شديدة الضعف، وشدة فتكها كامنة في ضعفها.

لقد وضعت الأديان ضوابط لذلك كله، إلا أن العقل الإيماني الذي أنتجه بشر وقاده بشر، قد اشتط في وضع القيود والعراقيل حتى أضحت حياة المرأة الاجتماعية سجناً متنقلاً، وساحة حياتها دائمة التوتر كساحات الحروب.

أي فعل فعله العقل الإيماني بإحالة الرجل والمرأة الى مفاعيل غرائزهما لا الى مفاعيل عقلهما؟ وأية تنمية يمكن للانسان القيام بها وهو مقيد الى هذا المفهوم الغريزي الشهواني، الذي يكمن الخطر على المجتمع من انفلات شهواته. وهو الإنسان الضعيف أمام هذه الشهوات؟ وهل للإنسان الضعيف من القوة مايصنع تنمية؟.

لقد تجلى خط الحياة الاجتماعية، والزيادة والنقص في تعليمات الأديان فيها، خاضعاً للحدود الصارمة وتطبيقاتها، تلك الحدود التي حافظت على الضوابط خوف القصاص. وهذه الحدود طالت مناحي الحياة الاجتماعية معظمها، لكن هذا العقل ترك لنفسه حرية التحرك والاختيار بين العقوبة وغير العقوبة، بإيجاد مايسمى بالشبهات المانعة أو المشككة بضرورة تطبيق الحدود أولاً، وهو بالتالي إذا أراد طبق ولديه مايسعفه على التطبيق، من مبررات ونصوص، وإن شاء عفا متذرعاً بالشبهة.

بقي أن نعود الى طرح السؤال الذي نحن بصدده، وهو امكانية حصول تنمية في

واقع يسيطر عليه هذا العقل، فالمعطيات والمؤشرات التي بحوزتنا لاتبشر بامكانية حدوث مثل هذه التنمية. لقد أشرنا سابقاً الى أن التنمية تعني تجاوز الراهن الى ما هو أفضل، خاصة عندما يكون الواقع متخلفاً، فهل هذا ممكن؟.

عندما تم طرح الزواج المدني في لبنان من قبل رئيس الجمهورية، انتفض زعماء الطوائف والكتل الإيمانية ضد هذا الطرح، الى درجة أن دعا بعضهم للاستشهاد وأنه مستعد له في سبيل اسقاط هذا الطرح الذي لم يكن قد تجاوز الكلام الاعلامي. التصدي لهذا المشروع لم يأخذ مصالح الناس وإرادتهم في الحسبان، بل ضرب بها عرض الحائط، متناسياً أن الأديان بسماحتها جاءت لتنظيم حياة الناس وتسهيل عيشها وجعلها أكثر كرامة وأقل تعقيداً. إن السماح بمرور مثل هذا المشروع يفقد أرباب العقل الايماني إمكانية من امكانيات الضغط والسيطرة على المجتمع وتوجيهه، بالتالي تصبح سلطتهم عليه غير ذات مضمون، فهل تنسجم التنمية المأمولة مع متطلبات هذا العقل.

كما أن القيود على المرأة لاتبشر بالزوال سريعاً، وهي القيود التي تصل الى حد اعتبار قتلها أمراً مشروعاً وجلياً ومتماشياً مع إيمان المؤمنين، إذا كان في ذلك حماية للشرف، ولن تكون المرأة في هذه الحالة قادرة على إيجاد ملجأ للرحمة من سلطة غاشمة، أو من خطأ وقعت فيه، أو من تهمة باطلة وجهت إليها، مع أن أبرز ما تدعو إليه الأديان هو التوادد والتراحم، الذين افتقدهما العقل الايماني في ترجمة الأديان الى سلوكيات ومذاهب ومصالح وعادات وتقاليد. هل يكون قادراً على ايقاع التنمية في حياة الانسان ما لايعتبر لهذه الحياة قيمة بحد ذاتها تدفعه الى الدفاع عنها؟!.

من جهة أخرى، إن تعدد الطوائف والفئات الايمانية والجماعات المؤدلجة، يؤدي الى التكتل بالتالي تعصب الكتل الاجتماعية الايمانية لنفسها، والتعصب والتكتل يدفع الى التناحر لتحقيق فوائد للكتل، والتناحر كما هو معلوم من موانع التقدم والتنمية، فانعدام اللحمة يؤدي أو ينتج عن انعدام الثقة كما يؤدي الى انعدام الاستقرار وتضارب المصالح، وكل هذا من موانع التنمية الحقيقية، وهو حاصل في مناطق كثيرة من العالم.

التنمية امكانات بشرية واعدة، توظف لإحداث نقلة في واقع قار، ضمن شروط

موضوعية ولا تأتي من عالم الغيب، بالتالي فمن غير الممكن لعقل يسعى لإلغاء الامكانات البشرية وسد الطرق أمامها، أن يكون قادراً على توظيف الامكانات لإحداث النقلة. لايستطيع أن يكون الشيء ونقيضه، بالتالي ليس عقل تنمية.

٨ - الثقافة والايمان والتنمية

في المجتمعات الإيمانية تكون السيطرة الثقافية أحد هموم قادة العقل الايماني، فالامساك بالنصوص يتيح فرصاً أكبر للإمساك بزمام المجتمع وتوجيه عقول الناس، فهم يحرصون ألا تكون النصوص مشاعاً، كي يؤول إليهم وحدهم أمر الشرح والتفسير والتحكم بالتوجيه، فالنصوص دساتير تضبط حركة الناس، ومتى تم التراخي حدث الانفلاش في الجماعة المؤمنة، سواء كان إيمان هذه الجماعة سياسياً، والنصوص دنيوية، أو كان الايمان دينياً ونصوصه تنتمي الى عالم السماء.

إن التحكم بالنصوص وتفسيرها، يتيح المجال لتوجيه سلطة المتعالي، وامتلاك الرأسمال الرمزي الذي تولده وتبشر به هذه النصوص، ومن خلال ذلك تمنح الشرعية أو تحجب، والتحكم بثقافة المجتمع، يعني الإمساك به من الرأس، كما تعني احتكار هذه الثقافة وتوارثها عبر تسلسل عائلي وعشائري أي أهلي، أو ما يساير هذا النمط أو الشكل، وعدم إشاعتها إلا لمن يثبت ترادفه وولاءه، وفي إطار استثمار هذه الثقافة يفسح المجال لكل أساليب الاحتيال من التبجيل والتفخيم، الى التذلل والتصاغر، الى الاستقواء والإلغاء، كل ذلك بمسحة من القدسية، وتسود الحيلة والنصب على بسطاء الناس، فتصبح الأحراز والتمائم والتعاويذ والأحجبة من أهم الأسلحة في مواجهة المستجدات والنوازل، واحتياطاً لكل قارعة، وتمنح النصوص ملاذها ودفئها لكل صاحب حيلة يريد أن يجعل منها شركاً لاصطياد الآخرين، في الوقت ذاته، تصب الويلات واللعنات حتى تصل حد الاغتيال المادي أو المعنوي، لكل من يبشر بثقافة نقدية، ثقافة الانعتاق، وتكون العقوبة أشد لمن يجربون أن يمدوا سلطة عقولهم المنفتحة والمستنيرة الى خزان النصوص الايمانية ليرى فيها رأيه، وليخضعها لفهم يأخذ فيه العقل العلمي والنقدي أي دور، ومعارك المثقفين العرب المتنورين والنقديين أصبحت مشهورة وعلى كل لسان، فقد خاض هؤلاء حروباً مع العقل الايماني المتخلف، وأعلن

عليهم الحرم والتكفير، وأفتى بقتلهم، ونفذ القتل ببعضهم، وشردوا، وذنبهم محاولة رفع الوصاية عن حقول تم احتكارها من قبل المؤمنين المزيفين.

لن ينسى المثقفون العرب ماجرى لطه حسين وعلى عبد الرزاق ومحمد أحمد خلف الله ونجيب محفوظ وفرج فوده ونصر حامد أبو زيد وسيد محمود القمني وصادق جلال العظم وعبد الرحمن الشهبندر، وغيرهم كثير على أيدي أناس لبسوا الدين، وحولوه الى حقول إيمانية ضيقة ضيق أفقهم وضيق فهمهم للدين، بدأوا يتحركون ضمن هذه الحقول واهمين أنهم بذلك يتحركون في إطار ديني رحب.

وامتدت أيدي هؤلاء الى الفنون باعتبارها حقول ثقافية تساهم في تنوير العقول، فأصلوا المسرح والسينما والموسيقا والرقص والفنون التشكيلية والعاملين في هذه القطاعات شواظاً من نار حقدهم وانغلاقهم، فالعمل في هذه المجالات خروج على الأخلاق واستباحة للحرمات.

لقد تمت مهاجمة المسارح ومنع الأفلام السينمائية واقامة الدعاوى ضدها، ومنع الأغاني ومحاكمة أصحابها، واعتبرت الموسيقا صوت الشيطان، بل كل هذه الفنون اعتبرت شيطانية، والمهاجمون من أصحاب العقل الايماني المتخلف لايفرقون في كل ذلك بين فن هابط مسف يقف جميع العقلاء ضده، وبين فن يسمو بالنفس الانسانية ويهذب الفكر ويدخلها آفاق الانتصار على كل مايعوق تقدم البشرية، وينشد كل ماهو جميل وجليل.

هكذا يتم الانتصار الرديء، وتتم مصادرة الثقافة الجادة، ومحاصرة العقول المستنيرة وثقافة الانعتاق التي تنشد الأبحار بأشرعة الحرية.

وإذا كانت التنمية فعلاً ثقافياً أولاً، لأنه لايمكن تصور تنمية لاتنشأ منشأ فكرياً وتتأصل في النفوس حتى تتمكن الارادة من إخراجها فعلاً وحركة، إذاً، لابد من مناخ وتأصيل ثقافي، لإكسابها الطابع الشعبي والانساني الضروري، فكيف تنجو الثقافة من أنظمة الحجر والخطر والاغتيال الايماني؟ كيف تصنع أفقها الانساني في ظل الكبت والظلامية؟.

لاشك أن هناك اختراقات وتضحيات وثقافة جادة يغامر أصحابها للافلات من لعنات السماء وخناجر المجرمين، لكن الثقافة لن تكون ثقافة تنمية إلا إذا استطاعت

أن تكون ثقافة شعبية متأصلة في البنية الاجتماعية، نكرر (التنمية هي العلم عندما يصبح ثقافة)، ومفهوم العلم هنا سواء كان في العلوم النظرية أو في العلوم التطبيقية، هو مفهوم العقلنة، مع تنحية الفهم الضيق لكلمة علم جانباً، فمتى سادت قيم العقل العلمي والنقدي وقيم الحرية الفكرية في الانتاج الثقافي بكل أشكاله وألوانه نقول إن مناخنا أصبح مهيأ للتنمية.

إذاً، العقل الايماني لايتيح المجال لتنمية ثقافية هي شرط مسبق لكل تنمية أخرى والتنمية الثقافية تحتاج الى تجاوز العقول المستقبلة، والعقول المعيقة، والعقول المثقوبة هكذا جرى لدى شعوب أخرى، فلم تستطع أوربا أن تبني نهضتها وتقوم بفعل تنموي إلا عندما حدّت من تأثير هذه العقول القاصرة على ساحاتها الثقافية.

وإذا كان تحليلنا للعقل الايماني قد جرى في إطار الأديان السماوية بشكل عام، فإننا نشير الى أن الواقع أتاح للثقافة أن تنمو، بالتالي للتنمية أن تتلمس طريقها في إطار المجتمعات الأخرى مسيحية ويهودية وبعض المجتمعات الإسلامية، بالقدر الذي تم به تهميش العقل الايماني وحصره وليس تهميش الأديان، بما فيها من قوة خلق وتجديد، وقوة ضبط استطاعت أن تساير الحياة وتطوراتها، ولقد انحصر دور الدين والايمان في كثير من المجتمعات بين الانسان وخالقه دون وصاية، وبقي الانسان حراً في أن تسير روحه نحو النجاة الأخروية أولا، وانحسر تأثيرهما عن علاقة الانسان ولقمته، أو الإنسان وحاكمه الدنيوي، أو الإنسان والطبيعة، وهذا ما أفسح المجال لحرية التفكير والإبداع، وأتاح للناس أن يكافئوا أو يعاقبوا المبدعين على قدر إجادتهم، لأن العقوبات والمكافآت لم تعد تأتي عن طريق السماء وبصكوك الغفران.

الثقافة في المنظور الايماني فعل منغلق وتعصبي، لايفسح المجال للآخر ويعترف به، بينما الثقافة في المنظور العقلاني فعل منفتح ومتسامح وديمقراطي، إنه فعل تمهيدي ورائز من روائز النهضة والتقدم، ولا تنمية حقيقية بدون ثقافة حقيقية، حرة ومبدعة وسيدة وإنسانية.

٩ - علاقة الايمان بالتنمية الاقتصادية

تظهر آثار التنمية في الحقل الاقتصادي أكثر مما تظهر في حقول أخرى بشكل

مباشر، وذلك عندما تتحول ثمار التنمية الى قيم مادية، والناس ينظرون الى مايرون، ويقدرون مايقع تحت مداركهم، علماً أن حجم التنمية في القطاعات الإنسانية والمعنوية يجب أن يكون أضعافاً مضاعفة، لكي تثمر ويتولد عنها نتاج مادي مدرك ومقنع. إن عشرات لابل مئات السنين قد تفصل بين التطور العلمي والفكري الذي يظهر في المجتمع، ثقافة، قبل أن تظهر آثاره المادية نتاجاً تكنولوجياً مادياً.

هنا يبدو دور العلوم التطبيقية وتحويلها الى تكنولوجيا، ومدى تقبل المجتمعات لها فعندما تحارب هذه العلوم باعتبارها مادية، أي تنتمي الى الشيطان، ويكفّر أربابها لأنها لاتؤدي الى الله كما يقولون، وتلاقي العداء والقطيعة من جمهور المؤمنين، وإذا تم التعامل معها بمنطق السحر والخرافة، فلن يكون دورها دوراً تنموياً في الوقت الذي أثبتت الشعوب التي أفسحت المجال لهذه العلوم أنه لاحدود لقدرتها على التنمية الاجتماعية والانسانية، علماً أن العقل الايماني ينظر الى سلبياتها دون أن يدرك إيجابياتها. فالتنمية والتطور وتجاوز الواقع مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باستثمار تطور العلوم الطبيعية والتطبيقية.

وفي مجالات أخرى مما أتاحه التطور الاقتصادي العالمي خاصة في ظل مرحلة العولمة، كمجال الاستثمارات المالية، وتوظيف الفضاء وغيرها، نجد أن للعقل الايماني تحفظات كبيرة، ففي مجال الاستثمارات المالية، نجد هذا العقل يدور في فلك الربا تحريماً وتحليلاً وتتباين المواقف من هذا المفهوم الذي يتم التحايل عليه من قبل أرباب هذا العقل عن طريق إنشاء الشركات والبنوك الإسلامية، وهي لاتحمل من الاسلام وقيمه سوى الاسم، بينما تعمل حسب منطق المصلحة والربح.

يبدو التناقض بين الجماعات المنخرطة في إطار هذا العقل، من خلال قبولها ورفضها لمسألة الفائدة (الربا) التي تعد من أعمدة الاقتصاد العالمي الحديث، فالصهيونية التي تعد إحدى الجماعات المتمتعة بالعقل الايماني بجداره، هي وريثة العقل الربوي اليهودي، وهي تطور الاقتصاد الصهيوني عن طريق الاستثمارات المالية غير النظيفة، فمسألة تبييض الأموال يقال أن الحاخامات الصهاينة يشرفون عليها، ولايجدون في ذلك بأساً لأن تراثهم في هذا المجال حافل، ويبدو أن مستقبلهم واعد، فالأموال سواء كانت ناتجة عن المخدرات أو تجارة الجنس أو مسروقة من قوت الشعوب،

لايدقق في مصادرها التي تتنافى مع القيم الدينية قبل دخولها الى البنوك الصهيونية.

لاننسى أن أحد الركائز الأساسية للعقل الايماني بشكل عام احتقار المادة لصالح إعلاء شأن الروح، فالمادة موقع الخطيئة والدنس، والمال وسخ الروح، ولايبقى الإيمان نقياً وصاحبه يتقلب في النعيم، إذ لايدخل غني ملكوت الله حتى يلج الجمل في سم الخياط، والفقر أحد المرتكزات الايمانية، والفقراء أول المؤمنين المصدقين بالأنبياء، لذلك كان تمجيد الفقر أحد أشهر الأدبيات الايمانية والدينية، وزيادة ثروة المؤمن المادية يتناقض مع صحيح إيمانه وصادقه، والتنمية في هذا العصر تقوم على أساس مادي، بل على أساس الزيادة المادية في ثروة الأفراد كافراد، فكيف يمكن أن يزال هذا التناقض؟.

بالنسبة لأكثر المؤمنين عبر التاريخ، حلوا هذه المشكلة بالتفريق بين الفكر والممارسة، بين المعتقد وتطبيقه، إذ آمنوا بشرور المادة وما تؤدي اليه من خبائث إيماناً نظرياًو وأفرطوا في حيازتها وتنميتها والتنعم بها، مالاً وممتلكات وطعاماً وجنساً، وعملوا على مراكمة الثروة والتجارة بالمال، أي الاعتماد على تنمية الثروة عن طريق الربا.

حتى يومنا هذا نجد الدعوة الى البعد عن الدنيا وملذاتها والتقشف، وشراء الآخرة بالدنيا ومتاعها الفاني، لكن الثمن في المحصلة يجب أن يصل الى مؤدلجي العقل الايماني ونواطيره. وهنا يبرز التناقض بين العقيدة والسلوك مجدداً.

إن التوجهات الايمانية بتركيزها على الجانب اللامادي في طرحها الفكري، قد ساهمت في إيجاد حلقات إيمانية زهدية ترغب عن الدنيا أو تدعو لنبذها، وتلتزم جانب الزهد والتصوف، وتبرز دور التخلص من عفن المادة في الخلاص الروحي الأخروي، وكان هذا هو البلسم الذي تداوى به جراح المقهورين والمغلوبين والجائعين، وقد أفسح هذا في المجال لاستغلال هؤلاء، فهروب بعض الناس من المادة، وزهدهم وتركهم السعي الحثيث إليها واقتناعهم بأن هذه قسمتهم ونصيبهم في الدنيا، وأن الآخرة خير وأبقى، وهي التي ستعوض عن كل القهر والحرمان، وستكون بلسم الجراح، كل هذا سيفسح المجال لمزيد من الاستغلال، إذ أن ركون البعض الى النصيب الضئيل من الدنيا، الذي هو نصيب مقدر سلفاً سوق لن يدفعهم نحو المزيد من الجهد والعمل، إذاً سوف لن يدفعهم نحو المزيد من دفع الظلم والحيف ومواجهته، بالتالي سيدفع البعض الآخر لاستغلال

الفرص وضعف الآخرين وعجزهم، والى استثمار الأجواء النفسية المهيأة للانصراف عن الدنيا، سيدفعهم لزيادة ثرواتهم وتحقيق أطماعهم بتكديس الثروات، مما يجعلهم يملكون مقدّرات المجتمع المادية، والسيطرة على ثرواته، بالتالي التحكم بوجهة سيره وقيادته وتوجيهه لأنهم الأقوى، وهذا يتنافى مع قيام تنمية اجتماعية حقيقية. كل ذلك تحت نظر حراس الايمان ومباركتهم، فهم غالباً مايتلقون نصيبهم من هذه الثروات التي يكدسها الأغنياء مستغلين جهد البائسين، إذ من بعض الاعتراف الذي يقدمه الأغنياء للقادة الإيمانيين بما يشيعون من أجواء الرضا والقبول والقسمة بين الدنيا والآخرة، أي تأمين الأرضية الصالحة للاستغلال فكرياً وعقيدياً، أن يقيموا لهم الولائم ويقدموا لهم الأعطيات ليصبحوا شركاء الاستغلال للطبقات الكادحة وتكديس الثروات واختلال الموازين الاجتماعية، دون أن يكون هناك نقص في التبرير السمائي، فكل شيء مقسوم والله يرزق من يشاء بغير حساب.

مرة أخرى وليست أخيرة تضاف الى كل ماتقدم، نتأكد بأن العقل الايماني عاجز عن قيادة أو مواكبة عملية تنمية حقيقية، لأن ذلك قابع في أعماق بنية هذا العقل وتركيبته الفكرية، وأسلوب عمله بين الجماهير. وما يجب أن يكون واضحاً لا لبس فيه هو أن التنمية في أي مجتمع وجدت، هي بنى فكرية وفلسفة حياة تخضع لها شؤون الحياة كبيرها وصغيرها في البيئة موضع التنمية، وهي بنى وفلسفات منفتحة على قيم الحياة المتغيرة، وموضوعاتها المتناوبة والمتعددة، تقبل التعاطي مع الجديد قبولاً أو رفضاً، كما تعمل على استمرار ماهو جدير بالبقاء من عناصر التراث، أي ماهو عقلاني، وتنحي جانباً ماهو غير جدير مما يعوق تقدم المجتمع وتنميته.

هذه البنى الفكرية والفلسفات تنعكس في البناء المادي والتنمية بمستوياتها الأخرى، فتكون بمثابة الناظم للتطور والتغيير، والضابط للانتقال من وضع الى وضع آخر، محافظة على التوجه الى الأمام والتقدم، مانعة من العودة الى الوراء، مع الاحتفاظ بامكانية المناورة. أما أن نفهم التنمية أنها مانلحظه من زيادة استحواذ قيم الاستهلاك المادي والاستثمار في مجاله فقط، فإنها تكون كمن يبني بدون أساس ثابت، وعلى غير خطة وقاعدة ملحوظة. وما أود الإشارة إليه، هو أن الانسان بقيمه وحقوقه التي أقرتها الشرائع، السماوي منها والوضعي أيضاً، وكما تعارفت عليها

الشعوب وتعاهدت على احترامها، يجب أن يكون العمود الفقري لأية تنمية محتملة ومخطط لها.

من هنا نرى أن ما سبق وأشرنا إليه من أن الرحمة سمة من سمات العقل الايماني، وهو يتجلى بها تجلياً واضحاً، لكنها لاتسعفنا في تلمس طريق الخلاص والتنمية، فمنطق الرحمة المتبع يقطع مع حل المشاكل الحل الجذري المطلوب، إذ ليس المطلوب تأمين بعض متطلبات الحياة الضرورية بين حين وآخر لفقير أو مجموعة فقراء، وليس الحل إيجاد المآوي لنسبة ضئيلة من العجزة أو الأيتام والمشردين، أو المصحات لبعض المرضى، فهذه تقع في باب المواساة المؤقتة، وأحياناً في باب الدعاية الإعلامية، أو إسكات بعض الموسرين لنداء بقايا الضمير بتقديم بعض المعونات لمحتاج ما، وهي لاتنهي مشكلة، بل تعمل عمل المخدر الذي ينسي الألم ويبعده فترة وجيزة، ليعود أشد وأشرس. هذا ليس معناه الدعوة لتغييب منطق التراحم من الحياة الاجتماعية، إنما القصد أن الكثير من المشاكل يعجز هذا المنطق عن حلها، وتدخله يوحي بأنها وجدت طريقها الى الحل وبذلك نخدع أنفسنا.

الحل يكون بإيجاد الأرضية الصلبة والمتينة لحياة اجتماعية مستقرة تراعى فيها حقوق الانسان بشكل يفسح المجال لتحقق انسانية الانسان وحريته، فإيجاد العمل للقادر مهمة التشريعات والدول على أن يكون عملاً شريفاً وكريماً، وإيجاد أرضية مناسبة لتطبيق ضمان اجتماعي فاعل لايمن به أحد على أحد، ولايجد فيه أحد نفسه أنه يقف موقف المستجدي لحقوقه، متناسين كرامة هذا الانسان وكبرياءه، ومفسحين المجال لبعض المتباهين ممن أثروا على حساب المجتمع للتباهي والادلال بجليل أخلاقهم، واستغلال هذا المنطق لتحقيق المزيد من الأرباح. لذا يجب أن نشير الى أن عقل الرحمة لايتطابق مع عقل التنمية، قد لايتوافقان بنفس القدر الذي نتخيله من التوافق، وفي الكثير من الأحيان يقطعان مع بعضهما، لن يكون عقل الرحمة بديلاً لعقل التنمية ومنطقه. وهذه محطة أخرى تضاف الى ماسبق نؤكد من خلالها أن العقل الايماني بمنطقه السائد، ليس القادر على تخليق عملية تنمية فاعلة.

١٠ - الرؤية الايمانية للمرأة في علاقتها بالتنمية

تمّت الإشارة فيما سبق الى الوضع الاجتماعي الذي وضعت المرأة فيه تحت تأثير العقل الايماني، والبارز أن هذا الوضع مختلف باختلاف البيئات الايمانية، كما باختلاف الأزمنة، إلا أنه من الواضح تماماً ارتباط وضع المرأة بقناعات الناس المتأتية من إيمانهم الديني. ولا أظن أن موضوعاً من الموضوعات التي ارتبط بها هذا الايمان قد حافظ على درجات تخلفه المسيئة للمجتمع، وبالتالي المؤخرة له كما حافظ موضوع المرأة.

فعلى مستوى المرأة كشخص وكيان لا على المستوى الاجتماعي الذي تمت مناقشته سابقاً، نرى أن صورتها في العقل الإيماني مقرونة الى الشيطان الذي هو نقيض الرحمن، يعني أنها تحيل الى الشر المطلق الذي يعبر عنه الشيطان - المرأة. إن الربط بين الشيطان والمرأة في الفكر الايماني والأدبيات الموروثة عنه كما مر سابقاً، يحيل الى سلبية مطلقة، باعتبار أن الشيطان هو الممثل المعتمد للشر المطلق في الفكر الديني والايماني، وهذا ما يشكل عائقاً بين المرأة والتنمية باعتبار التنمية تحيل الى معنى إيجابي.

المرأة مصدر الغواية منذ حواء، إذاً، هي مصدر تعطيل إمكانات النمو والانطلاق عند الرجل لأنها تغويه وتحرفه عن طريق الصواب، وتشل قدراته، وتمنعه من أداء دوره، وعندما يجتمع الرجل والمرأة يكون الشيطان ثالثهما، لأن المرأة ربيبة الشيطان، فهو مرافقها، وهو ساكنها، وهنا نذكر بالإشارة السابقة، حيث كانت محاكم التفتيش تبحث عن الشيطان في جسد المرأة حتى تجده، ثم إن القدرة الإلهية تعطلها المرأة وتصادرها بتعاطيها السحر، ومشهورة عمليات ملاحقة الساحرات في الفكر الايماني المسيحي في العصور الوسطى، ولايزال بعض هذا الموروث يعشش في أذهان الكثير من المؤمنين. إن صورتها كانت تجعل الناس يرون وكأن الفضيلة نزاع وصراع بين المرأة والمسيح كما عبر ول ديورانت، ولاتزال بقايا هذه الصورة مستمرة الى يومنا هذا.

النظرة الايمانية في عمقها وفي أساس وجودها إذاً لاتتصالح مع المرأة، ولاتعطيها أي دور إيجابي إلا في كونها الأداة التي تحفظ استمرار النسل ووجود النوع من جهة، وعامل استقرار وكبح للرجل، كونها عامل تفريغ للشحنات في الحالات التي يحتاج

الرجل الى ذلك، من هنا كان زواج الرجل غير المحدود بحد، لأن آلية الطلاق قد أتاحت له ذلك، يتزوج ثم يطلق ثم يتزوج ثم يطلق... وهكذا، كما أن نظام التسري من الآليات التي تجعل الرجل صاحب الحق في اعتبار المرأة موضوع المتعة وتفريغ الشحنات، وقد تفاوت وجود مثل هذه الآليات بين الأنظمة الايمانية في الأديان، لكن من سمح له دينه، وشروحات وتفسيرات الرجال لهذا الدين، بهذا المكسب، حافظ عليه أكثر من أي موضوع ديني آخر بل وطوّره.

المرأة كما لايخفي في بعض الأنظمة الايمانية السائدة في بيئاتنا، يجب أن تحبس في منزلها وإذا اضطرت للخروج، فإنها يجب أن تنتقل داخل سجنها الذي هو الحجاب والقواعد الصارمة للحركة والسلوك، فكل شيء محسوب ومراقب من النظرة الى الكلمة الى الخطوة... وغير ذلك، طبعاً كل ذلك لاخوفاً عليها كما يبدو للوهلة الأولى بل خوفاً على الرجل من خطر غوايتها، وما يمثله وجودها أو منظرها من شر وأذى للرجل.

إذن القيمة المصونة، التي يحافظ عليها الحجاب، ليست المرأة، وإنما الرجل الذي يخاف عليه من الغواية، فيبرزه هذا العقل ضعيفاً (يشترك في حالة الضعف مع المرأة) تمكن غوايته وحرفه عن جادة الصواب عن طريق رؤيته للمرأة سافرة، وهذه النظرة تنطوي على سلبية واضحة في الرجل وعدم ثقة به، مثلما تنطوي على النظرة السلبية للمرأة التي لابأس أن يضحى بها حماية للرجل من الغواية، فالقيمة الأساسية ليست لها. ألم تفعل بجده آدم الأفاعيل فتخرجه من الجنة التي أسكنه الله فيها، بتآمرها عليه مع الحية؟.

هنا نصل الى إشارة أساسية من الإشارات التي توحي بتنمية معاقة انطلاقاً من اعاقة أدواتها، فلا تنمية بدون الإنسان، ولاتنمية خارج إطار الإنسان ومتطلبات حياته التي هي الغاية في أساس كل تحرك لتطوير الحياة. هذه الإشارة تكمن في شلل المجتمع، فنصفه الذي هو المرأة في نظر المؤمنين الذين يعتمدون الخط الارثوذكسي (الصراط)، ضعيف وهو الى ضعفه يجب أن يبقى حبيس المنزل، وحبيس الحجاب، والنصف الآخر، موضع الغواية وإرادته مشلولة، إذا كانت في مقابل جسد المرأة، هذه هي الصورة الإيمانية.

هل يمكن لمجتمع على مثل هذه الدرجة من الشلل أن يصنع تنميته؟!.

الوضع المشار إليه يؤدي الى أخطار كبيرة على عملية التنمية، باعتبار وضع المرأة، منها:

١ - حرمان الحياة والمجتمع من الطاقات الخلاقة للمرأة، ومن لمستها وذوقها في بناء وتطوير وجود إنساني مشترك للجنسين ومغتنٍ بنظرتهما معاً وجهدهما معاً.

٢ - الخطر الأكبر يتمثل في التأثير السلبي على الأجيال التي هي مناط التنمية وأمل المستقبل، فالكائن النسوي المستعبد والمستبعد والسجين لن يكون قادراً على تربية جيل حر باعتبار أن فاقد الشيء لايعطيه، وبما أن الأطفال يتلقون الحياة أول مايتلقونها، ويأخذون مبادئها عن أمهاتهم لوجودهن معهم في البيت باستمرار، ولقرب التلقي وسهولته عن الأم، لذا فإن الأجيال التي تتربى على يد مثل تلك الأمهات اللواتي لاينعمن بالحرية، لا جسدياً ولا فكرياً ولا اقتصادياً، ستعاني من اعاقة ليس من السهل تجاوزها، كما أن الأمهات لن يكن قادرات على تربية أجيال تستطيع تجاوز شروط إعاقتها المادية والمعنوية، وإنسانية الانسان لاتتفتح خارج أجواء الحرية، إذاً سيتم نقل العبودية من الأم الى أطفالها، وتكون بذلك قد فشلت في الحقل الأساسي الذي قُصرت جهود المرأة وقُسرت عليه وهو التزام بيتها وتربية أطفالها، ويكون الضرر الحاصل من إصرار هذا العقل الايماني على انقطاع المرأة عن الخارج، وركونها الى بيتها جاء بنتائج سلبية وأعاد إنتاج الإعاقة.

٣ - الحفاظ على نفسية الصَغار والذل والخضوع للرجل خوف الطلاق وما يحمله المستقبل من عوز، أو اتهامات، بالتالي فإن هذه الاستكانة تفعل فعلها السلبي في الحياة، حيث تدفع المرأة الى التبرج للتعويض عما تفتقده، ولتبقي حيويتها وشبابها عنوان وجودها كما تتطلب رجولة الرجل ونزواته وهذا مايدفعها الى الإغراق في وسائل الزينة وهي في سجنها، على ما في ذلك من خطر على إمكانات زوجها وبيتها المادية، وعلى صحتها الجسدية والنفسية، كما أنه تثبيت لدونيتها، وهو بالنسبة للفتاة التي تنتظر الزواج أو المرأة المتزوجة التي تخاف الطلاق تغييب لعقلها في الموقع الذي يتم فيه إبراز جسدها، وملاحظ ما في كل هذا من إعاقة التنمية الحقيقية.

٤ - هذا الوضع يعطي مبدأ القوامة بعداً أكثر خطراً فالمرأة تشارك في الاستهلاك

بشكل واسع ولاتشارك في الانتاج كما يريدها المؤمنون، وحاجتها الى الرعاية والإعالة يذهب بجزء كبير من جهود الرجل، هذه الجهود كان يمكن توفيرها لو أتيح للمرأة إعالة نفسها، ويمكنها رفد جهود الرجل في التنمية من خلال مشاركة فاعلة في العمل والانتاج.

٥ – إن شخصية المجتمع هي محصلة طبيعية لشخصيات أبنائه (الرجال والنساء)، وسيبقى المجتمع مهزوزاً وقاصراً وعاجزاً، ما لم تتحقق له شروط نمو حقيقي لاتغيب فيه جهود أية فئة ولا تشعر فيه بعض خلاياه بقلة الجدوى، فالتنمية عملية تكاملية، من هنا كانت ضرورة إطلاق امكانات المرأة وتأمين المناخ الملائم لتحقيق شخصيتها الفاعلة.

هذه الأخطار وغيرها ناجمة عن الوضع غير الطبيعي الذي وضعت فيه المرأة، وطبقت عليها القواعد الصارمة في الحفظ والحراسة من قبل عقل إيماني مغلق، وهذه العراقيل وغيرها ذات أخطار واضحة على النهوض والتنمية، لقد تبين أن التنمية من مفاعيل الانسان (الرجل والمرأة) في المجتمعات التي حققت مثل هذه التنمية، كما أثبتت أن تغييب أي جهد ممكن يعني عرقلة التنمية بالتالي عرقلة نهوض المجتمع.

هنا نشير الى التراجع الكبير عما أتاحته الأديان للمرأة، علماً أنها بقيت بعد الكثير من عطاء هذه الأديان لها بحاجة الى الكثير، وبدل أن تطمح الى المزيد من الحرية في إطار هذه الأديان، فان العقل الايماني سعى ليفقدها بعض المكتسبات التي حققتها، وقد نجح ذلك الى حد ما، فالأخبار تشير الى أن المرأة المسلمة كانت تستطيع في المراحل الاسلامية الأولى أن تقبل الزواج أو ترفضه، كما كانت تستطيع أن تشترط الشروط التي تناسبها للزواج من رجل ما، ومع افتقاد السجلات لذلك وعدم نقل أخبار الناس إلا من كان من الشريحة الاجتماعية العليا، فإن أخباراً معينة كافية لإطلاعنا على المناخات المتوفرة. فالخليفة عمر بن الخطاب عندما طلب الزواج بأم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب، لم يقدم أبوها على تزويجها (والزوج هنا هو الخليفة) إلا بعد موافقتها ورؤيتها لعمر[٢٢]، وسكينة بنت الحسين إحدى حفيدات الرسول، كانت تشترط في زواجها، فقد شرطت عند زواجها من زيد بن عمر بن الخطاب «أن لايغيرها ولايمنعها شيئاً تريده وأن يقيمها حيث خالتها أم منظور ولايخالفها في أمر تريده»[٢٣]. وكانت

قد تزوجت عدة مرات وانفصلت عن الأزواج الذين لم ينالوا إعجابها. كيف تم التراجع عن هذه المكتسبات التي حققتها المرأة المسلمة في عصر لاتشوبه الشوائب في نظر المؤمنين، ولا يشار الى نقص أو انحراف يعتريه. أنه زمنهم المثال؟!.

إن إعطاء المرأة دورها الاقتصادي الفاعل، وإزالة العقبات والقيود التي تكبل حريتها وتخرجها من شرطها الانساني، ولتسهيل أمر تعليمها بقدر ماتتيح إمكاناتها العقلية اسوة بالذكر، وإزالة القيود الاجتماعية من طريق زواجها، وحريتها في اختيار الزوج وطريقة وشروط الزواج، والتحرر من قيود المهر المرهقة، ومخاطبة عقل المرأة وذوقها وأحاسيسها، وليس جسدها وشهواتها وغرائزها، كل ذلك من شأنه أن يصنع المناخ الذي تستطيع المرأة فيه أن تساهم في التنمية بمعناها الايجابي الذي يتوقف عليه تطور المجتمع.

وإذا علمنا أن الكثير من القيود التي نطالب بكسرها مرتبطة بشكل أو بآخر بقناعات وعادات ومصالح العقل الايماني، وأصبحت جزءاً من بنيته سواء كان أصلها الأديان أو غيرها، فإننا نعود للتأكيد إن هذا العقل يشكل إعاقة كبيرة للتنمية، ويبدو أن تجاوز الواقع الموصوف، هذا التجاوز الذي ربطنا حدوث التنمية به غير واقع في المدى المنظور وبالسرعة الكافية لإنجاز اللحاق بشعوب نطالب باللحاق بها بالحاح.

١١ - غياب البرامج التنموية للعقل الايماني

في النهاية لو استسلمنا لمقولات المؤمنين ودعواتهم وتأكيداتهم، والتي تشير الى أنه لاتنمية خارج إطار الأديان، وكل تنمية تقوم على أسس وضعية هي تنمية فاشلة، لن تؤدي إلا الى مزيد من الضياع والتشتت، لأنها تغفل عوامل كثيرة تقوم على أساسها بنية المجتمعات، وأهم تلك العوامل مايتعلق بالجانب الروحي الذي أبعدته عن الساحة، السيطرة المادية، والربحية التي تقاس بكميات الأموال المتحصلة، بالتالي تقاس بها نجاحات التنمية. لكان علينا أن نبقى حيث نحن.

هذه الادعاءات تأتي في إطار الرد على السيطرة المادية والجشع الذي لايراعي قيوداً مما يؤدي الى العنف والسيطرة على مقدرات الشعوب وإغفال الكثير من الجوانب الإنسانية في الحضارة الحديثة، ولاشك أن هذه الانحرافات موضع الادانة، ونضم في

هذا صوتنا الى صوت العقل الايماني، ونرى أن لاتنمية خارج الشرط الإنساني. لكن الحل لاتجلبه الادانة، والبديل لما هو حاصل ومدان لاتجلبه النصائح والارشادات الى ضرورة التمسك بالقيم، وهي قيم متغيرة ومتبدلة حسب الظروف، وهي ليست محل اتفاق من قبل جميع المجموعات الإيمانية. إن المطلوب طرق عمليانية تنطلق من الواقع لا من النصوص (مع الإشارة إلى احترامنا للنصوص والدعوة إلى الحفاظ عليها وعلى كرامتها) التي تزجها حيث يمكنها أن تقدم شيئاً وحيث لا يمكنها، مما يفقدها مصداقيتها.

وبالعودة إلى طروحات وتنظيرات مؤدلجي هذا العقل، نجدها تفتقد البرامج الواقعية البديلة للبرامج التي تتم إدانتها باستمرار، وما تتضمنه الكتب السماوية ينضوي تحت المبادئ العامة وأخلاقيات التعامل، وهي لاتعدو أن تكون نواظم للعمل لايضير الأخذ بها لكنه لايقدم الحلول الكافية.

أما التنمية المعاصرة فإنها تحتاج الى مبادئ وخطوط عامة، كما تحتاج الى برامج تفصيلية لاتغفل شاردة ولا واردة، كما تحتاج الى مزيد من البراغماتية لتطوير برامجها وحمايتها وزجها في ميدان المنافسة.

إن إعلان كافة الاتجاهات العلمانية عن برامجها التنموية، ماجرب منها وما لم يجرب، وحرصها على الزج بها في سوق المنافسة، يفرض على الاتجاهات الايمانية أن تكون حاضرة في هذا السياق إن كانت صادقة في توجهها نحو التنمية، وعليها أن تحضر بشروط السوق لابشروط النصوص. فالاشتراكية لها برامجها، والليبرالية ووريثها العولمة لها برامجها، وغيرهما كذلك، وهي برامج تجد من يسهر عليها ويطورها باستمرار مراعاة لتطور الحياة وتجددها، دون الالتفات كثيراً الى مقدساتها التي يجب ألا تنتهك، وقد أثبتت الأيام أن البرامج الجامدة الباردة، لا مكان لها في سوق المنافسة، وهذه مبادئ تم تأكيدها بسقوط التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وأوربا الشرقية، لأن السوق لاتعترف بالمقدسات، ولا تحرسها الأخلاق.

إذن، إن وجود مبادئ عامة لايكفي، ووجود مبادئ وأفكار مقدسة لايمكن التغيير والتطوير فيها لايصح، لسقوط المقدس والثابت من عالم المنافسة.

هل نعود الى القول أن الأطر الإيمانية الموروثة، المقدسة والجامدة، والجزئية أيضاً

ليست سبيلنا الى المستقبل إذا أردنا العبور إليه، على الأقل في الظروف الحالية وشكلها الراهن؟!.

الناس لاينطلقون من العداء المسبق للعقل الإيماني، لكنهم غير جاهزين للاستسلام الى ما لايعرفون أين يقودهم.

كيف تتخلق البرامج التنموية إذا كنا لانزال نخلّق ونستحضر برامج التعصب والفرقة؟ «فبعض الحنفية يفتي بأن الحنفي لايجوز له أن يتزوج بالشافعية أو بنت الشافعي، لأن ايمانهما مشكوك فيه، وبعضهم أجاز على أنها بمثابة كتابية أو قياساً عليها!!!.

وسئل الشافعي عن طعام وقعت عليه قطرة نبيذ، فقال: يرمى لكلب أو حنفي...

وكان من أثر ذلك، أن أقيمت في الماضي أربعة محاريب في المسجد الحرام لصلاة الجماعة للشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي... ليصلي أتباع كل مذهب خلف إمام منهم»(٢٤).

هوامش الفصل السادس

(١) – د. فاطمة المرنيسي ، ما وراء الحجاب ، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة أولى ١٩٩٧ ص/٣٢/ وما بعدها .

(٢) – حسن إبراهيم أحمد ، مجلة الطريق ، مقال بعنوان : الطريق إلى الديمقراطية . مسار تاريخي . ممارسة نضالية .. آفاق . العدد/ ٢/ أيار حزيران ١٩٩٦ .

(٣) – د . صادق جلال العظم ، مقال بعنوان : الإسلام والعلمانية ، محاضرة ألقيت في الأسبوع الثقافي لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في كلية الآداب – جامعة دمشق – نيسان ١٩٩٥ ، نشرت في مجلة النهج عدد/ ٤/ صيف ١٩٩٥ ، كما نشرت في مجلة الطريق عدد / ٤/ تموز +آب / ١٩٩٥ . ونشرت جريدة الثورة السورية مقتطفات منها في عدد رقم / ٩٧٠٤/ تاريخ ٧/ ٥/ ١٩٩٠ .

(٤) – خليل عبد الكريم ، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة – السفر الثالث – الصحابة والمجتمع – دار سينا للنشر ، طبعة أولى/ ١٩٩٧ ص١٩٤ نقلاً عن كتاب من عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ص١٢٤ ، دار الشروق العربي – بيروت .

(٥) – خليل عبد الكريم ، المرجع السابق ص١٩٥ نقلاً عن تفسير ابن كثير جزء / ١/ ص٤٥١ طبعة دار الشعب بمصر .

(٦) – المرجع السابق ص ٢٠٠ نقلاً عن أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٢/ ١٩٦ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٤٩ .

(٧) – محمد جمال باروت ، يثرب الجديدة ، رياض الريس للكتب والنشر طبعة أولى ص٤٠ نقلاً عن كتاب سيد قطب ، معالم في الطريق ص٨٠ .

(٨) – المرجع السابق ص٤١ .

(٩) – د . أنيسة الأمين ، سلسلة « قضايا وشهادات » ، الحداثة / ١/ دار عيبال صيف ١٩٩٠ ص١٠٢ .

(١٠) – د . محمد عابد الجابري ، الديمقراطية وحقوق الإنسان ، سلسلة الثقافة القومية – قضايا الفكر العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، طبعة أولى ، بيروت ، تشرين الثاني / ١٩٩٤ ص١٧١ .

(١١) – د . عبد الرزاق عيد ، مجلة النهج ، عدد / ٣٩/ ٤/ صيف ١٩٩٥ ص١٤٢ .

(١٢) – د . نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني – سينا للنشر ، طبعة أولى / ١٩٩٢ ص٩ .

(١٣) – د . عزيز العظمة ، العلمانية من منظور مختلف ، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت طبعة أولى ١٩٩٢ ص٩٨ .

(١٤) – المرجع السابق ص٣٧ .

(١٥) – انظر ، حوارات قصي صالح الدرويش مع راشد الغنوشي – لندن ١٩٩٢ .

(١٦) – د . صادق جلال العظم ، المرجع السابق .

(١٧) – المرجع السابق .

(١٨) – المرجع السابق .

(١٩) – الإبداع من نوافذ جهنم ، كتاب الناقد ، رياض الريس للكتب والنشر طبعة أولى تشرين الأول ١٩٩٥ ص١٢٣ ، وما بعدها .

(٢٠) – د . علي أومليل ، السلطة الثقافية والسلطة السياسية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت طبعة أولى ، ١٩٩٦ ص١٧ . أيضاً د . محمد عابد الجابري ، مجلة المستقبل العربي عدد ٢١٩ ، ٥/ ١٩٩٧ .

(٢١) – مجلة عالم الفكر ، المجلد / ٢٢/ العدد / ٢/ من مقال للدكتور : أحمد صبحي .

(٢٢) – أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي القاسم التجاني ، تحفة العروس ونزهة النفوس ، دار الجيل ، بيروت / ١٩٨٩ ص٧٥ .

(٢٣) - د . فاطمة المرنيسي . الجنس كهندسة اجتماعية بين الواقع والنص ، نشر الفنك طبعة ثانية / ١٩٩٦ ص٥٢ .

(٢٤) - رشاد سلام . تطبيق الشريعة بين القبول والرفض - سينا للنشر - القاهرة + مؤسسة الانتشار العربي بيروت . طبعة أولى / ١٩٩٧ ص١٥٩ . نقلاً عن : عبد المنعم النمر . الاجتهاد . الهيئة المصرية للكتاب ص١٩٢ .

فهرس

لقد فتحت الأديان السماوية على آفاق رحبة، وكانت ثورات أصيلة، عبرت عن حراك اجتماعي ماكان له أن يقبر، تلبية لمتطلبات الحياة. وكانت الارهاصات تعبيراً أصيلاً عن الحاجة الى التغيير. ثم إن الولادة كانت طبيعية، واستغرقت الوقت الكافي واللازم ليخرج المولود معافى وقادراً على الاستمرار.

كان انبثاقها وصعودها مبشراً بقدراتها على أن تضم الى منظومتها كل ماهو جميل وتقدمي، وتدرجه في حركتها المتجهة صعوداً والى الأمام، والقادرة على أن تتجاوز كل المعوقات، وتبطل مفعول كل العراقيل. لكن، وما إن كتبت لها الغلبة، حتى انقلب العقل الثوري التغييري، الى عقل قارّ ومحافظ ومعاد لكل إمكانات التغيير ودعواته، وربطها بالماضي بدل التطلع الى المستقبل.

كيف افتقدت الأديان هذه الطاقات الخلاقة، وهذا الاندفاع، وتحولت الى عامل كبح وتراجع؟ لماذا لم تعد ناظمة إبداع وخلق؟ وهل تكفي الإعلانات النظرية بأن الدين الفلاني صالح لكل زمان ومكان؟.

إننا اليوم أمام جوابين:

الأول: وهو الذي يتبناه فريق العقل الإيماني، الذي لا يزال يحلم بتثبيت الواقع، بل يرى أن الواقع بكل كتلته يجب أن ينتقل الى الماضي

الثاني: هو ذلك الذي يتبناه فريق العقل العلمي والنقدي، والذي لا يزال يجاهد لإحياء طاقة الخلق المفتقدة

لا يريد أحد أن يفرط بالنصوص، ولا بالهوية، ولكن وعلى ضوء النقطتين المشارتين: صلاحية النصوص عبر الأيام أن تكون عامل تقدم وتغيير، وهي النقطة الأولى، وضرورة مواكبة البشرية في حركتها باتجاه المستقبل، وهي النقطة الثانية، لا يجوز تضييع اللحظة: لحظة التقدم وصنع المستقبل المنشود.

من هنا من هذه النقطة كان البحث في العقل الإيماني.

ISBN => 2-84305-346 - 3
EAN => 9782843053467